الأطفال والمستقبل

زكريا تامر

اطفال الوطن العربي المطالبون في المستقبل بانجاز مالم يستطع آباؤهم واجدادهم انجازه .. هؤلاء الاطفال ظلوا أمدا طويلا مهملين وفريسة لنوع خطر من التجار والمضللين العاملين في مجال ثقافة الطفل ، والذين ينظرون الى الاطفال على انهم مجرد وسائل تكفل لهم جني المغانم المادية ، وأهداف عزلاء يجب ان تشوه .

وفي السنوات القليلة الاخيرة ، تنبهت اجهزة ثقافية عربية الى الدور التخريبي الذي يمارسه هؤلاء التجار والمضللون ، فابتدات تعنى بالطفل وثقافته ، ولكن عملها كان شبيها بقطرة مداد تبغي هزيمة بحر، وما زال محتاجا الى تكريس اكثر الطاقات كفاية وموهبة واخلاصا ووعيا حتى يتمكن من أن يؤثر التأثير المنشود ، فيمنح المستقبل العربي جيلا مؤهلا لرفض كل ما هو عفن معاد للانسان .

ولابد من التنويه بأن جيل الاطفال لا يمكن ان ينمو النمو السليم في مجتمع يعاني الآباء والامهات فيه الظلم والقهر والهوان والعوز ، ولذا فان الاهتمام الحقيقي بالاطفال يتطلب في الوقت نفسه الاهتمام ايضا بالكبار ، فتحرير الكبار مما يشوه انسانيتهم ويحول دون تطورهم هو الخطوة الاولى التي لابد منها في الطريق المؤدي الى خلق جيل جديد يتصف بالقدرة على مواجهة الاخطار المحدقة بوطنه المواجهة التي تسفر عـن انتصارات لا عن هزائم ورايات بيضاء .

الاعلان العالمي لحقوق الطفل

في العشرين من تشرين الثاني ١٩٥٩ ، وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة بالاجماع على وثيقة حقوق الطفل التي تتضمن الحقوق والحريات التي يجب ان يتمتع بها جميع اطفال العالم دون استثناء.

وقد سبق ذكر هذه الحقوق والحريات ضمن وثيقة اعلان حقوق الانسان العالمية التي اقرتها الجمعية العامة عام ١٩٤٨ .

وفيما يلي نص الاعلان العالمي لحقوق الطفل :

المبدا الاول

يجب ان يتمتع الطفل بجميع الحقوق الواردة في هذا الاعلان ويجب ان يعترف بهذه الحقوق لجميع الاطفال بدون استثناء ودون تمييز او تفرقة اساسها العنصر او اللون او الجنس او اللغة او الديانة او الآراء السياسية وغيرها . . او بسبب الاصل الوطني او الاجتماعي او الثروة او المولد او اية حالة اخرى مشابهة سواء انطبقت على الطفل او على اسرته .

المبدا الثاني

يجب ان يتمتع الطفل بحماية خاصة وان يتيح له القانون وغيره من الوسائل والامكانيات والتسهيلات لكي يتمكن من النمو بطريقة سليمة طبيعية

جسمانيا وعقليا واخلاقيا وفكريا واجتماعيا .. وحينما تصدر القوانين لتحقيق هذا الهدف يتعين وضع المصلحة العليا للطفل فوق كل اعتبار .

المبدأ الثالث

للطفل منذ ولادته الحق في اسم يسمى به وجنسية ينتمي اليها .

المبدأ الرابع

يجب ان ينتفع الطفل بالضمان الاجتماعي ، ويجب ان يشب وينمو بطريقة سليمة ، ولهذا الغرض يجب ان تكفل له وللام العون والحماية ، فيما قبل مولده وبعده ؛ فلكل طفل الحق في التغذية المناسبة وان يتوافر له المسكن اللائق وأوقات الفراغ ، والعناية الطبية اللازمة .

المبدأ الخامس

الطفل الذي تتوافر له الفرص المواتية جسمانيا او عقليا او اجتماعيا يجب ان يلقى المعاملة ويتلقى العلوم ويحاط بالعناية الخاصة التي تقتضيها حالة الطفل او مركزه .

المبدأ السادس

الطفل في حاجة الى الحنان والفهم لكي تنمو شخصيته بصورة متناسقة فيجب ان يشب ويترعرع بقدر المستطاع ، في كنف ابويه ، وتحت مسئوليتهما ، وفيما عدا ذلك في جو من العطف ، وفي ظل من الضمان المعنوي والمادي ، والطفل في السنوات الاولى من حياته لا يجوز ان ينفصل عن امه ، الا في الظروف الاستثنائية . وعلى المجتمع والسلطات العامة

ان تعنى عناية خاصة بالذين لا عائل لهم ولا مورد للعيش ، كما يجدر ويرجى ان تحصل العائلات الكبيرة العدد على اعانات من الدولة وغيرها للانفاق على عيالها .

المبدأ السابع

لكل طفل حق في التعليم الذي يتعين ان يكون مجانيا اجباريا في المرحلة الابتدائية على الاقل ، كما ان له ان ينتفع بمنهج تربوي يسهم في ثقافته العامة ، ويتيح له في اطار من تكافؤ الفرص ان ينمي ملكاته ، وان ينضج حكمه الشخصي على الامور ، وينمو بشعوره بالمسؤولية الادبية والاجتماعية وان يصبح عضوا عاملا في المجتمع .

هذا ويجب ان تكون مصلحة الطفل العليا رائد المسؤولين عن تربيته وتوجيهه . وهذه المسؤولية تقع في المقام الاول على كاهل الابوين كما يجب ان تتاح للطفل امكانيات ممارسة اللعب ، وبذل النشاط في اوقات الفراغ ، بحيث توجه هذه الامكانيات نحو الاهداف التي يرمي اليها التعليم ، ومن واجب المجتمع والسلطات العامة ان تعمل جاهدة على ان يتمتع الطفل بهذا الحق .

المبدأ الثامن

في جميع الظروف يجب ان يكون الطفل بين الطليعة من افراد المجتمع الذين يحاطون بالحماية ويحصلون على المعونة .

المبدأ التاسع

يجب ان يحاط الطفل بسياج، يحميه من الاهمال بكافة انواعه ومن القسوة والاستغلال ولا يجب بحال من الاحوال ان يباع او يشترى ، كما لا يجوز

استخدام الطفل في عمل قبل بلوغ السن المناسبة كما لا يجوز اكراهه او الترخيص له بالقيام بأي عمل يضر بحالته الصحية او بتعليمه ما يعوق نموه اجتماعيا او عقليا او معنويا

المبدا العاشر

يجب ان يحاط الطفل بسياج من الحماية يكفيه شر الاندفاع في تيار التفرقة العنصرية او التفرقة الدينية او اية صورة اخرى من صور التمييز ، فيجب ان ينشأ على التفاهم والتسامح والصداقة بين سائر الشعوب ، وعلى نزعة السلم والاخاء العالمي ، وان يحدوه الشعور بأن يملك تكريس طاقته ومواهبه لخدمة اقرانه افراد البشرية .

اقتراح متواضع

للحيلولة دون ان يكون اطفال الناس الفقراء في ايرلندا عبئا على والديهم أوبلادهم ولجعلهم اداة نفع للشعب

جوناثان سويفت

ترجمة فرج موعد

ان* ما يبعث الكآبة في نفس من يسير في شوارع هذه المدينة العظيمة(١) او يجوب الريف ان يشاهد الشوارع والطرقات والازقة وقد اكتظت بمتسولات يتبع كلا منهن ثلاثة اطفال او اربعة او ستة وكلهم في اسمال بالية يلحون في طلب الصدقة . فبدلا من ان تكسب هؤلاء النسوة العيش الشريف ، نجدهن مضطرات الى قضاء كل اوقاتهن متجولات يستجدين القوت لاطفالهن البائسين الذين سيصبحون لصوصا لعدم توفر العمل لهم عندما يكبرون او سيهجرون موطنهم العزيز الى اسبانيا كي ينخرطوا للقتال في صف « جيمس ستيوارت »(٢) الذي يطالب بعرش بريطانيا ، اوسيبيعون انفسهم الى « بربادوس »(٣)

(*) كتب هذا النص في عام ١٧٢٩ .

(١) دبلن Dublin وهي عاصمة ايرلنده .

(٢) كان « جيمس الثاني James II » ملك بريطانيا المخلوع ، وكان له ابن يدعى « جيمس ستيوارت James Stuart » اخذ يطالب بعرش ابيه ويجند وهو في اسبانيا حملة من المؤيدين للقتال لاسترداد العرش .

(٣) « بربادوس Barbados » هي احدى جزر الهند الغربية (جزر الانتيل كما تدعى الآن) في امريكا الوسطى . كانت جزيرة بربادوس تحت حكم الانكليز الذين كانوا يهاجرون اليها . في عام ١٧٢٩ تذمر المجلس الاستشاري الايرلندي من ازدياد هجرة المواطنين البروتستانت الى هذه الجزيرة .

اعتقد ان كل الفرقاء يتفقون على أن هذا العدد الهائل من الاطفال الذين تحملهم امهاتهم بـين اذرعهن او على ظهورهن او الذين يجرون خلف امهاتهم وآبائهم احيانا هو مأساة اضافية تأتي في هذا الوقت الذي تمر فيه المملكة بحالة يرثى لها . ولهذا فان من يستطيع ايجاد طريقة سهلة ورخيصة مناسبة لجعل هؤلاء الاطفال اعضاء سليمين نافعين في الدولة يستحق من الشعب تقديرا كبيرا كأن يقيموا له تمثالا على انه حامي الامة. ان غايتي لا تنحصر بايجاد حل فقط لاطفال اولئك الذين يمتهنون التسول وانما هي ابعد من ذلك بكثير ، وهي تستوعب العدد الكامل للاطفال الصغار الذين هم في سن معينة ؛ والذين ولدوا لآباء ليس عجزهم من اعالتهم باقل من عجز اولئك الذين يستجدون الصدقة على قارعة الطريق .

لقد عكفت من جهتي على التفكير لمدة سنوات عديدة على هذا الموضوع الهام وقلبت الراي بروية بالمشروعات الكثيرة التي وضعها المخططون الذين وجدت انهم وقعوا في اخطاء فادحة في تقديراتهم . صحيح ان الصغير حين تلده امه يمكن ان يعيش على لبنها لمدة سنة شمسية مع قليل من التغذية الاخرى التي لا تزيد قيمتها عن اثنين من البنسات (القروش الانكليزية) ـ وهذا ما يمكن للام ان تحصل عليه بالتأكيد ـ او التي لا تزيد قيمتها عن فتات الطعام الذي تكسبه بمهنتها المشروعة في التسول . الا ان اولئك الاطفال البالغين من العمر تمام السنة هم الذين اقترح النهوض بأعبائهم؛ اذ بدلا من ان يبقوا عالة على والديهم او الابرشية وفي عوز للطعام و اللباس طوال ما تبقى لهم من الحياة فانهم ـ على عكس ذلك ـ سوف يسهمون بتقديم الغذاء والكساء الى حد ما للآلاف الكثيرة من الناس .

وهناك ايضا في مشروعي فائدة كبيرة اخرى تحول دون الاجهاض الطوعي كما تحول دون قيام النساء بالقتل الشائن لاطفالهن غير الشرعيين ، وهذا مع الاسف كثير عندنا ، اذ يضحين بالاطفال البريئين تخلصا من نفقاتهم ـ كما اعتقد ـ اكثر مما يفعلن ذلك تخلصا من العار . وهذا ما يستدر الدموع ويثير الشفقة في اقسى القلوب واصلبها .

يقدر عدد سكان هذه المملكة بمليون ونصف مليون نفس يؤلفون (... ٢٠٠) اسرة حسب تقديري ، وفي كل اسرة من هذه الاسر زوجة واحدة وولد . واطرح من هذا العدد الاخير (... ٣٠) اسرة تستطيع ان تعيل اطفالها ، ويبقى حينذاك (... ١٧٠) زوجة وولد ، مع اني اخشى الا يوجد في هذه الظروف المصيبة للملكة مثل هذا العدد من الاسر القادرة على اعالة اطفالها ، ولكن لناخذ هذا الافتراض على علاته . واطرح ثانية (... ٥٠) زوجة ممن قد يجهضن أو يموت اطفالهن لمرض او حادث ما في العام الاول من العمر . فسيكون الباقي بعد ذلك (... ١٢٠) طفل فقط يولدون كل عام لوالدين فقيرين . وهكذا يبقى السؤال : كيف سنربي ونعيل مثل هذا العدد من الاطفال ؟ فهذا كما ذكرنا امر يستحيل النهوض به اطلاقا في الظروف الحالية مهما اقترحنا من الوسائل ، اذ لا نستطيع توظيف هؤلاء الاطفال في حرفة ما او في الزراعة كما اننا لا نقوم بتعمير البيوت (اعني في الريف) ولا نفلح الارض. ومن الندرة بمكان ان يستطيع هؤلاء الاطفال كسب رزقهم بالسرقة قبل ان يبلغوا السادسة من العمر ما لم تكن ابدانهم تبشر بمستقبل زاهر قوي ، مع اني اعترف بانهم يتعلمون مبادىء السرقة قبل ذلك بكثير الا انهم يعدون حينذاك تحت التجربة فقط . ذلك ما اخبرني به سيد مرموق في مقاطعة « كافان Cavan »(١) اذ اكد لي انه لم يعلم قط باكثر من حادث او اثنين من هذا القبيل قام به اطفال دون السادسة حتى في مقاطعة اشتهرت بسرعة اتقان فن السرقة .

لقد بين لي تجارنا ان الولد او البنت دون الثانية عشرة من العمر لا يصلح ان يكون سلعة للبيع ، بل ان ثمن بيعه عندما يصبح في هذه السن لن يتجاوز ثلاثة جنيهات ، او ٣ جنيهات و ٢ شلن و ٦ بنسات على الاكثر عند مقايضته ، وهذا لا يدر ربحا على الوالدين او المملكة لان ثمن غذائه واسماله يساوي على الاقل اربعة اضعاف هذه القيمة

(١) هي منطقة ريفية كان من عادة « جوناثان سويفت » ان يقيم فيها مع صديقه « شريدان Sheridan » .

لهذا فاني اقدم اقتراحي الذي آمل الا يلقى أقل معارضة . لقد أكد لي احد معارفي من الامريكيين ــ وهو على جانب كبير من الاطلاع ــ ان طفلا صغيرا صحيح الجسم جيد التغذية في سن العام الواحد سيكون طعاما شهيا مغذيا مفيدا سواء اتم تحضيره سلقا ام شواء ام طهوا ، كما لا اشك انه سيكون على شكل لحم محمر او يخنة .

انني اتقدم لذلك متواضعا برأيي للشعب ليدرسه ، وهو انه من اصل عدد الاطفال الذي احصيناه آنفا وهو (۱۲۰ ...) يمكن ان نبقي على (۲۰ ...) منهم للتوالد بحيث يكون ربعهم ذكورا ، وهذا اكثر مما نسمح ببقائه من ذكور الغنم وسواد الانعام والخنازير . ان قولي هذا هو أن هؤلاء الاطفال قلما يكونون ثمرة الزواج ، وهذا ما لا يكترث له كثيرا الاشخاص البدائيون غير المتحضرين منا . ولذلك فان كل ذكر سيكفي اربعا من الاناث . اما بقية الاطفال وهم (۱۰۰ ...) فيمكن حين يبلغون العام من العمر ان نعرضهم على ذوي الثراء والمنزلة الرفيعة في المملكة للبيع ، اذ نشير على الام دائما أن ترضع الطفل جيدا في الشهر الاخير ليصبح ممتلىء الجسم سمينا عند تقديمه على المائدة . ان الطفل الواحد يعمل صحنين اثنين في مأدبة ضيافة يقيمها الشخص لاصدقائه. ويكفي من الطفل ربعه الامامي او الخلفي لعمل صحن كاف لأسرة تتناول الغداء وحدها . واذا وضعنا عليه قليلا من الملح او التوابل فسيكون جيدا للسلق في اليوم الرابع وخصوصا في الشتاء .

لقد قدرت أن معدل وزن الطفل عند الولادة ۱۲ رطلا انكليزيا ، وانه سيزيد بعد سنة شمسية واحدة الى ۲۸ رطلا اذا تمت تغذيته بشكل جيد . انني أسلم ان هذا طعام ذو قيمة نوعا ما فهو لذلك ملائم لاصحاب الاملاك الذين اصبح لهم الحق بابتلاع هؤلاء الاطفال بعد ان ابتلعوا معظم والديهم . ان موسم لحم الاطفال هو على مدار السنة ؛ ولكن هذا اللحم يكون اوفر في شهر آذار وقبل آذار وبعده بقليل ... فقد اخبرنا كاتب رزين وهو طبيب فرنسي[1] بارز انه نظرا لكون السمك غذاء مخصبا

(۱) انه الطبيب « فرانسوا دابيليه » (١٤٩٤ ــ ١٥٥٣م) .

فان عدد الاطفال الذين يولدون في البلدان الكاثوليكية بعد الصوم الكبير بنحو تسعة شهور اكثر منه في اي فصل آخر(١) . ولهذا فاذا حسبنا سنة بعد الصوم الكبير فان الاسواق ستفيض حينذاك بالاطفال اكثر من المعتاد ، لان عدد اطفال الكاثوليك يبلغ ثلاثة امثال غيرهم من الاطفال في هذه المملكة . وهكذا نحصل على منفعة اضافية اخرى وهي انقاص عدد معتنقي المذهب الكاثوليكي بيننا . لقد عملت آنفا حساب تكاليف تربية الطفل الواحد من ابناء الشحاذين (مضيفا سكان الاكواخ والعمال واربعة اخماس المزارعين الى قائمة الشحاذين) فوجدت انه نحو اثنين من الشلنات كل عام بما في ذلك ثمن اسماله . واعتقد انه لن يتقاعس اي سيد عن دفع عشر شلنات ثمن ذبيحة من الاطفال السمينين لان الطفل يعمل له كما اسلفنا اربعة اطباق من اللحم المغذي الحسن عندما يستضيفه صديق عزيز او عندما تتناول اسرته معه الطعام . وهكذا سيعرف مالك العقارات كيف يصبح اكثر اقطاعا وارفع منزلة ويغدو بين العمال اكثر شعبية ، كما تكسب الام ربحا صافيا قدره ثمانية شلنات فتعود قادرة على العمل وانجاب طفل آخر . اما بالنسبة للاشخاص المقتصدين اكثر في مصروفهم (كما تتطلب الظروف فعلا) فيمكنهم ان يسلخوا جلد الطفل الذبيح ويدبغوه فهو جيد لعمل قفازات رائعة للسيدات واحذية جيدة للسادة الانيقين .

وفيما يتعلق بمدينتنا (دبلن) فانه يمكن تخصيص مذابح لهذه الغاية في اكثر احيائها ملاءمة . وانني موقن اننا لن نفتقر الى جزارين مع اني انصح بشراء الاطفال احياء ثم ذبحهم وتحضيرهم توا للطعام كما نفعل عند طبخ الخنازير .

كان يتحدث عن هذا الموضوع رجل مرموق وصادق المحبة لبلاده ومن اقدر فضائلهم . وقد سره ان يقدم تعديلا على مشروعي فقال ان كثيرا

(١) نشير هنا الى ان الكاثوليك كانوا لا يتناولون في اثناء صومهم الكبير مدة اربعين يوما شيئا من المنتوجات الحيوانية سوى السمك فهو الغذاء الرئيسي مدة هذا الصوم .

من سادة هذه المملكة قد أبادوا مؤخرا غزلان هذه البلاد . وهو يرى أنه يمكنهم الاستعاضة عن لحم الغزلان بلحم صغار الفتيان ممن لا تزيد أعمارهم عن ١٤ عاما ولا تقل عن ١٢ عاما ، لانه يوجد في كل بلد عدد كبير من كلا الجنسين على وشك ان يصبحوا فريسة المجاعة بسبب عوزهم للعمل والاستخدام الامر الذي يستوجب ان يتخلص منهم والدوهم ــ ان كان الوالدون أحياء ــ او اقرب اقاربهم . ولكني مع احترامي لصديق وطني كهذا فاني لست من رأيه . فبالنسبة للذكور اكد لي احد معارفي الامريكيين بحكم خبرته ان لحمهم قاس وهزيل كلحم طلاب مدارسنا المثابرين على الرياضة ، وان طعمه ممجوج ، وان ثمن الذكور لا يفي كلفة تسمينهم .

اما بالنسبة للاناث فاني اعتقد ان في ذلك خسارة للشعب لان هؤلاء الاناث سيصبحن عن قريب نساء ولودات . والى جانب ذلك فانه ليس من المستبعد ان يقوم بعض كثيري الشك من الناس بانتقاد عمل كهذا على انه قريب بعض الشيء من الوحشية . ان هذا الانتقاد ليس من الانصاف في شيء ، الا انني اقر انه كان دائما اكبر حائل دون اي مشروع لي مهما كان القصد منه طيبا .

وانصافا لصديقي هذا اذكر انه اعترف ان الذي علمه هذه الوسيلة هو (سالمنازار)(١) وهو مواطن من (فرموزا) قدم الى لندن منذ عشرين عاما واخبر صديقي في اثناء حديثهما انه عندما يحدث ان يعدموا شابا ما فان الجلاد يبيع لحم المشنوق طعاما شهيا من الدرجة الاولى ، وحدثه ان فتاة سمينة في الخامسة عشرة من العمر صلبت لمحاولتها وضع السم للامبراطور قد بيع جسدها قطعة قطعة وهي على المشنقة وذلك لرئيس وزراء دولة عظمة صاحب الجلالة ولكبار رجال البلاط بسعر ٤٠٠ كراون (٥ شلنات انكليزية) . . ولا استطيع ان انكر ان حالة المملكة لن

---

(١) جورج سالمنازار دجال مشهور فرنسي المولد ، زعم انه مسيحي ياباني . الف كتابا عام ١٧٠٥ في وصف فرموزا .

تزداد سوءا اذا طبقنا في هذه المدينة الامر نفسه على كثير من الصبايا ذوات الاجسام الممتلئة اللواتي لا يملكن فلسا واحدا من المال كي يخرجن بالمحفات ويظهرن في دور المسارح والاجتماعات بالحلي والملابس الاجنبية المبهرجة التي لا يملكن ثمنها .

ان بعض ذوي النفوس المتشائمة قلقون على هذا العدد الضخم من الناس الفقراء المسنين او المرضى او المقعدين . وقد انيط بي ان اشحذ تفكيري لايجاد وسيلة يمكن اللجوء اليها لتخليص الامة من عـدد كبير كهذا ، ولكني لن اكلف نفسي اقل عناء اذ بات من المعروف انهم يسيرون يوميا وبالسرعة التي نتوقعها في طريق الموت والتعفن بسبب البرد والجوع والاوساخ والهوام المؤذية . واما فيما يتعلق بصغار العمال فهم يأملون كل الامل ان يسيروا في الطريق نفسه ؛ انهم لا يستطيعون الحصول على العمل فيهزلون بالتالي لقلة التغذية لدرجة يصبحون معها فاقدي القدرة على العمل ، اذا تيسر لهم في وقت ما عمل وضيع مأجور . وهكذا فان هؤلاء العمـال انفسهم والبـلاد معهم يتخلصون مبتهجين من شرور متوقعة .

لقد خرجت كثيرا عن موضوعي ، ولذا فساعود اليه ؛ انني اعتقد ان لاقتراحي الذي قدمته منافع واضحة وكثيرة ، وهي على جانب كبير من الاهمية ، للاسباب التالية :

اولا ـ لان اقتراحي كما اشرنا سابقا يقلل من عـدد الكاثوليك الذين يطفون علينا عددا كل عام لانهم اكثر ابناء الامة تناسلا ؛ اضف الى ذلك انهم اخطر اعدائنا . انهم عن عمد وتصميم لا يغادرون وطنهم ، وذلك كي يسلموا المملكة للمطالبين بعرشها (جيمس ستيوارت) ، على امل ان يستغلوا فرصة غياب عدد كبير من البروتستانت ، هؤلاء البروتستانت الطيبين الذين آثروا ان يهجروا وطنهم عن البقاء فيه ودفع عشر غلتهم ومالهم عن غير رضى منهم الى راعي الابرشية الاسقفية .

ثانيا ــ سيصبح من حق الاجراء عند الملاكين أن يمتلكوا لأنفسهم شيئا قيما يمكن أن يصير وبالا عليهم اذ يجعلهم بموجب القانون مسؤولين عن دفع الايجارات لا سيما وهم الملاكين بعد أن كان قد تم الحجز على ماشيتهم وحبوبهم واصبحت النقود لديهم شيئا مجهولا .

ثالثا ــ بما انه لا يمكن تقدير كلفة اعالة الطفل الذي عمره سنتان فما فوق بأقل من نصف جنيه سنويا فان ربع ١٠٠ ... طفل سيزيد من راس مال الامة مبلغ ٥٠ ... جنيها سنويا ؛ هذا بالاضافة الى كسب صنف جديد من الطعام على موائد السادة اصحاب الثراء في المملكة من ذوي الذوق الرفيع . ان النقود ستصبح متداولة بيننا وتصبح البضائع من انتاجنا ومن صنعنا بشكل كلي .

رابعا ــ وسوف تتخلص النساء دائمات الانجاب من تكاليف اعالة اطفالهن بعد العام الاول من اعمارهم . هذا اضافة الى ما يربحنه من بيع اطفالهن وهو مبلغ ٨ شلنات استرلينية كل عام ثمن كل طفل .

خامسا ــ ان هذا الطعام سوف يجلب أيضا زبائن كثيرين للحانات حيث سيستعمل تجار الخمر كل حنكتهم للحصول على أكبر كسب ، وذلك باعداد هذا اللحم للموائد على أكمل وجه ، وبالتالي ليزداد اقبال كل السادة المرهفين الذين يتباهون بمعرفتهم بالاطعمة الجيدة على حاناتهم ، ثم ان الطاهي الماهر الذي يتقن اكرام الزبائن سيمهد السبيل لرفع سعر اللحم مما يسر البائعون أصحاب الحانات .

سادسا ــ ان هذا سيكون اغراء كبيرا للناس ليتزاوجوا ، فان كل الامم الحكيمة تشجع الزواج اما بالمكافأة أو بفرضه فرضا بالتشريعات والعقوبات ؛ وسوف يزيد من حنان الامهات لاطفالهن ورعايتهن اذ تطمئن قلوبهن على الاطفال المساكين حيث وجد الشعب لمشكلتهم حلا للابد على نحو ما ؛ وهذا ما يدر عليهن ربحا سنويا بدلا من دفع نفقات معيشة الاطفال . لو فعلنا هذا لراينا توا التنافس الشريف بين النساء

المتزوجات على تقديم اسمن الاطفال للسوق ، ولاصبح الرجال يحبون زوجاتهم في فترة حملهن كما يحبون الآن الفرس من اجل المهر ، والبقرة من اجل العجل والخنزيرة حين توشك ان تلد خنوصا ، فلا يضربوهن او يركلوهن (كما هي العادة الغالبة الآن) وذلك خوفا عليهن من الاجهاض. ان منافع جمة اخرى يمكن تعدادها : الزيادة في الذبائح بمقدار بضعة آلاف ، مما يزيد - على سبيل المثال - من تصديرنا للحم البقر المعبأ في البراميل ، وتوفر لحم الخنزير ، والتقدم في فن عمل لحم الخنزير المقدد الجيد المألوف على موائدنا والذي نفتقر اليه افتقارا كبيرا بسبب كثرة ما نستهلكه من الخنازير .. هذا ، مع ان لحم الخنزير لا يمكن مقارنته بحال من الاحوال من حيث الطعم والروعة بلحم الطفل السمين المكتمل النمو الذي له حول من العمر والذي اذا تم طبخه بأكمله سيكون له شأن وأي شأن على مائدة العمدة او في اية وليمة عامة اخرى . ولكن حرصي على الايجاز جعلني لا اتعرض لهذه المنافع المذكورة ولمنافع اخرى غيرها .

لنفترض ان ۱۰۰۰ اسرة في هذه المدينة كانت من المستهلكين الدائمين للحم الاطفال ، فضلا عن غيرها ممن سيشترونه في مناسبات الافراح وخصوصا في حفلات الاعراس وحفلات التعميد . فان مدينة (دبلن) ستستهلك حسب تقديري ۲۰۰۰۰ ذبيحة بينما يجري استهلاك بقية الذبائح وهي ۸۰۰۰۰ في باقي اقسام المملكة حيث يحتمل ان تباع هذه الذبائح بسعر ارخص نوعا ما .

لا اتصور ان يلقى هذا الاقتراح اية معارضة ما لم يزعم احد ان عدد الناس في المملكة سينخفض بهذه الطريقة ، وهذا ما اعترف به طوعا ؛ فقد كان من مخططي الرئيسي فعلا ان اعرض هذا على الدنيا . واني آمل ان يلاحظ القارىء انني اضع علاجي هذا لمملكة ايرلنده وحدها دون اية مملكة اخرى كانت او هي كائنة او يمكن ان تكون على الارض . ولذلك ، فلا يتحدثن احد لي عن وسائل علاجية اخرى كأن نفرض ضريبة على الملاكين المقيمين خارج الوطن مبلغ خمس شلنات عن كل جنيه ؛ أو أن نمتنع عن استعمال ما ليس من انتاجنا وصناعتنا من

لباس وأثاث منزلي ؛ او ان ننبذ كل المواد والادوات الكمالية التي تزيد من رفاهيتنا وترفنا على النمط الاجنبي ؛ أو ان نتخلص من كبريائنا الزائد وغرورنا وكسلنا ومقامرتنا بالنساء ؛ او ان نمتلك عرقا من الحكمة والاقتصاد والاعتدال وضبط النفس ؛ او ان نتعلم حب بلادنا التي يعوزنا حبها ونختلف في ذلك عن القوم الرحل في القفار القطبية المتجمدة وعن القبائل البدائية التي تعيش على خط الاستواء في البرازيل (وكل منها تحب وطنها ونحن لا نحب وطننا) ؛ او ان نتخلى عن تعادينا وانشقاقنا ؛ والا نتصرف بعد اليوم كاليهود الذين كانوا مشغولين بقتل بعضهم بعضا في الوقت الذي كانت فيه مدينتهم تتهاوى ساقطة في ايدي اعدائهم الرومان ؛ او ان نكون اكثر حرصا على بلادنا ووجداننا فلا نبيعهما بابخس الاثمان ؛ او ان نعلم كبار الملاكين الرحمة قليلا بالأجراء الذين يخدمونهم ؛ او ان نبث اخيرا روح الامانة والنشاط والحذق في اصحاب المحال التجارية الذين لو امكن اتخاذ قرار الآن بشراء بضاعتنا الوطنية فقط لاتفقوا على الغش في التعامل معنا وعلى ابتزازنا بالاسعار والمكيال وجودة الصنف ولما امكن اعادتهم الى جادة الحق بالانصاف في التعامل مع انه كثيرا ما كان يطلب منهم ذلك بالحاح .

لذلك ، فانني أكرر القول الا يتحدثن احد لي عن هذه الوسائل وغيرها ما لم يبصر على الاقل قبسا من الأمل بوجود رغبة صادقة بوضعها موضع التنفيذ . وبالنسبة لي فاني قضيت سنوات عديدة اضني نفسي بتقديم آراء خيالية تافهة عديمة الجدوى . ولما قنعت اخيرا من النجاح استقر بي الراي لحسن الحظ على هذا الاقتراح . وهو اقتراح جديد باكمله ، فيه شيء من الواقعية والوجاهة ، عديم التكاليف وقليل المتاعب ، تنفيذه في متناول ايدينا ، ولا يمكن ان نعرض انفسنا به للاخطار التي تنتج عن عدم مجاملتنا انكلتره . فهذا النوع من البضاعة لا يتحمل التصدير ؛ لان هذا اللحم طري جدا بحيث لا يحتمل البقاء في الملح كثيرا ، مع اني استطيع ان اسمي بلادا يمكنها ان تستسيغ التهام امتنا كلها دون ملح .

واخيرا فاني لست شديد التعصب لرايي بحيث ارفض ما يقدمه الناس

الحكماء من مقترحات يمكن ان تكون كاقتراحي ، خالية من سوء النية ، رخيصة التكاليف ، سهلة ومؤثرة . ولكن قبل تقديم شيء من هذا القبيل مما يناقض خطتي ويكون افضل منها فاني ارغب من المؤلف او المؤلفين التلطف بأن يدرسوا بروية نقطتين اثنتين : اولاهما ــ كيف يستطيعون ، والامور على ما هي عليه الآن ، ان يجدوا طعاما وكساء لعدد ... ١٠٠ فم وجسد عديمي النفع . ثانيهما ــ يوجد في هذه المملكة مليونا بالضبط من المخلوقات على هيئة بشر لو جمعنا موارد رزقهم لوجدنا انه ما يزال ينقصهم ... ٢٠٠٠ جنيه استرليني ؛ وعلينا ان نضيف بعد ذلك ممتهني التسول الى اعداد المزارعين وسكان الاكواخ والعمال مع زوجاتهم واطفالهم الذين هم متسولون في واقع الحال ؛ واني ارغب من اولئك السياسيين الذين يمجون اقتراحي وقد تصل بهم الجراة الى حد الرد عليه ان يسالوا في البداية آباء هذه المخلوقات البشرية وامهاتهم فيما اذا كانوا اليوم هذا لا يعتقدون ان من السعادة العظيمة لهم لو بيع هؤلاء الاطفال في السنة الاولى من اعمارهم حسب الطريقة التي وصفتها ؛ وبذلك يتجنب هؤلاء الآباء والامهات الرؤية الدائمة للبلايا المثيلة لما حاق بهم من جراء ظلم الملاكين الاقطاعيين ومن جراء عدم امكانيتهم دفع الايجارات حين لا يكون لديهم نقود او تجارة ، ومن جراء حاجتهم جميعهم للقوت علاوة على افتقارهم لمأوى او ملبس يقيهم غوائل الطقس ، كما انهم بذلك يتجنبون الشقاء المحتم ان يحيق بنسلهم الى الابد على النطاق نفسه او اشد .

انني اعلن من صميم قلبي انه ليس لي اقل مصلحة شخصية في السعي لتشجيع هذا العمل الضروري ، وانه ليس لدي دافع عدا النفع العام لبلادي مما يزيد في تجارتنا ويؤمن اعالة اطفالنا ويفرج على فقرائنا ويوفر بعض السعادة لموسرينا . ليس لي اطفال انوي ان انال من بيعهم قرشا واحدا ، فان اصغر اولادي في التاسعة من العمر ، وقد تجاوزت زوجي سن الانجاب .

عام (١٧٢٩)

ادوات الوصول الى الاطفال

عادل ابو شنب

ماهي الادوات التي يستخدمها كتاب الاطفال في الوصول الى قرائهم الصغار ؟ بل ماهي الادوات التي يستخدمها الفنانون عامة (كانوا يستخدمونها ولايزالون) في انشاء نتاج ما رواية او قصة او قصيدة للاطفال (١)

لنحدد المعنى بدقة . اية ادوات نعني ؟

ان القص يؤدي بطرائق متعددة ، قديمة وحديثة ، واللغة ــ كمثال قد يرد في الحال ــ ليست اداة ، هاهنا ، بل هي وسيلة من وسائل القص . الادوات هي التي تقوم بوظائف الايصال ، وعن طريقها يتم الاحتكاك بين المعطي والمتلقي . هي الجسور التي تعبر بواسطتها الافكار والسياقات والحوادث من شاطيء الى شاطيء .

ولكن ثانية ، ماهي هذه الادوات ؟

١ ــ الخوارق

نفترض نحن الكبار ، اننا نقرأ سندريلا ، الآن . فماذا نرى ؟ هذا الثالوث:

(١) نستخدم لفظ رواية بالمعنيين : التقليدي الذي هو القص الشفاهي ، والاخر الذي هو القص بالكتابة والرسم والصورة .

الامير والفتاة الفقيرة والساحرة ، او الفتاة الفقيرة والامير والساحرة ، او الساحرة والامير والفتاة الفقيرة ، ويشدنا من هذا الثالوث القطب الاكثر اثارة : الساحرة . وهو ، بالضرورة يشد الاطفال اكثر ، لانه القناة التي عن طريقها نسجت الاسطورة او الحكاية او القصة . الساحرة هي الاداة . لا الساحرة كمخلوق ، موجود أو غير موجود ، بل الساحرة كفعل مثير خارق وغير مألوف .

تساءل خورخي اريكي ادوم (٢) : « لو كتبت افريقيا قصة سندريلا ، اكانت تبقى الساحرة بيضاء القلب والبشرة ؟ » (٣) .

بعيدا عن المدلول السياسي للجملة .. الساحرة تبقى ساحرة والخوارق تلهب الخيال . الاداة هنا ليست بذات صفة انسانية ، لكن للساحرة ملامح انسان في الوقت نفسه ، انسان خارق في افعاله ، وهذا ماكان يثير الاطفال ، في جميع انحاء العالم ، والاخوان جاكوب ووليم غريم (٤) لم يفعلا اكثر من السرد المثير ، باستخدام الاداة التقليدية المثيرة ، التي ورثها كتاب قصص الاطفال من اساطير الشعوب ، واستخدموها بتحوير قليل او كثير ، فالاحتكاك يتم في وسط انساني ، اي ان قصص الاطفال ، منذ ان صارت جنسا ادبيا له كتابه ، جعلت الساحرات وسحرهن من ادوات الصنعة ، وليس في صلب عملية القص ، كما كان يحدث في الاساطير ولعل هذا الانتخاب المستحدث هو الذي اوحى بالنقلة المثيرة ، فيما بعد : اسباغ خصائص الساحرات على مخلوقات انسانية . من هذه النقطة نستطيع أن نفسر ولادة شخصية « سوبرمان » ـ على سبيل المثال ـ الذي لاتقف قوة في وجهه ، والذي غدا « ساحرة » فترة ما في هذا العصر ، وملهب خيال الاطفال ، في مدى عدة عقود ماضية ، ومازال خارقا اخاذا ،

---

(٢) شاعر وروائي من الاكوادور في مقال له عن تاثير قصص الاطفال المكتوبة في اوروبا على اطفال امريكا اللاتينية .

(٣) عن جريدة النهار ـ العدد ١٤٠٣٢ تاريخ ١٩٧٩/١٠/٢ ، وهذه نقلا عن « رسالة اليونسكو » .

(٤) من مؤلفي القصص للاطفال .

كما كانت الساحرات بالضبط (٥) .

الساحرات الخارقات من ادوات القص ، كانت ، ومازالت ، في صنعة الكتابة للاطفال ، بل في الصنعة المشابهة ، الرواية الشفهية التي نسميها عادة حكاية ، ويدخل في اعداد هذه الاداة شخصيات لاحقة ، مشابهة ، وبأفعالها وخوارقها، تقوم بالمهام نفسها. واحدة من ادوات الاداءالقصصي ومن اقدمها هي اذن ، ولايمكن الادعاء بأنها لاتستخدم اليوم ، فالمسألة ليست مسألة لفظ محدد ، بل هي مسألة وظيفة ، « السوبرمان » بديل حديث يؤدي الوظيفة نفسها ، والكتاب ، باستخدامهم لهذه الشخصية، لايلغون الاداة القديمة ، الساحرة بل يؤكدونها ، وبالتطوير الذي حدث ، وبخاصة في ميدان الطباعة ، تبدل الاستخدام المهني ـ المهني بكل ابعاد الكلمة ـ للخوارق . كان للساحرات وصف ما متبدل في كل حكاية ، وكان القاص ، الراوية ، يرسم الملامح ويصور الافعال ، داخل دائرة واسعة ، تتحكم فيها ظروف مختلفة : السياق القصصي للحكاية ، اسنان المتلقين الوقت الذي تلقى فيه الحكايات ، (الليل المظلم الذي يسبق النوم يتطلب ملامح غير مغرقة في البشاعة للساحرات ، او قد يتطلب ساحرات طيبات ينقلن بعصيهن السحرية الفتيات الطيبات) وشيئا فشيئا صار الخارق رسوما ، أو صورا متحركة (٦) ، وبقيت له خاصيته الفذة : الاثارة .

السحرة القدامى او الجدد .. من ادوات الكاتب في الوصول، والخارق.. هو الذي يجذب لا لانه خارق فحسب ، بل لاننا كاطفال نعترف بمعجزاته التي لانستطيع نحن ان نؤديها والتي في الوقت نفسه ، نصدقها ونؤمن انها حقيقية ، وموجودة فعلا . ولو اننا توهمنا ، خلال غمضة عين واحدة، انها وهم لكنا قد اجتزنا عتبة الطفولة ـ اولا ـ ولكنا الغينا هذه الاداة

(٥) من الممكن ان نسمي الساحرات جنيات ، كما هن في بعض الاساطير والحكايات السائدة في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط ، او ان نستبدلهن بهن .

(٦) تحول « سوبرمان » على سبيل المثال ، الى رسوم في قصص مسلسلة نشرت وتنشر مستقلة او في المجلات ، كما تحول الى رسوم متحركة في السينما والتلفزيون . ويماثل « سوبرمان » في شهرته شخصيات اخرى ، لكل منها ملامحها الخاصة او « تفوقها » الخاص .

من قاموس الادوات التي تستخدم في الايصال ـ ثانيا ـ ولكنا قد وقعنا في مازق الفصل بين ماهو وهم وما هو حقيقة ، في مناخ يجب ان تقدم فيه النماذج والحوادث والاشياء والامور على انها حقيقة ، ولو كانت غير موجودة ـ ثالثا ـ (٧) .

اننا نخاف الساحرات لانهن « موجودات » في اذهاننا . ووجودهن حقيقي عند الطفل ، لان افعالهن خارقة ، خارقة ومن هذا النوع الذي لايصدق ونريد ان نصدقه ولو لم يحدث فعلا ان « سوبرمان » لم يوجد بعد ،لكنه موجود ، والاطفال يريدون ان يقابلوه ذات يوم وجها لوجه لانهم يقابلونه صباح مساء في المجلات والافلام ، واذا ماتجرأ خالقه (الكاتب او الفنان) فاعلن انه شخصية غير حقيقية ، فهذا يعني الفاء لخوارقه التي هي اداة وصوله الى الطفل ، اي يعني الفاء لوظيفته ، ويعني في الوقت نفسه، الغاء لحرية الطفل في ان يمارس طفولته ، مع ابطاله ، في تصورهم موجودين وحقيقيين .

ان المميزات المتوفرة في هذه الاداة قد انتبه لها ، وطوعت لتؤدي وظيفة الايصال ، وفي كثير من الاحيان ، لتقوم بمهمة شبيهة بالمهمة التي يقوم بها النحل في نقل غبار الطلع . فالسوبرمان الامريكي لاينقل للطفل خوارق

(٧) كمثال وقعت مجلة « اسامة » في هذا المازق (العددان ٢٥٧ ـ ٢٥٨ تاريخ ١ و ١٦ تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٧٩ ـ عدد مزدوج ـ) عندما ردت على الطفلة نائلة يوسف من حمص التي كتبت للمجلة : « اعجبتني رسائل اسامة التي كتبها عن رحلاته الى ايطاليا وصوفيا لماذا لايكتب اسامة هذه الرسائل دائما ؟ نريد ان نتعرف على شخصية اسامة . لماذا لا تنشرون صورته ؟ » ردت بقولها : « اسامة شخصية من شخصيات المجلة ، وليس شخصا حقيقيا . وقد كتب الاستاذ عادل ابو شنب عددا من القصص المصورة عن مغامرات اسامة في الارض المحتلة ، وعندما نقول : اسامة يكتب لكم من روما او من صوفيا ، فهذا هنا ان احد المحررين في المجلة قد قام بهذه الجولة وكتبها لكم بتوقيع اسامة »ـالصفحة٦ـ واسامة شخصية ابتكرت ، اصلا ، لتكون بديلا واقعيا للسوبرمان وقد قام ببطولات من نوع الخوارق التي يمكن ان تحدث ، فاصبح بذلك شخصية حقيقية ، يتلفت الطفل ليقابلها في اية لحظة ، ولكن ، هكذا ببساطة الغته المجلة عندما اعلنت انه غير موجود فعلا ، وبالملامح المفترضة للبطل المنشود .

الانسان غير العادي فقط ، بل يصور وينقل له انتصار الامريكي نفسه « وهذا هو جوهر الايديولوجية الامريكية : العنف والقوة والتفوق » (٨) ايضا . والطفل مقتنع بوجود هذا السوبرمان الذي لايغلب (٩) ، فاذا اردنا ان ننزع من صدره هذه القناعة ، فعن طريق ايجاد البديل الخارق الاكثر اتصالا بحياة الناس ، وليس عن طريق اقناعه بان « سوبرمان » شخصية خيالية وغير موجودة . انه يريدها ان تكون حقيقية وان كانت غير حقيقية ، وهو ينتظر ان يقابلها فجأة ، وهذا يظهر مدى ما لهذهالاداة من نفوذ وهيمنة على الاطفال ، ويظهر طغيانها على الكتاب انفسهم ، فهي تفرض نفسها ، بخيلاء ، وفي خصائصها من المغريات مايجعل الكتاب يفكرون في استخدامها دائما ، وسعداء هم الكتاب الذين يستطيعون ان يبتكروا خوارق يجمح الخيال في تصويرها ، وتصوير أبطالها ، سعداء لان حالهم تبدو كحال الباحثين عن الذهب . . وقداكتشفوا منجما جديدا.

هل لنا ان نتصور ماذا كسب خالق شخصية « سوبرمان » من شهرة ومال على سبيل المثال ؟

٣ - الانسنة(١٠)

في الماضي لم يكن السحرة وحدهم ، اداة رائجة ، في ايدي الكتاب والفنانين . كان الحيوان أداة رائجة اخرى ، استخدمت بمهارة ، في عملية القص ، سواء بالصورة او باللغة ، وقبل « كليلة ودمنة » بعشرات القرون ، صورت الحيوانات في المغاور والكهوف ، واحيانا كانت رموزا وتمثيلا

(٨) جريدة تشرين الدمشقية - العدد ٩٣٥ - تاريخ ١٩ تشرين الاول ١٩٧٨ - مقال « الاحتفال بالفار الامريكي » ميكي ماوس « في عامه الخمسين » .

(٩) تورد جريدة « تشرين » في العدد نفسه ان ايك لجاب يذكر في كتابه (فن الشريط المرسوم) « ان الرئيس الامريكي جون كنيدي كان يتدخل في سير قصص رسوم سوبرمان الموجه اصلا للاطفال ويفرض في احيان كثيرة النهاية المحتومة التي تصور انتصار السوبرمان الامريكي » .

(١٠) لم نجد كلمة اكثر مناسبة منها .

لمدلولات وقصص ذات معنى ، بل وكانت تاريخا لحقب مجهولة .

في « كليلة ودمنة »(١١) تبدو هذه الاداة صارخة في حضورها وفعاليتها . ابن آوى يروي ، وابطال القصص جميعا ــ الا قلة ــ حيوانات تقوم بأفعال انسانية ، وتتصرف كالبشر هذه « الانسنة » المقصودة قد لا تعنينا من حيث كونها تفاديا لخطر المواجهة ، او من حيث كونها تجنبا لصراحة غير مستحبة ، لكنها تعنينا ، بالضبط ، لانها حفرت في هذا المجرى الفني اخدودا عميقا . ان نجعل الحيوانات بشرا في السلوك وفي الفعل وفي النطق ، وأن نزج بها في عالم الحياة اليومية للانسان ، في فترة ما ، لهو تمكين للكتاب والفنانين من أن يستعيروا الحيوانات ويوظفوها في اغراض ابداعية ، تخاطب الصغار أيضا . هذه « الانسنة » اداة رائعة سيبقى العالم مبهورا وهو يستخدمها ــ وخاصة في مخاطبة الاطفال ــ لا بهدف ترميزي ، بل بهدف الادهاش المباشر ، وهل ثمة مايدهش الطفل أكثر من أن يتكلم العصفور، ويتزوج الحمار، ويعيش الثوركما يعيش الانسان؟

في هذا الميدان تفننت الوسائل الناقلة الثقافة . فلم تبق « الانسنة » لصيقة بالعرض الشفهي او المقروء فقط ، بل اشركت الرسم والتصوير في ذلك ، ونشرت قصصا مرسومة ، ابطالها حيوانات تتصرف كالبشر . وفي كل من السينما والتلفزيون قدمت للاطفال الارانب والفئران وغيرها ، كأنها اناس يفكرون ويغضبون ويسرون ويتكلمون(١٢) . ومع معرفة الطفل

(١١) كتاب اختلف المؤرخون فيه . بعضهم قال ان ابن المقفع ترجمه عن اللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) الى اللغة العربية ، وبعضهم قال انه اقتبس جزءا منه وترجم جزءا آخر ، والابحاث الدقيقة اثبتت ان للكتاب اصولا في الهندية وفي اللغة السنسكريتية . وكليلة ودمنة هما اخوان من بنات آوى سمي الكتاب باسميهما المذكورين في بابين من ابواب الكتاب .

(١٢) في كانون الاول ١٦٧٨ احتفل بمرور خمسين سنه على ولادة اول فيلم بطله (ميكي ماوس) الفار النجم الذي لم يتقدم به العمر قط ، والذي خلقه والت ديزني اول ما خلقه في فيلم من الرسوم المتحركة انتج في هيوليود وعرف باسم « سفينة ويللي » ويعتبر ميكي ماوس نجم اول فيلم للرسوم المتحركة في العالم . ولصعوبة انتاج هذا النوع من الافلام لم يصدر عن السينما العربية انتاج منتظم ومستمر للرسوم المتحركة،بحيث يغدو معه بطل

بأن هذه الحيوانات ليست بشرا وليست حيوانات حقيقية ، بل هي رسوم ، فان هذه المعرفة لم تفسد عليه متعته في الاعتقاد بأنه يتعامل مع وسط انساني أولا — ربما بسبب من كون السياق القصصي يسير في هذا الاتجاه — وبأن هذه الحيوانات التي هي ليست حيوانات وليست بشرا ، تتعامل مع بعضها البعض بمنطق انساني ثانيا بمعنى ان ما حدث أو يحدث للفار الشهير « ممكن الحدوث » لانسان ما ، أما المبالغات التي ترافق العروض عادة ، فمبالغات يعرف الاطفال انها تستهدف الاضحاك والمزيد من المتعة .

والانسنة كأداة تجاوزت الحيوانات ، واعطت ملامحها للطبيعة . الاشجار تتكلم في القصص ، وليست الفراشات وحدها ، والعشب ، والجبل ، القمر والشمس ، تتصرف كما يتصرف كل من رندا وسامر . وها هي الافكار الاولى تتحول الى أناس بقمصان منشاة وسراويل ملونة(١٣)

ما شعبيا على نحو ما حققه ميكي ماوس .. وهذا نقص يجب تلافيه ، مثلما تلافت دور النشر والصحف والمجلات العربية النقص في القصص المصورة ، فافردت زوايا لها أو نشرت كتبا خاصة بها .

(١٣) للكاتب قصة « الرذائل تنتخب زعيمها » وهذه هي :

(اجتمعت الرذائل في الساحة لتنتخب زعيما لها ، ونادى مناد بصوت قوي :

— من يرشح نفسه للزعامة ؟

فرفع الكذب يده ، وقال :

— انا ..

وسأله المنادي :

— لماذا ترشح نفسك ؟

قال الكذب :

— لانني أقلب الحقائق .

واعترض النفاق قائلا بصوت عال :

— الكذب لا يصلح للزعامة مثلي . انا ازور الواقع ، واعطي من اخاطبه صفات ليست فيه . انا اصلح الجميع للزعامة ..

وتتابعت الرذائل في الكلام ، كانت الرذيلة تشرح خصالها بحماسة ، الكسل والتواكل والحسد والكراهية والنميمة والحقد وغيرها ، وحارت الرذائل من تنتخب ، فكل رذيلة تصلح للزعامة ، غير ان الحيرة انتهت عندما وقفت الانانية في الساحة ، وسط الرذائل جميعا ، وقالت :

— انا ، والله اصلح الجميع للزعامة .

وصفقت الرذائل للانانية عندما رأت الى وجهها البغيض ، وانتخبتها بالاجماع ..)

وان لم يغال بعد في هذا الاتجاه لان الافكار مجردات ، يصعب تبسيطها وتجسيدها ، او انه لا يمكن تجسيدها الا بحذر ، وبصيغ مباشرة ، كان نجعل الرذائل بشرا ، كما في القصة المنشورة ، في الهامش ، كمثال .

ما هي هذه الاداة ؟

اذا ما عدنا الى رسائل اخوان الصفا وجدنا في واحدة منها حوارا بين الحيوانات وبين بني البشر، حول طبيعة كل نوع، فالحيوان لم يختر شكله بنفسه ، بل الخالق تعالى هو الذي خلقه بشكله واذا كان له عنق طويلة كالزرافة ــ على سبيل المثال ــ فليصل الى ذرى الاشجار ، وهذا امر لا يقدر عليه الانسان ، فالحيوان يفضله بهذا ؛ والجاحظ يرى الحكمة شيئين ، « شيئا جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ، وشيئا جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ، فاستوى بذاك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على ان احدهما دليل لا يستدل ، والآخر دليل يستدل ، فكل مستدل دليل ، وليس كل دليلا مستدلا ، فشارك كل حيوان ، سوى الانسان ، جميع الجماد في الدلالة ، وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للانسان ان كان دليلا مستدلا ، ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ، ووجوه ما نتج له الاستدلال ، وسموا ذلك بيانا »(١٤) .

افترضت هذه الاداة ، ونقصد « الانسنة » ، جميع المخلوقات ، من انواع الانسان أو الحيوان او الجماد ، بشرا ، وافترضت انها عاقلة وتفكر اي انها حكمة وتعقل الحكمة ، كما يقول الجاحظ لقد ساوت بين الجميع ، وازالت خصائص يتفرد فيها الحيوان او الجماد او خصائص يتفرد فيها الانسان وخلطت الخصائص ، بعضها ببعض ، وجعلت المخلوقات في نظر الاطفال سواء ، والارض في قصة الفضل بن عيسى بن ابان التي لم تجب

(١٤) من دراسة الاستاذين نعيم حمصي وعبد المعين ملوحي لكتاب الحيوان للجاحظ ــ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ دمشق ــ ١٩٧٩ في سلسلة « المختار من التراث العربي رقم ١١ » .

بالكلام بل اجابت اعتبارا(١٥) ستنطق هي نفسها ، لان هذه الاداة قد مستها بسحرها الذي لا يقف محال في وجهه . كل شيء مستباح . لا شيء يبقى كما هو . الجماد يتكلم ، يحيا ويموت كأي انسان ، وحتى القمر يتبادل الحوار مع الاطفال . والحيوانات التي تسير على اربع لحكمة خلقها الله فيها ، كما يقول اخوان الصفا في رسالتهم ، تسير بقائمتين وفي قصة « ليلى والذئب » الشهيرة جدا ، يبلغ المكر والخبث في هذا الحيوان انه يتنكر ويتحدث بشكل وصوت الجدة . بالانسنة .. توحد العالم امام الاطفال ، وصار انسانا . لقد امحت الحدود بين الانواع .

تلك هي واحدة من خصائص « الانسنة » بل هي خاصيتها الاكثر اهمية .. ولنقدرايةاداة هذه،التيحملتالكونالى الاطفالمتساويابعمق،لابسطحية. ان استخدام هذه الاداة مبرر ، الآن ، وبالنسبة لنا هو ربط بين الحاضر والتراث في ميدان ، نحتاج فيه الى ادوات جاذبة ، غير ان الخطا ينتج ، لا بسبب الاستخدام ، بل بسبب المفهوم الخاطيء للاستخدام ، اي بسبب عدم فهم طبيعة هذه الاداة . الانسنة تجعل العالم متساويا ، لكنها في الوقت نفسه تفرض قانونها الحاد الحاسم ، فليس كل حيوان بقادر على ان يكون انسانا متكلما او متصرفا بسلوك انساني ، في اي ظرف وفي اي وقت . ان البناء الفني للقصة يستعين بقانون الانسنة وتشد ، ففي مناخ واقعي ، والسياق القصصي في قصة ما مطابق للواقع ، على نحو فوتوغرافي ، يبدو نابيا ان تتكلم زهرة شقائق النعمان(١٦) . ثم ان اللعب بالطبائع مسألة في منتهى الدقة ، فالحمار ، كمخلوق ، غبي بطبعه وصبور ، وكي

(١٥) وقال الفضل بن عيسى بن ابان في قصصه : « سل الارض ، فقل : من شق انهارك ، وغرس اشجارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجبك حوارا ، اجابتك اعتبارا » ـ المصدر السابق ـ .

(١٦) عد الى بحث دراسة تطبيقية لنصوص ادبية مكرسة للاطفال « لعادل ابو شنب » مجلة « الموقف الادبي » العدد ٩٥ ـ آذار ١٩٧٩ (عدد خاص بادب الاطفال)

نجعله ذكيا ، واحيانا يمنح نصائح ثمينة (١٧) علينا أن نجعل القضية التي يدلي بنصحه فيها من البداهة بحيث يبدو النصح من تحصيل الحاصل ، والادهاش يحدث عندئذ من المفارقة ، فالمتوقع الا يدلي الحمار بالنصيحة الثمينة ، واذ يدلي بها ، فانه يدلنا لا على بداهة القضية فقط ، بل على ان الكاتب قد اراد أن يبدل من طبيعة الحمار ، حسب مقتضى الحال في هذه القصة . فهو ، في الحق ، لا يبدل من طبيعته ، لكنه يستخدمه في نقيضه ، حتى ينبه الى البداهة .

ويبقى الحديث في هذه الاداة مبتسرا ، مقصرا ، لان الامثلة الحديثة بخاصة ، كثيرة الى حد ان التساؤل عن السبب في استخدام هذه الاداة بكثرة مفزعة ، واحيانا في الاقتصار عليها ، اصبح ملحا ، لقد استسهل استعمال هذه الاداة ، حتى غدا التجريب في الكتابة للاطفال لايتم الا بها

---

(١٧) وهذه هي القصة من مجموعة « اصدقاء النهر » لعادل ابو شنب ـ نشر دار المسيرة في بيروت ١٩٧٩ .

(وقف العصفور الصغير يروي على اصدقائه قصته ، فقال :

ـ انا عصفور صغير . نزحت اسرتي عن عشنا ، هربا من الاعداء .. بكيت قليلا ، ثم استاجرت حمارا ، ورحت ابحث عن الاسرة في كل مكان من ارض الوطن .

قيل لي انها هاجرت الى الشمال .

وقيل انها رحلت الى الجنوب .

وقيل انها هربت الى الشرق ..

واخيرا قالوا انها استقلت مركبا شراعيا وسافرت الى بقعة نائية في الغرب

سالت صديقي :

ـ لو كنت مكاني ، ماذا تفعل ؟

قال :

ـ انا حمار . من يصغي الى نصيحة حمار في هذا الزمن البائس ؟

قلت :

ـ انا .

قال :

ـ عد الى عشك الذي ولدت فيه . حصنه جيدا ، وروض نفسك على أن تحيا فيه ، قاوم الاعداء قدر ما تستطيع واذا اغتالوك فحسبك فخارا انك مت في عشك ...) .

مما ترك في الساحة العربية رصيداً هائلا من النتاج المكرس للاطفال يجب التمحيص فيه .

٣ ـ المؤثرات

لا الرجل الآلي ولا رجل الفضاء ولا الحرب بين الكواكب (١٨) وحدهـا جذبت الاطفال في القصص التي تسير في هذا الاتجاه، بل الجو الذي يحيط بهؤلاء جميعا .. هو الذي يعمق اهتمام الاطفال بهذا القص المستحدث، المبني اصلا على المعلومات المتوفرة في الوان الحضارة المعاصرة .

ولكن ماهو هذا الجو ؟

يبدو الصراع في قصة ما عن حرب دائرة بين كوكب ما وسفن فضاء قادمة من الارض .. صراعا شبيها بقتال مثير بين الديكة في قرية ؛ من تقاليدها هذا الاقتتال . انه مثير بقدر ما هو حار ، لكن اثارته من النوع المألوف ، الذي يصبح عاديا بالتكرار ، ولو ان منظما حاذقا لهذا اللون من الاقتتال ادخل الايقاع الموزون ـ بشكل ما ـ عليه ، لتجددت اثارته . وفي هذه الحالة نستطيع الادعاء بأن الاثارة قد جاءت بسبب من الجو الذي احدثه الايقاع الموزون . وهذا الجو .. ما كان ليحدث لولا المؤثر الطارىء الذي قد يكون طبلا او مزمارا او حتى تصفيقا بالايدي .

المؤثر .. اداة كالخارق وكالأنسنة ، اداة في الجذب ، واداة في الوصول للاطفال ، وهو ليس حديثا ، فالراوية في الماضي ، كثيرا ماكان يستعين به في نقـل رواده الى جوه. فـان كانوا اطفالا يصغون الى حكاية بطلهـا الغول(١٩) ، جاء الرواية بصوت الغول ، واطلقه من فمه بالشكل الذي

(١٨) كثرت الافلام والمجلات التي تدور في هذا الفلك مؤخرا ، وقد تكون قليلة في الساحة العربية لكنها لن تكون كذلـك في المستقبل ، فهذا الضرب مـن الافلام والمجلات سيملأ السوق العربية مثلما فعلت افلام ومجلات طرزان وسوبرمان وميكي ماوس .

(١٩) الغول شخصية خرافية ، استخدمها العرب كثيرا في ميثولوجياهم .

يحلو له ، فخلق في التو المؤثر المناسب ، وان كانوا كبارا يصغون الى سيرة الزير سالم مثلاانشد الراوية شعرابتنغيم يتناسب ومقتضى الحال، فوضع سامعيه في الجو الذي يريده او انه اطلق صيحات شبيهة بصوت حصان الزير ليشد جمهوره اليه ، والامهات يغنين غناء خاصا مع الحكايات حتى يضعن اطفالهن في « جو » النوم ، وكي يكون التأثير فعالا تضاف الموسيقى في العروض المسرحية والسينمائية ، وما الموسيقى الا الاداة التي تهيء المتفرج ، صغيرا كان او كبيرا ، للنفاذ الى « داخل » العمل الفني ، اي انها العامل المساعد في خلق الجو الملائم .

ويدخل في هذه الاداة الديكور المسرحي او التلفزيوني الذي يقوم بالوظيفة نفسها ، فهو عامل مساعد في خلق الجو الملائم ، وهو من هذه المؤثرات التي كثيرا ما تكون ، بنفسها ، الاداة الجاذبة في العمل الفني ، كما يدخل فيها تكوين الدمى في مسرح العرائس وصناعتها والابتكارات فيها ، لان صناعة دمية بشكل ما قد يكون له فعل خارق في الجذب ، وخاصة بالنسبة للاطفال فهذا المؤثر الذي له امتداده السابق في القدم ، كتب له ان يستيقظ ويحيا مجددا ، ويكون اداة للوصول للاطفال ، ولم يعد مقتصرا على الصوت الذي ينقل الجو والمناخ ، بل تعداه الى نواح اخرى .

في قصص الخيال العلمي . . لايبهرنا التركيب غير المألوف للاحداث فقط ، بل تبهرنا « الخدمات » التي توضع لتنقلنا الى عالم غير مألوف ، عالم خيالي ، لا يفترض انه موجود او معروف سلفا ، الثياب غير العادية لرجال الفضاء ، الاشكال التي يظهر بها الرجال الاليون ، طريقة طيران سفينة الفضاء او الطبق الطائر ، وقبل ذلك كله « جو الحياة » في الكواكب الاخرى وفي علاقاتها ببعضها البعض عن طريق تكنولوجيا متقدمة ، تتلألأ فيها اضواء وتنطفيء اضواء ، وتفتح ابواب ما كان ليخطر بالبال انها ابواب ، وتعيش وتصور مخلوقات ليس بصورها اشباه في الحياة الواقعية على الارض . هذا المؤثر المثمر . . اداة قديمة ـ جديدة ، في ايدي الكتاب

والفنانين ، انضجتها نار الحضارة الجديدة ، والنوافذ التي فتحها الخيال على العلم ، او العلم على الخيال ، وهاهم الفنانون يستخدمونها بنجاح يلهب المشاعر (٢.) .

ولعل من خصائص هذه الاداة كونها عجينة ضخمة في عقل الفنان ويده ، بل لعل من خصائصها انها تبتلع الخيال مهما اشتط وتعاظم ، انها تقول للفنان : ابحر في ظلمات الخيال وهات ماتصل اليه يداك ، فأنا قادرة على الذهاب معك في رحلتك الى ابعد ماتظن . لا حدود لي ... استخدمني كما تريد ، وسأكون ماردك الذي يلبيك ابداً .

ان هذا البحث الرائد في ادوات الوصول الى الاطفال ، قد اريد له ان يكون مختصراً، لانه استهلال، يستهدف، التنبيه الى اقنية جذب الاطفال منذ القديم ، وهي اقنية ــ او ادوات ، كما سميناها ــ فرضت نفسها اثناء تطور عمليات الخلق الفني ، ولانه استهلال ، فان البحث فيه سيكون مثيراً وذا دلالات ، عندما يؤتى بشواهد من النتاج القديم والحديث لتعزيزه وعندئذ لن يكون استهلالا ، بل سيكون اطلالة بانورامية على جنس فني وادبي ، صار معترفا به في العالم ، بل صار واحدا من الاجناس التي لها اكبر عدد من المتلقين . وهل ثمة اكثر من الاطفال جمهورا يتلقى بشغف في العالم ؟

(٢.) من المناسب ان نذكر هنا ان الرسم بالالوان يدخل في دائرة هذه الاداة ، اللون ، كالصوت ، يخلق الجو والمناخ اللازمين لاحداث التاثيرات المناسبة ، وفي القصص المسلسلة التي تنشرها مجلات الاطفال الكثيرة في العالم (تان تان على سبيل المثال) يتبارى الفنانون في التأثير باللون . ولقد انتبه العرب الى ذلك في يقظتهم الاخيرة في ميدان الكتابة للاطفال، فاصدروا مجلات ملونة تطبع بطرق طباعية حديثة ، كاسامة في سورية ومجلتي في العراق وسمير في مصر وسامر في بيروت وسعد في الكويت .

قصص الأطفال في سورية

يوسف اليوسف

ليس من شان هذه المقالة أن تؤرخ لحركة الادب الطفلي في سوريا ، ولكنها تطمح الى تحديد قسمات القصة الطفلية في هذا القطر وتعيين موضوعاتها ثم الحكم على سويتها وتبيان عناصر المزية فيها .

ويبدو ، على أية حال ، ان تاريخ التراث الطفلي في سوريا ليس عريقا في الزمان وانما هو ، على النقيض من ذلك ، ما انفك طفلا يحبو . وفي وسعنا التأكد من صحة ذلك عبر نظرة يلقيها المرء على تواريخ صدور المجموعات القصصية الطفلية الاكثر انتشارا في الاسواق . ومن شان مثل هذه النظرة أن ترينا النصف الثاني من عقدنا الراهن بوصفه القفزة العارمة للقصة الطفلية في سوريا . ولكن مالا ريب فيه ان هذا النوع من الادب قد اخذ يزدهر فعلا اثر صدمة حزيران المعروفة . ويبدو ان التوجه نحو الاطفال بهذه الغزارة بعد الهزيمة الكبرى لا يخلو من دلالة عميقة مفادها ان الامل قد بات معقودا على الاليااف الغضيرة .

وقد أكد حقيقة انعقاد الامل على الاجيال الصاعدة اصدار مجلتي « اسامة » و « رافع » ، وكذلك قيام ثلاثة من القصاصين بريادة الدرب : زكريا تامر ، وعبد الله عبد ، وعادل أبو شنب . ولقد واكب هذه النهضة في القصة الطفلية انعطافة شاعر مشهور هو سليمان العيسى ، نحو الشعر الطفلي . بيد أن المطلع على تراث الطفولة في سوريا يعلم جيدا أن هذا التراث يتألف معظمه من القصة لا من الشعر ، ولو أن عددا محدودا من الشعراء قد اتجه نحو الكتابة للطفل في ابان السبعينات

ومما تجدر ملاحظته ان الجهات المضطلعة بنشر القصص الطفلية كثيرة نسبيا ، بعضها رسمي وبعضها الآخر تجاري ، وان عدد كتاب القصة الطفلية قد أصبح في النصف الثاني من عقدنا الراهن أوسع من أن يحصره العد . بل ويمكن القول بان ما يكتب اليوم من قصص للاطفال في سوريا قد يزيد بكثير ، أو بقليل ، عما يكتب من قصص للكبار .

وبطبيعة الحال لم تتح لي فرصة الاطلاع على جماع ما نشر من قصص طفلية او مجموعات قصصية مكرسة للاطفال في سوريا ، لا لأنها كثيرة فحسب ، بل لانها قد توارت من الاسواق أيضا ، باستثناء عدد كبير أو صغير منها أحسبه كافيا للتعرف على هذا الايقاع الثقافي الآخذ بالازدهار عندنا . ولهذا فان كل حكم سوف اصدره على هذا الموروث القريب العهد سيبقى مقتصرا على النماذج التي أتعامل معها ، وهي التي سوف أثبتها في قائمة المراجع ، بل ان قائمة مراجعي لن تتالف الا من هذه المجموعة المحدودة من القصص ، وذلك لانعدام الدراسات المتخصصة بأدب الاطفال ، أقله ضمن اطار اطلاعي .

أولا ـ أسس القصة الطفلية :

ككل ادب على الاطلاق ، لا بد للقصة الطفلية من أسس ترتكز عليها ، ولو ارتكازا تلقائيا ، اعني أن هذه الاسس ليست قواعد قبلية تنصب للكاتب بحيث لا يسعه الزوغان عنها ، وانما هي تستقرأ استقراء من تراث الانسانية ، من جهة ، ومن الواقع الاجتماعي المحلي المعاش ، من جهة أخرى . ولا يقبل المنطق للقصة الطفلية الا أن تكون مترعة بالشاعرية ، وكذلك بالدرامية . ولا يكفي أن الدرامية بالتضاد او الصدامية ، ولا بالانشراخ النفسي وتوكيد الذات ، بل بكونها التعارض الكاشف للمعنى او الروح . ولا ينبغي الفن هنا بان صدام الارادات يجب أن يتجه اتجاها مباشرا نحو تلقين الطفل درسا في الحيـاة ، بل أن يؤدي اليه معنى لا مباشرا يتذوقه عبر خياله بالدرجة الاولى ، والا فاننا نرسخ التسطح في الانسان ، وكذلك العجز عن الابداع السامي .

ولعل أهم ما ينبغي لنا أن نعرفه عن الطفل مجموعة من المعلومات النفسية لابد لكاتب أدب الاطفال من مراعاتها بحيث يوفرها ، أو بعضا منها ، في نتاجه توفيرا تلقائيا لا مفتعلا . فقد يكون من غير المجدي أن نحفظ جملة من المعلومات نستقيها من علم النفس ثم نبثها

في المبدعات الأدبية بحيث نصوغ نسيج القصة من خيوط تلك المعلومات ، اما المجدي فهو أن تتوفر الاسس النفسية للعمل الأدبي الطفلي توفرا لا افتعال فيه ولا ابتذال . وهذا أمر لا يطيقه الا الموهوبون .

ومهما يكن الشان فان مجموعة المعلومات النفسية التي ينبغي أن نعرفها عن الطفل هي هذه :

١ ــ يخضع الطفل خضوعا قسريا الترويض الاجتماعي بحيث ينتقل راغما من طبيعة غفل الى اجتماعية مصنعة . والمؤسسة الاولى التي تضطلع بهذه الوظيفة التحويلية هي الاسرة ، أول علبة يتم فيها تعليب الفرد . ولقد أدركت اللغة العربية وطأة الاسرة على أفرادها ، ولهذا راحت تشتق كلمة « الاسرة » من الاسر ، والعائلة من « عال » . التي تعود في أصلها الى « عل » ، اذ الالف اقحمت في عصور عالية . وهذا يعني أن الاسرة اسر والعائلة علة . فالطفل في حالة صدام دائم مع اسرته . ولابد للطفل من أن ينتصر على بذور الصراع الكامن في نفسه كيما يتمكن من الانتقال الى النضج . ونعلم جميعا ان علم النفس المعاصر يرتكز على هذا الصراع في فهمه للمرض . فالطفل الذي يقبل الترويض الاجتماعي هو الذي ينضج ويسلم ، أما الذي يرفضه فسوف يتحول الى العصاب .

٢ ــ يعيش الطفل بين الثالثة والسادسة مرحلة تسمى مرحلة التمركز حول الذات يظن نفسه خلالها انه قطب الوجود ومحور العالم ، وفي أواخر هذه المرحلة يعرف الاستمناء كالبالغين تقريبا . ويقلقه سؤال أساسي خلاصته : من أين يأتي الاطفال ؟

٣ ــ بين السادسة والتاسعة يدخل الطفل مرحلة الكمون ، ويأخذ بالاتجاه نحو العالم الخارجي ، وتخف درجة تمركزه على ذاته ، ويبدأ بالتساؤل عن كل شيء . انه يريد أن يعرف أصل الاشياء ويرغب في فهمها فهما موضوعيا . وأهم ما يقلقه اسئلة كهذه : ما سر الحياة ؟ كيف يتم المطر ؟ اين تذهب الشمس حين تغيب ؟

٤ ــ بين التاسعة والثانية عشرة يشتد خيال الطفل ، ويغدو قادرا على التمييز بين الخيال والحقيقة . ويتسع معجمه اللغوي ، وكذلك تتوسع دائرة معلوماته ، ويصبح له أصدقاء .

٥ ــ بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يعيش مرحلة انتقال بين الطفولة والمراهقة . وفي هذه المرحلة ، مرحلة المدرسة الاعدادية ، لا يهمه شيء أكثر من القيم المثلى ، فهو يرغب

في هضمها داخل جهازه النفساني ، وذلك لكي لا يظل العالم خواء . والحقيقة أنه على مدى تمثل الطفل في هذه المرحلة لقيم المجتمع يتوقف انتقاله الى الرجولة . ومما تجدر العناية به بشكل خاص هو أن الطفل في أواسط هذه المرحلة يخضع لتبدلات جسمية جذرية ، الشيء الذي ينعكس على داخليته فيولد ما نسميه عادة « أزمة المراهقة » . ما الذي تعنيه هذه المجموعة من المعلومات بالنسبة الى كاتب القصة الطفلية وبالنسبة الى أدب هذه القصة بوجه عام .

لعل اهم حقيقة نستفيدها من النقطة الاولى في مجموعة المعلومات الآنفة الذكر هي أن القصة الطفلية ـ ككل أدب درامي على الاطلاق ـ ينبغي أن تبنى في الغالب الاعم على التناقض والصراع ، أو على الازمة بوجه عام ، ولكن الازمة التي ينكشف عبرها القلب البشري بكامل ثرائه النفسي . وان لم يتحقق للقصة مثل هذا العنصر فانها سوف تخسر فرصة كبيرة لاحداث التاثير في القارىء . فمما هو فصيح الدلالة ان ينشد الاطفال الى شاشة التلفزيون أو السينما ، لكي يشاهدوا فيلم مغامرات بطولية ينتقل فيها البطل من أزمة الى أخرى منتصرا حينا ومهزوما حينا آخر . ان مثل هذه الحال تسهم اسهاما كبيرا في تصفية صراعاتهم الداخلية وتحقق لهم في الخيال انتصارات على مجمل ضغوط الواقع الذي يمارس عليهم كبتا شديدا .

أما الحقائق الاخرى في مجموعتنا الآنفة السرد فتقدم لنا فائدة فحواها أن أدب الاطفال ينبغي أن يكون متنوعا بحيث يتناسب مع العمر . واذا ما علمنا ان معظم القراء الاطفال في سوريا ، ولا سيما في طبقاتها الشعبية ، تمثل أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة ، عرفنا أن على القصة الطفلية أن تنجز عنصرين أساسيين في نسيجها : الخيال والقيم الانسانية المثلى . وأيا ما كان الشان ، فان النتاج القصصي الطفلي في سوريا لا ينجز التنوع المنشود ولا يراعي مسالة اعمار قرائه ، على الرغم من الفروق الجذرية القائمة بين طفل في الثامنة وآخر في الرابعة عشرة ، مثلا . والاهم من ذلك أنه لا يوجد أدب خاص بالبنات وآخر بالاولاد ، مع ان مثل هذا التمييز حاجة لا بد منها ، وذلك نظرا للفروق بين الجنسين . والفتاة في البلد المتخلف ترغم على الاعتقاد بدونيتها ، وهذا يعني أن من وظائف القصة أن تعيد الى الانثى (ولا سيما في مرحلة الانتقال الى المراهقة) ثقتها بنفسها وأن ترد لها كرامتها المهدورة .

والآن ، يمكن القول بأن هذه المسألة النفسية الاخلاقية ، او الاجتماعية ، تقبل الانطباق على الاطفال قبولا عالميا ، فاين هي الخصوصية المحلية ، اذن ؟ ماذا يمكن أن يقال للطفل في سوريا ، أو في أمة كالامة العربية التي تحاول أن تبني الاشتراكية وأن تجابه غزوا أجنبيا خطيرا ؟

وهنا أملك التوكيد على ما فحواه أن القصة الطفلية ينبغي أن تبنى على الاسس النفسية ، أعني أن يكون عامل التشويق فيها عاملا نفسيا يتألف من الصراع والخيال والاضفاء والتقمص والتعويض عن جملة احباطات الطفل ، أما مضمونها فيجب أن ينصب على الاخلاق الانسانية النبيلة كالصدق والشجاعة والكرم والمحبة ومعاونة الآخرين... الخ، وكذلك على محبة الوطن والاستعداد للدفاع عنه والاستشهاد في سبيله ، ثم على تبصير الطفل بالفساد الاجتماعي وضرورة التغيير والانتقال الى مرحلة أسمى . غير أن الامعان في تصوير الشرور الاجتماعية من شأنه أن يخلق أطفالا متشائمين ، ولهذا أرى من المستساغ ألا نوغل في التشديد على انتشار الشر ، وأن نقدمه مهزوما دوما ، مهما يكن شرسا وعاتيا .

ثانياً — ثلاثة رواد :

اخذت القصة الطفلية في سوريا تزدهر منذ أواخر الستينات على أيدي ثلاثة رواد كان لهم فضل السبق في ترسيخ هذا الايقاع الثقافي : زكريا تامر وعبد الله عبد وعـادل أبو شنب . ويتميز اثنان من هؤلاء الثلاثة (زكريا وعبد الله) بالاعتماد على الشاعرية كنسيج للقصة في كثير من الاحيان ، بل هما يمزجان الشاعرية بالدرامية مزجا فريدا حقا ، وهما يعتمدان على نوع من الطراء اللغوي الناقل لطراء الروح . ومن البدهي أن مثل هذا النتاج لا يناسب الا المرحلة الثالثة والرابعة من مراحل الطفولة (٦ — ١٢) ، أما مرحلة الانتقال الى طور المراهقة ، وهي مرحلة صاخبة نسبيا ، فانها تحتاج الى لغة أخرى ، لغة قادرة على حمل التضاد والحركة والصخب . بيد أن الطفل الصغير ، وهو المتناقض نسبيا مع قيم الاسرة بالضرورة ، يملك أن يجد في هذه القصص الشاعرية ما يعينه على التكيف والهدوء ، وذلك بفضل قدرتها على تلطيف اندفاعاته الرفضية التي لا تخلو من جموح .

أما عادل أبو شنب فانه قلما يلجأ الى الشاعريــة وتصوير الحالات شبه الذاهلة ، الشيء الذي يشكل محورا بالنسبة الى زكريا تامر . وهنا أود أن ألفت الانتباه بشكل خاص الى قصة صغيرة عنوانها « الوردة الجورية » في مجموعة « الطفل الشجاع » ، من حيث هي أنموذج لأقصوصة شاعرية لطفل تحت التاسعة من سني العمر . ولكن عادل أبو شنب قلما ينزع نحو كتابة هذا النوع من القصة الطفلة . اذ الحقيقة أنه في مجموعة « معطف الاخفاء » ينتج ما يمكن تسميته بالقصة التقليدية ، وهي جد قريبة من روح الحكاية الشعبية المليئة بالتشويق والموائمة لخيال طفـل تجاوز التاسـعة .

ويصدق الراي نفسه على مجموعته الاخرى : « السيف الخشبي » ، وهي التي تحاول أن تعلم بطرق غير مباشرة . أما مجموعته الثالثة ، « الطفل الشجاع » ، فانها تتراوح بين الشاعرية والنزعة التلقينية . اذ هنا لا تجد قصة يمكن أن تعد قصيدة نثرية عذبة ، ولكنك يمكن أن تجد قصة (ولتكن « المنديل الاحمر » ، مثلا) تحاول أن تلقن الطفل درسا مـن خلال القدوة . ومع أن هذه الاخيرة جميلة حقا بفعل عامل أساسي فحواه النبل الروحي ، فان قصة أخرى عنوانها « المجهول » تفوقها أهمية نظرا لتعاملها مع موضوعة الرهاب التي قلما يجد الطفل أدبا يبحث فيها (الا أن يكون مترجما) ، على الرغم من أن الرهاب واحد من أخطر صراعات الطفل في المراحل المبكرة من سني العمر . ولكن الكاتب ـ وهذا راي شخصي ـ قد أفسد غاية القصة (التعليم الالقاعي) حـين اختتمها بهذه الخلاصة : « المجهول يخيفنا دائما حتى يصير معلوما » (ص ٤٧) . فهذه بكل وضوح نزعـة مدرسية تلقينية لا تترك للطفل فرصة التفكير والاستنباط ، وتحرم طاقته الالمعية من أن تشحذ .

ومهما يكن الامر فان القصة الطفلية لدى عادل أبو شنب ، على الرغم من جنوحها نحو التلقين في جوهرها ، غالبا وليس دائما ، تتناسب كثيرا مع مجموعة الحقائق النفسـية الآنفـة العرض ، ولا سيما من حيث قدرتهـا على اشباع الخيال وامتصاص الصراع الداخلي وانجـاز الاصغاء والتقمص وترسيخ عالم القيم . وبفعل اقترابهـا من روح الحكاية الشعبية تتمكن من حل مشكلة أساسية في القصة الطفلية ، أعني مشكلة تناسب القصة مع السن . فالقصة الشعبية ـ نتاج حكمة الاجيال ـ توائم الاعمار كلهـا منذ الطفولة حتى الشيخوخة .

ولدى العودة الى زكريا تامر نجد أن مجموعته الهامة ، « لماذا سكت النهر » ، ويبدو انها تضم انتاجه المبكر في مضمار القصة الطفلية ، واحدة من عيون أدب الاطفال حقا . فهي تمزج مزجا موفقا بين الشاعرية والدرامية ، وبذلك تناسب الاطفال الذين لم يدخلوا مرحلة الانتقال الى المراهقة بعد . ولكن مجموعته الثانية ، « قالت الوردة للسنونو » ، فتمثل حركة واضحة للاقتراب من مناخ القصة التقليدية ، أو التعليمية ، على الرغم من استمرار الصور الشاعرية واللغة الفنية . فيغلب على قصصها أن تبدأ بفعل ماض ، أو بعبارة تدل على الحدوث : «لما أشرقت الشمس...» ، «في يوم من الايام القديمة...» ، « في قديم الزمان ... » ، « في سنة من السنين القديمة ... » . ومع أن مثل هذه التوجيهات تخلق في الطفل حسا تاريخيا وشعورا بالزمن (يتوقف نمو الطفل الى حد ما على رسوخ صورة الزمن في رأسه) ، فانها تجنح نحو التلقينية ، وان تكن تلقينية غير مباشرة . وهنا يتبدى زكريا تامر ـ بالمقارنة مع المجموعة الاولى ـ ناكصا عن القصة الشاعرية باتجاه انموذج شبه تقليدي قريب الروح من الحكاية الشعبية ، أو قل من روح « كليلة ودمنة » . ومع ذلك فان هذه المجموعة قد حافظت على الكثير من الروح الشاعرية وظلت بعيدة عن المباشرة ، لانها في الحقيقة تحاول أن تعلم من خلال النزعة الالماعية .

ولناخذ قصة « البنت السمكة » مثلا . تستهدف هذه القصة درسا محددا خلاصته أن كل من ابتعد عن جذوره خضع للضياع المحتوم . ولكن الكاتب لم ينه القصة باية خلاصة تفضح معناها المباشر . ان زكريا يعرف حقا كيف يغلق الفحوى وكيف يستر الدرس الذي ينبغي تقديمه للطفل ، بحيث يترك الفرصة للذهن المتلقي كيما ينشط في التقاط الفكرة المنشودة .

في « العصفور المسافر » ، مجموعة عبد الله عبد الوحيدة التي أتيح لي أن اقرأها ، يترجح المنحى بين القصة الشعبية ، أو شبه الشعبية ، وبين القصيدة النثرية ، وبذلك تتجاوب هذه المجموعة مع كثير من الاعمار ، وتسد كثيرا من الحاجات النفسية للطفل ، ولا سيما ما يطهر الصراع وما يشبع الخيال . ولكنها مع ذلك تميل في بعض الاحيان الى التلقين عبر السرد ، وان يكن هذا الميل غير مباشر في كثير من المرات . وتكاد تسيطر على المجموعة موضوعة واحدة تتواتر كثيرا ، وهي موضوعة حب الوطن أو الدفاع عنه . وهذا أمر طبيعي بالنسبة الى أمة يخضع جزء من ترابها للاحتلال . ويمكن القول

بان هذه الموضوعة شديدة التواتر في معظم المجموعات القصصية التي كتبت للاطفال في سوريا عبر السنوات العشر الاخيرة .

ثالثاً ـ ثلاث كاتبات :

لعل من الملحوظ ان المرأة تبدي اهتماما واضحا بالكتابة للاطفال . وربما كانت المرأة ، فيها من عنصر الدهشة ونقاء الطفولة ، أقدر من الرجل على ممارسة هذا النوع من الكتابة . ومع أن عدد النسوة اللاتي يكتبن للاطفال في سوريا ما انفك عددا ضئيلا بالنسبة الىعدد الكتاب، الا انه ذو دلالة معينة فحواها انالمرأة أخذت بالتحرك فيالمجتمعات المتخلفة.

الكاتبة الاولى ، ليلى صايا سالم ، تكتب بصفاء أنثوي جد مناسب لروح الطفولة ، ولاسيما المراحل الاولى ، حينيكون الطفل أكثر طفولة . بل ويمكن القول بأن طرء الروح الانثوية المبثوث في « بلادنا الجميلة » ، مجموعة ليلى صايا سالم الوحيدة التي أتيح لي العثور عليها ، هذه الروح النقية تملك أن تسهم في تصفية صراع الطفل مع الاسرة ، وذلك بفعل مقوم تركيبي اساسي ينكشف في المجموعة بكامل ثرائه ، وهو عنصر الخيـال الذي يحتاجه الطفل (بين التاسعة والثانية عشرة) قدر حاجته الى الشمس والطعام . ففي القصة الاولى من المجموعة تبحث الكاتبة عن القاسم المشترك الاعظم الذي يوجد بين المتعارضات ، ومثل هذا البحث واحد من أقدم أنشطة البشر . ولهذا فانه يتوامم خفية مع القاع الصخري لبنية النفس القضة الساعية وراء التصالح . فالطفل اول ما يدرك تعارضه مع الخارج ، أعني تعارض رغباته مع القيم . وهو دائما يبحث عن التوفيق بين قطبي هذا التضاد . وتأتي هذه القصة في مجموعة « بلادنا الجميلة » لتعكس تماما حالة الداخلية ونزعته نحو التئام هذا الشرخ الكبير المهيمن على شخصيته ، وما لم يحدث الالتئام فان الفصام نتيجة ضرورية

وهذه القصة الاولى نفسها ـ وهي ليست استثناء في المجموعة ابدا ـ تقفي مضمونها الدرامي عبر صور فنية ممعنة في الاتقان التلقائي ، وعبر لغة تنساب كالماء الهادىء المعتدل السرعة . وهذا يعني خصوبة في الخيال يندر ان نصادفها في ما يكتب اليوم من قصص طفلية . والحقيقة ان هذه القصة تلقن درسا وتختم بعبارة شبه تعليمية ، ولكن هذا

الختام يأتي مقحما في التلقائية ، وبذلك فانه قد لا يغضب الناقد الفني أو الجمالي أبدا ، كما انها قد ترضي المربي الذي ينسق جهوده مع علم النفس .

ولو تابعنا المجموعة لوجدنا القصص الاخرى تجنح في الغالب نحو دمج الشاعرية بالدرامية لكي تستجيب لكل من الروح (طراء القلب البشري) والنفس على السواء . ويثابر الخيال على خصوبته وثرائه . ولكن ، لماذا كان الخيال خصيبا في هذه المجموعة ؟ لان القصص تميل في الغالب نحو التولف من معطيات الطبيعة وانسجتها ، ولان الطبيعة تاخذ بالتفتح من داخل الطراء الروحي . فكل ما في الطبيعة يبدو رطيبا غضا بحيث تنعكس هذه الرطوبة على ما في نفس الطفل من جفاف صدامي الهوية فتعدل من طبيعته وتمتص شغبه الداخلي . وفضلا عن ذلك فان ما فوق الواقعي ، أو السريالي ، يمثل عنصرا هاما من عناصر الجودة في الكثير من قصص هذه المجموعة ، ولاسيما نصفها الاول ، الذي أراه افضل من نصفها الثاني ، وذلك بحكم ميل هذا الاخير نحو التلقين والتعليم .

واذا ما انتقلنا الى دلال حاتم ، والى مجموعتها الوحيدة ، « السماء تمطر خرافا » ، لما وجدناها ـ على جودتها ـ تتمتع بدرجة الشاعرية والطراوة الروحية التي تؤسس المزية في « بلادنا الجميلة » . ومع ان قدرا كبيرا من الحنان الانثوي الموائم لنفسانية الاطفال ينبث في الكثير من قصص المجموعة ، كقصة « الزنبقة والعصفور » المنطوية على ما يشبه علاقة طفل بامه ، مع ذلك فان الدرامية تحتاج الى شيء من التعميق بحيث ترسخ الفحوى العام فتذكو جودة القصة . وواضح في القصص ميلها نحو التلقين ، وان يكن تلقينا غير مباشر ، بل هو في كثير من الاحيان تلقين محبب ، نظرا لاستبطانه ولا مباشريته ، كما هو الحال في القصة الاولى والثانية من المجموعة .

أما الكاتبة الثالثة ، لينا كيلاني ، فقد اصدرت أولى مجموعاتها هذا العام : « العصافير لا تحب الزجاج » . ولدى تمعن القصة الاولى في المجموعة نلاحظ انها تحاول ايجاد نوع من التسوية بين أطراف الصراع المتباينة ، تماما كما تحاول القصة الاولى في « بلادنا الجميلة » . ومع ان مؤلفة « العصافير لا تحب الزجاج » تملك الكثير من الطراء الروحي المنعكس على اللغة والصور ، والضروري من أجل تليين صراعات الطفل الداخلية واخماد شغب النفس ، فانها لم تبد القوة اللازمة في مضمار التعبير او بناء الشكل الفني الثري بالفحوى . ولهذا لم تستطع ان تعبر عن صلح المتناقضات بطريقة متينة .

وعلى الرغم من أن لقوة الخيال في هذه المجموعة درجة لاباس بها من الجودة ، فان هذا الخيال موظف في مضمار التلقين الذي يجنح كثيرا نحو المباشرة . فلئن كانت القصة الاولى درسا في اطفاء التضاد ، فان الثانية درس في التجربة . أما القصة الثالثة فلا تتورع عن التلقين على هذا النحو : « اذا اصبحت سارقا فلن ترائي . على الانسان ان يحتمل والايياس ، فالياس مفتاح الشر » (ص ١٦) . وتحاول القصة الرابعة أن تكون تنويعا على أساطير الخصوبة ، ولكنها تفض معناها عبر شكل مباشر . اما القصة الخامسة فهي درس في كون الانسان نافعا للآخرين : « على كل مخلوق ان يكون نافعا حتى في موته » (ص٣١). وفي قصة « النمل الذكي » نقرأ هذا الدرس : « في رأيي أن التعاون ضروري ولا حياة لجماعة من المخلوقات دون مساعدة جماعة أخرى » (ص ٤٨) .

من الواضح ، اذن ، ان النزعة المدرسية التعليمية ، أكانت مباشرة أم غير مباشرة هي التي تكاد تهيمن على هذه المجموعة ، بدلا من ان يسودها شيء من الغنائية او الدرامية . فحبذا لو كانت مجموعة « العصافير لا تحب الزجاج » كلها من طراز قصة « الهدايا الثمينة » حيث ينتشر نوع من الروحانية الشاعرية ، لطيف ومحبب .

رابعاً ـ الاندفاعة الكبرى :

منذ اواسط السبعينات ظهرت في سوريا موجة غزيرة من القصص الطفلية . ولا ريب في أن مجلة « أسامة » قد شجعت الكتابة للاطفال ، وبالتالي قد مهدت السبيل امام هذا السيل الدافق من النتاج الطفلي . غير أن معظم هذا النتاج المتأخر في الظهور ميال الى التعليم أو التلقين بدلا من الشاعرية والدرامية والروح الاسطورية . وعلى الرغم من أن أبطاله قد يكونون من الحيوانات او الاشجار او الجان او الملائكة ، أو حتى الاشياء ، كالمسطرة والجدار والنافذة ... الخ ، فانه يظل أدبا مباشرا مسطحا في الغالب الاعم ، بل هو قد يكون مملا في بعض الاحيان .

ولعل أبرز مجموعات هذه الحزمة ان تكون مجموعة « الوشاح الازرق » المؤلفة من أربع قصص طويلة كانت قد فازت بمسابقة وزارة الثقافة عام ١٩٧٢ . وهذه القصص الاربع هي : حكاية من دمشق ، لاحمد يوسف داود ، فارس وسالة والغول ، لعبده محمد ، الوشاح الازرق ، لابراهيم المصري ، والصياد والارض ، لاحمد مختار الشريف .

والقصص الاربع في مجموعها نماذج تقليدية لقصة تكاد توافق الانموذج الشعبي السائد في الفولكلور . فهي مبنية على الحدث التقليدي الذي يتصاعد حتى يبلغ ذروة تتدرج باتجاه الحل . وبما أن هذه القصص الاربع مترعة بالدرامية ، وبما أنها كبيرة من حيث الحجم كذلك ، فلعلها أن تناسب طفلا تجاوز العاشرة من العمر ، بل هي تناسب طفلا ينتقل من الطفولة الى المراهقة ويعيش الازمة المضطربة لهذا الانتقال ، كما يهمه أن يرسخ في داخله قيم الخير والمحبة والوطنية ، ولهذا لم تخل هذه المجموعة من روح التلقين ، هذه الروح التي استطاع أحمد يوسف داود ، في « حكاية من دمشق » ، أن يتغلب عليها عبر تغليفها بغلاف الصراع الحاد بين النقائض ، فجاءت قصته أكثر ثراء بالدرامي القادر على الاستجابة لحاجة الطفل النفسية ، او لما فيه من روح التقمص .

الدرامية هي الصدام الحي للمتعارضات والتوجه الحار بين نقائض ترفض التسوية في الغالب . وهذا التواجه كاشف للمعنى الداخلي والبعد الذاتي للانسان ، وكذلك للقوى الموضوعية المتحكمة بحركة المجتمع . ومن شأن العالم الدرامي الفني أن يطهر شعور الطفل بالاقتسار الاجتماعي وان يخفض فيه نزعته التدميرية وجنوحه نحو الصدام مع أسرته . وفضلا عن ذلك فانه يعزز في الطفل القيم الانسانية التي لا بد من تمثلها كي يندغم في المجتمع الكبير ، وكي يغدو شخصية متكاملة خلاقة ذات فاعلية في اطار ظرفها الواقعي . ومجموعة « الوشاح الازرق » تحاول أن تكون استجابة لمجمل هذه المطالب ، لولا انها ـ اذا استثنينا قصة احمد يوسف داود ـ ليست ممتلئة بعنصر التشويق ، بل هي لا تخلو من ميل الى المباشرة والتلقين . ففي خاتمة « الصياد والارض » نجد النزعة الخطابية تعبر عن نفسها على هذا النحو : « انتم ابناء هذا الوطن ، وانتم أمله في استرداد أراضيه من العدو الغاصب . لقد أصبحتم اليوم نسور هذا الوطن الشجعان ، على عواتقكم تقع مهمة التحرير وطرد الصهاينة من الاراضي العربية . » (ص ١١٥)

غير أن الطفل ، كالكبار تماما ، لا يحتاج الى الدرامية وحدها ، بل هو يحتاج كذلك الى روح الاسطورة ، وذلك لان روحه ، بسبب من غضاضتها ووسنها ، اسطورية بطبيعتها ، او هي ميالة الى كل ما هو سري له روح القربان أو الشعيرة . وهذا يعني ان الطفل يحتاج الى مضامين انسانية مبثوثة في لغة شاعرية الالياف ، لغة تميل الى الغنائية وروح الموسيقى.

ومن النقطتين الآنفتي الذكر ، الدرامية والاسطورية ، أو النزعة الغنائية ، يمكن ان تنقسم القصة الطفلية الى ثلاثة اقسام : القصة المترعة بالدرامية ، والقصة التي تتأسس على

الخلب (الغنائي والأسطوري) ، والقصة التي تولف بين هذه الابعاد الثلاثة . ولعـل النمط الثالث أن يكون أجود هذه الانماط ، ولكنه في الحقيقة نادر كل الندرة في حركة القصة الطفلية في سوريا هذه الايام .

فاذا كانت لمجموعة « الوشاح الازرق » فضيلة انجاز الفضيلة الاولى ، فان بقية المجموعات التي ساعرض لها الآن ما عدا مجموعة طالب عمران ـ تفتقر كثيرا الى الخصائص الفنية والنفسية المؤسسة للجودة في القصة الطفلية .

تهيمن على مجموعتي أيوب منصور ، « نجمة الصبح » ، و « سلام في مدينة الاحلام » ، روح معلم المدرسة الذي يود ان يلقن تلاميذه درسا معينا من خلال العملية السردية. فالقصة الاولى في « نجمة الصبح » درس في النضال والوطنية ، والثانية درس في تجدد الحياة ، والثالثة ، وهي التي تحاول ان توظف التراث الشعبي جيدا ، فدرس في التحام الجماعة وتعاضدها ضد الخطر الداهم . أما الرابعة فدرس في ان المتنفجين خاسرون والعاملون بصمت هم الفائزون . والخامسة تلقن ما فحواه أن الصغار لا يجيدون العمل دون معونة الكبار ، والسادسة درس في أن الدفاع عن الذات مسالة تلقائية . وتتلخص السابعة في أن كل كائن يحرز قصبة السبق في ميدانه الخاص . انها ، اذن ، مجموعة تحاول آن تخاطب ذهن الطفل أكثر مما تخاطب وجدانه أو خياله او قيمه المثلى .

وتنزع المجموعة الاخرى ، « سلام في مدينة الاحلام » ، نحو الغاية التلقينية نفسها . فالقصة الاولى في هذه المجموعة درس في الحذر من الخداع . أما الثانية فمحاولة لتصور واقع اجتماعي بائس يفتقر الى العنصر الانساني . وتفيد الثالثة أن الكتب القديمة لا فائدة منها ولا تنقذ من براثن العدو . وتحاول الرابعة أن تحذر الاطفال من تسلل العدو على هيئة صديق . وتتلخص الخامسة في هذه العبارة الواردة في متنها : « واعلمي بان من يكبّر الحجر يعجز عن الضرب بها » . أما السادسة فتبين ما فحواه أن المتنفجين هم أعجز الناس عن فعل أي شيء جاد . واذا ما توغلنا في المجموعة وجدنا الروح التلقينية لا تزال مصرة على السيطرة . فعلى سبيل المثال ، تنتهي قصة « العش الملكي » على النحو التالي : « كل عش يقام على غصن منخور سوف ينهار على راس سكانه ، حتى ولو كانوا من الملوك ذوي الريش الاشقر ،والاكثر مكرا ودهاء » (ص ٩٠) . وهذا يعني أن ما يبنى ينبغي ان يبنى على أسس صخرية متينة . وبذلك نلاحظ ان هذه المجموعة ، كسابقتها ، تنتهج

نهج بعض الحكايات الشعبية التي تحاول أن تعلم الحكمة العملية من خلال الانموذج . وفي هذا خطاب يتوجه الى الذهن ، وليس الى الخيال والوجدان وجهاز القيم والاضطراب النفساني . ان معلم المدرسة هنا ـ كما هو الحال في معظم المجموعات ينفي الشاعر ولا يترك له الا مكانا ضيقا .

واذا ما انتقلنا الى مكرم الكيال ، والى مجموعته « الشهداء لا يموتون » ، لما وجدنا الحال هنا افضل مما هي عليه في المجموعتين السابقتين . فالقصة الاولى في هذه المجموعة تحاول ان تعلم الطفل ما فحواه أن التلميذ الذي يحق له التباهي والتفاخر هو من ينجح في المدرسة لا من يركب دراجة . وتحاول القصة الثانية ، وعنوانها « ابن البطل » ، ان تضرب عصفورين (درسين) بحجر واحد : فهي من جهة تعلم التلاميذ اخاء العرب ، ومن جهة اخرى ترسخ في الذهن ما فحواه أن الثرثارين هم أقل الناس فاعلية وجدوى ، وان الذين يفعلون الكثير هم الصامتون . وتسوددها روح خطابية حماسية هي امتداد (وربما نتاج) للضجة الاعلامية التي عشناها في العقود الثلاثة الاخيرة ، هذه الروح التي لابد لنا من التخلص منها لكي ننتقل الى العقلانية . وفي القصص الثلاثة اللاحقة ، حين يحاول الكاتب أن يقرب القصة الطفلية من روح القصيدة والاسطورة ، نراه يقدم حالات بسيطة ينقصها العمق والتشويق . وفي قصة « الغضب » التي أرى موضوعها مما يهمنا في تربية الصغار ، لا يرينا الكاتب سببا كافيا لنا هذا التحول الجذري في شخصية البطل الصغير . فالعزلة التي أحيط بها من الجميع لا يمكن أن تكون سوى شيء وهمي ، وقد لا يحدث الا لطفل متماد في الاضطراب

اما « مذكرات عصفور » لجورج قس ، فهي في معظمها تنزع الى البساطة ، وأحيانا تجنح الى التعقيد . ولعل القصة الاخيرة فيها ، وعنوانها « مذكرات عصفور » أن تكون حقا خير ما في المجموعة ، اذ هي تكشف عن القلب البشري وقد اتخذ من العصفور السجين مكانا خارجيا . وكسواها من المجموعات السابقة تنزع نزعة تلقينية واضحة ، كان تقول مثلا : « خبيء قرشك الابيض ليومك الاسود » (ص ٣١) ، وكان تحاول ترسيخ دروس من مثل : وجوب الحذر من العدو حتى وان تظاهر بالصداقة . وحتى حين تتمد الشاعرية فانها لا تخلو من نزعة تعليمية ففي قصة عنوانها « غيمتان » نجد حوارا بين غمامتين يحاول ان يلقن بطريقة غير مباشرة ما فحواه أن لكل نقيض من النقائض دوره في حركة الكون

ولاتقل مجموعة « مطعم الذئب » ، لخيري عبد ربه ، بساطة وافتقارا الى العمق عماسبقها من مجموعات . اما نزعتها التلقينية فواضحة منذ القصة الاولى التي تحاول أن تعلم حب الوطن ، ولو بطريقة ايحائية ، كما تحاول أن تلقن الطفل ما فحواه أن يتعلم من تجاربه وان يطيع والديه. ولذلك راح الكاتب ينهي بعض قصصه بشيء من الاسئلة يوجهها مباشرة الى الطفل القارىء . ففي ختام القصة الاولى ، وهي قصة الارنب الذي ينفذ نصائح والديه ، يوجه الكاتب هذين السؤالين : « ترى ، هل تتعلم من تجاربك ؟ وهل تسمع نصائح والديك ؟ » (ص ١٢) . وفي القصة الثالثة ، وعنوانها « التلميذ النشيط »، يحاول الكاتب ان يقدم درسين معا ، اولهما في حب الوطن وثانيهما في الحرية . ثم يختتم الكاتب قصته بهذا السؤال : « ترى هل من حرية دون قوة تدافع عنها ؟ » . وتتواتر هذه الاسئلة التي يختم بها الكاتب قصصه ظنا منه انه يحرض في الطفل قواه العقلية ، أو ربما نزعة اعمال الذهن في المقولات والمسائل الملحة . ولكن صاحب هذه المجموعة – كسابقيه – يغيب عن ذهنه ان هذه نزعة مدرسية مباشرة لاتليق بادب الاطفال .

والحقيقة ان مجموعة خيري عبد ربه هذه هي احسن مثال على النزعة الذهنية التي تسود ادب الاطفال مسحوبة من ادب الكبار نفسه . ويبدو أن عصرنا هذا هو عصر الذهن والنزعة العلمية الواقعية ، الشيء الذي يحتم على الادب أن يكون شكلا ما من اشكال تحسيس المقولات ، او تصويرا ، فاترا أحيانا ، لافكار ذهنية مجردة . ويبدو ان النزعة الذهنية كفيلة بان تسحب من الادب (أكان للصغار أم للكبار) كل طلاوة ورونق . فمالم يكن الادب توهجا داخليا مترعا بالروحانية والانفاس الاسطورية والعوالم الخيالية المخلوبة فانه سيفقد الكثير من مزيته، وربما استحال الى سأم وابتذال . ولهذا نلاحظ أن المجموعات الخمس الاخيرة ، وهي من نتاج النصف الثاني من عقدنا الراهن ، لم تستطع أن ترقى الى المستوى الانموذجي لقصص الصغار ، وذلك بحكم نزعتها التلقينية وافتقارها الى سمة الخلب الشاعرية والروحانية .

ويصدق القول نفسه على مجموعة نزار نجار ، « لماذا حزنت العصافير » ، ذات النزعة التعليمية المدرسية . فالقصة الاولى في هذه المجموعة درس في أن « هناك من يفرح ببرد الشتاء وبالغيوم والمطر » (ص ١١) . أما الثانية فدرس في وجوب مثابرة الطفل على الذهاب الى المدرسة . والثالثة درس في الاتحاد ، والرابعة درس خلاصته ان على الانسان أن لايأمن من عدوه . انها ، اذن ، مجموعة تحاول أن تعلم مباشرة ، ولذا فانها

ـ كالمجموعات السابقة سواء بسواء ـ لاتشبع بنية الصراع الداخلي ولاتغذو خيال الطفل التواق الى عوالم غريبة عن المألوف ، وهي لاتخاطب القلب البشري ، بل تتوجه الى سطح الذهن وتمسه مسا خفيفا .

وبذلك تعجز عن تفجير طفولة الطفل ، عن تنوير عنصر الدهشة فيه ، عن حاجته الى اكتشاف أبعاد سماوية في داخله ، أبعاد ليست وقائعية ولاعينية ، بل داخلية ذوقية ، لها نكهة الروح الغضير .

ثمة مجموعة تتميز بتفرد اختصاصها ، فهي قصص للاطفال منسوجة من الخيال العلمي . وعنوانها « كوكب الاحلام » ، ومؤلفها ، طالب عمران ، من المهتمين في الصحافة بقضايا العلم . ويبدو أن مثل هذه المجموعة يصعب أن يكتبها كاتب ليس له مثل هذا التخصص او الاهتمام .

ولعل سر المزية فيها أن قصصها تدمج العلم والخيال والدرامية في تركيبة واحدة . هذا فضلا عن أنها تضع الطفل في عوالم ليست مألوفة . ولهذا كان اسلوبها ثريا بالاخيلة ، نزاعا بوضوح نحو المصطلح العلمي ، المصطلح الفلكي والفيزيائي . ومع كل ذلك فقد جاءت هذه المجموعة غنية بمحتويات القلب البشري ، فالقصة الثانية ، وعنوانها « الغابة والمعركة » مثال جيد يؤيد صحة هذا القول . وبالطبع تنزع هذه المجموعة نزعة تعليمية مدرسية ، ولكن هذا مبرر ومشروع ، اذ هي قد صممت لتخدم هذا الغرض ، ولو نسبيا. والاهم من ذلك أنها لاتلقن الحكمة العلمية ، او الارشادات البسيطة التي اعتاد معلمو المدارس تكرارها على مسامع تلاميذهم ، بل هي تعلم الطفل اكتساب روح العالم الباحث في الفيزياء والفلك والحيوان وما الى ذلك . والجدير بالاحظة أن اجواءها بعيدة تماما عن الاجواء المدرسية المألوفة ، وذلك لانها تعرض النزعة العلمية في الطفل عبر اطار خيالي عاطفي .

فالمجموعة جهد خاص حبذا لو انه توسع بحيث يغدو ظاهرة مستتبة في حركة الادب الطفلي عندنا .

خامسا ـ التثمين العام :

لعل اول ملاحظة يسعنا تثبيتها بعد استعراض هذا الحشد من مجموعات القصة الطفلية، هي أن تلك المنتجات كثيرا ماتستنكف عن الاستجابة للحقائق الاساسية التي ينبغي ان نعرفها عن الطفل ، والتي لابد لكل ادب طفلي من أن يشبع الحاجات الداخلية المضمرة في تلك الحقائق .

اما الملاحظة الاساسية الثانية فتتلخص في جنوح الكثير من هذه القصص نحو التلقين المدرسي وتعليم دروس في الحكمة العملية ، وكأن ارشادات المعلمين والاهل لاتفي بالغرض. ان مثل هذه النزعة التعليمية المدرسية التي لاتمس الا سطح الذهن من شانها أن ترهق الطفل بمزيد من الدروس الجافة بعد أن يخرج من المدرسة مثقلا بالحكم والنصائح والارشادات . ثم ان هذه القصص التلقينية ، او الارشادية ، تفتقر الى مايحرض ذهن الطفل ويشجع فيه عنصر المحاكمة والتحليل ، عنصر البحث عن الحقيقة بنفسه فالقصة في كثير من الاحيان ، تسلم محتواها الى القارىء مباشرة ، تقدمه طعاما سائغا على طبق نظيف ، دون أن تترك للطفل فرصة الحدس او أو حركة الالمعية . فالصياد يقول للسمكة التي يصطادها فتحتج بانها صغيرة أملا بالعودة الى الماء : « سمكة صغيرة بيدي خير من سمكة كبيرة تاتيني بعد ثلاثة اشهر » أي ان عصفورا باليد خير من ثلاثة عصافير على الشجرة . حكمة شعبية معروفة ، تلكم هي القصة الطفلية في كثير من الاحيان .

اما الملاحظة الثالثة (النتيجة الحتمية للملاحظتين السابقتين) فهي الميل الى التسطح، وأحيانا الى السذاجة ، اذ استثنينا عددا صغيرا من المجموعات . وعلى أية حال فانها قلما تميل الى العمق ظنا منها ان الطفل عاجز عن فهم القصص العميقة،وذلك لان كثيرا من الناس يخلطون بين العمق والتعقيد ، أو الغموض ، على الرغم من كونهما متباينين قطعا . وبالطبع لا يملك العمل المسطح ان يخاطب أعماق النفس وان يحرض ما هو راكد في قاعها مطالبا بحق في الاشباع . وبذلك فان الاعمال المسطحة لايسعها أن تنتج الا عقلا مسطحا بالضرورة . اما المأخذ الرابع فان هذه المجموعات لاتراعي مسالة العمر والجنس . فهي جميعها قصص للاطفال ، وكأن الاطفال كلهم من مستوى واحد وسن واحد وجنس واحد . اما اناليافعين

الذين تجاوزوا العاشرة يحتاجون الى اكثر مما يحتاجه طفل في السابعة ، فهذا أمر لايؤخذ في الحسبان .

هذه المثالب الاربعة باديه للعيان . ولكن ثمه ماهو اخطر .

فالاهم من ذلك كله أن الكثير من مجموعاتنا الآنفة الاستعراض لايبدو عليها أنها تدرك ماهية الكائن البشري الذي تتعامل معه . فالطفل يواظب على مقارنة نفسه بالكبار ويحاول دائما أن يقلدهم في أعمالهم . وبهذا يثبت انه يشعر بنقصه بازاء البالغين ، ولكنه مع ذلك حافز على امتصاص مزايا الكبار وتمثلها . وهنا ، وعبر عملية « التقمص » هذه ، يبرهن الصغير على نزوعه نحو النضج او التكامل ، تماما كالكبار الذين يثابرون على تمثل شخصية من يفوقونهم من حيث النوعية ، وذلك ابتغاء الوصول الى هوية أسمى . ولدى استيعابنا لهذه المسالة يغدو من الواجب علينا أن نقدم للطفل النمط البشري الارقى الذي يرغب الصغير في التواحد معه ، أو قل يجب أن يمتصه لكي ينضج من الداخل . ان هذا التواحد هو في الحق غذاء دسم لبنية الطفل النفسية ، لانه ينمي قواه الكامنة، مثلما ينمي الطعام والدفء قواه الجسدية .

ولدى البحث عن القدوات العظيمة في المجموعات التي استعرضناها نجد أن معظم هذه المجموعات تفتقر الى البطل الذي ينبغي ان يمثل نداء للطفل يدعوه الى النضج ويأخذ بيده نحو التكامل والتفريد .

ومن جهة أخرى يحتاج الطفل دوما الى مايسقط عليه مكبوتاته المعادية للقيم والاسرة والحياة ، أعني نزعاته التدميرية ورغباته في العدوان والشر ، أو في الصدام مع الاخر . انه بحاجة الى بطل يمارس الشر بالنيابة عنه ، اي الى البطل الضد الذي يملأ الروايات الحديثة . وربما كانت الامم القديمة ، ولاسيما العرب والاغريق ، افضل من تنبه ــ ولو بطريقة لاشعورية ــ الى مثل هذه الحاجة في الانسان . ولهذا كان أوديب تدميرا خياليا لبنية الاسرة ، وكانت انتيغوني خرقا صريحا للقانون . وفي ظني ان معظم المجموعات التي استعرضناها لاتملك ــ بسبب من تسطحها وجنوحها نحو مخاطبة الذهن ــ أن تتيح الفرصة لاضفاءات الطفل كي تسفح في الخارج وتنهمر على بطل نكرهه جميعا لانه شرير ، ونحبه جميعا لانه يمارس الشر بالنيابة عنا . لقد اعتادت الجماعة البدائية أن تذبح كبشا تلقي عليه آثام العشيرة كلها ، وبذلك يتطهر الجميع في مناخ قرباني سري . هذا المناخ يحتاجه الطفل دوما لانه شديد الشعور بالذنب .

ان هاتين الحركتين ، التقمص (وهو ايلاج من الخارج الى الداخل) والاضفاء (وهو لفظ من الداخل الى الخارج) هما اهم آليات التكامل في النفس البشرية ، والطفل أحوج الناس الى التكامل والنضج . ولكن ، وعلى الرغم من اهميتهما ، فانهما لا يسعيما ان يجدا محرضاتهما الكافية ، او منشطاتهما الوفيرة في الكثير من المجموعات التي استعرضناها للتو . وهذا نقص كبير ، على القصة الطفلية في سوريا أن تجدّ باتجاه تغطيته .

فلدى تامل معظم هذه المجموعات نملك ببساطة أن نلحظ ما فحواه ان الجانب الساذج من الخيال الشعبي يتحكم بقسم كبير من قصصها ، اذ تحاول القصة الواحدة – في الغالب وليس دائما – ان تلقن الطفل حكمة شعبية ، كان يعمل بصمت أو أن يطيع والديه ، او أن يخبيء قرشه الابيض ليومه الاسود ... الخ . وكل قصة هذا شانها لا يسعها ان تحرض عملية الاضفاء أو عملية التقمص الا قليلا ، وذلك لانها تخاطب الذهن ولا تخاطب الصراعات والرغبات المكظومة في أعماق النفس . بل هي كذلك لا تخاطب روحانية الطفل او قلبه ، أعني الجانب الغض الطري في تركيبته الداخلية ، وهو الجانب الذي يحتاج الى الاغتذاء باللطائف على الدوام .

الطفولة صراع وطراء ، صراع ضد المجهول وضد القمع ، وطراء يتأسس على روح الاسطورة وسمة الدهشة ، على البراءة والحاجة الى الامن والحب والحنان . فما لم تملك القصة ان تغمس الطفل في الطفولة ، ان تعرّفه على السماوي الذي يستوطنه دوما ، فانها لن تكون قد استجابت بعمق الى حاجاته الداخلية ، كما انها لن تكون قد أوتيت درجة عالية من درجات النجاح .

اما صراعاته النفسية ، أكانت شعورية او لا شعورية ، فان الاستجابة لها ، ترويضها ، تخليص الطفل من شغبها ، لا يمكن ان يتم الا عبر رموز التكامل : الرحلة الطويلة الخطرة (رمز الحياة) ؛ الانتصار على الوحوش الضارية والجان والغيلان (الانتصار على القوى السوداء) ؛ تخليص الاميرة (رمز النفس) المعتقلة في سجن الساحر (رمز الشر والمجهول)؛ التحول من برهة الى برهة أسمى ؛ التجدد والولادة الثانية ؛ جدلية القحط والخصوبة ، أو الموت والحياة ؛ قتل الحوت الذي يبتلع فتاة كل سنة (الهيمنة على النفس والشر القائم في الذات والواقع) ؛ رموز الغداء ورموز التطهر ... الخ .

القصة الطفلية في سوريا – كما شاهدنا في العرض السابق – كثيرا ما تهمل روح الاسطورة والرموز اللاشعورية ، وفي القالب الاعم ، تحرم الطفل من تصفية صراعاته

الداخلية ، هذه الصراعات التي لابد من اخمادها كيما يتسارع سيره باتجاه الكمال . وبسبب من اهمالها لعنصر الدهشة الذي به تعاش الطفولة ، لانه يؤلف ماهيتها وقوامها ، فانها تخسر مزية الخلب والرونق . وبسبب من امعانها في تقديم الحقيقة جاهزة مفصلة ، فانها لا تترك للطفل فرصة كبيرة للحدس والتخمين ، أو للمحاكمة والمناقشة . ومثل هذا الحال لا يبني الا العقل المسطح .

■ ■ ■

وأيا ما كان الشان ، فقد استطاعت حركة القصة في سوريا ـ أبان عمرها القصير ـ ان تقدم بعض المنجزات الجديرة بالتقدير . ولقد سبق لي أن نوهت بتلك الاعمال الناجحة ، التي يتوقف سر المزية فيها على الشاعرية واللغة الفنية ومخاطبة روح الطفل بدلا من ذهنه . والاهم من هذا ان القصة الطفلية في سوريا قابلة للنمو والتطور عبر الاغتناء بالتاريخ والموروث الشعبي ، وكذلك بمجموعة « ألف ليلة وليلة » . فالشعوب تقبل التعلم من تراثها .

قائمة المجموعات

١ ـ زكريا تامر : لماذا سكت النهر . وزارة الثقافة ، ١٩٧٣ .
٢ ـ زكريا تامر : قالت الوردة للسنونو . اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٧٧ .
٣ ـ عادل ابو شنب : السيف الخشبي . وزارة الثقافة ، ١٩٧٥ .
٤ ـ عادل ابو شنب : الطفل الشجاع . اتحاد الكتاب ، ١٩٧٧ .
٥ ـ عادل ابو شنب : معطف الاختاء . وزارة الثقافة ، ١٩٧٦ .
٦ ـ عبد الله عبد : العصفور المسافر . وزارة الثقافة ، ١٩٧٥ .
٧ ـ ليلى صايا سالم : البلاد الجميلة . وزارة الثقافة ، ١٩٧٨ .
٨ ـ دلال حاتم : السماء تمطر خرافا . وزارة الثقافة ، ١٩٧٦ .
٩ ـ لينا كيلاني : العصافير لاتحب الزجاج ، بالتعاون مع الاتحاد ، ١٩٧٩ .
١٠ ـ أحمد يوسف داود وآخرون : الوشاح الازرق . وزارة الثقافة ، ١٩٧٥ .
١١ ـ أيوب منصور : نجمة الصبح . وزارة الثقافة ، ١٩٧٦ .
١٢ ـ أيوب منصور : سلام في مدينة الاحلام . وزارة الثقافة ، ١٩٧٧ .
١٣ ـ جورج فس : مذكرات عصفور . وزارة الثقافة ، ١٩٧٨ .
١٤ ـ مكرم الكيال : الشهداء لا يموتون . وزارة الثقافة ، ١٩٧٨ .
١٥ ـ خيري عبد ربه : مطعم الذئب . بالتعاون مع الاتحاد ، بلا تاريخ .
١٦ ـ نزار نجار : لماذا حزنت العصافير . اتحاد الكتاب ، ١٩٧٨ .
١٧ ـ طالب عمران : كوكب الاحلام . اتحاد الكتاب ، ١٩٧٨ .
ملاحظة : هذه المجموعات كلها طبعت في دمشق .

واقع البنية الفنية لقصص الاطفال في سورية ★

سمر روحي الفيصل

مقـدمة :

قبل الحديث عن جزئيات البنية الفنيـة لقصص الاطفال في سورية ، لا بد من التذكير بظاهرة القصة القصيرة جدا ، التي رأيناها في القصص الصادرة عن المؤسسات الرسمية ، وظاهرة القصة القصيرة التي رأيناها في القصص الصادرة عن دور النشر الخاصة . ذلك أن الموضوعات والشخصيات والقيم والمعارف والبنـاء اللغوي ، وهي الاجزاء التـي سنقف عندها في الصفحات التالية ، يستند توضيح كثير منها الى طول القصة وقصرها ، وبالتالي نحتاج الى تفصيل شؤونها في كل جزء على حدة ، مما يعني تكرار القول في نقطة واحدة دون وجود مسوغ لذلك ، ولهذا آثرنا الحديث عن هاتين الظاهرتين في المقدمة .

نقصد بالقصة القصيرة جدا تلك التي لا يتجاوز عدد كلماتها أربعمائة كلمة في الغالب الاعم. وهذا النوع واضح في اقاصيص زكريا تامر وعادل أبو شنب وأيوب منصور ودلال حاتم وعبد الله عبد (١) ونزار نجار ، وفي قصص الصحف ، وفي كثير من قصص المجلات ، وفي

★ هذه الدراسة فصل من كتاب « قصص الاطفال في سورية » معد للطبع .

(١) كتب عبد الله عبد في حياته ثماني وأربعين قصة ؛ منها أربع وثلاثون قصة في مجموعة العصفور المسافر ، وأربع عشرة قصة في مجموعة الطيران الاول . راجع : البداية الاصلية والنهاية المتقدمة لعبد الله عبد ، محسن يوسف ـ مجلة الموقف الادبي : العدد ٨٩ ـ أيلول ١٩٧٨ ـ ص ٦١ .

القصص المترجمة . وعلى سبيل المثال لا الحصر فان مجموعة « قالت الوردة للسنونو » لزكريا تامر تضم تسع عشرة قصة ، اقصرها قصة العشب الاخضر (٧١ كلمة) ، وأطولها قصة ملك الحمقى (٦٥٠ كلمة) . ومجموعة « لماذا حزنت العصافير » لنزار نجار تضم عشر قصص ، اقصرها قصة الثعلب هو الثعلب (١٧٥ كلمة) ، وأطولها قصة الدخيل (٢٨٠ كلمة) . والملاحظ أن قليلا من قصص زكريا تامر في هـذه المجموعـة يرتفع فوق ثلاثمائة كلمة (٢) ، وقليلا آخر يرتفع فوق مئتي كلمة (٣) ، في حين أن غالبية القصص تنخفض عن مئتي كلمة (٤) ، وكذلك الامر في مجموعة نزار نجار وان لوحظ أن القصص كلها تقريبا تقترب من (٢٥٠ كلمة) ما عدا القصة المذكورة على أنها اقصر قصص المجموعة. يضاف الى ذلك أن القراءة المعتدلة السرعة مع فهم المقروء من قبل قارىء طفل في الصف السادس الابتدائي ، عمره بين الحادية عشرة والثانية عشرة ، تحتاج الى ثلاث دقائق في قصة يبلغ عدد كلماتها (٣٧٠ كلمة) .

أما القصة القصيرة فنقصد بها تلك التي يكون عدد كلماتها بين ١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠ كلمة ، وتحتاج قراءتها الى ثماني دقائق وما فوق . وهـذا النوع واضح في قصص دور النشر الخاصة ، وفي القصص المقررة في المدارس الابتدائية ، وفي قصص منظمة طلائع البعث ، وفي بعض قصص المؤسسات الرسمية (٥) .

الموضوعات

هناك فارق واضح بين موضوعات القصة القصيرة جدا وموضوعات القصة القصيرة . فالاولى تتضمن حدثا واحدا في القالب ، وتحرص على أن يكون بسيطا يقود الى دلالة

(٢) يوجد من هذا النوع قصتان ما عدا المذكورة سابقا هما : حصان الاجداد (٣٢٠ كلمة)، وماذا قال الثعلب وماذا قالت انيابه (٢٦٨ كلمة) .

(٣) يوجد من هذا النوع اربع قصص فقط هي : الحمار والقط (٢١١ كلمة) ، مرآة الغراب والبومة (٢٣١ كلمة)، الديك يجد عملا (٢٧١ كلمة)، الفار رساما(٢٧٩ كلمة).

(٤) هناك قصة في (٧٥ كلمة) ، واخرى في (٨٦ كلمة) ، وثالثة في (٩٢ كلمة) ، وأطول قصة من القصص الباقية تبلغ (١٧٦ كلمة) .

(٥) نقصد بذلك قصص مجموعة « الوشاح الازرق » وقصتين من قصص مجموعة « كوكب الاحلام » .

محددة . كما تحرص على التركيز والاقتصاد في استخدام الالفاظ ، وتستبعد كل وصف لا يقدم شيئا لطريقة عرض الحدث ، ولا يضيف جديدا الى الدلالة المبتغاة من القصة . وفي الغالب تطرق القصة القصيرة جدا غرضها مباشرة ، وتعتمد على ضعف ارتباط الطفل بالواقع ، وتجمع بين السرد والحوار ، وفي الندرة تستعين بالرمز ، أو تجعل الدلالة المحددة رمزية .

اما القصة القصيرة ، وهي النوع الثاني ، فتستخدم في العادة مجموعة أحداث ترتبها ترتيبا معينا كي تنتهي منها الى مغزى محدد . يضاف الى ذلك لجوؤها الى العرض والعقدة والخاتمة ، وجمعها بين السرد والحوار ، مع ما هو ملاحظ من طغيان الاول على الثاني لسد الثغرات في الزمن القصصي ، ومن حرص على وصف الجزئيات والشخصيات، وابتعاد واضح عن الرمز .

بدهي ان النوعين معا يحتاجان الى انسان ذي موهبة حتى يجعلها قصة فنية ، ولكن مشكلة النوعين معا لا تختلف في قليل او كثير عن مشكلة قصص الكبار القصيرة جدا او القصيرة ، فهي عسيرة التاليف في الحقيقة ، سهلة في ظاهر الامر . ان التكثيف والتركيز والترميز والاقتصاد في اللغة تحتاج الى قاص متمكن من فنه ، كما أن السرد والوصف والعقدةوترتيب عناصر الفكرة والحوار تحتاج هي الاخرى الى قاص متمكن من فنه . الا أن عديدا من الكاتبين يرون النوعين بسيطين فيحاولون مزاولتهما ولكنهم يخفقون في ذلك ، تبعا لكون السهولة البادية لهم من نوع السهل الممتنع . والواضح أن قصص الاطفال في سورية تتضمن هذه البساطة وبالتالي هذا الاغراء ، ومن هنا يشهد المرء هجوم الكاتبين عليها ، كما يشهد أن السرد النثري وليس النثر القصصي هو الغالب في قصص النوعين معا .

ان قصة « العفاريت الصغار »(٦) لاحمد راتب الخشن من النوع السردي النثري . فموضوعها يدور حول حذاء فقير لم يعد يملك سوى جلد يكفي لصنع حذاء واحد ، ولهذا يحار في أمره اذا هو صنع الحذاء غدا وباعه من أين يعيش في الايام التالية . على انه يفصل الجلد مساء على أن يعود الى صنعه في الصباح ، ولكنه يجده في اليوم التالي حذاء متين الصنع أنيق الشكل ، فيعجب من ذلك ويتساءل عن الذي صنعه تحت جنح الظلام . يبيع الحذاء الحذاء الجديد بثمن مرتفع يشتري به جلدا يكفي حذاءين ، فيجري له معهما

(٦) من منشورات دار كرم بدمشق .

ما جرى مع الحذاء السابق ، يفصلهما مساء ويعود صباحا ليجدهما متيني الصنع أنيقي الشكل ، فيبيعهما بثمن غال يشتري به جلودا أخرى ، وهكذا حتى يصبح غنيا مشهورا . غير أنه أراد اكتشاف الصانع الماهر فاختبأ وزوجته في الدكان حتى كان منتصف الليل ، حيث جاء عفريتان صغيران في ثياب بالية ، وجلسا يعملان حتى فرغا من صنع الجلود كلها . وقد أراد الحذاء مكافأتهما ، فاشترى لهما ثوبين جديدين وفصّل لهما حذاءين ، وترك ذلك كله في الدكان . ولما عاد العفريتان في الليلة التالية فرحا بالثياب والاحذية ، فلبساها وغادرا المكان ولم يعودا اليه .

تتضمن القصة موضوعا كما هو واضح من التلخيص السابق ، ولكنه موضوع أسيء اختياره، ليس لأنه ذو شخصيات من الجان وانما لانه يطرح شيئا سلبيا هو الانتقال من الفقر الى الغنى بمساعدة خارجية ، وانتفاء دور العمل وقيمته في ذلك ، كما انه يحض على التواكل والشهرة الزائفة . يضاف الى ذلك أنه لا يوفر أية قناعة لدى الطفل ، تبعا لانتفاء الصوغ الفني من الموضوع والاحتماء خلف سرد حادثة خيالية معينة . ومن هذا النوع أيضا قصة « الحجرة العجيبة »(٧) لمنذر شعار ورفاقه ، فهي تتحدث عن حجرة عجيبة في فندق يأتي اليه رجل وامرأته تعبين يطلبان مكانا يبيتان فيه ليلتهما . ثم يتبين أن الحجرة عجيبة لان نابليون بونابرت قد سكنها قديما ، ولان فيها « صحونا » مكدسة على رف خشبي ، فاذا كذب المقيم في الحجرة كذبة سقط صحن من على الرف ، فيكذب الرجل وتكذب امرأته ويكذب صاحب الفندق فتتساقط الصحون تباعا .

ان قصة « كوكب الاحلام »(٨) لطالب عمران ، وهي قصة من الخيال العلمي في ١٥٣٠ كلمة ، تتضمن موضوعا علميا خياليا عن سفينة الفضاء العربية ابن رشد ، التي حطت في كوكب « المارد » . ولكنها تتضمن قدرا واضحا من الغموض الفني ، وتشويقا في طريقة ترتيب عناصر الموضوع ، كما تتضمن معارف علمية وقيما ايجابية ، اضافة الى أنها تطرح المستقبل أمام الطفل ، وتستعين على ذلك بالخيال وبالمكن تحقيقه من الاشياء . وتشبهها في ذلك قصة أخرى في المجموعة نفسها بعنوان « كارثة سفينة الفضاء غاما » ، وان انخفضت عنها في السوية الفنية وفي توجيه الخيال .

(٧) من منشورات مكتبة ربيع بحلب .

(٨) من منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ضمن مجموعة تحمل الاسم نفسه .

أما القصص القصيرة جدا فالامثلة وافرة عنها ، سواء أكانت جيدة أم سيئة . ففي مجموعة « العصفور المسافر » لعبد الله عبد لايجد المرء شيئا في القصص التالية : السنونو - صباح - العصفور المسافر - هموم خلد - الفار يخدع القط ، في حين ترتفع قصص أخرى في المجموعة نفسها الى مرتبة الجودة من نحو : الملك والغزال - السمكة الكبيرة - النورس - النجوم - البستان والرمانة الهرمة - الدبور والزهرة - الافعى . وفي مجموعة « السماء تمطر خرافا » لدلال حاتم ، لايجد المرء شيئا في القصص التالية : العصفور الخشبي - البالون والريشة - الزنبقة والعصفور - شجرة الخوخ وشجرة التفاح - الديك المغرور والدجاجة الحمقاء - الشمعة وعود الثقاب - عيدية نبيل - السحابة الخيرة ، في حين يجد شيئا كثيرا في القصص التالية : موت النسر - فرخ اليمام يغادر عشه - الجدول الصغير - الديك والساعة .

لا يستطيع المرء تقديم تصنيف دقيق للموضوعات التي عولجت في قصص الاطفال السورية ، غير أن هناك تأكيدا على الموضوعات التالية :

١ - تعليل أشكال الحيوانات وتصرفاتها وسلوكها وطباعها وما يتعلق بها . ويبرز في هذا الاتجاه زكريا تامر وعبد الله عبد ، والاخير على وجه الخصوص ، وان لم يخل كاتب من الاسهام في هذا الموضوع على نحو أو آخر .

٢ - الموضوعات الاجتماعية كالتعاون والاثرة والفقر والامومة والعمل وما يتعلق بها من قيم ومعارف . وقد التفت الى هذا غالبية قصاصي الاطفال في سورية . ولقد برزت دلال حاتم في موضوعات الامومة وبرز أيوب منصور في موضوعات العمل .

٣ - الموضوعات الوطنية والقومية ، وتشكل نسبة كبيرة من اهتمامات القصاصين السوريين . ولقد برز فيها عادل أبو شنب وياسين رفاعية على وجه الخصوص ، ولم تخل كتابات عديدة لآخرين من مساهمات جادة في هذا النوع .

٤ - الموضوعات الخيالية العلمية ، ويكاد طالب عمران يكون وحيدا في هذا النوع لولا مشاركة أحمد عزيز له أحيانا .

٥ - الموضوعات المستمدة من التاريخ العربي ، وقد برز نزار نجار في هذا النوع .

٦ ـ الموضوعات المستمدة من العقيدة الاسلامية ، وتكاد المعارك والفتوحات تكون وحيدة في هذا النوع ، اضافة الى سيرة الرسول (ص) والصحابة وبعض التابعين .

٧ ـ الموضوعات المستمدة من التراث العربي ، كقصص الامثال والحروب والاخبار والسير الشعبية ، ولم يلق هذا النوع عناية كبيرة .

يلاحظ المرء ـ آخيرا ـ أن غالبية موضوعات قصص الاطفال في سورية تعتمد على مبدأ ضعف ارتباط الطفل بالواقع ، ولهذا تتكلم الحيوانات وتتحاور فيما بينها ، وتخاطب الانسان ، وتتبادل معه الحديث . كما ان الطبيعة الصامتة تفعل الشيء نفسه ، وتتمتع باحاسيس الانسان العادي من حب وكره وفرح وحزن وغضب ، ومن امثلة ذلك مجموعة السيف الخشبي لعادل ابو شنب ، ونجمة الصبح لايوب منصور ، وقالت الوردة للسنونو لزكريا تامر ، والعصفور المسافر لعبد الله عبد ، ولماذا حزنت العصافير لنزار نجار ، وكوكب الاحلام لطالب عمران . ويستطيع المرء معرفة التاكيد على هذا المبدأ من قراءة أية مجموعة قصصية ، كهاتين المجموعتين مثلا :

أ ـ من مجموعة السماء تمطر خرافا لدلال حاتم :

القصص التالية : العصفور الخشبي ـ موت النسر ـ فرخ اليمام يغادر عشه ـ الريشة والبالون ـ السحابة الخيرة ـ الشمعة وعود الثقاب ـ الطفل والشتاء ـ ريمة والقمر ـ حلم رامي ـ السماء تمطر خرافا ـ دموع ماجد ـ الصياد والربيع ـ اصدقاء عادل .

ب ـ من مجموعة العصافير تبحث عن وطن لياسين رفاعية :

القصص التالية : العصافير تبحث عن وطن ـ البحر ـ السمكة الملونة ـ وطن الارنب ـ العدو اللدود ـ تمثال من الرمل ـ العصفور والقفص .

هذا المبدأ صحيح دقيق في الغالب الاعم ، وبخاصة في قصص الاطفال الذين لم يتجاوزوا التاسعة من عمرهم . الا أن ذلك لا يعني أنه المبدأ الوحيد الصحيح الدقيق ، فهناك الخيال ، والتمركز حول الذات ، والموضوعات الخاصة بالذكور دون الاناث والعكس والتعريف بالبيئة المحيطة ، والتقمص ، وهذه كلها مبادىء سليمة لم يجر التاكيد عليها

كما جرى بالنسبة للمبدأ المذكور . على أن قضية موضوعات قصص الاطفال لا تقف عند حد الانشغال بهـذا المبدأ وجعله محورا أساسيا ، وانما هناك شيء يجعلنا نقول مطمئنين ان موضوعات القصص تتحكم فيها قضية القيم والمعارف على وجه الخصوص ، بحيث يكون الهدف المعرفي العامل الاول في اختيار الموضوع ، او تكون القيمـة هي العامل الاول ، مما يجعل الموضوع خادما لهما وليس العكس ، وسنوضح هذا الامر أكثر في أثناء حديثنا عن القيم والمعارف .

الشخصيات

ان سيطرة مبدأ ضعف ارتباط الطفل بالواقع على موضوعات قصص الاطفال السورية ، كان لها تأثير سلبي في شخصيات القصص القصيرة جدا ، كما كان الامر في موضوعات القصص نفسها . والملاحظ أن هناك تأكيدا على ثلاثة أنواع من الشخصيات هي : الحيوان ـ أشياء الطبيعة ـ الانسان (الطفل بالذات) .

أما الحيوان فالقصص السورية القصيرة جدا مشغوفة بتحليل تصرفاته وطبائعه وعلاقاته بالانسان وبالحيوانات الاخرى ، اضافة الى شغفها بتحليل تكوينه الخلقي والجسمي . والمعروف جيدا أنه لا يوجد لدى الطفل فرق بين أن يكون بطل القصة حيوانا أو انسانا ، لان المهم عنده مايقوم به البطل وليس نوعه او جنسه . وعلى الرغم من كون الطفل نفسه يعي شيئا ان الحيوانات لا تحمل خصائص الانسان ، فهي لا تتكلم ولا تفرح ولا تغضب الا أنه يبقى مرتبطا بها لما تثيره في نفسه من متعة . ومشكلة قصص الاطفال عندنا هي أن ولوع القصاصين السوريين بالشخصيات الحيوانية ومعرفتهم التصاق الطفل بها ، قد دفعهم الى جعلها تؤدي الاهداف والقيم التي يتطلع المجتمع العربي الى تحقيقها ، ولسوف نلاحظ ذلك بوضوح في أثناء حديثنا عن القيم والمعارف . الا أن هذا الولوع الايجابي قد أثر ـ من ناحية أخرى ـ تأثيرا سلبيا في الشخصيات نفسها ، فجعلها تضمر وتنزوي وترضى بدور الخادم للاهداف السلوكية ، دون أن تكون قادرة على التمسك بدورها الفني في عرض مواقف السلوك أمام الطفل . ونحن نقصد بالدور الفني الشخصية في قصص الاطفال التزامها بحد معين بسيط من الافكار الكبيرة ، وتعبيرها عما يهم الطفل ، وما يتعلق ببيئته المحيطة ، وبشيء من الافكار المهدة لحياته المستقبلية . وهذا الالتزام بالدور الفني

لا نجده كثيرا في الشخصيات القصصية ، بل نراها تعبر عن آراء محددة في القضايا الوطنية والقومية والاجتماعية ، وكأن الطفل يعي اختلاف الآراء في القضية الفلسطينية أو الوحدة العربية أو الهجمة الاستعمارية أو النفاق الاجتماعي والرشاوى والاختلاسات ، والمشكلة أننا لا نرى شخصيات قصص الاطفال تعبر عن القضايا الكبيرة فقط ، بل تحاول دوما طرح آراء خاصة فيها ، ويغلب أن تكون هذه الآراء والمعالجات واردة على لسان الشخصيات الحيوانية ، مما يجعلنا نشك - أحيانا - في أن القاص ينطق شخصيات قصصه ما يريد قوله أو عرضه من آرائه في قضايا الانسان العربي في العصر الحديث ، الامر الذي جعل القصص تجنح نحو التعبير الرمزي عوضا عن التعبير المباشر الملائم للطفل.

لا تختلف أشياء الطبيعة ومظاهرها في قليل أو كثير عن هذا الامر ، فقد رضيت هي الاخرى بدور الخادم للاهداف السلوكية ، وان لاحظ المرء ابتعادها النسبي عن التعبير عن آراء خاصة في القضايا الوطنية والاجتماعية .

أما الانسان فعلى الرغم من اشتراكه في الخصيصة ذاتها الا أنه انصرف الى شيء آخر هو التاكيد على كون البطل الانسان من الصغار ، مع الابتعاد شبه الكامل عن جعل الكبير بطل قصص الاطفال ، ولا يدري المرء سبب تاكيد القصاصين السوريين على هذه النقطة ، على الرغم من أنه لا يوجد فرق بين أن يكون البطل طفلا أو كبيرا ، تبعا لكون الطفل القارىء يهتم بالسلوك والطبائع والاعمال دون الحجوم والاشكال والانواع . ان الكبير يصلح بطلا لقصص الاطفال كما يصلح الصغير والحيوان والطبيعة لها دون وجود أي فارق بينهما . ومن المفيد هنا عرض أسماء الانواع الثلاثة كما وردت في ثماني مجموعات قصصية سبق الحديث عنها ، بغية التعرف على النهج العام لشخصيات القصص السورية القصيرة جدا .

١ - السماء تمطر خرافا لدلال حاتم :

أ - الحيوان : العصفور - النسر - فرخ اليمام - القطة - الديك - الخروف - القنفذ - الحمامة - الارنب .

ب - الطبيعة : ميزان الحرارة - البالون - الريشة - السحابة - السنبلة - حبة القمح - الشتاء - اللعبة - الطائرة الورقية - الريح - الصور - الجدول - الصخرة - الزنبقة - الساعة - شجرة الخوخ - شجرة التفاح - عود الثقاب - الشمعة .

ج ـ الانسان :

+ : الساعاتي ـ الطفل ـ الصياد العجوز .

+ : رامي ـ ماجد ـ عادل ـ ريمة ـ خالد ـ أم خالد .

٢ ـ العصافير تبحث عن وطن لياسين رفاعية :

أ ـ الحيوان : العصفور ـ السمكة ـ الديك ـ الارنب ـ الذئب ـ النسر .

ب ـ الطبيعة : .....

ج ـ الانسان : + : الولد .

+ : بسام ـ عمر ـ سعيد ـ لينا .

٣ ـ السيف الخشبي لعادل أبو شنب :

أ ـ الحيوان : القطة فلة ـ العصفور .

ب ـ الطبيعة : ....

+ : أحدهم ـ صبي صغير ـ الحارس ـ اللص ـ امرأة عجوز ـ توأمان ـ ملك طاغية ـ

ج ـ الانسان :

الجنود ـ الناس ـ الاب .

+ : سالم ـ سعيد ـ أم سعيد ـ أحمد ـ محمود .

٤ ـ نجمة الصبح لايوب منصور :

أ ـ الحيوان : الفيل ـ الغول ـ العصافير ـ الدجاجة ـ التيس ـ الديك الرومي ـ النمل ـ الهر ـ السلحفاة ـ الجمل ـ العقاب ـ الفراشة ـ العندليب ـ القطة مرمر ـ الفار الوزير ـ سلطان الفئران ـ القطة ـ الحمار ـ السنونو ـ الثعلب ـ البلبلة ـ الخلد ـ المهر .

ب ـ الطبيعة : نجمة ـ الرياح ـ شجرة السنديان ـ البحر ـ الغيمة ـ الصفصافة ـ الصبار ـ شجرة الزيزفون .

ج ـ الانسان :

+ : الحطاب ـ الرجل ـ الرجل البدين .

+ : رباب ـ يونس ـ محمود ـ مصطفى ـ بادية ـ حنتوش ـ عدنان .

٥ ـ قالت الوردة للسنونو لزكريا تامر :

أ ـ الحيوان : العصافير ـ القط ـ الحمار ـ السنونو ـ الفار ـ الطيور ـ القطة ـ الديك ـ النملة ـ الغراب ـ البومة ـ الجياد ـ طاووس ـ الثعلب .

ب ـ الطبيعة : الوردة .

ج ـ الانسان :

+ : الملك ـ الوزير ـ الرجال ـ الشاب ـ البنت ـ الام ـ الشرطي ـ ولد صغير ـ صبي .

+ : مها ـ نهلة ـ فؤاد .

٦ ـ العصفور المسافر لعبد الله عبد :

أ ـ الحيوان : بطة ـ عصفور ـ الكلب ـ الهر ـ السنونو ـ الارنب ـ السمكة ـ الخلد ـ الثعلب ـ الخروف ـ الذئب ـ النورس ـ الباشق ـ النملة ـ الدبور ـ الغراب ـ القبرة ـ نقار الخشب ـ ببغاء ـ الفار ـ القط ـ الافعى ـ البقرة .

ب ـ الطبيعة : السنبلة ـ القمر ـ الشمس ـ الشجرة ـ الريح ـ السحاب ـ الشتاء ـ المطر ـ الثلج ـ الياسمينة ـ الوردة ـ فم السمكة ـ النجوم ـ البستان ـ شجرة الرمان ـ الزهرة ـ قطرة الندى ـ طابة ـ الغيمة ـ الشجرة ـ المراكب ـ الجبل .

ج ـ الانسان :

+ : القاضي ـ الملك ـ العجوز ـ الولد ـ رجل ـ ابن الملك ـ الاطفال .

+ : ....

٧ ـ لماذا حزنت العصافير لنزار نجار :

أ ـ الحيوان : النملة ـ العصافير ـ البطة البيضاء ـ الثعلب ـ الكلب ـ الافعى ـ السمكة ـ الغراب .

ب ـ الطبيعة : السحابة ـ الشمس .

ج ـ الانسان :

+ : الرجل ـ الفارس .

+ : سعد ـ سماح ـ أبو أحمد ـ خالد .

٨ ـ كوكب الاحلام لطالب عمران :

أ ـ الحيوان : الغوريلا ـ الطاووس ـ النسر ـ السمكة ـ اللمنغ ـ اليعسوب ـ الارملة السوداء .

ب ـ الطبيعة : ....

ج ـ الانسان :

+ : .....

+ : ماجد ـ داليا ـ رؤيا ـ أحمد .

يلاحظ المرء من العرض المتقدم للانواع الثلاثة ما يلي :

١ ـ أن الكثرة الكاثرة من الشخصيات هي من الحيوان ثم أشياء الطبيعة ثم الانسان .

٢ ـ أن هناك حيوانات لقيت عناية كبيرة من نحو : القط ـ الفار ـ الثعلب ـ العصفور ـ الذئب ـ السمكة ـ الكلب . ومن المفضل هنا تعزيز الاتجاه القائل بتسمية الحيوان باسم من أسماء الانسان ، من نحو : القطة فلة او القطة مرمر ، عوضا عن جنس القطط دون تسمية .

٣ ـ أن هناك أشياء في الطبيعة والواقع المحيط بالطفل لقيت عناية خاصة من نحو : الريح ـ الشتاء ـ السنبلة ـ القمر ـ البحر ـ الشمس . وأن هناك قصاصين لم يلتفتوا الى هذا النوع بتاتا : ياسين رفاعية ـ عادل أبو شنب ـ طالب عمران . وان غالبية أشياء الطبيعة غير موصوفة على الرغم من أن الصفة تحددها في نظر الطفل وتجعله يميل اليها أكثر ، فالفارق واضح بين شخصية « الشجرة » دون أية اضافة ، وشخصية « شجرة التفاح ، أو الزيزفون او الرمان او الخوخ » بالاضافات الملحقة بها .

٤ ـ أن هناك انحسارا في شخصيات الانسان المسمى باسم من أسماء الاعلام على حساب تألق شخصية الانسان الموصوف بعمله ، على الرغم من التعادل الظاهري في أثناء التعداد الكمي . ذلك أن تسمية البطل باسم محدد يجعل الطفل أكثر ارتباطا بالقصة من وصف البطل بـ « القاضي ـ الملك ـ ولد ـ بنت ـ أحدهم ـ العجوز ـ الطفل ... الخ » دون تسمية . والملاحظ ايضا ان الشخصيات مقصورة في الغالب الاعم على الابطال الصغار دون الكبار وان لم يكن هناك مسوغ لذلك .

٥ ـ تضم المجموعات الثماني سبعا وثلاثين ومئة قصة ، وردت فيها (٢١٣) شخصية(٩) على النحو التالي :

اسم المجموعــة	عدد القصص فيها	عدد الشخصيات
السماء تمطر خرافا	٢١	٢٨
العصافير تبحث عن وطن	١١	١١
السيف الخشبي	٧	١٧
نجمة الصبح	٢٥	٤١
قالت الوردة للسنونو	١٩	٢٨
العصفور المسافر	٣٤	٥١
لماذا حزنت العصافير	١٠	١٦
كوكب الأحــلام	١٠	١١

اما القصص السورية القصيرة فامرها مختلف كثيرا عن امر القصص القصيرة جدا . ففيها عناية واضحة بالشخصيات ، وبالذات شخصيات الكبار ، وتتضح اهمية هذه العناية اذا التفتنا الى قضية هامة في شخصيات قصص الاطفال ، هي قضية الانتحال او التقمص. ذلك ان الطفل القارىء يوازن باستمرار ـ في اثناء القراءة ـ بين موقفه وموقف بطــل القصة ، وبالتالي ينتحل شخصيته ويروح ينطق كلاما شبيها بما نطق البطل في القصة ، او ينفذ اعماله ويقتدي بتصرفاته . والواضح ان هذه الموازنة التي تقود الى التقمص هامة جدا لانها معيار لقوة الفعالية التربوية ، فاذا كان بطل القصة ايجابيا ، يساعد الفقراء والمحتاجين ، ويتحلى بصفات خَلْقية وخُلُقية ، فان الطفل سيحاول تقليده في هذه الامور ، والعكس صحيح أيضا . وهذا الامر يوضح تأثير الانتحال في حياد الاطفال من حيث المشاعر ، وفي تربيتهم عن طريق الكتاب(١٠) .

ان القاص لا يستطيع الاطمئنان الى ان الطفل سيتقمص دور البطل ما لم يتوفر على رسم شخصية قصصية تشد الطفل اليها ، فينفعل بها ، ومن لم يتغير سلوكه تبعا لقوة

(٩) لا يدخل في هذا الرقم الاسماء التي وردت اكثر من مرة في المجموعة الواحدة ، على الرغم من كثرة ورود ذلك الامر .

(١٠) انظر : الادب والقراءة ـ عبد الرزاق الاصفر ومحمد نديم عدي ، وزارة التربية ـ دمشق ١٩٧١ ـ ص ١٤ .

الانفعال نفسه . وذلك يقتضي وجود شخصية واضحة السمات والافعال والاهداف ، كما يقتضي أن تكون لصيقة بنفس الطفل وبمرحلة نموه ، توافق رغباته وميوله . فالشخصية المغامرة مثلا تجذب الطفل اليها ، ومن هنا تكون صالحة لبطولة القصص الخاصة به . الا أننا لا نستطيع التغاضي عن خطر أدب المغامرات في الطفل ، ومن هنا ينبغي لنا توجيه خياله توجيها سليما بان نجعل الشخصية المغامرة تناضل في سبيل المجتمع وليس ضده ، كما نجعلها تعي الشيء الذي تناضل من أجله . وعلى النحو نفسه يستطيع المرء القول ان احترام شخصية الطفل القارىء يقتضي توجيهه الى قراءات معينة ، دون الزامه على قراءة ما لا يعنيه أو ما لا يناسب مستواه العقلي ، وبالتالي يمكن أن نراعي في الشخصية القصصية ما نراعيه في أمور الطفل من حيث الفروق الفردية والعمر والمزاج الشخصي والبيئة والفروق الجنسية .

لقد التفتت القصص السورية القصيرة الى الشخصية القصصية من حيث وضوحها واهدافها ، وقلة عددها في القصة الواحدة . الا أنها لم تستطع الاستفادة من قضية الانتحال استفادة كاملة ، وبالتالي لم تستطع تجذير شخصية معينة يستطيع الطفل متابعتها في مواقف حياتية متنوعة ، كما فعل زكريا تامر في شخصية « رندا » ، وعادل أبو شنب في شخصية « أسامة » ، حين جعلا هاتين الشخصيتين بطلي عديد من قصصهما. ان الطفل يبحث في بطل القصة عن شيء يحبه ويرغب فيه ويتطلع اليه ، فان وجده فيه التصق به وتتبع حركاته وسكناته ، وعاش معه بعقله وخياله ، ومن ثم يتقمص دوره في الحياة ، ويعيش حياته نفسها .

القيم والمعارف

ان قصص الاطفال القصيرة جدا ظاهرة ايجابية وسلبية في الوقت نفسه . ويلاحظ المرء أن مبدأ ضعف ارتباط الطفل بالواقع قد استحوذ على القصاصين السوريين ، فجروا وراءه وبخاصة في الموضوعات التي يكون بطلها حيوانا مألوفا لدى الطفل ، ولان القصة القصيرة جدا لا تستوعب حدثا قصصيا كبيرا ، أو مجموعة احداث صغيرة ، لذلك اكتفى القصاصون السوريون بحدث بسيط جعلوه موضوع قصصهم ، على ان يقودهم الى غرس قيمة محددة ، أو هدف معرفي معين . وبالتالي يلاحظ المرء أن القيم والمعارف قد سيطرت على موضوعات القصص القصيرة جدا ، فصيرتها قصصا ذات مغزى ، ولكنها من ناحية

اخرى جعلت الحدث القصصي يبهت لضعف اعتماد القاص عليه ، مما ادى الى ضعف الاعتماد على الخيال ، وضعف آخر في المتعة والتشويق اللذين يوفرهما النص القصصي الطويل أو المتوسط الطول دون النص القصير .

ان تعزيز اتجاه قصص الاطفال نحو القصة القصيرة جدا ينبغي له ان يترافق مع اتجـاه القصص نفسها نحو النصوص الطويلة ذات الموضوعات الواضحة ، والمعالجة القصصية ، والشخصيات ، والتشويق والخيال ... الخ ، والا فسيصبح نشر المجموعات القصصية تقليدا يصعب التخلي عنه حين نعي جيدا ان الطفل لا يمكن له ان يقرأ مجموعة فيها اربع وثلاثون قصة قصيرة ، او عشرون أو عشر قصص ، أو ما شابه ذلك . إن الطفل يحتاج الى كتاب يضم قصة واحدة كتلك التي نشرتها منفلة طلائع البعث ، او تلك التي تعنى بها دور النشر الخاصة . والسبب في ذلك عائد الى الطفل نفسه ، فالقصة القصيرة جدا تناسب مرحلة عمرية معينة ، هي التاسعة وما دون في الغالب الاعم ، في حين تحتاج الاعمار الاخرى الى قصص أطول تروي غليل خيالها المتاجج . ولا يدري المرء لماذا نحمل محمل الجد الشائعة التي تسري بين بعض المهتمين بادب الاطفال من القصاصين والتربويين ، تلك التي تقول ان القصص الخيالية ضارة بالطفل . ان الخيال ليس ضارا ، بل هو مفيد جدا ، وضروري في أي أدب نكتبه للاطفال . ونحن لا نقصد « سوبرمان والوطواط » وما الى ذلك من الخيالات الخارقة للعادة ، ولكننا نقصد الخيال الموجه بالذات ، ومن هنا لا نرى مانعا من أن تدور موضوعات القصص حول الجان والعفاريت والاشباح ، على الا تتضمن شيئا يخيف الطفل أو يجرف خياله نحو تقمص صور الابطال الضارة . ينبغي علينا ترك الخيال قريبا من الواقع دون توسيع الشقة بينهما لئلا يجمح الخيال بالطفل فينفصل عن الواقع الحياتي .

واذن ، فالحديث عن القيم والمعارف ينعرف شئنا ام ابينا الى القصص القصيرة جـدا تبعا لوفرتها ، ولكنه لا يعني – في الوقت نفسه – ان القصة القصيرة ، او المعتدلة الطول ، أو الطويلة ، لا تتضمن قيما ومعارف ، لان القصة الخيالية منها عرجاء مهما يكن نوعها . الا ان هناك فارقا بين ان يكون هدف القصة هو غرس قيمة أو معرفة ، وبين ان تغرس القيمة او المعرفة في سياق القصة الهادفة الى معالجة موضوع معين له مغزى محدد آخر .

اذا كان تقديم معلومات علمية او تاريخية او وطنية او قومية او اجتماعية او انسانية او ما اشبه ذلك هو المقصود من تعبير « الهدف المعرفي » ، فما معنى « القيمة او الموقف»؟.

ان الموقف هو « استعداد للعمل باسلوب ايجابي او سلبي ازاء الافكار والاشخاص والحوادث »(١١) ، يتكون استنادا الى عمليات نفسية معقدة . ومن هنا فالموقف عبارة عن تفاعل افكار ومشاعر وانطباعات معينة عند الفرد ، ولابد له - اذن - من الاتصاف بمجموعة خصائص على راسها ارتباطه بموضوع معين كالنظام ومساعدة الاخرين ، والثبات والاستمرار والقوة ، اضافة الى انه مكتسب وليس فطريا . اما القيمة فهي « تفضيل يقوم على تصور لما هو مرغوب »(١٢) ، ولهذا فهي كالموقف حالة استعداد للعمل بانواع متعددة من الطرائق ، وبالتالي تتشابه القيم والمواقف من حيث كونهما يمثلان انواع تفضيل الفرد . والمعروف جيدا ان الطفل يكتسب مواقفه وقيمه عن طريق التشبه بفرد يحترمه او يحبه تبعا لعملية التقليد الموجودة لديه ، كما يكتسب ذلك عن طريق الشحنات الانفعالية وربطها بصور حية من الحياة ، او عن طريق المناقشة المنطقية المناسبة لمدركاته. ولقد وجد التربويون ان القصة تستطيع امداد الطفل بذلك كله تبعا لمقدرتها على عرض شخصية تقنع الطفل فيقلدها او يتقمص دورها ، وعلى جعل الطفل يتاثر - ينفعل - بها ، وعلى امكانية سردها عليه ومناقشته فيها.

ان للمجتمع قيمه الحاضرة ، وقيما اخرى يتطلع الى تحقيقها ، وهو يطلب من الفرد اتخاذ مواقف إيجابية تحقق القيم الحاضرة والمستقبلية . ولقد راينا أن اهداف التربية في سورية تنص على هذه القيم والمواقف ، تبعا لكونها صوغا لاهداف المجتمع نفسه في بنود محددة تعمل المدرسة على تحقيقها . فاذا اوجزنا هذه الاهداف في « صورة الانسان العربي الجديد »(١٣) ، ادركنا ان القصة في الحقل العام تشارك القصة في الحقل التربوي، في تحقيق الصورة المامولة .

---

(١١) علم النفس التربوي - سعيد صويري ورفاقه - ص ٢٥٨
(١٢) نفسه - ص ٢٥٦ .
(١٣) انظر بنود الاهداف في الفصل الاول من الباب الاول من هذا الكتاب ، المعنون باهداف التربية السورية ودور قصص الاطفال في تحقيقها .

الحقيقة ان قصص الاطفال في سورية لم تغفل مرة واحدة عن القيم والمواقف والمعارف ، بحيث نجد في غالبية القصص قيمة او اكثر ، او شيئا معرفيا محددا . ولئلا يبقى الكلام عاما نشير الى مجموعات قصصية محددة ونذكر ما تضمه من قيم ومعارف .

١ ـ القيم :

◉ السماء تمطر خرافا لدلال حاتم :

- العصفور الخشبي : الانسان الطيب لايمنعه الخوف من اداء واجباته .
- موت النسر : عندما تحسون بالشيخوخة تدب في اوصالكم اذهبوا للقاء الشمس .
- فرخ اليمام يغادر عشه : عندما يكبر الانسان عليه ان يعتمد على نفسه .
- الديك والساعة : تنبيه الساعة للناس لا يغني عن قيام الديك بالعمل نفسه .
- شجرة الخوخ وشجرة التفاح : الصغير الذي يجهد نفسه للقيام باعمال الكبار يخفق وتكون خاتمته غير سعيدة . كل شيء مرهون بوقته .
- حبة القمح البخيلة : حياة المرء بعمله ، وموته في تخليه عن واجبه الحياتي .
- الشمعة وعود الثقاب : سعادة المرء في تقديم الخدمات للآخرين .
- الصياد والريح : الوفاء بالوعد .
- اصدقاء عادل : الذين يعانون من الاستعمار اخوة واصدقاء .

◉ العصافير تبحث عن وطن لياسين رفاعية :

- العصافير تبحث عن وطن : جمال الوطن في حريته .
- البحر : وطنك مكان امنك وحياتك فالزمه .
- السمكة الملونة : عمل الخير يضفي على المرء سعادة ما بعدها سعادة .
- وطن الارنب : الاتحاد قوة وانتصار على الاعداء .
- العدو اللدود : التعاون والتعاطف منجاة .
- السيف : حمل السلاح في وجه الاصدقاء ثقيل شاق ، ولكن حمله خفيف في وجه الاعداء .
- تمثال الرمل : الامانة واجب ، وهي مصدر سعادة المرء .
- العصفور والقفص : الحرية من غير قيود ، والا فلا .

● السيف الخشبي لعادل أبو شنب :

- انت مكاني : مقاومة المحتل واجب كل فرد .
- السيف الخشبي : القدرة على تحقيق النصر بأقل الاسلحة شانا .
- الفتى الشجاع واللصوص الثلاثة : مساعدة المسنين .
- التوأمان : الشعب قادر على تغيير نمط حياته وابعاد الظلم عنه .
- المدينة الصبية : التعاون بين الاشقاء في قتال العدو يحقق النصر .
- فلة تشتري اللحم : عدم التقاعس في اداء الواجبات اليومية .

● نجمة الصبح لايوب منصور :

- الشجرة التي لا تهزم : ان تكون جذور المرء قوية يعني انه سيبقى حيا ولن يستطيع احد اقتلاعه من مكانه .
- الفول يموت حرقا : الشجاعة والتعاون والحيلة تؤمن النصر على العدو .
- العقاب والاجنحة الصغيرة : التعاون .
- سارق الحقول وسارق السنبلة : نموت احرارا ولا نعيش عبيدا الآلاء .
- الحمار يزور حديقة الحيوانات : السجن افضل من الحرية الموهومة .
- البحر : الاتحاد قوة ، وهو قادر على تحقيق الاماني كلها .
- الثعلب البري : لا يأمن المرء عدوه مهما يتظاهر بالبراءة وطيبة القلب .
- غابة الزيزفون : عدم التكبر والتعالي .

● قالت الوردة للسنونو لزكريا تامر :

- الكسلى : الاستيقاظ باكرا للذهاب الى المدرسة .
- أوامر الملك : الاوامر غير المنطقية لا ينفذها احد .
- أقوى رجل : الاتحاد قوة ، يحقق النصر على العدو مهما يكن الافراد ضعافا .
- القط يطير : التقليد والغرور ضاران .
- الحمار المحترم : استخدام القوة لا يكسب احتراما .

ـ الديك يجد عملا : من لا يشتغل يجب الا ياكل (قيمة العمل) .

ـ حصا نالاجداد : القتال هو الذي يعيد الارض من مغتصبيها .

ـ كيف فقد القط لونه الابيض : لاتتمن الظفر بامنية لايمكن تحقيقها .

ـ ملك الحمقى : المثقف البعيد عن مشكلات الناس احمق .

● العصفور المسافر لعبد الله عبد :

ـ السمكة الملونة : الكبير يفترس الصغير ، والقوي الضعيف (سلبية) .

ـ الخروف يقاتل : عدم التعاون (سلبية) .

ـ الباشق والعصفور : الحرية .

ـ احرار : التعاون طريق النصر على المحتلين .

ـ الارنب الشجاع : الشجاعة سبيل الفوز .

ـ اليد اولا : الشجاعة والاقدام ـ السلاح بمن يستخدمه .

ـ الفار يخدع القط : الفار يخدع القط فيبعده عن المنزل (سلبية) .

ـ ولدان وطابتان : تعلم أن تفعل كل شيء في حينه .

● لماذا حزنت العصافير لنزار نجار :

ـ السحابة البيضاء : التضحية .

ـ البطة الذكية : الاعتماد على النفس طريق النصر .

ـ الافعى : الطبع يغلب التطبع .

ـ الفارس والعصفور : على كل انسان ان يشارك بما يستطيع في درء المصائب .

ـ السمكة والصياد : سمكة صغيرة باليد خير من سمكة كبيرة تاتي بعد ثلاثة أشهر .

ـ الآن يمكنني أن العب : العلم أولا ثم اللعب (تربوية) ـ الاستئذان من الام قبل الخروج من البيت (اجتماعية) .

ـ العصفور الصغير : الام يهمها ان يتعلم ابناؤها (اجتماعية) .

● كوكب الاحلام لطالب عمران :

ـ كوكب الاحلام : الاستماع الى نصائح الاباء .

ـ الارملة السوداء : احذر المجهول واستفسر عنه قبل ارتياده .

يتضح من العرض السابق للقيم والمواقف المذكورة الى جانب القصص ان القصاصين السوريين يؤكدون على القيم والمواقف التالية : الحرية ـ التعاون ـ المساعدة ـ العمل ـ الامانة ـ الاستقلال ـ الثقة بالنفس ـ الارتباط بالارض ـ الارتباط بالتراث ـ الشجاعة ـ الاتحاد ـ الاجتهاد ـ العلم ـ عدم التقليد والغرور ـ دور المثقف ـ التضحية . وواضح ايضا ان القيم المذكورة جميعها قيم ايجابية يتطلع اليها المجتمع العربي وتحاول التربية غرسها في الطفل . وقد راينا ايضا قيما سلبية من نحو : القوي ياكل الضعيف ـ عدم التعاون ـ الخداع ، الا ان عددها قليل بالقياس الى القيم الايجابية . وواضح ـ اخيرا ـ ان القيم متنوعة ، فيها الاجتماعي والقومي والوطني والعلمي ، بحيث يستطيع المرء الاطمئنان الى مسيرة قصص الاطفال ، كما يستطيع القول ان هناك وعيا لدى القصاصين السوريين باهمية القصة ودورها في تربية الطفل وفق اهداف الامة العربية .

٢ ـ المعارف :

اما المعارف فلايستطيع المرء حصرها تبعا لتنوعها بين المعارف التاريخية والعلمية والاجتماعية والوطنية ... الخ . ومن المفيد هنا الاطلاع على المعارف الموجودة ضمن المجموعات القصصية السابق ذكرها ، حتى يتسنى للمرء مقارنة مانحمله بعض القصص من قيم ومعارف ، مع الاشارة الى ان باب المعارف مفتوح لايحتاج القاص الى طرقه مباشرة حتى لايعتقد الطفل ان الكبير يمارس عليه دور الوعظ والارشاد ، فينفر مما نقدمه له من قيم او معارف .

● السماء تمطر خرافا لدلال حاتم :

ـ العصفور الخشبي : مهمة العصفور الخشبي الموجود في الساعات الخروج من عشه رأس كل ساعة زمنية لينبه الناس الى الوقت .

- موت النسر : عيون النسر ثاقبة ترى الفريسة على الارض من الجو .
- البالون والريشة : الريشة لخفتها يستطيع الهواء حملها .
- الديك والساعة : الديك يصيح صباحا ليوقظ الناس النائمين .
- السحابة الخيرة : السنابل بحاجة الى الماء كي تنمو ، وعدم وجود الماء يميتها .
- حبة القمح البخيلة : دورة حياة القمح من زرع الارض الى ظهور السنبلة .
- الطفل والشتاء : فائدة الشتاء للارض والمزروعات رغم برده وامطاره .
- ريمة والقمر : القمر ينعكس في الماء .
- الصياد والريح : عمل الريح في المراكب الشراعية (تسييرها) .
- اصدقاء عادل : سعادة الاغنياء نابعة من تعاسة الفقراء .

● العصافير تبحث عن وطن لياسين رفاعية :

- العصافير تبحث عن وطن : الارض التي يحتلها الاجانب لا تصلح لان تكون وطنا للاحرار.
- السمكة الملونة : ينبغي عدم فصل الاطفال عن امهاتهم لئلا يصابوا بالحزن .
- وطن الارانب : المأخوذ بالقوة لايسترد بغير القوة .
- العدو اللدود : التبرع بالدم ينجي المشرفين على الموت ، وهو لون من التعاون والتآخي.
- تمثال من الرمل : اذا وجد احدنا شيئا فليضعه في القسم المسؤول عن ضياع الحاجات كي يستطيع صاحبه استرداده .
- العصفور والقفص : الحرية غالية ، حتى العصافير تانف من الحبس داخل القفص .

● السيف الخشبي لعادل أبو شنب :

- النصب التذكاري : يجب ان يكون النصب التذكاري تخليدا لشهداء التحرير لا الاحتلال، والا فيجب أن تغطيه القمامة .
- السيف الخشبي : يستطيع المرء الانتصار على عدوه مهما يكن سلاحه ضعيفا اذا عرف كيف يستخدم هذا السلاح .
- الفتى الشجاع واللصوص الثلاثة : استخدام الحيلة والذكاء في تحقيق النصر على الاعداء .

ـ التوأمان : ثورة الشعب تطيح بالظالمين وتحق الحق ، ولا راد لها .
ـ المدينة الصبية : لايتحقق النصر على الاعداء بالعمل الفردي ، بل بالتعاون بين الاشقاء كافة .
ـ فلة تشتري اللحم : لا اعتبار للعقبات الخارجية الطبيعية اذا اراد المرء العمل .

● نجمة الصبح لايوب منصور :

ـ الفول يموت حرقا : التعاون .
ـ من الذي انتصر : الصراع على الشيء يضيعه على المتصارعين ويجعل غيرهم يفوز به .
ـ حليب الفيلة : سبب العداء بين القطط والفئران .
ـ الحمار يزور حديقة الحيوانات : الحيوانات في حديقة الحيوان مقيدة لاتستطيع الحاق الاذى بالزائرين .
ـ اصدقاء البلبلة الجريحة : الذباب عدو لنا .
ـ الصبار والتحدي : ثمار الصبار ذات اشواك ، اوراقها سميكة ، وجذورها ضاربة في الارض حتى تصمد للجفاف .
ـ الثعلب البريء : الثعلب ماكر ولو تظاهر بغير ذلك .
ـ حارس الحقول : الخلد يحفر جحوره في باطن الارض .

● قالت الوردة للسنونو لزكريا تامر :

ـ الكسلى : من اراد الذهاب الى المدرسة فعليه أن يستيقظ مبكرا .
ـ اوامر الملك : القط يموء عندما يكون جائعا .
ـ يوم اشترى القط معطفا : اكتساء جلد القط بالشعر يقيه من البرد .
ـ الطيور تأكل ايضا : الطيور تحتاج الى طعام مثلما يحتاج الانسان سواء بسواء .

● العصفور المسافر لعبد الله عبد :

ـ البطة الثقيلة : تملك البطة جناحين ولكنهما لايقويان على حملها .

ـ من يحب أكثر : الهر يعيش في المنازل ، يصطاد الفئران والصراصير والافاعي والعقارب.
ـ صباح : نقار الخشب ينقر الخشب بمنقاره كأنه قدوم
ـ العصفور المسافر : الفزاعة تخيف الطيور .
ـ هموم خلد : ذنب الخلد رفيع ، وهو من القواضم ، يعيش في الحقول ويحفر انفاقا طويلة ملتوية (متاهات) .
ـ الشجرة المنسية : شجرة الصبار منسية مهملة .
ـ النورس : يعيش النورس على الشطآن ، يغمس رأسه بالماء ، او يحلق فوق البحر مرسلا صرخات الالم احيانا .
ـ الشتاء : الفصل للريح والمطر والثلج معا في كون الشتاء مفيدا .
ـ في الحديقة : الياسمين زهر متواضع يبذل أزهاره للناس .
ـ البستان والرمانة الهرمة : مادامت جذوع الشجرة حية فانها تنبت ثانية فتصبح شجرة جديدة .
ـ العقاب : الثعلب لاياكل سوى الدجاج ـ الخلد لاياكل سوى جذور النباتات ـ الذئب لاياكل سوى الخراف ـ لون الغراب أسود ، لايظهر في النهار ، يبتعد عن الناس .
ـ الطائر الذي كان يتكلم : الببغاء ينطق الكلمات القليلة التي يعلمه اياها الانسان .
ـ الافعى : تنفث الافعى السم .
ـ قطرة الندى : حياتها قصيرة الى حين شروق الشمس .
ـ اكتشف العصفور جناحيه : ما ان يرى العصفور انسانا حتى يطير .

● لماذا حزنت العصافير لنزار نجار :

ـ السحابة البيضاء : يلامس الهواء البارد السحب فتتحول الى قطرات صغيرة من الماء تهطل مطرا على الارض ، فتملأ الينابيع والانهار ، وتروي الحدائق المعشبة والحقول والمراعي .
ـ لماذا حزنت العصافير : تتعب الام من أجل تعليم ولدها ، وكذلك الاب .

● كوكب الاحلام لطالب عمران :

- كوكب الاحلام : السنة الفضائية تعادل مئات السنين الارضية .
- الارملة السوداء : حشرة تشبه العنكبوت ، استوائية لاتعيش الا في المناطق الحارة .
- المغرور : الطاووس يجمع في ذيله الريش الملون .
- كارثة سفينة الفضاء فاما : الارض ثالث كواكب المجموعة الشمسية قربا من الشمس - ميماس اقرب اقمار زحل اليه - نبتون كوكب خافت الضوء ، جرم صخري ميت ، تزيد كتلته عن كتلة الارض ثماني عشرة مرة .
- السمكة طويلة الذيل : ضوء الشمس يتكسر داخل الماء - للاخطبوط اذرع طويلة ممتدة.
- الرحلة : اللمنغ حيوان قارض بحجم الفار ، توزع الام صغارها في طريق الرحلة الى البحر حيث ترمي الحيوانات الكبيرة نفسها منتحرة .
- اغنية اليعسوب : يحط اليعسوب فوق اشجار التين ليساعدها في اتمام عمليات التلقيح.

ان مشكلة المعارف هينة ، لانها تحتاج الى وعي القاص بطريقة تحقيق الهدف المعرفي ،بحيث يضمن اطلاع الطفل عليه واستفادته منه ، دون ان يشعر بالصدية طرح القاص للهدف . اما مشكلة القيم والمواقف فاكثر تعقيدا ، لان امرها لايتوقف عند تسخير الموضوع اوالنص لخدمة القيمة المطروحة في القصة . بمعنى ان القصص السابق ذكرها ممن راينا فيـه عديدا من القيم والمواقف لاتعني ان القيم المطروحة فيها قد وصلت الى الطفل ، او ان في الامكان وصولها اليه حين يمارس قراءة القصة . ان هناك فارقا كبيرا بين وجود القيمة في القصة ووصولها الى الطفل ، وهنا تكمن مشكلة القيم في القصص السورية القصيرة جدا . فالمرء يرى قيما تؤدي نظريا الى مواقف محددة ، ولكنها عمليا لاتعني شيئا سوى ذكر القيمة نفسها في القصة ، لان القاص قد غفل عن ان القيم والمواقف تستند الـى عمليات نفسية معقدة لدى الطفل ، وراح يظن ان مجرد وضع القيمة في القصة كاف لاعلاء شانها . وقد فاته ان الاهتمام بشخصية بطل القصة شيء اساسي في نقل القيمة ، لان البطل اذا استطاع الاستحواذ على اهتمام الطفل كان صالحا في الوقت نفسه لان يقلده الطفل في حركاته وسكناته وقيمه ومواقفه ، والا فلا . كما ان الموضوع المناسب يشد اهتمام الطفل وبالتالي يقبل عليه ، والعكس صحيح ايضا .

وباختصار فان القصة الفنية هي وحدها القادرة على اقناع الطفل وبالتالي على فائدته ،

ولاتكون قصص الاطفال كذلك مالم تلتفت الى الموضوع الملائم لسن الطفل ومدركاته ، والى الشخصيات المألوفة لديه ، أو تلك التي تثير خياله ، والى الامور التي تلامس وجدانه ، والى اللغة التي يسهل عليه فهمها ، والى الاسلوب الذي يستطيع ادراك مراميه ومقاصده ، والا فان وجود القيمة لايعني شيئا ولايجعل الطفل يكتسب المواقف التي نريدها منه * .

البنيـة اللغوية

ان عرض واقع البنية اللغوية لقصص الاطفال في سورية ليس عملا سهلا ، لانه يقتضي اولا : معرفة مفردات الطفل الاساسية وانماطه اللغوية حتى دخوله المدرسة الابتدائية .
ثانيا : معرفة المفردات الاساسية والانماط اللغوية التي يتلقاها في كل صف من صفوف المدرسة الابتدائية .
ثالثا : مقارنة ذلك كله بالالفاظ والانماط اللغوية الواردة في قصص الاطفال .
بعد القيام بهذا العمل نستطيع ان نجيب عن السؤال الهام : هل تلائم البنية اللغوية للقصص الطفل من حيث سهولتها وصعوبتها ؟ بديهي انه لا توجد لدينا قوائم بالمفردات الاساسية والانماط اللغوية التي يستخدمها الطفل ، وقد تناهى الي أن الدكتور فاخر عاقل احصى الكلمات التي وردت في كتب المطالعة المقررة على تلاميذ الصفوف الثلاثة في المدارس الابتدائية في العالم العربي ، ولكنني لم أستطع الحصول على هذا الاحصاء . كما تناهى الي أن محمد نور الدين نقشبندي قدم الى كلية التربية بجامعة دمشق رسالة « ماجستير » عن « لغة الطفل الاساسية في عمر ما قبل المدرسة الابتدائية من ثلاث الى ست سنوات » ، ولكن الرسالة لم تطبع بعد حتى يستفيد المرء من محصولها المعرفي . وأمام القصور في الميدان اللغوي لا تستطيع المفردات والانماط المستخدمة في الصفين الاولين من المدرسة الابتدائية السورية(١٤) تقديم عون حقيقي للدارس ، ولهذا يلجا المرء الى مقياس عام للسهولة والصعوبة في الالفاظ ، هو التالي : اذا كانت نسبة الكلمات الصعبة أكثر من

* يرجو المرء أن يؤخذ الحديث عن القيم والمعارف على انه تمهيد لدراسة القيم السائدة في قصص الاطفال السورية . ذلك ان القيم والمعارف المذكورة هنا تخضع الآن للتصنيف ضمن مجموعات ، بغية بيان تكراراتها ، وترتيبها ضمن كل مجموعة على حدة ، ثم ترتيب المجموعات نفسها ترتيبا تنازليا ، وتوضيح القيمة الايجابية من السلبية ، والصريحة من الضمنية ، ومقارنة ذلك بالفلسفة التربوية السورية .

خمسين بالمئة من عدد الكلمات في الصفحة الواحدة كان معنى ذلك ان الكتاب يفوق مستوى الطفل اللغوي . ومن ثم ينبغي ألا تتضمن القصة أكثر من خمس كلمات غير معروفة في كل مئة كلمة يقرؤها الطفل لئلا تقل حصيلة الفهم عن تسعين بالمئة .

ضمن هذا المقياس ــ على رخاوته ــ يستطيع المرء القول ان الفاظ قصص الاطفال في سورية لا تتضمن صعوبة كبيرة ، بل هي في الغالب الاعم سهلة مألوفة . ومدار السهولة ــ هنا ــ على وضوح معاني الكلمات للطفل تبعا لكونها مشتركة بين اللغة الفصحى واللهجة العامية ، او لكثرة دورانها في الادب الفصيح القريب من العامية كلغة الاذاعة والتلفاز .

أما التراكيب فمدار الحكم على سهولتها في رأينا هو ما لاحظناه من تأكيد قصص الاطفال السورية على الجمل القصيرة ، لانها اقرب الى افهام الاطفال ، ولانها تؤدي الفكرة في زمن قصير وفي ابسط صورة ، فلا تتعب الطفل في أثناء تركيز انتباهه حتى يستوعب الجمل الطويلة وروابطها المعقدة . يضاف الى ذلك حرص واضح على عدم المباعدة بين المسند والمسند اليه في الجمل ، وعلى التأكيد على استخدام الفاعل اسما ظاهرا ، وعلى عود ضمير الغائب اليه ، وعلى التقليل من الاستخدام المجازي للتراكيب ، وعلى الدقة في استخدام معاني الالفاظ في الجمل .

أما الحكم على فصاحة الفاظ قصص الاطفال السورية فهو امر أيسر شأنا ، لأن مدار الحكم فيه على سلامة الاستخدام اللغوي للالفاظ نفسها ، وهنا يلاحظ المرء كثرة ورود الاخطاء اللغوية الشائعة ، مما يشير الى وجوب تدقيق القصاصين في لغتهم حتى لا يتسرب الخطأ الى حافظة الطفل دون ان نقصد الى ذلك قصدا . وليس من مهمتنا هنا نسبة الاخطاء الى اصحابها ، فذلك لا يقدم ولايؤخر شيئا في دراسة واقع البنية اللغوية لقصص الاطفال ، بل نكتفي بسرد قائمة بالاخطاء الواردة في عدد من المجموعات القصصية . وسيلاحظ القارىء أنها اخطاء متنوعة تتعلق باستخدام اللفظة لغير ما وضعت له اصلا ، او بتعدية فعل بحرف لا يتعدى به ، أو بادخال حرف على ظرف عوضا عن حرف آخر ، أو باساءة استخدام الروابط النحوية ، أو بالتأثر بالترجمة في صوغ بعض التراكيب ، أو بضبط عين المضارع. وإذا كنا نشير هنا الى ان غالبية الاخطاء هي من نوع الاخطاء الشائعة ، فاننا نؤكد على

---

(١٤) سنحيل الى قائمة بهذه الالفاظ والانماط في أثناء حديثنا عن آفاق تقدم قصص الاطفال في الحقل العام .

وجوب خلو قصص الاطفال منها، وعلى رغبة أخرى هي ضبط القصص بالشكل وبخاصة عين المضارع ، حتى نستطيع الاطمئنان الى ان الطفل سيقرأ النص قراءة سليمة خالية من الاخطاء اللغوية ، وبالتالي كي تكون القراءة نفسها عاملا غير مباشر في تزويد الطفل بثروة يستفيد منها في مجالات التعبير الوظيفي .

اللفظ/التركيب المستخدم في القصص	الصواب
التقى مع فلان ــ التقيا بأولاد	التقاه ــ التقيا اولاداً
الحشائش	الإعشاب(١٥)
كم انا سعيدة / كم هو جميل	ما أسعدني ــ ما اجمله
ارنبــة صغيرة (١٦)	ارنب
بكـــاءاً	بكـــاءً
لن يذكركِ أحداً	لن يذكركِ احد
للعبــة	للعبــة
فذراعي،	فذراعاي
وفيرة	وافرة
ان اشتري قلم حبر جديد	ان اشتري قلم حبر جديداً
كلُ عام وانتم بخير	كلَّ عام وانتم بخير
تأرجح	ترجَّح
من يخرجْ من وطنــه يموت	من يخرج من وطنه يمت
ما ان	ما إن
منتظرة ديك آخر	منتظرة ديكاً آخر
بدون	دون ــ من دون
حدّق في	حدّق الى

(١٥) الحشائش هي ما يبس من الكلا ، اما الاعشاب فهي الرطبة وهي المقصودة في سياق القصص .

(١٦) المراد هنا مؤنث الارنب وهذا خطا ، لان الارنبة هي طرف الانف ، ولان الارنب مؤنث مجازي . انظر : رسالة في المؤنثات السماعية ــ نور الدين بن نعمة الله الحسيني الجزائري ، تحقيق : سمر روحي الفيصل ــ دار الارشاد ــ حمص ١٩٧٤ ــ ص ٩ .

اللفظ/التركيب المستخدم في القصص	الصواب
بعضهم البعض	بعضهم بعضاً
يبدآ	يبدأا
شرْعان	سَرْعان
قباله	قبالة
البوليس	الشرط
زعيق	صراخ
زيل	ذيل
الفشل	الاخفاق
حماس	حماسة
نرجوا	نرجو
ان تتكرمين	ان تتكرمي
ان يمازح اصدقائه	ان يمازح اصدقاءه
تذريه الرياح	تذروه الرياح
لن يخترعوا الساعاتَ	لن يخترعوا الساعاتِ
عائلة (١٧)	اسرة
مالت يميناً ومالت يساراً	مالت يَمْنة ويَسْرة
تعال نعيش	تعال نعش
بواسطتها	بوساطتها
زهور	ازهار ـ ازاهير
تعيس	تاعس ـ أو ـ تعس
مبرر	مسوغ

ان الشيء اللافت للنظر حقا هو حرص القصاصين السوريين على سهولة الالفاظ والتركيب وإهمالهم العناية بالانماط اللغوية من حيث ملاءمتها للطفل . فالتراكيب واضحة المعاني ولكنها تتطلب جهدا قرائيا كبيرا من الطفل تبعا لاتساعها وتنوعها . والامثلة التالية أنماط لغوية اختيرت عشوائيا من بدايات عدد من قصص الاطفال السورية :

---

(١٧) العائلة : مؤنث العائل وهو الفقير .

١ ـ اتخذ العرصور لنفسه وكرا في فجوة صغيرة فتحتها الديدان في ساق شجرة هرمة ، وامضى فيها شتاء باردا قاسيا .

(قصة : العرصور والعمل ـ من مجموعة هدية عيد الام لمراد السباعي)

٢ ـ كان في قديم الزمان فتى شجاع يدعى أحمد .

(قصة : الفتى الشجاع واللصوص الثلاثة ـ من مجموعة السيف الخشبي لعادل أبو شنب)

٣ ـ حين جاءت الضفدعة لتسبح في البحيرة كعادتها كل يوم ، كان التمساح في انتظارها هناك .

(قصة : اذا كان محاميك غرابا ـ من مجموعة شجرة السنديان تضبح جسرا لوليد معماري)

٤ ـ وقف الثعلب عند ضفة النهر وهو ينظر بألم وحسرة نحو تلة تراب في الضفة المقابلة ، يقف فوقها الديك ويصيح بوقار : كوكو لقد طلع الصباح .

(قصة : قطعة ذيل للذكرى ـ من مجموعة سلام في مدينة الاحلام لايوب منصور)

٥ ـ في قديم الزمان ، رغب أحد الحمير في أن يصبح محترما ، ولكنه لم يعرف كيف يحقق رغبته .

(قصة : الحمار المحترم ـ من مجموعة قالت الوردة للسنونو لزكريا تامر)

ان التراكيب الخمسة المذكورة واضحة من حيث معانيها ، متسعة متنوعة من حيث كونها انماطا لغوية . أما الاتساع فواضح من عدم اقتصارها على الجمل البسيطة التي تقوم على الركنين الاساسيين (الفعل والفاعل ـ المبتدأ والخبر) ، بل هي متسعة بحيث تشمل في الجمل الفعلية عناصر أخرى كالمفعول به والظرف والجار والمجرور والصفة ، وفي الجملة الاسمية الصفة والجار والمجرور . وتبعا لهذا تضم الانماط اللغوية السابقة ما يلي :

١ ـ الفعل والفاعل + الجار والمجرور + المفعول به + الجار والمجرور + الصفة + الفعل والفاعل والمفعول به + الجار والمجرور + المضاف اليه + الصفة + الفعل والفاعل + الجار والمجرور + المفعول به + الصفة .

الفعل والفاعل : تكرر ورودهما ثلاث مرات

المفعول بـه : تكرر وروده ثلاث مرات

الجار والمجرور : تكرر ورودهما أربع مرات

الصفـة : تكرر ورودها ثلاث مرات

المضاف اليـه : ورد مرة واحدة

٢ ـ الفعل الناقص + الخبر جار ومجرور (شبه جملة) + مضاف اليه + اسم كان + فعـل وفاعـل .

الفعل الناقص واسمه وخبره : ورد مرة واحدة .

الفعل والفاعل : مرة واحدة

المضاف اليـه : مرة واحدة

٣ ـ الظرف + الفعل والفاعل + الجار والمجرور والمضاف اليه + نائب عن المفعول فيه + المضاف اليه + الفعل الناقص واسمه + الجار والمجرور + الخبر (اسم اشارة) .

الظرف : مرة واحدة

الفعل والفاعل : مرتان

الفعل الناقص واسمه وخبره : مرة واحدة

الجار والمجرور : ثلاث مرات

المضاف اليـه : مرتان

نائب عن المفعول فيه : مرة واحدة .

٤ ـ الفعل والفاعل + الظرف + المضاف اليه + المبتدأ (ضمير مصدر بواو الحال) + الفعل والفاعل + الجار والمجرور + المعطوف والمعطوف عليه + الظرف + المضاف اليه + المضاف اليه + الجار والمجرور + المضاف اليه + الفعل + الظرف + المضاف اليه + الفاعل + الفعل والفاعل + الجار والمجرور + المفعول به + اللام الموطئة للقسم مع قد + الفعل والفاعل .

الفعل والفاعل : خمس مرات

الظرف : ثلاث مرات

المضاف اليه : ست مرات

المبتـدأ : مرة واحدة (الخبر جملة فعليـة)

الجار والمجرور : ثلاث مرات

المعطوف والمعطوف عليه : مرة واحدة (هناك عطف جملة أيضا)

اللام مع قد : مرة واحدة .

٥ ـ جار ومجرور + المضافاليه + الفعل والفاعل + المضافاليه + حرف الجر + الفعل الناقص واسمه وخبره + لكن واسمها + الفعل والفاعل + اسم الاستفهام + الفعل والفاعل والمفعول به + المضاف اليه .

الجار والمجرور : مرة واحدة
المضاف اليـه : ثلاث مرات
الفعل والفاعل : ثلاث مرات
حرف الجـر : مرة واحدة (الاسم المجرور هو المصدر المسؤول)
الفعل الناقص واسمه وخبره : مرة واحدة .
الحرف المشبه بالفعل واسمه : مرة واحدة (الخبر جملة فعلية)
اسم الاستفهام : مرة واحدة

لم تكتف الانماط السابقة بالركنين الاساسيين كما هو واضح ، بل أضافت اليهما عناصر اخرى كثيرة على رأسها المضاف اليه والجار والمجرور والصفة ، والمعروف جيدا أن الطفل ذا المقدرة القرائية البسيطة يناسبه النمط اللغوي المقصور على الركنين الاساسيين، بمعنى أن الانماط المذكورة غير صالحة له تبعا لاتساعها وشمولها عناصر أخرى ، بل هي صالحة للطفل ذي المقدرة القرائية العالية . فاذا قلنا ان الانماط المذكورة ماخوذة كلها من قصص قصيرة جدا يفترض بها أن تكون موضوعة لطفل ذي مقدرة قرائية متوسطة وما فوق ، وعرفنا في الوقت نفسه أن الطفل حين يصل الى هذه المرحلة من النمو القرائي لا يلتفت الى القصص القصيرة جدا لانها لا تشبع رغباته ولا تلبي تطلعاته ، اضافة الى أنها تستغرق منه وقتا قصيرا لدى قراءتها . اذا دققنا في ذلك كله أدركنا كيف يمكن للنمط اللغوي الا يكون مناسبا من حيث هو نمط ، وأن يكون مناسبا من حيث المعاني الواضحة التي يضمها بين أفيائه . واذا لاحظنا أن الانماط السابقة ليست متسعة فقط ، بل هي مكررة الاتساع ، بحيث يضم النمط تكرارا للنوع الواحد ، فقد أتى الفعل والفاعل ، والجملة الاسمية ، والمضاف اليه ... الخ .. في الجملة الواحدة أكثر من مرة ، أدركنا مزيدا من الاتساع ، وبالتالي عرفنا لِمَ يحتاج النمط الى مزيد من القدرة القرائية لدى الطفـل .

أما التنوع فواضح أن الانماط المذكورة لم تضم نوعا واحدا هو الفعل والفاعل أو الجملة الاسمية ، بل ضمت عدة أنواع في وقت واحد : فعل وفاعل ــ جملة اسمية ــ ظرف ــ جار ومجرور ــ مضاف اليه . وهذا التنوع يطيل النمط اللغوي ويجعله أكثر صعوبة لدى القراءة .

ان وضوح الالفاظ والتركيب ينبغي له التزام النمط اللغوي ذي الاتساع المتوسط والتنوع القليل ، والا فان المفارقة بين وضوح المعاني وصعوبة القراءة ستؤثر سلبيا في فهم الطفل للنص المقروء . ومما يؤسف له أن تكون المفارقة موجودة في غالبية النصوص القصصية السورية . وعلى أية حال فالملاحظ أن البنى اللغوية متنوعة الانماط في السورية ، بحيث يتضح للمرء حرص القصاصين على أن يكون المبدأ في الجملة الاسمية اسم علم أو ضميرا متصلا أو اسما ظاهرا أو اسم اشارة ، وأن يكون الخبر مفردا أو جملة أو شبه جملة ، وأن يكون الفاعل في الجملة الفعلية اسم علم أو ضميرا متصلا أو اسما ظاهرا . كما يلاحظ المرء أن هناك تنوعا آخر في الانماط من حيث التذكير والتأنيث والافراد والجمع ، وأن هناك اهمالا في ضبط الانماط بالشكل ، وبالذات نلاحظ اهمال حالات الضبط في الكلمات التي يواجه الطفل صعوبات في لفظها كتنوين الاعلام عند التقاء الساكنين مثلا .

نموذج وتعليق :

الكسلى(*)

— زكريا تامر —

لما اشرقت الشمس ، حطت ثلاثة عصافير على حافة شباك مفتوح ، ونظرت الى داخل الغرفة حيث مها البنت الصغيرة نائمة على السرير . صاح العصفور الاول بدهشة : « انها لا تزال نائمة وقد حان وقت ذهابها الى المدرسة » .

قال العصفور الثاني: «يجب أن تستيقظ الآن والا تأخرت عن مدرستها». وقال العصفور الثالث : « يجب أن نحاول ايقاظها » .

غردت العصافير الثلاثة أروع تغريد ، ولكن مها ظلت مستسلمة للنوم ، غضبت العصافير الثلاثة ، وتصايحت : « لن نحب هذه البنت الكسلى » . في تلك اللحظة ، أفاقت مها من نومها ، فقالت لها العصافير : « نحن لا نحبك » .

* من مجموعة : قالت الوردة للسنونو — اتحاد الكتاب العرب — دمشق ١٩٧٧ .

قالت مها مدهوشة : « لماذا ؟ » .

قالت العصافير : « انت بنت كسلى ، وقد تأخرت عن مدرستك » .

ضحكت مها وقالت : « اليوم يوم عطلتي ولا اذهب فيه الى المدرسة » .

تبادلت العصافير نظرات الدهشة ، وخجلت لانها اخطأت ، ولكنها بادرت الى التكفير عن خطئها فغنت لها اجمل ما تحفظ من اغنيات .

■ ■ ■

هذه القصة قصيرة جدا كما هو واضح ، يبلغ عدد كلماتها (١٢٩) كلمة فقط ، بمعنى انها قصة موضوعة كي يقرأها الطفل ، ولا يمكن لنا استخدامها في عملية السرد داخل الصف أو في المنزل ، لان زمن سردها لا يصل في الغالب الى أكثر من اربع دقائق ، في حين ان القصة الصالحة للسرد هي القصة التي يستغرق سردها بين ثماني دقائق وخمس عشرة دقيقة . واذن فالرأي أن هذه القصة موضوعة للقراءة ، ومن هذا الجانب ننظر اليها هنا.

يلاحظ المرء أن قصة الكسلى تعتمد اعتمادا أساسيا على ضعف ارتباط الطفل بالواقع ، يشير الى ذلك أن العصافير تتكلم وتتحاور فيما بينها ، ثم تتحدث عن مها . والملاحظ ايضا أنها تضم نوعين من الشخصيات :

الاول : الشخصيات الحيوانية ، العصافير هنا ، وقد خلع عليها القاص زكريا تامر صفات انسانية ، فجعلها : تنظر (حاسة النظر) ـ تصيح (الصوت) ـ تدهش (تعبير خاص بالانسان) ـ تتكلم وتحاور (أصواتها لها معنى محدد ، يتركب مع غيره فيكون كلاما مفيدا) ـ تغضب (احساس قلبي) ـ تحب (احساس قلبي) ـ تخجل (احساس قلبي + تعبير خارجي) . وبما أن القاص يعتمد اعتمادا أساسيا على ضعف ارتباط الطفل بالواقع ، فقد جعل الصفات الانسانية المذكورة للعصافير تترافق مع الصفات النوعية الخاصة بجنسها من نحـو : حطت ـ غردت ...

الثاني : الشخصيات البشرية ، مها وحدها هنا ، وقد خلع عليها الصفات الانسانية الطبيعية (تنام ـ تضحك ـ تذهب الى المدرسة ... الخ) ، بالاضافة الى صفات اخرى مستمدة من مبدأ الاعتماد على ضعف ارتباط الطفل بالواقع ، وأهم هذه الصفات مخاطبتها للعصافير وحديثهما معا بلغة واحدة .

اما الحدث القصصي فبسيط جدا ، يقتصر على رؤية العصافير لها وهي نائمة ، في حين يتحتم عليها الاستيقاظ مبكرة كي تذهب الى مدرستها . وبما أنها نائمة فهذا يعني أنها قد تأخرت عن مدرستها ، مما استدعى غضب العصافير منها ووصمها بالبنت الكسلى ، ثم اكتشافها ـ بعد استيقاظ مها ـ أن اليوم يوم عطلة البنت ، فتخجل من خطئها وتروح تكفّر عنه بترديد أجمل مالديها من أغنيات .

ان هذا الحدث البسيط يتكشف للوهلة الاولى عن لاشيء ، ولكنه يصبح ذا دلالة كبيرة حين ينظر المرء اليه من جانب المفارقة ، من حيث هي عماد الحدث القصصي هنا . فالعصافير ترى مها نائمة ؛ أي أنها قد تأخرت عن مدرستها ، والواجب أن تكون مستيقظة ما دامت الشمس قد أشرقت كي تستطيع اللحاق بمدرستها ، ولهذا تغرد العصافير في محاولة منها لايقاظ مها كي تلحق بمدرستها . وفي المقابل تقبع مها :

١ ـ نائمة على عكس ما تعتقد العصافير وترى .

٢ ـ تغط في نومها على عكس ما تسعى العصافير اليه .

هذه هي المفارقة بين شخصيات القصة ، تلك المفارقة التي تجعل الطفل القارىء يعي شيئا هاما هو أن الاستغراق في النوم بعد شروق الشمس يعني الكسل ، وبالتالي عدم المقدرة على الذهاب الى المدرسة ، وهذان شيئان مذمومان يستحق الطفل لاجلهما العقاب (غضب العصافير هنا وقرارها بانها لن تحب هذه البنت الكسلى) . الا أن تميز القصة لا يمكن في هذه المفارقة ونتائجها التربوية الايجابية المذكورة ، وانما يكمن في استخدام المقابلة بعد ذلك لتكوين مفارقة ثانية تتضمن تغييرا وعكسا في طرفي المفارقة الاولى .

لنتذكر أن طرفي المفارقة الاولى هما :

الطرف الاول : العصافير ـ طرف ايجابي

الطرف الثاني : مهـا ـ طرف سلبي

يصنع القاص المقابلة حين يجعل مها تستيقظ من نومها وتخبر العصافير بالتالي :

١ ـ أنها فعلا متأخرة عن الموعد الحقيقي للاستيقاظ . وهذا يعني أنها تؤكد ايجابية رأي الطرف الاول في المفارقة الاولى ، مما يستدعي تثبيت هذا الرأي بشكل غير مباشر في نفس

الطفل القارىء ، ويجعله يجزم بان الاسترسال في النوم بعد شروق الشمس عمل غير مستحب ، ينتج عنه التأخر عن المدرسة .

٢ ـ ان اليوم يوم عطلتها . وهذا يعني :

أ ـ مزيدا من تثبيت رأي العصافير .

ب ـ ان مها غير غافلة عن هذا الامر . بمعنى أنها غير مذنبة كما اعتقدت العصافير ، وأنها في الوقت نفسه انتقلت من الطرف الثاني للمفارقة ، وهو طرف سلبي ، الى الطرف الاول ـ طرف العصافير ـ وهو طرف ايجابي ، فالتقت العصافير في موقع واحد .

ج ـ طرح قيمة جديدة هي امكانية الاسترسال في النوم في أيام العطل .

ان المقابلة ، أو التقاء مها العصافير في موقع واحد ، تطرح في الوقت ذاته مفارقة ثانية لها طرفان مغايران للطرفين الموجودين في المفارقة الاولى ، وهما :

الطرف الاول : مها ـ طرف ايجابي

الطرف الثاني : العصافير ـ طرف سلبي . لان الاعتقاد السابق الموجود في المفارقة الاولى اعتقاد ايجابي ، ولكنه انتقل الى سلبي حين انكشف خطؤه ، ومن ثم تبدلت المواقع في الطرفين السابقين .

ان الحدث في قصة « انكسلي » بسيط اذن ولكنه ذو دلالات غنية تبعا لطريقة ترتيب عناصره : المفارقة الاولى ثم المقابلة ثم المفارقة الثانية ، وهذا ما يجعل بساطته من نوع السهل الممتنع ، لان القاص اجاد اختيار العناصر اولا ثم اجاد ترتيبها فيما يسمى في القصص الاكثر طولا بالحبكة أو العقدة أو ما أشبه ذلك . بالطبع لم ينس القاص أن هناك خطأ يحتاج لكل خطأ الى التكفير عنه ، فذكر ان العصافير قد خجلت وراحت تغني أجمل أغنياتها تكفيرا عن خطئها ، مما يجعل خاتمة القصة تتضمن قيمة جديدة هي وجوب التكفير عن الخطأ ولو كان صادرا عن حسن نية كما هي الحال في العصافير هنا .

لقد طرح زكريا تامر في قصته قيمتين أساسيتين هما :

١ ـ استيقاظ التلميذ باكرا من أجل الذهاب الى المدرسة ، وهي قيمة تربوية .

٢ ـ وجوب التكفير عن الخطأ ، وهي قيمة اجتماعية .

كما عني بطرح هدف معرفي هو أن الاستيقاظ ينبغي أن يتم قبل شروق الشمس .

أما المفردات في هذا النص القصصي فهي قليلة من جهة (١٢٩ كلمة) ، سهلة من جهة أخرى ، بحيث لا يعثر المرء فيها على أية صعوبة لفظية . أما الجمل والتراكيب فهي قصيرة واضحة المعنى ، ويلاحظ المرء أن الانماط اللغوية المستخدمة فيها هي :

١ ـ الشرط : لما أشرقت الشمس حطت العصافير ـ مثلا .

٢ ـ استخدام الجمل الفعلية ذات الفعل الماضي في الغالب الاعم .

٣ ـ الجمل الاسمية : حيث مها نائمة ـ أنت بنت ، مثلا

٤ ـ استخدام إن واسمها وخبرها ـ الاسم ضمير والخبر جملة فعلية في الغالب .

٥ ـ استخدام المصادر المؤولة على قلة : يجب أن تستيقظ = استيقاظها يجب أن نحاول = محاولة

أما البنية العامة للنص فهي تجمع السرد الى الحوار ، وتضبط الالفاظ بالشكل ضبطا تاما ، وتدقق في استخدام علامات الترقيم .

ثقافة الطفل

فريد جحا

تمهيد :

الثقافة : العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها(١) ؛ والطفل : المولود ما دام ناعما رخصا ، والولد حتى البلوغ(٢) . فهل يكون الطفل بحاجة الى الثقافة التي تتناول العلوم والمعارف والفنون ، وهو في هذه السن المبكرة ؟

ان فهمنا للطفل سنه وثقافته ومجتمعه ، ثم توسعنا في تحديد من يوصل الثقافة اليه ، يتطلب منا كل ذلك حديثا مفصلا عن المجتمع ، وعن الابوين ، وعن صحة الطفل ، وعن تربية جسمه وذوقه وعقله ، حتى يكون ذات يوم المواطن الصالح الذي يستطيع أن يكون عضوا نافعا في مجتمعه الصغير ، في مجتمع الانسانية الكبير .

- ١ -

فتربية الطفل التربية اللائقة ، تتطلب منا العناية به منذ يكون جنينا في رحم أمه ، وتتطلب عناية مماثلة بأمه ، حتى تستطيع ان تكون أما صحيحة الجسم ، هادئة النفس . ويتطلب هذا منا توعية صحية ، وبخاصة في مجتمعاتنا الشعبية ، توعية تنصب على ضرورة مراجعة مراكز رعاية الامومة والطفل دوريا ، وتقديم النصائح الطبية للامهات بضرورة العناية بانفسهن نفسيا وصحيا حتى يهيئن للجنين الجو اللائم لنموه نموا طبيعيا ممتازا .

(١) المعجم الوسيط جـ١ ص ٩٨ .

(٢) المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٥٦٦ .

ان راحة الام ، والرياضة اليومية التي ينبغي أن تمارسها ، والطعام الملائم الذي ينبغي أن تتناوله ، وتجنبها الهزات النفسية السيئة الاثر في الجنين ... كل ذلك أمور ينبغي أن تراعيها الام المثقفة ، وان توصي بها الام التي لم تتلق ثقافة معينة .

- ٢ -

فاذا ما اقترب موعد الولادة كان على الام أن تزود بالمعرفة العلمية اللازمة التي تتلخص في ضرورة الابتعاد عن النسوة الجاهلات اللواتي كن يساعدن الامهات في وقت الولادة ، واللجوء حتما الى القابلات النظاميات المتعلمات لكي يساعدنهن في الشهر الاخير ، ثم في اليوم الذي يحل فيه يوم الولادة . واخيرا فمن المستحسن اللجوء الى المستشفى من أجل الولادة والواجب يقضي بالاسراع الى المستشفى حين تصبح الولادة عسرة .

فاذا ما تم كل شيء بشكل طبيعي ، ورأى المولود النور ، وجبت احاطته بجو من الهدوء ، وبخاصة في الشهر الاول ؛ ووجب تزويد الام بالمعلومات الصحية العلمية عن تغذيته ونظافته والعناية به ، ودفع سوء الاحوال الجوية عنه . وهي معرفة جد لازمة ، لان هذا الشهر الاول ، كما يوصي الاطباء ، من أهم أشهر الطفولة الاولى .

- ٣ -

فاذا انقضت الاشهر الثلاثة الاولى ، أصبح ارتباط الطفل بمجتمعه وثيقا ، وأصبح من الضروري الاهتمام بـه ، وأصبحت العناية به قسمة يتوزعها أفراد الاسرة الذين يعيشون مع الطفل في منزل واحد . والواجب هنا يتقاسمه الابوان معا في الاشتراك في تربية الطفل ، وتغذيته ، والعناية به ، ثم في وضع الحدود بينه وبين إخوته وجدتيه الذين يسيئون اليه من حيث لا يشعرون : اخوته بدافع من حبهم وعدم معرفتهم ، وجدتاه بدافع من افراطهما في حبه ، وبعدهما بصورة عامة عن معرفة أصول تربية الطفل الحديثة .

- ٤ -

وها هنا مكان حديثنا عن الطفل الذي تعمل والدته . فالامهات العاملات يعانين في بلادنا من هذه القضية كثيرا ، ويذهبن الى اعمالهن وقلوبهن مع الطفل الذي تركنه في المنزل

مع الخادمة او مع القريبة ، او في دار الحضانة غير اللائقة . ان واجب الدولة ، في هذا العهد التقدمي الاشتراكي ، يقتضيها الاكثار من دور الحضانة النموذجية ، وتوزيعها على أحياء المدن الصغرى ، وعلى القرى الكبيرة ... ولدور الحضانة النموذجية مواصفات معينة في البناء والتدفئة والشمس والنور والبعد عن الشوارع العامة ... ثم المشرفات على هذه الدور ، وهن يحملن مهمة من أخطر المهمات ؛ ان علينا أن نزودهن بالمعلومات اللازمة والعلمية لتربية الطفل ...

– ٥ –

هذا الحديث الموجز عن المشرفات على دور الحضانة يسلمنا الى الحديث عن المعلمات والمعلمين في المرحلة الابتدائية . واذا كان هذا البحث لا يتسع للحديث عن وسائل اعدادهم اعدادا جيدا يتناسب والمهمة التي ستلقى على اكتافهم بعد التخرج من دور المعلمين ، فان ذلك لا يعفينا من التذكير بضرورة تنويع الدراسات التربوية في هذه الدور بحيث تتناول التربية في دور الحضانة ، وحدائق الاطفال ، والمدارس الابتدائية ، وتتناول كذلك تعميق دراسة علم النفس ، علم نفس الطفل ، وتربيته ... ونحن هنا مع القائلين بضرورة تأنيث التعليم الابتدائي ، فلقد أثبتت المرأة جدارتها في هذا الميدان ، وأعليتها للقيام بأعمال التربية والتعليم في مدارس الحلقة الابتدائية ؛ تأكيدا لطبيعتها اما تتحمل صابرة أعباء تربية الطفل ، وهي أعباء جسيمة جسيمة .

– ٦ –

اين تبدأ مرحلة الطفولة واين تنتهي ؟ سؤال طرحه المربون والعلماء والاطباء وعلماء التاريخ الطبيعي واختلفوا فيه . واذا كان حقا ما يقوله بعضهم من أن الطفل رجل صغير ، وان الرجل طفل كبير ، فان الصحيح الذي انتهى اليه المربون وعلماء النفس أن الطفولة تبدأ منذ يغدو الطفل جنينا في رحم امه ، وان مرحلة الطفولة تنتهي مع بدء مرحلة الشباب التي اتفق على أنها تبدأ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر ، أي في السنة التي تبدأ فيها مرحلة المراهقة التي هي عالم جديد يعيشه الانسان ، ويتطلب معرفة جديدة ، وتربية تختلف قليلا او كثيرا عما عرفنا حتى الآن .

- ٧ -

ونصل بعد هذا الى ثقافة الطفل . وما دامت تتناول العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذاق فيها ، فلنسجل بادىء ذي بدء ، انهااذا واسعة واسعة ، وانها تتناول تربية فكره وذوقه ، أي تنمية مداركه العقلية من جهة ، مواهبه العاطفية من جهة ثانية . وغير خاف انها تتناول المعرفة وما أوسعها ! والفنون وما أكثر أنواعها وعوالمها ... ففي المعرفة تراث الانسانية العقلي العلمي ، وفي الفن تراث الانسان في الموسيقا والرسم والنحت والرقص والتمثيل والتصوير ...

لقد برهن الطفل في هذه المجالات على أنه رجل صغير الحجم حقا ، كبير العقل ، مرهف الحس ، في الحالتين جميعا . ففي هذا العمر الذي يبدأ من السنة الاولى وينتهي بالثالثة عشرة يمكنه أن يتعلم أشياء كثيرة وعميقة في الرياضيات والعلوم على مختلف أنواعها ، كما ان كثيرين من الاطفال الذين اودعتهم الطبيعة مواهب فنية قد ابدعوا روائع في مجالات الفنون المختلفة . ما أكثر الفنانين الذين تكشفت مواهبهم في سن مبكرة ، ثم استمرت هذه المواهب في النماء والذكاء .

- ٨ -

ومن هنا وجب علينا ان نعترف بذكاء الطفل المبكر ، وبقدرته على الاختراع والابداع منذ سنوات عمره الاولى . ويترتب على هذا واجبنا في الاخذ بيده ، وتنمية مداركه العقلية ، ومواهبه الفنية ، أي في الكشف عنها ، ثم في تنميتها ، وتذكيتها ، والارتفاع بها حتى تاخذ دورها ، وتلعب هذا الدور ، مقدمة لبني قومها ، ثم للانسانية ما قدم السلف الصالح من علماء الانسانية وفنانيها .

كيف يكون ذلك ؟

يكون ذلك بالعناية القصوى باعداد معلمات المدرسة الابتدائية ومعلميها انتقاء ورعاية وتعليما، حتى يصبحوا قادرين على اكتشاف مواهب تلاميذهم في المستقبل ، وعلى الاخذ بيدهم واحلالهم المكان اللائق بهم ، والذي خلقتهم الطبيعة له .

ان المعارض العلمية والفنية التي تقيمها المدارس كل عام ، قد اعطت الدليل الذي لايدحض على صدق ماقدمنا ، ففيها نجد تلاميذ الروضات والمدارس الابتدائية يعطون في المجالات العلمية ، ويبدعون في مختلف الفنون ، وكثيرا ما نال منهم مبرزون جوائز دولية فيالتصوير .

- ٩ -

ويبقى من هذا الحديث جانب وسائل الثقافة ، وقد أصبحت في هذه الايام كثيرة ، بالغة الاهمية والاثر ، تترك بصماتها فينا نحن الكبار ، فكيف تكون آثارها في صغارنا ؟ انها كبيرة الاثر لذلك وجب علينا في المدرسة وفي البيت أن نحسن انتقاءها وتوجيه أطفالنا اليها، كما وجب على الدولة الاشراف عليها انتقاء وتيسيرا ، وتهيئة ممتازة من ناحيتي الشكل والمضمون .

ماهي وسائل الثقافة هذه ؟

انها كثيرة كما قلنا ، وفيها الصحيفة والمجلة والكتاب والتلفزيون والسينما والمكتبة ... وسائل ما أكثرها ، وما أعظم آثارها وما انفعها ان نحن استطعنا تيسير وضعها بين أيدي الطلاب ، بعد أن نكون قد أحسنا اعدادها من جهة ، ووجهنا هذا الاعداد ، وهذا التيسير من جهة ثانية ... ولا يعني هذا البتة أن نتدخل فيها تدخلا مباشرا ، وذلك بجعلها صورة لما في أذهاننا نحن الكبار ! اننا بذلك نفسدها ، ونبعد بها عن عالم الطفل ، ونبعد الطفل عنها ؛ اذ ان الطفل سرعان ما ينطلق الى شؤونه التى يحب ، مبتعدا من زاد نقدمه ، زاد عالم الرحب الخاص الذي يريد ان يعيش فيه سعيدا مستفيدا ومفيدا .

- ١٠ -

اننا نتطلع الى يوم نستطيع ان نهيء فيه لطفلنا العربي جريدته التي يجد فيها كل يوم صفحته الخاصة الممتازة ؛ ومجلته الملونة المتقنة طباعة وفنا وقصصا يجد فيها الطفل تنفيسا عن أحلامه ، وتجسيدا لمواهبه ... ثم يجد بعد هذا ان شاء كتابه المفضل المؤلف حينا ، والمترجم أحيانا ... اما التلفزيون فلعله أكثر وسائل الثقافة اهمية واكبرها أثرا ؛ لقد دخل كل بيت ، واصبح للطفل امامه وقفات تمتد ساعات ؛ أما السينما فهي عالم تنمية الذوق الكلي الشامل عند الطفل فهي تجمع في ساعتين فنون التمثيل والتصوير والموسيقى والرقص ، وهي تطير بخيال الطفل على ألف جناح .

ولا ننسى بأن نصر على أن تكون لغة وسائل الثقافة التي قدمنا العربية الفصيحة ، لغتنا القومية ، التي حفظت أمتنا في الماضي ، ووعت تراثها وحضارتها العظيمين في وقت كان فيها اجدادنا العرب سادة الحضارة والتراث .

ولابد بعد هذا من أن توجه هذه الوسائل الوجهة القومية والانسانية في آن واحد . وهي تكون انسانية بقدر ما تكون قومية ، وكلما عمقنا مفهومها القومي كان مفهومها الانساني جليا مؤثرا .

بذلك كله نضع طفلنا على عتبات القرن الخامس عشر الهجري ، وعلى أبواب القرن الحادي والعشرين ، ليكون الطفل العربي القوي جسما والمتفتح عقلا وفكرا ، والمرهف حسا وذوقا وفنا ، والمسهم في عطاء الانسانية الكبير الكبير .

نحو ثقافة وظيفية للطفل العربي

اسماعيل الملحم

(۱) ـ مدخل :

لقد حظيت الطفولة منذ أقدم العصور باهتمام المجتمعات البشرية . وتتسع في عصرنا الراهن دائرة هذا الاهتمام اذ يميل معظم الباحثين والمهتمين بمستقبل الكائن الانساني الى وضع الطفل في محور كل اهتمام ، واعتباره غاية كل نشاط .

أمام أحد اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي قال كبير خبراء التربية آنذاك : « لقد ألغت الثورة الاشتراكية الألقاب والامتيازات ، ولم يعد لدينا أباطرة أو قياصرة ، لكنا نؤكد دوما أن في الاتحاد السوفيتي قيصرا واحدا يتمتع بكل الامتياز ، ذلك هو الطفل » .

بمثل هذه النظرة يتوجه العالم المعاصر المتقدم الى الطفولة . وقد سلك الاهتمام بالطفل دروبا مختلفة ، واتخذ له اتجاهات متقدمة جدا ، بحيث أصبح عالم الاطفال يشكل واحدا من المجالات المهمة والمتسعة جدا للدرس والدارسين من اختصاصات مختلفة . وليس علم نفس الطفل هو العلم الوحيد الذي يلج عالم الطفل ، يستطلعه ويكشف عن حقائقه المتزايدة في كل يوم ، بل قد دخل الى تلك الحلبة عدد آخر ـ يتزايد كل يوم ـ من العلوم، منها على سبيل المثال لا الحصر ، سائر العلوم المتفرعة عن علم النفس ، وعلوم التربية ، بالاضافة الى علوم البيولوجيا ، والاجتماع ، والفيزيولوجيا ، واللغة ، واللسانيات ، وغيرها . وقد تعدى البحث في عالم الطفل الوسائل المعتادة والطرق الكلاسيكية ، الى

تشكيل فرقاء عمل ، بهدف دراسة جانب من جوانب الحياة عند هذا الكائن الحبيب الى كل نفس ، ويتكون كل فريق من عدد من العلماء والخبراء والمختصين من فروع مختلفة .

فليس غريبا ، اذن ، والحال كما ذكرنا ، أن يوصف هذا العصر بانه عصر الطفولة .

لقد تحقق خلال هذا القرن من التقدم في مجال النظرة الى الطفل ما يمكن وصفه بالتقدم الذي استطاع أن يقلب نسب الامور في مجال من مجالات العناية بالطفل ، هو العملية التربوية ، بحيث دحضت مسلمات اساسية في الفكر التربوي ظل العقل البشري مؤمنا بصدقها قرونا عديدة .

من تلك الحقائق التي بات الانسان المعاصر يؤمن بصحتها ، النظر الى مرحلة الطفولة على أنها مؤشر بناء الشخصية الانسانية . يقول المفكر والمربي « فروبل » في هذا المعنى : « حياة الانسان الكدرة والصافية ، تعود الى ينبوعها في ذلك العهد ، عهد الانسان الطفل »(١) .

ونتيجة لذلك التقدم في مجالات البحث المختلفة في عالم الطفل ، فقد سقطت تلك النظرة التي كانت ترى انه بالامكان ان تضحي التربية بأحد جوانب شخصية الطفل ، في سبيل تنمية جوانب أخرى كان ينظر اليها على أنها الاهم والاجدر بالاهتمام . وكان الاتجاه التربوي يؤمن بعدم جدوى تلبية حاجات الطفل وارضائها . وأخذت التربية الحديثة ـ بعد أن أكدت الدراسات والملاحظات سقوط تلك النظرات ـ بالاهتمام والنظر الى شخصية الطفل من حيث هي كل متكامل ، لا تجوز التضحية بأحد جوانبه من أجل جوانب أخرى ، لان أي افتئات يقع على أحد هذه الجوانب هو بمثابة ايذاء يقع على الشخصية بكاملها . كما اهتمت التربية الحديثة بمعرفة حاجات الطفل ، وأكدت على ضرورة تلبيتها وارضائها، لما لإهمال هذه الحاجات من آثار سيئة في مستقبل حياة الطفل ذاتها .

وغدا من المبادىء الاساسية في التربية الحديثة ، على مختلف مدارسها ، الاهتمام بالطفولة على انها مرحلة لها حاجاتها الخاصة بها التي تجب تلبيتها . وقد عبر « جون ديوي » عن ذلك بقوله : « لكل عبارة موسيقية غاية . ومع ذلك لا نستطيع ان نقول ان الجزء السابق يوجد من أجل النهاية او الغاية النهائية للقطعة . كذلك الانسان ، لا يستطيع أن يغدو راشدا ، اذا لم يك من قبل طفلا ، فالطفل لم يوجد بسبب سن الرشد أو من اجلها »(٢)

وهكذا فانه لا يستطيع أي متصد للبحث والدرس في اي جانب كان من جوانب حياة الطفل، ان يهمل ، أو يقلل من قيمة هذا الذي اليه اشرنا آنفا . ومن البديهي حين النظر فيما يتعلق بثقافة الطفل العربي أن تحظى الطفولة بمزيد من العناية والدراسة والاهتمام ، وان يكون التعرف على طبيعة الطفولة وخصائصها ، هو الباب الذي منه نلج .

(٢) ـ مفهوم الثقافة وعلاقته بتربية الطفل :

تناول الباحثون مفهوم الثقافة بالدرس والتحليل ، وكان نظر كل واحد نحو هذا المفهوم يتأثر الى حد بعيد باتجاهات الدرس واختصاصه والمجالات التي تتطرق اليها ابحاثه .

وقد عرف (تايلور) الثقافة بانها : « ذلك الكل المركب المتضمن المعرفة والمعتقدات والفن والقانون والاخلاق والتقاليد وكل القدرات الاخرى والعادات التي يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع »(٢) .

فالثقافة حسب هذا التعريف تعني كل ما يكتسبه الانسان من حيث هو كائن اجتماعي .

وقد فرق آخرون بين الثقافة والحضارة ، فرأوا في الثقافة كل ماهو متصف بالابداع والخلق . أي ان الثقافة هي ما يعبر عن الجانب الروحي في المجتمع . أما القاموس السوسيولوجي فانه قد عرف الحضارة بالاستناد الى مفهوم الثقافة ذاته اذ يقول : « الحضارة هي النمو الثقافي .. وتتضمن اللفظة ، في الاستعمال المعتاد ، درجة عالية تماما في سلم تطور الثقافة . ويرتكز عليها في التمييز بين الشعوب المتحضرة ، والشعوب غير المتحضرة ، ولكن استعمالا آخر اكثر صحة ودقة يشير الى الشعوب الاكثر حضارة ، والادنى حضارة . والصفات المحددة أو المميزة للامور الفكرية والفنية والتكنولوجية والمنجزات الروحية »(٤) .

فالثقافة اذن تشمل انماط السلوك المكتسب التي تنتقل من جيل الى آخر ومن جماعة الى اخرى . من هنا نشأت الصلة الوثيقة بينها وبين التربية . فالتربية في احد وجوهها هي وظيفة اجتماعية تتمثل بهذه الوظيفة « وقد نشأت المدارس اول ما نشأت في الحضارات الكبرى الزراعية والتجارية التي ظهرت في سومر وآشور وبابل ومصر وفينيقيا ، والصين والهند اليونان الرومان .. »(٥) .

ولكن النظرة القاصرة للثقافة المتأثرة بعقلية وافكار العصور البعيدة عن عصرنا الراهن كانت تحصر العملية التربوية في المدرسة بالاهتمام بالجانب النظري من الثقافة ، واحتقار المواد العملية او الجانب العملي من الثقافة ، وقد اشتمل منهاج المدرسة طوال العصور الوسطى على مواد النحو والخطابة والمنطق والرياضيات والموسيقى . ومما يثير القلق أن هذه النظرة لاتزال هي النظرة السائدة الى حد كبير في بلادنا اننا لانزال نحتقر العمل اليدوي وننظر بالكثير من الاستهجان الى المثقف الذي يمارس عملا يدويا . كما أن الكثيرين من حملة الشهادات العالية في الزراعة والكيمياء والصناعات الكيميائية والغذائية وغيرها ، لايزالون يمارسون اعمالهم بصورة نظرية حيث يذهب المهندس الزراعي أو الكيميائي الى عمله بكامل اناقته مهتما بهندامه كانه ذاهب الى حفل ساهر لا الى عمل يقتضي منه بذل جهود جسدية لايتوافق معها الاهتمام بالاناقة والهندام .

وهذا ما يدعو الى التفريق بين التربية الاكاديمية والتربية الوظيفية وبالتالي التفريق ما بين الثقافة الوظيفية والثقافة الاكاديمية .

(٣) ــ التربية الاكاديمية والتربية الوظيفية والثقافة :

تهتم التربية الاكاديمية باغناء الجانب النظري في عقل الطفل وفكره ، وذلك بحشو ذهن الطفل بالمعلومات والمعارف المجردة ، التي لاتساعد الطفل على التكيف والنمو على نحو يسمح له باستخدام هذه المعلومات والمعارف ، بما يعود عليه وعلى من حوله بالفائدة . وليس غريبا علينا نموذج المعلم الذي كان يطلب من تلاميذه أن يتقيدوا دائما بقواعد اللغة وان يسهبوا في وصف الحوادث التي يريدون أن يعبروا عنها ، مما ادى الى احتراق (طربوشه) قبل أن يستطيع التلميذ اعلامه عن وقوع شرارة من نار الموقد عليه .

ان ثقافة من النموذج اعلاه هي ثقافة مرفوضة في عصر لايرحم اولئك الذين لايستطيعون التكيف معه تكيفا سريعا وملائما .

واذ تهتم التربية الاكاديمية بالمعلومات والمعارف من حيث الكم فانها لاتمكن الطفل من التفاعل مع هذه المعارف وهضمها وتمثلها ، لانها لاتراعي اهتمامات الطفل ولاتستجيب لاهتماماته . بالاضافة الى أن هذا النموذج التربوي لايهتم بقدرات الطفل المختلفة على

نحو متوازن ومتكامل ، لانه يهمل هذه القدرات كافة ويوجه كل اهتمامه الى قدرة التذكر. وقد اظهرت المدارس التربوية الحديثة كافة عقم هذا النموذج وخطاه .

ليس المطلوب حقن عقل التلميذ بالمعلومات ، ولكن افساح المجال امامه كي يفكر ويبحث وينقب .

ان تطور المعارف البشرية وطرق اكتسابها يطرحان على العملية التربوية والتثقيفية مهمة على درجة عالية من المسؤولية ، مهمة تتصل بالخصائص التي باتت تمتلكها هذه المعارف، التي تتصف بالحركة والتغيير ، بحيث صار من المتعذر على المدرسة مهما طالت مدة الدراسة فيها أن تقدمها للاطفال على انها بضاعة كاملة او معرفة جاهزة (٥) .

من السمات العامة لاولئك الذين يتلقون تربية اكاديمية ، انهم يقعون باستمرار في عادة عدم الدقة في استعمال الكلمات وعدم الثقة بالمعلومات التي يحصلون عليها . ويسود بين اولئك عادة اخرى هي انهم يحاولون باستمرار توكيد ذواتهم بواسطة عرض المعلومات الكثيرة التي تكون على الاغلب هامشية لاتدخل في صلب الموضوع الذي يريدون التحدث فيه ، او الكتابة عنه ، ويضحون على الاغلب بالمضمون المفيد والمقتضب باستخدام الجمل الشعرية الرنانة ، ويميلون بشكل عام نحو الكلمات المنمقة والمماحكات اللفظية (٦) .

والثقافة الوظيفية التي يحتاج اليها الطفل العربي هي ثقافة تعنى بطريقة البحث والتفكير وليس بامتلاك المعارف المجردة . وهي ثقافة قوامها التفكير المنطقي الذي يساعد صاحبه على تنظيم افكاره وتسلسلها ، وفهم هذه الافكار فهما صحيحا ، يعمل على انماء الشك النقدي والمنهجي لديه . فليس كل مايقرأ يجب ان يتخذ حقيقة مطلقة .

والثقافة الوظيفية هي التي تمكن صاحبها كي يكون سيد افكاره ومولد مايؤمن به ، فهي لاتقدم للطفل افكارا جاهزة او اوامر او مواعظ وانما تعوده كيف يفكر وكيف يصبح حب العلم اتجاها من اتجاهاته (٧) .

ومن الاشياء التي لايجب أن تفوتنا ، ان التطور الشامل الذي دفع كل مظاهر الحياة نحو التقدم على النحو الذي يشهده عالمنا المعاصر ، قد جعل الغاية من ارسال الطفل الى المدرسة ليست تعليمه القراءة لان القراءة لم تعد غاية التعلم ، وانما قد غدت القراءة

وسيلة للتعلم ذاته . وقد لخص احد المربين ذلك بقوله : « كان الطفل يتعلم ليقرأ ، ثم صار الآن يقرأ ليتعلم » (٨) .

لقد انقلبت نسب الامور ، ولم تعد الثقافة المطلوبة حفظ أمثال ، او اقوال ، او اشعار، وانما هي ثقافة شاملة تتصف بما يقوله (هينشر) : « الانماء الثقافي فرض واجب على انسان اليوم . وينبغي ان نحدد الثقافة على أساس كل خبرة تؤهل الانسان ليحيا حياة انسانية حقيقية ، تحرره وتجعله قادرا على تغيير الاطار الاجتماعي الذي يعيش فيه»(٩).

لقد ولى عصر ثقافة الصالونات ، ونزل المثقفون من أبراجهم العاجية ، لانهم اكتشفوا زيف هذه الابراج . ان العاج الذي توهموا ان ابراجهم قد شيدت به ، لم يكن عاجا حقيقيا وصارت الثقافة شيئا آخر غير ذاك الذي ساد قرونا عديدة . ولنعرض راي (جاك دورمسون) من الاكاديمية الفرنسية في الثقافة لنر أي انقلاب حدث في مفهوم الثقافة وتعريف المثقف : « ان الاستجابات المكتسبة حول كل ما اخرجه الانسان ، او انتجه ، هي ثقافة ، سواء كان ما انتجه كوخا ، ام قصرا ، ام سيارة ، ام لباسا ، ام اختراعا ام تفكيرا ، أم سلوكا ، ام عادة ، ام قيمة اجتماعية . فلم تعد الثقافة مقصورة على المعارف والفنون والعلوم النظرية ، ولاسيما التقليدية منها كالآداب ، والفلسفة ، والفن الجميل ، بل ان المعارف والفنون المتصلة بالنشاط الانساني المنتج وتطبيقات العلم والتكنولوجيا ، اضحت ايضا ثقافة ، لانها على الاقل ثقافة العصر الحاضر . وقد يمتد ايضا مفهوم الثقافة اليوم الى اشكال عديدة من مظاهر الحياة اليومية » (١٠) .

بهذا المفهوم الواسع للثقافة ، ينبغي النظر الى ثقافة الطفل العربي التي ينتظر ان تهتم بها سائر وسائل وانماط التثقيف والتربية .

وفي هذه الثقافة يجب التأكيد على اتصال النظر بالعمل من جهة ، وعدم فصل العمل الفكري عن العمل الجسدي .

وسنحاول الان القاء نظرة عاجلة على مصادر ثقافة الطفل العربي في محاولة لاظهار النقص وتبيان المخاطر التي تنطوي عليها هذه المصادر .

(٤) ـ مصادر ثقافة الطفل العربي :

سنكتفي في هذه الفقرة باستعراض هذه المصادر ، والاشارة الى مصادر الخطر فيها . عسى ان يكون لنا او لآخرين مجال الدراسة الاوسع فيها .

أ ـ الاسرة : هي مصدر الثقافة الاول للطفل . ولايملك انسان ان يقول في الاسرة العربية بعامة الا انها اسرة تعيش واقعا متخلفا لايمكنها من اداء وظيفتها التربوية والتثقيفية اداء يساعد على تكوين ثقافة وظيفية معاصرة للطفل العربي ، على الرغم من تباين مستويات الاسرة العربية ، بين ريف ، ومدينة ، وبادية ، وتباين مستوياتها من قطر لآخر ايضا ، بل وبين اسرة واخرى مهما تقاربت الازمنة والامكنة .

فالافكار الغيبية والشعوذات والعادات المتعفنة هي بعض من صفات معظم الاسر في الوطن العربي . فاي ثقافة يمكن ان ينهلها الطفل العربي من اسرته وهي على مثل هذه الحال ؟!

ب ـ المدرسة : ليست المدرسة في البلاد العربية على حال اكثر نفعا او هي افضل من الاسرة بكثير . فلاتزال هذه المدرسة تهتم بتعليم الاطفال تعليما اكاديميا ، لايساعد الطفل على النمو السليم ، ولا هي قادرة على ان تزوده بثقافة وظيفية تساعده على التكيف والتقدم . كما ان التربية في البلاد العربية لاتضع الطفل محورا لها وغاية ، في وقت تؤكد فيه سائر النظريات التربوية والسيكولوجية الحديثة ، على ان الطفولة طرف اساسي في عملية التنشئة الاجتماعية . وفوق هذا وذاك فان المدرسة في البلاد العربية لم تستوعب حتى الآن كافة الاطفال الذين هم في سن الدراسة . ويشكل عدد الاناث الذي لم يدخل المدرسة نسبة اكبر من العدد الذي تهيأت له فرص التعلم والدراسة

ومن سمات التربية التي اخذت تثير قلق كافة المهتمين بالطفل والمجتمع في البلاد العربية تدني مستوى التعليم وعدم كفايته ، الذي يعود الى اسباب كثيرة ومتشابكة منها ارتفاع عدد التلاميذ في الشعبة الواحدة ، والنقص في عدد المعلمين المؤهلين وفي الابنيـة المدرسية الصالحة ، ناهيك عن حالة القلق والقير الماديين اللذين يعيش المعلم تحت وطأتهما ، في عصر تتفشى فيه حمى الاستهلاك والغلاء والشجع . كل هذا يقف عقبة كأداء امام قـدرة المدرسة على تزويد الطفل بثقافة وظيفية ضرورية لمن يعيش عصر تفجر العلم والتكنولوجيا

ج ـ التلفزيون : دخل التلفزيون بيوتا كثيرة ، وهو من الوسائل التثقيفية والممتعة التي تجذب المشاهد ، ولكنه حتى الان لم يستطع ان يؤدي رسالته التربوية والثقافية بالنسبة للطفل العربي ، ويعود ذلك لاسباب كثيرة نذكر منها :

١ ـ يرى الصغار برامج الكبار ، مما يترك اثارا سيئة فيهم تتمثل في الاسراع بانضاجهم ويؤدي هذا الى عدم انسجامهم مع عالم الكبار .

٢ ـ في دراسات غربية حول قدرة التلفزيون على اداء دور نافع في مجال ثقافة الطفل تبين عدم قدرته على تقديم مثل هذه الثقافة المفيدة .

وقد قالت (ماري اوين) في هذا الصدد : « التلفزيون مخدر ، ساعد على ازدياد عدد الجانحين ، وان الاطفال السادسة الذين يتابعون التلفزيون يكون مركز الكلام والتفكير لديهم اقل تطورا من اولئك الذين لايتابعونه ، كما ان برامج العنف التي يقدمها تحمل شحنا انفعالية ، تسيء الى نمو الاطفال والى حياتهم العاطفية » .

ولكن اذا استطاع الآباء والامهات ان يقنعوا اطفالهم بضرورة التقيد بحضور برامج معينة، يستطيع التلفزيون ان يؤدي لدى هؤلاء الاطفال دورا تثقيفيا وتربويا نافعا ومفيدا .

لذلك لابد من اثارة السؤال التالي : كيف يستطيع المشرفون على البرامج التلفزيونية اعداد برامج مفيدة للاطفال وتنال اعجابهم في آن واحد ؟

د ـ الكتاب : الكتاب مصدر ثقافي هام ، وهو اكثر مصادر الثقافة امانا . يمكن للمشرفين على تربية الطفل الاطلاع عليه قبل ان يقرأه الطفل مما يساعدهم على توجيه الطفل لقراءة الكتاب المفيد النافع . ولكن كتاب الطفل في الوطن العربي لايزال دون المستوى الذي يؤهله للنهوض بثقافة الطفل . فعلى الرغم من ان عددا من الدول العربية اخذت وزارات الثقافة لديها على عاتقها احتضان ثقافة الطفل وتشجيعها ، الا ان ذلك لم يكن دوما في المستوى المطلوب . ويكاد يكون كاتب ادب الاطفال وثقافة الطفل نادر الوجود . وقد تصدر انتاج ادب الاطفال عدد كبير من الكتب المترجمة التي لاتشكل مع ارتفاع مستوى بعضها ركيزة صالحة لتكوين ثقافة مفيدة للطفل العربي . وقد استسهل كثير من المثقفين والكتاب كتابة القصة للطفل بخاصة دون غيرها من الوان الثقافة التي يحتاج الطفل اليها . ومع

الاسف لم يكن معظمهم في المستوى الذي يمكنه ان يكون كاتبا يجذب الطفل الى ادبه وفكره . فالطفل العربي الذي يقرأ في كتب الاطفال يكاد لايذكر من أسماء ادباء هذا الباب من الادب العربي الا بضعة اسماء لاتكاد تتجاوز اصابع اليد الواحدة في عددها .

اما بالنسبة لابواب المعرفة الاخرى المطلوب تزويدها للطفل وانماء خبرته في مجالها ، فتكاد الكتب ، المكتوبة باللغة العربية في هذه الابواب ، ان تكون معدومة او نادرة ، فيما عدا بعض سلاسل الكتب المترجمة ، والتي تصدر في معظم الاحيان عن دور نشر تجارية ، ويكون ثمنها كبيرا لايشجع الطفل على اقتنائها .

ومن جهة اخرى ، فان معظم الكتب الموجهة للاطفال تكتب بحروف صغيرة لاتتناسب مع نمو الطفل في القراءة . وبعضها لايطبع على ورق يثير اهتمام الطفل ويجذبه ، بالاضافة الى قلة الصور التي يفترض ان يكون كتاب الطفل غنيا بها ، وليس ذلك فحسب ، بل إن العناية بغلاف كتاب الطفل تكاد تكون معدومة ، وان الفنان التشكيلي الذي يكلف بتصميم الغلاف الخارجي او باعداد لوحات داخلية ، لايفرق في تصميماته ورسومه بين مايكون صالحا لكتب الكبار ، وماهو صالح لكتب الاطفال .

فاذا قارنا هذه الصورة عن الكتاب المعد للاطفال في الوطن العربي ، بما هو سائد في دولة متقدمة كالاتحاد السوفييتي مثلا ، لاكتشفنا بعد الشقة والتقصير الكبير الذي يتصف به الكتاب العربي الخاص بالطفل .

« فالادب المعد للاطفال في الاتحاد السوفييتي يحتل مكانة عظيمة ، فلاتحاد الكتاب السوفييت قسم خاص لهذا الادب . كما انه توجد في موسكو دار لكتب الاطفال . ويجري تنظيم اسبوع الكتب المعدة للاطفال في ايام العطلة الانتصافية . وتنظم مقابلات بين الاطفال القراء واحب مؤلفي الكتب لديهم » (١١) .

هـ ـ مجلات الاطفال : مجلة الطفل مصدر هام من مصادر الثقافة . وقد انتشرت مجلات الاطفال في الوطن العربي خلال السنوات الاخيرة انتشارا لاباس به ، وان كان لايزال دون المستوى المطلوب . وقد تبنت المؤسسات الثقافية الرسمية في بعض الاقطار العربية بعض هذه المجلات بالاضافة الى بعض المجلات التجارية .

وصورة المجلة ليست بافضل كثيرا من صورة الكتاب ، وان تمتعت بعض هذه المجلات او احداها بمواصفات تعتبر الى حد ما جيدة .

فعدم مراعاة خصائص الطفولة وحاجاتها يكاد يكون الصفة البارزة لهذه المجلات . واذا اخذنا مجلة « اسامة » التي تصدر عن وزارة الثقافة في القطر العربي السوري كنموذج لهذه المجلات ـ وهي تقع الآن في مستوى وسط بالنسبة للمجلات المعروفة في الوطن العربي ـ فانا نلاحظ تدني مستواها في الآونة الاخيرة الى درجة ملحوظة ، بعد ان كانت تتبوأ مركزا متقدما بالنسبة لشقيقاتها العربيات . واكثر المواد المنشورة فيها هي مواد مترجمة او مقتبسة . وعلى الاغلب تكون الترجمة غير أمينة . وقد عمد بعض الكتاب ـ بالاسف ـ الى اعادة كتابة قصص معروفة في الكتب المدرسية ، ووضع اسمه تحت عناوينها على انه مترجم لها . وعمد البعض الآخر الى اعداد مواد مقتبسة من الادب العربي على نحـو لايثير اهتمام الطفل ولايجذبه .

المقصود من هذه الاشارة ، ليس التجريح بمجلة نعقد عليها آمالا كبيرة ، وانما لفت الانتباه الى ما يجب أن يقدم الى الاطفال من ثقافة يجب أن يكون تحت اشراف مختصين ومهتمين بالطفولة اهتماما حقيقيا ، لا اهتماما تجاريا .

ولعله امر من المهم لفت الانتباه اليه ، وهو ان معظم هذه المجلات يرى ان ثقافة الطفل يجب أن تقتصر على القصص والقصص المسلسلة المصورة وبعض الاناشيد . لذلك فانها تهمل الثقافة الوظيفية التي تتمثل ببعض الزوايا العلمية والتدريبات العملية .

و ـ المسرح : الفن المسرحي من الفنون العريقة التي عرفتها البشرية منذ آماد بعيدة . وبالنسبة للمسرح الذي نقصده مصدرا من مصادر ثقافة الطفل العربي ، هو ذلك المسرح الموجه للاطفال سواء كان الممثلون فيه من الاطفال او من الكبار . وقد نشأ مسرح الاطفال في اوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر وازدهر في القرن التاسع عشر والعشرين . وتولي البشرية المتقدمة مسرح الاطفال اهتماما كبيرا وعناية فائقة للدور الذي يلعبه في حياة الطفل من النواحي النفسية والتربوية ، فهو قادر على اثارة خيال الطفل وتدريب الملاحظة لديه على نحو لا تستطيعه المصادر الاخرى . وهو ينمي معارف الطفل ويسهم في اتساع آفاق معرفته ويشبع فيه حب الاطلاع والمعرفة ، كما يذكي فيه عاطفة الجمال وينميها . والعمل المسرحي يدرب الطفل على حسن النطق والاداء والالقاء ، والنهوض بأذواق الاطفال .

وتلخص المربية السوفييتية (جوفسكايا) فوائد المسرح بما يلي : « ان المسرح يخلق على خشبته شخصيات ساطعة ويكشف كاحسن مايمكن البوادر السيكولوجية التي تحفز الانسان الى اتيان الافعال النبيلة ، والمسرح يثير اكثر العواطف تنوعا ، ويكون لدى الاطفال ليس فقط الصفات الجمالية بل والخلقية ايضا ، فعن طريق الانطباع الشخصي ومن خلال التأثر والمشاركة العاطفية يمكن ان يفهم الفن ويحب ، فعليكم ان توفروا للاطفال فرح هذه التأثيرات ولا تحجبوا عنهم معاشرة الفن »(١٢) .

وليس قيام مسرح الاطفال عسيرا ، اذ تمكن اقامته في باحة المدرسة وفي قاعات الدرس وغير ذلك .

واذا تفحصنا واقع العمل المسرحي في مجال الطفل في بلادنا نكاد لا نرى له اثرا ذا حضور مؤثر . وهو لا يتعدى بضعة عروض تقدمها هذه المدرسة او تلك . وقد تقدم بعض الفرق المسرحية الخاصة عروضا مسرحية موجهة للاطفال لكنها تفتقد كثيرا من الشروط النفسية والتربوية التي لا يستطيع مسرح الاطفال بدونها النهوض بثقافة الطفل .

ز ـ السينما : السينما وسيلة اخرى من وسائل الثقافة القادرة على التأثير . ولكن سينما الطفل في الوطن العربي غير موجودة . فلم تقم في اي قطر عربي صناعة سينمائية خاصة بالطفل ، والافلام السينمائية التي انتجت في سائر اقطار الوطن العربي هي افلام موجهة للكبار . ويشاهد الاطفال الانتاج السينمائي كما يشاهده الكبار ، وفي ذلك ما فيه من مخاطر على صحته النفسية وقدراته العقلية .

هذا استعراض مبسط وسريع لمصادر ثقافة الطفل العربي . وهو لا يعطينا صورة مشرقة لهذه الثقافة ، وانما نحن واجدون فيه قصور هذه الوسائل وتخلفها وتدني مستوياتها . بالاضافة الى عدم كونها مصادر ذات حضور واسع وبخاصة في الريف والبوادي والاحياء الفقيرة من المدن ، حيث تقوم بدلا منها مصادر اخرى لا تسهم في نمو الطفل ولا في اغناء ثقافته ، ولا تشبع فيه ميله للاطلاع والمعرفة .

(٥) ـ خلاصة ونتيجة :

في عصر التسارع الهائل في مضمار التقدم العلمي والتكنولوجي ، ونمو الافكار التقدمية ، وتنامي الفكر النقدي والعلمي ، نطرح على انفسنا السؤال التالي : ماهي السمات التي يجب ان تتصف بها ثقافة الطفل العربي والى اية آفاق يجب ان تسمو ؟

أ ـ لابد في البدء من ان نشير الى ان هذه الثقافة يجب ان تكون ملائمة لنمو الطفل ، مستجيبة لحاجاته في التعبير والاطلاع والابداع ، متوافقة مع خصائص الطفولة وطبيعتها .

ب ـ ان تكون هذه الثقافة قادرة على تربية الطفل على نحو يستطيع بوساطته ان يعيش عاملا نافعا في المجتمع ، وان تكون تربيته قادرة على جعله قادرا على التكيف مع الحياة الاجتماعية ومتطلباتها في التغيير والتطور .

جـ ـ ان يستطيع الطفل بوساطة هذه الثقافة ان يكون ذا نفع في مشروعات التنمية المختلفة ، في عصر اخذت التربية تتخذ فيه صفة المشروع الاقتصادي ، وينظر فيه الى التنمية على انها تظل مقصرة عن بلوغ غاياتها اذا لم تهتم بالانسان ونموه اهتمامها بالتنمية الاقتصادية ، التي يشترط نجاحها وجود الكادر البشري المؤهل والمثقف .

د ـ كي تكون ثقافة الطفل العربي ثقافة وظيفية لابد لها من ان تساعد هذا الطفل على وعي الفساد والتخلف فيما حوله ، والانفصال عنهما ومحاربة سائر مظاهرهما . واحلال قيم العروبة المتمثلة بالتقدم والتوجيهات الانسانية ، وذلك بالاهتمام بالثقافة القومية والاشتراكية التي لا تتخذ اسلوب الوعظ والارشاد سبيلا للاقناع والاعتقاد . بل باتباع السبل والنشاطات التي تهز وجدان الطفل ، وتؤكد على فضائل العمل الجماعي ، وتقرب المثقف من العامل والعامل من المثقف على حد تعبير (ليوكاي فو) ، والتربية التي تستطيع الاسهام في ذلك هي تربية تعنى بتربية العقل واليد معا .

هـ ـ الثقافة الوظيفية التي تحقق للطفل العربي حياة متقدمة ونموا سليما يجب ان تكون ثقافة شاملة تساعد الطفل على الاندماج والاتصال الوثيق مع شؤون الحياة « بما فيها من عمل وانتاج وراحة وترويح وتطلعات روحية وفلسفية » (١٣) .

وهذه الثقافة كي يكتب لها الاستمرار والنمو يجب ان تكون ثقافة انسانية ذات توجهات قومية تقدمية ، وتكنيكية ـ اذ توقفت المعرفة العلمية ان تكون منفصلة عن التطبيق العملي ـ وثقافة علمية وادبية(١٤) .

الهوامش :

(١) بول فولكييه : المدارس الحديثة ـ ترجمة عبد الله عبد الدائم ورفيقاه .
(٢) اسماعيل القباني : التربية عن طريق النشاط .
(٣) المجلة الاجتماعية القومية ـ المجلد ١٤ ـ العدد ٢ ـ القاهرة .
(٤) د. منير مشابك موسى ـ علم اجتماع التربية ص ٣٤٩ .
(٥) المصدر السابق . ص ٣٥٤ .
(٦) د. عزت حجازي : الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها .
(٧) د. عبد الله عبد الدائم : الثورة التكنولوجية في التربية العربية .
(٨) عبد العليم ابراهيم : الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية .
(٩) د. احمد صيداوي ورفاقه : الانماء التربوي ص ١٩٥ .
(١٠) المصدر السابق ص ١٩٢ .
(١١) الطفولة السعيدة في الاتحاد السوفييتي . ترجمة محمد معصراني .
(١٢) جوفسكايا : احاديث عن تربية الاطفال .
(١٣) الانماء التربوي صفحه ١٩٣ .
(١٤) لويس كروس : التفجر المدرسي : ترجمة ـ فرح ـ قادري .

ثقافة الاطفال في الوطن العربي

بهاء الدين الزهوري

مقدمـة :

لقد اقرت الامم المتحدة عام ١٩٧٩ ، سنة دولية للطفل بمناسبة مرور عشرين عاما على اصدار الاعلان العالمي لحقوق الطفل .

وقد نص المبدأ السابع من الاعلان العالمي لحقوق الطفل الصادر عن الامم المتحدة في ١٩٥٩/١١/٢٠ ما يلي :

(للطفل الحق في الحصول على وسائل التعليم الاجباري المجاني ، على الاقل في المرحلة الابتدائية ، كما يجب ان تتيح له هذه الوسائل ما يرفع مستوى ثقافته العامة ويمكنه من ان ينمي قدراته وحسن تقديره للامور وشعوره بالمسؤولية الادبية والاجتماعية لكي يصبح عضوا مفيدا في المجتمع .

ويجب أن يكون تحقيق خير مصالح الطفل ، المبدأ الذي يسير على هديه أولئك الذين يتولون تعليمه وارشاده على أن تقع أكبر تبعة في هذا الشان على عاتق والديه .

ومن الواجب ان تتاح للطفل فرصة للترفيه عن نفسه باللعب والرياضة اللذين يجب ان يستهدفا نفس الغاية التي يرمي التعليم والتربية الى بلوغها ، وعلى المجتمع والذين يتولون السلطات العامة ، ان يعملوا على اتاحة الاستمتاع بهذا الحق للطفل .)(١)

(١) نشرة الاعلان العالمي لحقوق الطفل الصادرة عن الامم المتحدة في ١٩٥٩/١١/٢٠ م .

امام هذا المبدأ ، لنسال انفسنا نحن العرب : ماذا نقدم لاطفالنا من علم وثقافة ؟! قد تكون الاجابة عن هذا السؤال سهلة ، لكن الذي يجب ان نعرفه هو ، ان اطفالنا يشكلون ثروة قومية هائلة لاتدانيها اية ثروة اخرى ، فهم امل المستقبل ورواده ، وكل طفل نعده ليكون بطل الغد .

انطلاقا من هذا التصور ، لابد من معرفة المفهوم الحديث لطبيعة الطفل ، الذي يعتبر ان الطفل فرد له مميزاته الخاصة به ، وان الطفولة متحركة لا ثابتة وهي تسير دائما في اتجاه النمو والتكامل بتعاون جميع المظاهر الجسمية والانفعالية والعقلية والاجتماعية التي تعمل ككل منسق لا انفصال بينهما .

ان الطفل يخضع الى تاثير المجتمع الذي يعيش فيه ويدفعه الى التمسك بعاداته وتقاليده ونظمه ، وانه ليكتسب ذلك بصورة عفوية وغير مقصودة ويزداد هذا التاثر ويشتد كلما اتسعت الدائرة التي ينتقل اليها الطفل ، من الحي الى البلدة ، أو من القرية والمدينة الى الوطن الكبير .

لذا نرى لزاما علينا ان نولي الاطفال قدرا كبيرا من اهتمامنا بثقافتهم ، وتقع مسؤولية ذلك امام مؤسساتنا الثقافية في الوطن العربي من جهة ، وامام جيلنا المعاصر من المثقفين من جهة ثانية .

ـ الواقع الثقافي للطفل العربي : ان النظرة الواقعية لثقافة الطفل العربي ، تدعو الى كثير من الاسف ، فقد ورد في دراسات الامم المتحدة حول الطفولة في العالم العربي ان نسبة الانفاق على الاطفال في مجموع هذه الدول العربية ، لا تمثل اكثر من ٣.٠٠ ٪ مما كان يجب ان يمثل الحد الادنى للانفاق على مجموع الاطفال العرب ، الذي يمثل تعدادهم نسبة تقدر بنحو ٤٣ ٪ من تعداد سكان العالم العربي(٢) .

انه واقع مرير ، لفداحة تقصيرنا الكبير في حق اطفالنا في المجالات العلمية والثقافية والنفسية .

---

(٢) كتاب (ثقافة الطفل العربي) لمؤلفه جمال أبو ريه .

ولاشك ان الطفولة تمثل أهم المراحل التي تمر بها حياة الانسان، ففيها يكون أكثر استعدادا وميلا للتقبل والتعلم والابتكار ، فهو يرى ، ويسمع ، ويفهم ، ويتذوق ويحاول اكتشاف العالم الذي يعيش فيه من خلال الادوات والوسائل التي تتوفر له وتكون في مستوى تفكيره .

ان جميع القائمين على تثقيف طفلنا من كتاب وادباء ، يدركون فداحة الواقع الثقافي والادبي لاطفالنا على امتداد رقعة الوطن العربي ، رغم انه قد أصبح من المعترف به تربويا وجود ثقافة خاصة بالاطفال ، أي ثقافة متناسبة مع مرحلة معينة من العمر هي مرحلة الطفولة، متميزة عن الثقافة العامة الموجهة للراشدين .

ان فداحة الواقع ومرارته تنطلق من صدق المعاناة القاسية تجاه القضايا الكبرى كالسلم والحرب ، فاطفالنا يحسون بالقلق على المصير ، وعلى الغد القريب . والاطفال هم أكثر من يعاني من أزمة الشرق الاوسط .

هذا الى جانب ان الطفل يحتل مكانا ثانويا في مجتمعنا العربي ، مما جعل تاثيره في الثقافة المكتوبة له ، والمعدة لاجله ، محدودا .

ومهما يكن من أمر فان ثقافة الطفل العربي كما تتجلى في التجربة المعاصرة ، اخذت تقوم كبدايات اولى على معرفة علمية نوعا ما بالطفولة بجميع مقوماتها العقلية والسيكولوجية والفيزيولوجية بل وبشروطها الاجتماعية ايضا .

ـ ثقافة الاطفال :

ان الاطفال يتأثرون بكل ما يحيط بهم من منبهات صادرة من المنزل ويكيفون سلوكهم وفقا لها ، فهم يتعلمون في الاسرة لغة أمتهم ، ولهجة البيئة التي يعيشون فيها ، وعن طريق السؤال يتعلم الاطفال من أسرهم كل مايحتاجون الى معرفته ومن هنا نستطيع ان نميز بين المستوى الثقافي لاسرات الاطفال ، من لغتهم وقاموسهم اللغوي وأسلوبهم وسلوكهم ومعارفهم العامة .

اما المدرسة فانها تسعى الى تحقيق النمو العقلي والثقافي لاطفالها عن طريق المواد الدراسية المختلفة ، حيث تزودهم كل مادة بقسط من المعرفة ، فتنمي عقولهم وتمكنهم من الاستفادة من الوسائط الثقافية التي يتعامل معها الاطفال من اذاعة ، وتلفزيون وكتاب ، ومجلة ، ومسرح وسينما ... الخ .

اما الناحية القومية فان اطفالنا يكتسبونها منذ صغرهم بصورة عفوية من أسرتهم غير ان اهتمام المنزل بهذه الناحية اقل من اهتمامه بالنواحي الاخرى ، وفي بعض الظروف يشتد اهتمام الاسرة بهذه الناحية ، عندما تكون البلاد في وضع معين يحتم عليها تكتل افرادها ، واثارة حماستهم من اجل الحصول على الاستقلال او التخلص من بعض القيود الاقتصادية او الثقافية أو السياسية التي خلفتها عهود الظلم والطغيان .

نخلص الى ان الاحاطة بالشروط الثقافية والاجتماعية والسياسية العامة السائدة في المجتمع ، يجب أن تتكامل مع المعرفة العلمية لعالم الطفولة لانتاج مواضيع ثقافية وتربوية وانسانية في آن واحد .

وعلى الكتاب ضرورة الاهتمام بالمواضيع الثقافية المتعلقة بالاطفال لتوجيههم توجيها واعيا ومدركا ، ويكون ذلك في التطبيق .

وتنصح كتب التربية الحديثة ، ان يترك الطفل يتعامل مع طعامه باصابعه ، لانه يجب أن يتذوق الاشياء ويفهمها بحواسه مجتمعة . وتدرك بالممارسة ان الطفل يحب المحسوس لذا يجب ان تحل السماحة مكان التزام الكبار بالتاديب والنصيحة الاخلاقية والتحريض على التهذيب القديم . وقد يكون من المفيد أن نجمع بين الصراحة وواقعية العالم ورفع قيمة الانسان ، وقدرته على تخطي ذلك على الارض ، وللجمع بين الواقع وبين العالم الجميل يجب ان نبقي في كل ما نكتب عنه في دنيا الاطفال ، مع قيمها الجميلة ، والنبيلة والتفاؤل الفطري فيها ، وتوجيهها الى المستقبل المتالق والنظيف .

ـ الوسائل الثقافية :

ان أهم الآثار التربوية التي يتلقاها الطفل العربي ترجع الى المؤسسات المختلفة التي تاخذ على عاتقها تربية الاطفال وتثقيفهم وتهذيبهم . ان الوسائل الثقافية التي ينهل منها اطفالنا متعددة وهي : الكتاب ، والجريدة والمجلة ، والاذاعة ، والتلفزيون ، والمسرح ، والسينما، والمتاحف وغيرها من الوسائل الثقافية الاخرى .

١ ـ الكتـاب :

الكتاب وعاء الثقافة ، وسجل جوانبها المتعددة ، وكتابنا العربي هو الذي يحمل نتاج عقولنا العربية الى جميع قراء العربية في اي مكان وزمان ، وهو رمز وحدة العرب الفكرية،

وميدان الكتاب العربي فسيح ، لان قراءه يمتدون في كل ربوع المنطقة العربية ، حيث لغتهم واحدة ، وتظلهم ثقافة لها سماتها وحضارتها البارزة .

ويقوم الكتاب بدور كبير في تثقيف الطفل ، لانه يحتوي على زاد ثقافي ينمي لديه عادة القراءة ، والتخيل ، والاستيعاب مما يرفع من شان ثقافته .

ولقد اقيمت بالقاهرة في الفترة من ١٩٧٩/١/٢٩ وحتى ١٩٧٩/٢/١ – الحلقة الدراسية من مشكلات انتاج وتوزيع الكتاب العربي ، وكان الموضوع الرئيسي للحلقة هو كتاب الطفل (٣) .

وحضرها من منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الامم المتحدة ادوارد ويجمان ، رئيس النشر والمطبوعات بالمنظمة ، وتمنى ممثل اليونسكو ان يكون عام ١٩٧٩ ، حجر الاساس لنمو ادب الاطفال في العالم العربي .

ولقد اوصت الحلقة البلاد العربية ، بانشاء مراكز لكتب الاطفال ، تهتم بالدراسات والبحوث ، والتخطيط لكتاب الطفل ويكون من مهامها ما يلي :

(أ) تشجيع الكتابة للاطفال ماديا ، وادبيا ، وفنيا .

(ب) تكون الكوادر القادرة على تلبية احتياجات التاليف للاطفال .

(جـ) تخفيض اسعار الاعلان عن كتب الاطفال في مختلف وسائل الاعلان .

(د) اعفاء مستلزمات انتاج كتاب الطفل من الجمارك .

(هـ) تقديم حوافز لمؤلفي كتب الاطفال .

ولا احد ينكر قيمة الكتاب الذي يجد فيه الطفل امتاعا فكريا ووجدانيا ، يصقل قدراته العقلية ، فالكتاب جسر الى القيم والمثل التربوية والحضارية ، والى المبادىء والتراث فهو ينقل الى الطفل كل ذلك باسلوب واضح مبسط ، وبشكل فني جذاب .

ان نسبة كبيرة من كتب الاطفال بالعربية تصدر في باب القصة والموضوعات الدينية وبعض الموضوعات التاريخية ، وقلة نادرة هي التي تصدر في موضوعات علمية او فنية او عن المجتمع الحديث .

---

(٣) (مجلة الفيصل) عدد رقم (٢٨) – ايلول ١٩٧٩ .

وبصورة عامة ان كتب الاطفال قليلة في مكتبتنا العربية ، وهناك فراغ كبير تعاني منه المكتبة العربية . ودور النشر العربية مقصرة في طباعة كتب ثقافية جادة تشبع نهم اطفالنا للقراءة المفيدة في شتى موضوعات العلوم والفنون والآداب .

ان كتاب الطفل أمر صعب في كل مراحله ... في اختيار الموضوع وفي اختيار الشكل ، وفي الالتزام بالتوافق بينه وبين قارئه .

ولا يزال المسؤولون عن الكتب الثقافية للاطفال ، حتى في البلاد المتقدمة يعقدون الحلقات الدراسية في البحث عن أفضل السبل لاخراج الكتب الثقافية التي يتطلع اليها الطفل من امتاع بالمعرفة الجذابة في العلوم والفنون .

ونحن أبناء الامة العربية أحوج الى مزيد من البحث عن الشكل والمضمون الافضل لكتاب طفلنا المتعطش للثقافة بكل الوانها .

ففي سورية تقوم جهتان على نشر الكتب ، هما :

١ ـ المؤسسات الرسمية المتمثلة بوزارة الثقافة ، واتحاد كتاب العرب ، ومنظمة طلائع البعث .

٢ ـ دور النشر الخاصة .

بالرغم من حرص كلتا الجهتين على نشر الكتب والقصص الخاصة بالاطفال ، مايزال عملهما محددا ، والكميات المطروحة من الكتب المؤلفة قليلة لا تلبي الحاجات .

وحبذا لو صدر قانون عربي موحد يلزم كل دار للنشر في الوطن العربي أن تخصص نسبة الثلث من رأسمالها لكتب ثقافية ممتازة ومتميزة للاطفال .

٢ ـ الصحيفة :

ليست الثقافة بمعناها الواسع الا مجموع تصورات وافكار تنتظم في الذهن والوجدان والصحافة وسيلة من وسائل نقل صور المجتمع وافكاره ، وصحافة الطفل لا بد أن تكون قادرة على أن تعكس للطفل هذه التصورات الحضارية والثقافية في شكل جذاب من خلال الواقع .

لقد صدرت في القاهرة عام ١٨٧٠م ـ أول صحيفة للاطفال باللغة العربية تحت عنوان (روضة المدارس) وكانت صحيفة مدرسية تعنى بانتاج التلاميذ الادبي .

ثم أصدر مصطفى كامل في عام ١٨٩٣م ـ صحيفة أخرى بعنوان (المدرسة) الا ان هذه الصحف كانت مقصورة على جملة من التلاميذ في بيئة مدرسية معينة ، لم تستطع واحدة منها الخروج الى الاطفال العرب للمساهمة في ثقافتهم

في الوقت الحاضر نلاحظ قيام اغلب الصحف العربية بتخصيص صفحة أسبوعية للطفل تضع فيها قصصا قصيرة ، ولوحات للتسلية ، وقصصا مسلسلة وغير ذلك .

وتحرص الصحف الجادة في العالم على تخصيص قسم في الصحيفة خاص بالاطفال ، مستقل غير تابع للقسم الثقافي أو الادبي ، يتولاه مختصون في علم نفس الطفولة واللغة والاجتماع . وبدهي أن صحفنا العربية في القالب متأثرة بهذا التقليد الصحفي دون أن تستطيع القيام باعبائه .

ومن المفيد أن تخصص صفحة مفصولة من الصحيفة اليومية للأطفال يراعى فيها نوع الورق ، وطباعتها بالالوان ، وتوزيعها مجانا مع الصحيفة في يوم محدد ، وبذلك نكون قد ساهمنا في إلصاق طفلنا العربي بالصحيفة اليومية ، مما يشجعه على المطالعة والاستفادة من مناهل الثقافة والادب .

ففي سورية راحت صحيفة الثورة تخصص بين الفينة والاخرى زاوية للطفل ، دون أن تحرص على إصدار هذه الزاوية في أوقات محددة وكذلك الأمر في صحيفة البعث التي خصصت صفحة أسبوعية كاملة للطفل ، أما صحيفة تشرين فقد حققت انطلاقة قوية في زاوية الطفل إذ ما تزال مستمرة بنشر قصة قصيرة واحدة للاطفال يوميا الى جانب تخصيص صفحة أسبوعية كاملة للطفل .

وتدعونا الحاجة الى وجود صحف يومية عربية ، فضلا عن مزيد من المجلات حتى تلبي رغبة أطفالنا في صحافة عربية عصرية متطورة .

٣ ـ المجلـة :

المجلة وسط بين الكتاب والصحيفة ، وتلعب دورا خطيرا في نشر الثقافة ، وتسجيل كل ابداع وابتكار ، وهي بذلك تفضل الصحف اليومية كوسيلة جادة للثقافة ونشر الوعي والمعرفة بين جماهير الشعب .

ومجلة الطفل الناجحة ، يجب ان تجمع بين مظاهر الكتاب ومظاهر الصحيفة الحديثة ، فاذا كان الكتاب مجموعة من الدراسات أو البحوث أو القصص التي تتضمن قدرا من المعلومات المترابطة ، أو العمل الفني المتكامل ، بهدف توسيع مدارك الطفل وتنمية معارفه والارتفاع بمستوى تذوقه للفنون ، فان المجلة تأخذ هذه السمة ولكنها تتميز بأنها تتناول موضوعات متعددة ومتنوعة ، على خلاف الكتب التي يتناول كل واحد منها موضوعا ، وبذلك تتفادى المجلة احتمالات تسرب الملل الى نفوس القراء .

لقد صدرت في مصر عام ١٩٥١ ـ أول مجلة للأطفال اجتمعت لها العناصر الموضوعية والفنية هي مجلة (سندباد) الاسبوعية ، ولكنها توقفت عن الصدور عام ١٩٦١ م ، وصدرت عن دار الهلال عام ١٩٥٦ مجلة (سمير) الاسبوعية ، كما أصدرت نفس الدار ابتداء من عام ١٩٦١ م مجلة (ميكي) الاسبوعية ، وصدرت الى جانبهما في عام ١٩٧٦ مجلة (ميكي جيب) الشهرية ثم مجلة (تان تان) الاسبوعية .

وفي سورية ، صدرت عام ١٩٦٩ م ـ مجلة (أسامة) وهي مجلة نصف شهرية ، وتعد واحدة من المجلات الجادة في الوطن العربي ، فقد عنيت بسلامة اللغة وصحة الاساليب وتنوع المادة منذ بداية صدورها ، ومجلة (تعال نقرأ) وهي مجلة غير دورية يشرف عليها الشاعر نزار نجار ، ومجلة (رافع) الاسبوعية التي صدرت عن مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر في ١٩٧٠/٨/١٥ واستمرت تصدر صباح كل سبت نحواً من عام توقفت بعده نهائيا .

وفي لبنان تصدر مجلة (بساط الريح) الاسبوعية ، وكذلك مجلة (سامر) الاسبوعية . وفي العراق مجلة (المزمار) ومجلة (مجلتي) الاولى اسبوعية ، والثانية نصف شهرية تمتازان بتعدد موضوعاتهما وتنوع المادة المنشورة فيهما .

وتصدر في الكويت مجلة (سعد) الاسبوعية ، بالاضافة الى مجلة (العربي الصغير) المؤلفة من ثماني صفحات من القطع المتوسط ، وتوزع مجانا مع مجلة العربي .

وفي السعودية تصدر مجلة (حسن) الاسبوعية ، لقد التزمت هذه المجلة منذ البداية بالخط الديني القومي التربوي ، مع حرصها على جمال الاخراج وارتفاع مستوى الرسوم وبراعة التشويق .

وفي الامارات العربية المتحدة صدرت مجلة (ماجد) لا نستطيع أن نحكم عليها لانها حديثة العهد .

وتصدر حاليا في معظم البلاد العربية مجلات للاطفال ، تصدرها جهات حكومية أو تمدها الدولة باعانات تسمح ببيع نسخها باسعار زهيدة .

وقد راجت مجلات الاطفال رواجا كبيرا في الفترة الاخيرة ، ويعود سبب ذلك الى أن الطفل يجد فيها أشياء كثيرة تعوضه نقص الخبرة ، أو عدم إجابة الوالدين عن أسئلته ، أو عن نقص فرص اقتحام الحياة ، فتقدم له قصصا في صور متتابعة أو مغامرات أبطال في البحار والغابات والجبال ، وقصص واقعية ، وقصص مسلية أو فكاهية ، وموضوعات رياضية

والواقع أن مجلات الاطفال في وطننا العربي يمكن لها أن تتناول بأسلوب القصص المقدمة على شكل الصور المسلسلة ، القصص التاريخية ومغامرات الابطال والمكتشفين ، والحكايا الشعبية المشهورة ، وتبسيط الروائع الادبية في أدب الكبار ، والحكايات الفكاهية مع معلومات وأخبار عن الرياضة والعلوم والمسائل الاخلاقية ، كما يمكن أن تتابع آخر الاكتشافات العلمية أو الجغرافية ، وقصص الخيال العلمي وقصص المستقبل ، مستعينة بالوسائل الصحفية المتعددة التي تجذب القارىء وتشوقه ، من طباعة بالالوان وتعدد وتنوع الموضوعات .

وكم نتمنى أن نجد في كل بلد عربي بدل المجلة الواحدة ، مجلات عديدة ، وكم نتمنى أن نجد المجلات متوفرة في أسواق ومكتبات كافة البلاد العربية . فما أشد حاجة أطفالنا الى مزيد من المجلات والكتب .

٤ ـ الاذاعـة :

الاذاعة وسيلة سهلة التأثير في الناس ، بالاضافة الى رخص تكلفتها ، وتمتاز الاذاعة بسرعة وصولها الى جميع الامكنة ، كما تمتاز بتأثيرها الشديد ، وهي لا تحتاج الى مجهود ، إذ يمكن أن يستمع الفرد للاذاعة أثناء مزاولته عملاً آخر . كذلك تمتاز الاذاعة بجاذبيتها إذ تقدم الموسيقى والاغاني والتمثيليات ، مما يجعل الطفل متعلقاً بها كأداة محببة الى نفسه ، وبالتالي يمكن أن تكون ذات تأثير قوي فيه .

وتعتبر الاذاعة من أقوى الاجهزة تأثيراً في نفوس الناس ، وتوجيههم من جميع النواحي العقلية والخلقية والاجتماعية .

والخلاصة ، فان الاذاعة تقدم للاطفال مواداً ثقافية في صورة أحاديث أو قصص أو مسرحيات وندوات علمية ، ومواد فنية من موسيقى وغناء ، ولقاءات رياضية وغير ذلك . لذا يجب على الدول العربية ، اعتماد خطة عامة وشاملة لبرامج الاطفال بحيث تقدم للطفل الامتاع الفكري والوجداني ، وتربط الطفل بالبرامج الثقافية المختلفة ، وتنمي لديه الذوق الجمالي والفني ، وروح الخلق والابتكار بالبرامج المسلية وإثارة الخيال وايصال الافكار الجديدة .

٥ ـ التلفزيون :

التلفزيون من أحدث وسائل الاعلام ، وهو ذو تأثير قوي إذ يعتمد على حاستي السمع والبصر ، فيقدم الصورة مع الصوت والحركة .

وهناك دراسات تبين أن الاطفال يخصصون حوالي ساعتين يومياً من أوقاتهم لمشاهدة التلفزيون ، وقد اتضح منها أيضاً أن الوالدين هما القدوة للطفل بالنسبة لساعات مشاهدة التلفزيون

وقد أدى التليفزيون الى هبوط معدل القراءة عند الاطفال عن ذي قبل ، وقد ذكر كثير من الاطفال أن المسلسلات البوليسية وجرائم القتل تثير رعبهم ، ويبدو ذلك في الاحلام المزعجة ومعوقات النوم ، ومع ذلك فقد تبين أن التليفزيون لم يتسبب في تكوين السلوك العدواني .

وقد عرض مدير اليونسكو عام ١٩٧٤ م ـ دراسة جاء فيها أن الاطفال والمراهقين يقبلون على مشاهدة التليفزيون حيث أنه شائع وسهل وموجود في كل مكان وأنه يتيح الهروب من الحياة اليومية ومشكلاتها ، وأنه يحقق الرغبة في معرفة الحياة .

وأوضحت الدراسة إن الاكثار من مشاهدة التليفزيون هو عرض من أعراض الاضطراب الذي يؤدي الى التأخر الدراسي وليس سببا له .

لقد أثبتت الدراسات ان الاطفال يقبلون على البرامج المنوعة ثم المسلسلات فبرامج القصص الخرافية والواقعية ثم المغامرات .

وبرامج المنوعات تشد أنظار الاطفال أكثر من غيرها وهي برامج متعددة الفقرات تقدم مثلا فقرة فيها قصة بسيطة ، ثم فقرة بها تجربة علمية ، وفقرة اجتماعية وفقرة لعب ، وفقرة غنائية ، ثم موقفا دراسيا ثم مسابقات .

ونخلص من ذلك إن التليفزيون وسيلة اعلامية لها خطرها مما يستلزم الامر القيام ببحوث عربية عديدة ، تدور حول آثاره والتخطيط لبرامجه بما يؤدي الى الآثار المرغوب فيها ، وتجنب الآثار المراد الإبتعاد عنها ، لذا يستحسن الاكثار من البرامج وخصوصا التمثيليات الخاصة بالاطفال وتلك التي تتناول الامجاد والبطولات العربية المعروفة ، وعرضها بأسلوب شائق ومناسب للاطفال .

٦ ـ المسرح :

تدل الدراسة التاريخية على إن المسرح نشأ في خدمة الدين وطقوسه عند اليونان والرومان والمصريين القدماء ، وشيئا فشيئا انفصل المسرح عن الدين ، ليصبح فنا مدنيا يعالج مشكلات الحياة والمجتمع . وظهر المسرح في مجتمعنا العربي ، ومر بمراحل متعددة حتى أصبح المسرح أداة للتعبئة القومية الى جانب التثقيف والتوجيه .

لقد ورد في مقال مقدم من مرسي سعد الدين حول مسرح الاطفال (إذا درسنا نمو الطفل منذ ولادته لوجدنا فيه العناصر التي تكوّن الدراما في الحركة والصوت والبكاء والضحك والايقاع ، حركات الايدي والارجل في المرحلة الاولى ، والمشي وملاحظة العالم ثم الدخول في الجو العائلي ، اي النشاط الجماعي المشترك . وكل مرحلة من هذه المراحل تخلق في الطفل جزءا من أخلاقه وطباعه المستقبلية ، فمغامرات المشي والحديث تخلق الثقة في

نفس الطفل وتمنحه قوى جديدة، وبمجرد ان يكتسب الطفل هذه القوى ويبدأ في استعمالها تظهر مقاومته للكبار)(٤)

وكتابة مسرحية الطفل فن قائم بذاته ، وينبغي أن تراعي فيه نفسية الاطفال وعقليتهم ومدى ادراكهم ، ويستهدف هذا المسرح تكوين جيل له ثقافة مسرحية عربية تؤهله كي يصبح متذوقا للعروض المسرحية الخاصة بالكبار عندما يشاهدها فيما بعد

ويظل الشوط طويلا على طريق الوصول الى المسرح المنشود للطفل ، ولا تزال الدول المتقدمة قاصرة عن الوصول الى تقديم المسرح الافضل للاطفال .

فالأجدر بنا نحن العرب ، الذين لا نزال نحاول أن نجد لانفسنا مكانا في ركب الحضارة الحديثة ، أن نضاعف الجهد في سبيل العمل على إنشاء مسرح جيد لطفلنا العربي وحبذا لو كانت نقطة البداية عندنا ، هي حيث انتهى الآخرون .

٧ ــ السينما :

تلعب السينما دورا هاما في ثقافة الطفل ، فهي مصدر من مصادر معلوماته وخبراته التي يكتسبها من خلال الصورة التي يشاهدها أمام عينيه مجسدة في شكل محسوس تعكس له مناظر من الحياة وعالم الحيوان والنبات والطيور .

إن تحول السينما الى عمل تجاري قد دفعها الى أن تنسى كل ما كان ينتظر منها كجهاز للثقافة والتهذيب ، وكاداة للسمو بالبشرية لا الانحطاط بها . وهذا ما دفع المسؤولين في بلدان العالم الى التفكير في تاميم هذا الجهاز الحيوي الخطير أو مراقبته والاشراف عليه على الاقل ، خوفا من أن يستخدم في تدمير مقومات الحياة الاجتماعية والانسانية والعلمية .

ويشعر الطفل بمتعة بالغة حين يجلس كي يشاهد الافلام العلمية القصيرة التي تستهدف توسيع دائرة ثقافته .

لنسال انفسنا .... ماذا قدمنا للاطفال في السينما ؟! الجواب ، لا فيلم حتى الآن .

(٤) مجلة المسرح القاهرية العدد « ٥ » أيلول ١٩٦٧ .

وتقصيرنا في هذا المجال يدفع الاطفال الى مشاهدة أفلام الكبار وفي ذلك من الأضرار قد يبلغ حد الايذاء القاتل بنفسية الطفل ، وعقليته ، وعواطفه .

وهذا يجعل انتاج سينما عربية شكلا ومضمونا لأطفالنا ضرورة ملحة من أجل النهوض بجانب من جوانب ثقافة الطفل .

٨ ـ المعارض :

وهي مؤسسات متنوعة تخدم التربية خدمة كبرى بصورة غير مقصودة حيث يتأثر المشاهد بالمعروضات التي تضمها ويستفيد من ذلك من الناحية المادية والمعنوية .

وتقسم المعارض الى الاقسام التالية :

أ ـ معارض دولية . ب ـ معارض محلية . جـ ـ معارض مدرسية . د ـ معارض خاصة. سنتحدث عن المعارض المدرسية التي لها علاقة مباشرة بثقافة الاطفال ، وتمثل مختلف وجوه النشاط المدرسي في الرسم والاشغال والموسيقا والرياضة وتدبير المنزل وانتاج وسائل الايضاح المنتوجات الزراعية والصناعية وغير ذلك .

ولهذه المعارض أثر كبير في الكشف عن هوايات الاطفال ، وتشجيعهم على الابداع والابتكار في مجال الفن والعلم وإن أثر هذه المعارض من الناحية التربوية والثقافيـة يشمل أطفال المجتمع كافة ، ويطلب منا تشجيعهم لزيارتها والاهتمام بمحتوياتها .

٩ ـ المتاحف :

إن توجيه الاطفال لزيارة المتاحف ، يدفعهم للاطلاع والمعرفة ، لما تشتمل عليه من أمثلة مجسمة في الحضارة والتقدم الانساني منذ أقدم العصور ، حيث تؤثر هذه المعروضات في نفس الاطفال تأثيرا عميقا ، ويستفيدون منها فائدة عظيمة عن طريق عرضها ، وتنظيمها والشروح المرفقة بها .

وفي البلاد العربية عدد لا بأس به من هذه المتاحف ، وهي منتشرة في جميع المدن العربية . وفي سورية تنتشر المتاحف في المدن الكبرى ، وتشمل عددا من الفروع منها ، المتحف الوطني والآثار الاسلامية ، والمتحف الحربي ، والمتحف الزراعي وغير ذلك .

والمعروضات في هذه المتاحف مرتبة ومنسقة بشكل يتيح للزائر ان يجني منها أكبر الفوائد وافضل النتائج .

ـ وفي الختام بعد استعراض الوسائل الثقافية التي تشارك في ثقافة الاطفال في وطننا العربي ، نتمنى أن يسترجع وطننا الكبير عصره الذهبي الحضاري بثقافة عربية مشتركة داخل اطار معلوم ، وأن تكون لدينا ثقافة أمة تعرف قدر ماضيها وقدر مستقبلها ، وتعرف تماما أين تضع الآن أقدامها ... إننا نتطلع الى ثقافة عربية في المحل الأول لاطفالنا الذين يشكلون ما يقرب من نصف تعداد العرب .

ونرى ان تتحقق هذه الثقافة العربية للطفل من خلال وضع خطة عمل على المستوى العربي ، أي لا تكون خطة محلية ، بل قومية تشارك في إعدادها وتنفيذها الحكومات والهيئات العربية .

والبرامج التي تحقق الثقافة لبراعمنا الجديدة المتفتحة كثيرة ومتعددة . فالطفل العربي في حاجة الى وسائل عصرية تنمي من ذكائه ، وترفع من ثقافته وتسهم في بناء شخصيته بناء جيدا ، فمنها الكتب والصحف والمجلات والاذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما والزيارات العلمية ، لعب الاطفال والمعارض والمتاحف .

ولا ننسى دور الوالدين ، فهما يشاركان بدور كبير بالتجاوب مع الوسائل الثقافية وعليهما أن يشرفا على تربية طفلهما وتثقيفه ، وبذلك نكون قد سعينا لايجاد ثقافة عربية تقدمية متكاملة وفق قيم اشتراكية وتراث حضاري من خلال قيمنا وتراثنا وثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا .

ابن سينا وتربية الطفولة

تيسير شيخ الارض

تمهيد ـ كتاب السياسة

تهتم المجتمعات البشرية بالطفولة وتنشئتها التنشئة الصالحة ؛ لانها تعدها استمرارا لها في الزمان ومحققة آمالها وطموحها في المستقبل . وهذا يدفعنا الى التساؤل عن مدى اهتمام اجدادنا بتنشئة الاطفال ، وما يحويه تراثنا من آثار تدل على هذا الاهتمام . ولكن موضوعا كهذا واسع متشعب لاتكفيه صفحات قليلة كالتي نريد ان نخطها في هذا المقال . لهذا نفضل ان نقف عند رجل بعينه ، اهتم بالطفولة في تراثنا العربي ؛ ونعني به ابن سينا

عاش ابن سينا (٣٦٣ ـ ٤٢٨ هـ) (*) في العصر العباسي الثالث (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) ؛ وهو العصر الذي بدأ باستقرار الدولة البويهية سنة ٣٣٤هـ ، وانتهى بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ .

لم تكن عبقرية ابن سينا مقتصرة على لون من الوان المعرفة ؛ بل كانت عبقرية موسوعية متعددة الجوانب : انه لم يكن طبيبا وفيلسوفا ورياضيا وعالما وشاعرا فحسب ؛ بل كان مربيا فضلا عن ذلك . ويمكننا ان نجد آراءه التربوية في رسالة صغيرة سماها « كتاب السياسة » ؛ وهي تقع في بضع عشرة صفحة من الحجم الكبير ، حققها الاب لويس معلوف اليسوعي ونشرها اول مرة، في مجلة المشرق ببيروت عام ١٩٠٦؛ ثم اعادت المطبعة الكاثوليكية نشرها في كتاب « مقالات فلسفية لبعض مشاهير فلاسفة العرب » ببيروت عام ١٩١١ . ومن

(*) هناك اختلاف في سنة ميلاده ؛ فبعضهم يضعها سنة ٣٧٥ هـ .

يتصفح هذه الرسالة ، يلاحظ انها تتطرق الى اكثر من موضوع ؛ فهي تتطرق الى تدبير المدينة وتدبير المنزل (الاقتصاد المنزلي) وعلاقة الرجل بزوجه ، وتربيته اولاده ، وتوجيهه اخلاقه وسلوكه . وهذا يعني ، ان التربية جزء صغير من اجزائها .

لقد ترك ابن سينا في هذه الرسالة بعض الآراء التربوية التي مازالت تحظى بموافقة التربية الحديثة ؛ وان تكن الظروف التي ادت الى القول بها ، مخالفة للظروف التي مرت بها التربية الحديثة . ولهذا ، فنحن لانستطيع ان نعرف قيمتها الحقيقية ، ما لم نضعها في الاطار التاريخي الذي ظهرت فيه ؛ ونحلل الاسباب التي ادت الى القول بها .

فما الآراء التربوية التي اتى بها ابن سينا بعامة ؟ وما الآراء التي توافقه عليها التربية الحديثة بخاصة ؟ لكي نجيب عن هذين السؤالين ، لابد لنا ان نعرض آراء ابن سينا في تربية الطفل منذ سنه المبكرة ، حتى يقوى عوده ؛ وان ننظر الى رأيه في المؤدب الذي يؤدبه ، والصفات التي يجب ان تتوافر فيه ؛ والاعمال التي يقوم بها في سبيل تحقيق الغاية من تأديبه ؛ لكي ننتهي الى عرض رأيه في توجيه المربي للطفل في دراسته اولا ، ثم نحو مهنة يتكسب بها ثانيا . ولكن هذا لا يتبين على حقيقته ، مالم نعرض لحقيقة التربية والتعليم في عصر ابن سينا ؛ ولاسيما اذا كانت غايتنا ان نقوم التربية والتعليم عنده تقويما صحيحا

١ ـ التربية والتعليم في عصر ابن سينا

اذا كان مايهمنا هنا هو التربية والتعليم بمعناهما الدقيق ، اي من حيث هما عناية بالطفولة ، وتوجيه لها ، كان لابد لنا ان نتساءل عن حقيقة المؤسسات التعليمية والتربوية في عصر ابن سينا . وهذا يدفعنا الى التساؤل ـ انطلاقا مما نلاحظه في مجتمعاتنا المعاصرة عما اذا كانت في عصره مدارس مثل المدارس التي نراها بين ظهرانينا . الحقيقة ، انه لم يكن هناك مدارس بالمعنى الدقيق للكلمة : فالمدارس نشأت فيما بعد . يقال ان نظام الملك الذي استوزر للسلاجقة من سنة ٤٥٦ هـ الى سنة ٤٨٥ هـ هو اول من انشأ المدارس . ولكن بعض المؤرخين من امثال السبكي والسيوطي وغيرهما ردوا هذا القول ، وقالوا بان

المدرسة البيهقية بنيسابور كانت قبل ان يولد نظام الملك ؛ وان المدرسة السعدية بنيسابور بناها الامير نصر بن سبكتكين ، اخو السلطان محمود (١) .

واذا علمنا ان السلطان محمود بن سبكتكين ، المعروف بالسلطان محمود الغزنوي ولد سنة ٣٨٨ هـ ، وتوفي سنة ٤٢١ هـ ، ادركنا ان المدارس لم تكن قامت بعد في ايام ابن سينا ، او كانت في بداية قيامها على احسن تقدير . وهذا يجعلنا نتساءل عن الامكنة التي كانت تجري فيها عمليتا التربية والتعلم . لقد عد لنا المؤرخون من هذه الامكنة ، المساجد ومجالس المناظرة والمكتبات والرحلات والمارستانات والربط . ولكن ، هذه الامكنة كانت امكنة للكبار الذين بلغوا شأواً لابأس به من التعلم ، ولم تكن للصغار . فاذا سألنا عن الامكنة التي كان الصغار يتعلمون فيها ، وجدنا انها الكتاتيب والمنازل : الكتاتيب لابناء العامة والتدريس الخاص في المنازل لابناء السراة .

اما بالنسبة الى المساجد ، فيقول لنا جرجي زيدان مايلي : « ولهذا السبب ، كانت مدارس المسلمين في جوامعهم ، كما كانت مدارس النصارى في اديرتهم وكنائسهم ، وكانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول استاذ يتلقون علماً من العلوم ، حلقة » (٢) .

ولكن ، كان الى جانب المساجد ، معاهد اخرى للتربية والتعليم . وبهذا الصدد ، يقول جرجي زيدان : « على ان التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد ؛ فكثيراً ما كانوا ينشؤون حلقات التدريس في المارستانات والربط او المنازل او غيرها » (٣) .

وكانت الى جانب ذلك الكتاتيب او المكاتب . وبهذا الصدد يقول احمد امين : « على كل حال ، لم تكن في العصر العباسي الاول مدارس ، وانما كانت هناك معاهد اخرى ، اولها : الكتاب ، والجمع الكتاتيب » (٤) . ولكن الكتاتيب كانت لابناء العامة . اما ابناء السراة فكانوا يحظون بتعليم خاص في منازلهم . يصف لنا ذلك جرجي زيدان فيقول : « وكان

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج٢ ، ص ٤٩ ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٢) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ج٣ ، ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، مطابع دار الهلال القاهرة ١٩٥٨ .

(٣) جرجي زيدان : المصدر المذكور ، ص ٢٢٥

(٤) احمد امين : المصدر المذكور ، ص ٥٠ .

الاغنياء اذا ارادوا تعليم اولادهم ، احضروا المعلمين الى منازلهم . كذلك كان يفعل الخلفاء والامراء » (٥) .

ويمكننا أن نستشهد هنا بما ، قاله الخليفة هارون الرشيد الى أبي حسن الاحمر مقدما له منهجا يتبعه في تاديب ابنه محمد الامين ؛ قال : « يا أحمر ، ان امير المؤمنين قد رفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الاخبار ، وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الا في اوقاته ؛ وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ؛ ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها ، من غير ان تحزنه فتميت ذهنه . ولاتمعن في مسامحته ، فيستحلي الفراغ ويألفه . وقومه مااستطعت بالقرب والملاينة ؛ فان اباهما، فعليك بالشدة والغلظة » (٦)

ولكن ، ما الذي كان يعلم في تلك المعاهد ؟ يقول احمد امين بهذا الصدد : « وبعض الكتاب كان لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن ؛ وبعضها كان يعلم فيه ايضا اللغة وما اليها » (٧) . اما الدكتور حسن ابراهيم حسن فيتحدث عما كان يعلم في المساجد ، فيقول: « كانت المساجد تعد من اكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة . وقد تنوعت العلوم التي كانت تدرس في العصر العباسي ، واصبح كثير من هذه المساجد مراكز هامة للحركات العلمية » (٨) .

بيد انه الى جانب القراءة والكتابة واللغة ، والقرآن والحديث والفقه ، كانت تعلم الفلسفة والهندسة والحساب . وهذا ماذكره ابن سينا عن نفسه ، في سيرة حياته ، التي رواها تلميذه أبوعبيد الجوزجاني بلسانه ، حينما قال : « وابتدؤوا يدعونني ايضا اليه، ويجرون على السنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ؛ واخذ (ابي) يوجهني الى

(٥) جرجي زيدان : المصدر المذكور ، ص ٢٢٢
(٦) ابن خلدون : المقدمة ، ج٤ ، ص ١٢٤٤ ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٢ .
(٧) احمد امين : المصدر المذكور ، ص ٥٠ .
(٨) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج٢ ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢ .

وجل كأن يبيع البصل ، ويقوم بحساب الهند ، حتى اتعلمه منه » (٩)

وهكذا نلاحظ ، ان المدارس بمعناها الفني لم تكن قائمة في عهد ابن سينا ، وان الكتاتيب والتدريس الخاص كانا ينوبان منابها بالنسبة الى الاطفال ؛ في حين ان المساجد والمارستانات والربط والمكتبات ومجالس المناظرة والرحلات كانت تنوب منابها بالنسبة الى الكبار . اما المواد التي كانت تدرس فكانت القراءة والكتابة واللغة والحساب والهندسة والقرآن والحديث والفقه والفلسفة .

وهنا نجد لزاما علينا ، ان ننتقل الى آراء ابن سينا في التربية والتعليم ، لكي نعرضها ، ثم نعقب عليها بالنقد والتقدير ، من خلال وضع التربية والتعليم في العصر الذي عاش فيه ، وسنبدأ برأيه في التربية والتعليم

٢ ــ التربية والتعليم

نريد ان نتوقف هنا عند نقطتين : اولاهما تتعلق بتربية الطفل المبكرة ، واخراهما تتعلق بالتربية الكاملة :

(١) تربية الطفل المبكرة : كان ابن سينا يرى ان عمل الوالدين في تربية طفلهما يبدأ ببدء الفطام ونهاية الرضاع . بيد ان هذا لا يعني ان يهملا الطفل قبل ذلك ، لانه يكون حينئذ في عهدة ظئر اختاراها له لترضعه وتعنى به ، ويتوجب على الوالدين من اجل ذلك ، ان يفكرا بطفلهما قبل ولادته ، بتفكيرهما في اختيار ظئره التي سترضعه وتشرف على تربيته بعد ولادته . وابن سينا يضع لنا شروطا يرى انه لا بد من توافرها ، لكي تكون ظئر الطفل صالحة لارضاعه والاشراف على تربيته ، يجب ان لاتكون حمقاء ولارعناء ولاذات عاهة ؛ اذ ان الطفل يتأثر بها تأثيرا يرافقه في حياته ؛ فاللبن يعدي كما قيل

فاذا بلغ الطفل مبلغ الفطام ، وكان لا بد لمؤدبه ان يبدأ بتأديبه ، ورياضة أخلاقه . وعمل المؤدب هنا هو محاولة لاحلال التربية الموجهة مكان التربية غير الموجهة ، والخاضعة للظروف الطارئة. وهو عمل يجب ان يبدأ قبل ان تهجم على الطفل الاخلاق اللئيمة ، وتفاجئه

(٩) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ٢ ، ص ٢

الشيم الذميمة ، ليكون ذلك مساعدا المربي على اكسابه الاخلاق الفاضلة والشيم المحمودة . وتعليل ذلك في نظر ابن سينا ، ان الطفل يكون في هذه الفترة ، مسلوب الارادة والتفكير ؛ فاذا لم يقف المؤدب حائلا بينه وبين الاخلاق السيئة ، تبادرت اليه ، واثالت عليه .

والمؤدب الاريب بعيد النظر ، لا بد له من ان يفعل ذلك ؛ لانه يعلم علما اكيدا ، ان الاخلاق متى تمكنت من الطفل ، غلبت عليه ، ولم يستطع لها مفارقة ، ولا عنها نزوعا . فاذاكانت خيرة ،كان خيرا مدى حياته ؛ واذا كانت شريرة ، كان شريرا مدى حياته ايضا (١٠) .

ولكن ، كيف يتمكن المؤدب من اكساب الطفل محاسن الاخلاق ، وتجنيبه مقابحها ؟ يجيب ابن سينا قائلا : « ... فيتبغي لقنم الصبي ، ان يجنبه (مؤدبه) مقابح الاخلاق، وينكب عنه معايب العادات ، بالترهيب والترغيب ، والايناس والايحاش ، وبالاعراض والاقبال، وبالحمد مرة وبالتوبيخ اخرى ، ما كان كافيا » (١١) .

واذا نحن تأملنا هذه الاجابة بعض التأمل وجدنا انها تعني توجيه الطفل بالكلام أولا ، وبتصنع الاعراض عنه والاقبال عليه ، ثانيا . وفي هذا قاعدة تربوية يجب اتباعها . ولكنها قاعدة لا تخلو من استثناء في حالات شاذة نادرة ؛ حيث يجد المؤدب نفسه ، وقد خاب اعراضه عن الطفل واقباله عليه ، فماذا يفعل عندئذ ؟ يجيب ابن سينا قائلا : « فان احتاج الى الاستعانة باليد ، لم يحجم عنه » (١٢) . وهذا يعني ، انه لابد من اللجوءالى العقاب حينما تضطره الحاجة الى ذلك ، وهو عقاب يكون بالضرب

وهنا نقف لنسائل ابن سينا عن رأيه في الضرب ، وعن الكيفية التي يجب ان يستخدم بها . وهو عندئذ سيجيبنا قائلا : « وليكن اول الضرب موجعا ... بعد الارهاب الشديد ، وبعد اعداد الشفعاء ؛ فان الضربة الاولى ــ اذا كانت موجعة ــ ساء ظن الصبي بما بعدها ، واشتد خوفه منها.

(١٠) كتاب السياسة ، في « مقالات فلسفية لبعض مشاهير فلاسفة العرب » ، ص ١٢ ؛ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩١١ .

(١١) المصدر المذكور ، ص ١٢ .

(١٢) المصدر المذكور ، ص ١٢ .

وأذا تأملنا هذا الكلام قليلا ، وجدنا أن الضرب المعني هنا هو ضرب من أجل التربية . ليس العقاب هنا وليد ثورة عاصفة تعصف بنفس المؤدب ، فيندفع في انهياله على الصبي بالعصا ؛ بل هو عقاب أدت اليه الحكمة والتروي في الامور ، وغايته تقويم اخلاق الصبي . ولهذا لابد من الاعداد له ، قبل القيام به ، والتفكير في تنفيذه قبل تنفيذه . واما الخطة التي يرى ابن سينا ضرورة انتهاجها . في سبيل بلوغ الغاية المرجوة ، فتكون باعداد الشفعاء قبل تنفيذها ، ثم بتصنع الرهبة الشديدة ، ليدخل في روع الطفل ، انه اجترح اثما كبيرا ، وان الشفاعة هي التي نجته من العقاب .

(٢) التربية الكاملة : ولكن ما حدث حتى الآن كان تربية جزئية تتناول هذا الجانب او ذاك من سلوك الطفل ؛ ولا بد للتربية من أن تسير في طريق الشمول، حتى تتناول جوانب السلوك كلها . ويكون ذلك ، حينما تشتد مفاصل الصبي ، ويستوي لسانه ، ويتهيأ للتلقين ، ويعي سمعه .

أما هذه التربية الكاملة فهي تعلم للقراءة والكتابة ، وحفظ للقرآن ، وتلقن لمعالم الدين ، ورواية للشعر والادب ، واتقان للعلوم من حساب وهندسة وطب الخ ... وتشبع بمكارم الاخلاق ، وتعلم لصناعة من الصناعات(١٤) ، وهذا يعني ، أن تشمل التربية التي يتطلبها ابن سينا ، التربية العقلية ، والتربية البدنية ، والتربية الدينية ، والتربية الاخلاقية، والتربة الاجتماعة ، بما فيها التربية المهنية

وان اهم ما يلفت نظرنا هنا هو الحاح ابن سينا على التربية الاجتماعية وهو يبدو لنا ، حينما يتكلم على توجيه الصبي في صناعة من الصناعات . وبهذا الصدد يقول : « واذا فرغ الصبي من تعلم القرآن ، وحفظ اصول اللغة ، نظر عند ذلك ، الى ما يراد أن تكون صناعته ، فوجه لطريقه . فاذا أراد (مدبره) به الكتابة ، اضاف الى دراسة اللغة ، دراسة الرسائل والخطب ، ومناقلات الناس ومحاوراتهم ، وما أشبه ذلك ، وطورح الحساب ، ودخل به الديوان ، وعني بخطه ؛ وان اريد أخرى ، أخذ به فيها(١٥) » .

(١٣) المصدر المذكور ، ص ١٢

(١٤) المصدر المذكور ، ص ١٢ .

(١٥) المصدر المذكور ، ص ١٣ .

وهذا يعني أن الناحية الاجتماعية ، لم تغب عن ذهن ابن سينا ، وأنه كان يفهم بالتربية ، التربية من أجل الحياة ...

(٣) التعلم الفردي والجمعي : بيد أن التعليم من أجل الحياة ، أعني التعليم الذي يجعل الطفل عضوا في الحياة الاجتماعية ، يتطلب ان لا يكون فرديا . وهذا ما دعا ابن سينا الى القول بضرورة ان لا يقتصر عمل المؤدب على صبي واحد ؛ بل أن يتعداه الى صبيان متعددين ؛ دون ان يمنع ذلك المؤدب من أن يعنى بكل منهم على حدته .

لهذا ، فهو يرى ، ان انفراد صبي واحد بالمؤدب ليس أمرا مرغوبا فيه ؛ اذ انه يؤدي الى ضجرهما معا . وهذه آفة كل تاديب وتربية وتعليم . وخلافا لذلك ، اذا كان في عهدة المؤدب عدة صبيان معا ، كان ذلك داعيا الى أن يراوح المؤدب بين الصبي والصبي ؛ فيكون هذا انفى للسآمة ، وابقى للنشاط ، واحرص للصبي على التعلم والتخرج . ويعلل ابن سينا ذلك قائلا : « فاذا راوح المؤدب بين الصبي والصبي ، كان ذلك أنفى للسآمة ، وابقى للنشاط ، واحرص للصبي على التعلم والتخرج ؛ فانه يباهي الصبيان مرة ، ويغبطهم مرة ، ويانف من القصور عن شاوهم مرة . ثم يحادث الصبيان ؛ والمحادثة تفيد انشراح العقل ، وتحل منعقد الفهم ؛ لان كل واحد من اولئك ، انما يتحدث باعذب ما رأى ، واغرب ما سمع ؛ فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه ؛ سببا لحفظه ، وداعيا الى التحدث به . ثم انهم يترافقون ويتعارضون الزيارة ، ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق . وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة ، والمساجلة والمحاكاة . وفي ذلك تهذيب لاخلاقهم ، وتحريك لهممهم ، وتمرين لعاداتهم(١٦) » .

واذا انعمنا النظر قليلا في هذا الكلام ، كان لابد لنا من أن ننتبه الى عبارة « راوح المؤدب بين الصبي والصبي » ؛ فهي الحد الفاصل بين التعليم الفردي والتعليم الجمعي ؛ يجمع بينهما معا ، من دون أن يكون هذا على حدته ، أو ذاك على حدته . انه ليس تعليما فرديا بالمعنى الدقيق للكلمة ؛ لانه يحدث في قلب مجموع من الصبيان ؛ وهو ليس تعليما جمعيا بالمعنى الدقيق للكلمة ؛ لان المؤدب يعني بهذا الصبي تارة ، وبذاك تارة أخرى ، وهو يراوح بينهما . ومن هنا كان التعليم عند ابن سينا ، يجمع بين الحسنيين ، حسنى التعليم الفردي ، وحسنى التعليم الجمعي . ولهذا بعض الاسباب ، التي ستراها حينما نتطرق الى نقد التربية عند ابن سينا وتقدير قيمتها ، في خاتمة البحث .

---

(١٦) المصدر المذكور ، ص ١٠٣ .

٣ ـ المؤدب وعمله

بيد ان من يقوم على تربية الصبيان وتعليمهم ، لابد له ـ في رأي ابن سينا ـ من ان يتمتع بصفات معينة تؤهله لان يكون مؤدبا ، ومن طريقة معينة يتبعها في عمله . وهذا ما نريد الكلام عليه في الاسطر التالية :

(١) صفات المؤدب : لا يمكن للمؤدب ان يدعى مؤدبا بحق ، الا اذا تحلى ببعض الصفات ، وهي التي يجب توافرها في كل مؤدب . وقد وضع ابن سينا قائمة بهذه الصفات فقال : « وينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلا ذا دين ، بصيرا برياضة الاخلاق ، حاذقا بتخريج الصبيان ، وقورا رزينا ، بعيدا عن الخفة والسخف ، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي ، غير كز ولا جامد ، بل حلوا لبيبا ، ذا مروءة ونظافة ونزاهة ، قد خدم سراة الناس ، وعرف مايتباهون به من اخلاق الملوك ، ويتعايرون به من اخلاق السفلة ، وعرف اداب المجالسة ، وآداب المؤاكلة والمحادثة والمعاشرة(١٧) » .

واذا انعمنا النظر في هذه الصفات ، وجدنا انها لا تتوافر الا في الانسان الكامل . ولعل ابن سينا أراد ان يرسم لنا المثال الاعلى الذي ينبغي أن يحتذيه المؤدبون ، من دون أن يكون باستطاعة أي منهم ان يبلغه على وجهه الاكمل ، في سبيل أن يكون هاديا لهم في عملهم ، ودافعا لهم لتحسين نفوسهم والسمو بها بالتقرب منه . ومهما يكن من امر ، فاننا نلاحظ جانب العقل الى جانب الدين ، الى جانب الاخــلاق ، الى جانب الخبرة في الآداب الاجتماعية ، الى جانب الحذق بتخريج الصبيان .

بيد اننا نريد ان نتوقف قليلا عند صفة « الحذق في تخريج الصبيان » . ان هذه الصفة من الصفات الضرورية التي يجب أن يتحلى بها المؤدب ، فمن دونها تصبح صفاته الاخرى جميعا غير ذات جدوى . والحقيقة ، ان هذه الصفة هي الغاية من عمله كله ، ولابد له من التمتع بها ، ليقوم بعمله على أكمل وجه . ويبدو الحذق في تخريج الصبيان في رأي ابن سينا ، في البداية معه بالسهل اولا ، وان تكون الغاية تحصيل مكارم الاخلاق

اما البداية مع الطفل بالسهل ، فهي اشبه ما تكون بما اشار اليه المربون المحدثون من

(١٧) المصدر المذكور ، ص ١٣ .

ضرورة الانتقال من السهل الى الصعب . وهي قاعدة شهيرة في أصول التدريس . ويمكننا ان نلمس هذه القاعدة ، في حديث ابن سينا عن التربية الادبية ، حيث قال : « وينبغي ان يرْوى الصبي الرجز ثم القصيدة ؛ فان رواية الرجز أسهل ، وحفظه أمكن ؛ لان بيوته اقصر ، ووزنه أخف (١٨) » .

ولكن التربية الادبية ، شانها شان التربية والتعليم عموما ، ينبغي أن تكون من أجل الحياة ، ولهذا . لابد لها من أن تسهم اسهاما جوهريا في تقويم السلوك وتربية الاخلاق . وهذا ما تنبه ابن سينا اليه ، حينما أراد من رواية الشعر ان تكون مدخلا الى الحياة والاخلاق . ولهذا قال : « ويبدأ (الصبي) من الشعر بما قيل في فضل الادب ، ومدح العلم ، وذم الجهل ، وعيب السخف ؛ وما حث فيه على بر الوالدين ، واصطناع المعروف، وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الاخلاق(١٩) » .

وهكذا نلاحظ أن ابن سينا كان على وعي بما نادى به المربون المحدثون فيما بعد .

(٢) عمل المؤدب وتوجيهه : ولكن عمل المؤدب لا يقف عند حدود التربية والتعليم ، بل لابد له أن يتجاوزهما الى التوجيه ، سواء أكان توجيها في اثناء الدراسة ، أم توجيها لما بعد الدراسة .

وبهذا الصدد ، يرى ابن سينا ان المؤدب ينبغي له أن يعرف صبيه ، ويختبر ذكاءه ، ويسبر قريحته ، قبل أن يقدم على تعليمه علما من العلوم ، أو توجيهه نحو صناعة من الصناعات . والامران لا ينفصلان في رأي ابن سينا ؛ بل انهما وجهان لامر واحد ، بحسب فترات الزمان . الم نجد أن التعليم لديه ، هو تعليم من أجل الحياة وكسب الرزق بصناعة من الصناعات ؟

ولهذا ، فان المقياس الصحيح في توجيه أحد الصبيان ، الى علم دون علم ، أو صناعة ، دون صناعة، ليس مجرد رغبة الصبي فيها ؛ بل كونها مشاكلة لطبعه. ويشرح لنا ابن سينا ذلك قائلا : « ... وان أريد اخرى ، اخذ به (بالصبي) فيها ، بعد أن يعلم مدبر الصبي، أن ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية ؛ لكن ما شاكل طبعه وناسبه . وانه لو كانت الصناعات والآداب تجيب وتنقاد بالطلب والمرام ، دون المشاكلة والملاءمة ؛

(١٨) المصدر السابق ، ص ١٢ .
(١٩) المصدر المذكور ، ص ١٢ .

اذن ، ما كان احد غفلا من الأدب ، وعاريا من صناعة ؛ واذن لاجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وارفع الصناعات(٢٠) » .

ولكن ابن سينا لا يكتفي بهذا القول من دون تقديم تعليل له ، وهو اكبر علماء النفس في القرون الوسطى .لذلك‌فهويعلل لنا سبب اختلاف الناس في اقبالهم على فنون العلم والصناعة ، فيقول لنا : « ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات أسباب غامضة، وعلل خفية ، تدق على افهام البشر وتلطف عن القياس والنظر(٢١) » .

بيد ان ما سماه ابن سينا اسبابا غامضة ، وعللا خفية ، يمكننا ان نرده الى عوامل نفسية، هي ما نصطلح على تسميته اليوم بالميول والقدرات ، في علم النفس الحديث . ومما يؤيد كلامنا كل التأييد ، ان ابن‌سينا نفسه ، ما لبث ان اطلق على هذه العلل ، وتلك‌الاسباب، اسماء مختلفة ، مثل : الطبع والقريحة والذكاء والميل والرغبة . اسمعه يقول : «فلذلك ينبغي لمؤدب الصبي ــ اذا رام اختيار الصناعة ــ ان يزن اولا طبع الصبي ، ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه ؛ فيختار له الصناعات بحسب ذلك . فاذا اختار له احدى الصناعات ، تعرف قدر ميله اليها ، ورغبته فيها ، ونظر هل جرت منه على عرفان ام لا ، وهل أدواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة(٢٢) » .

خاتمة ــ نقد وتقدير

ولكن الحكم عليها من خلال اوضاع التربية والتعليم في العصر الذي عاش فيه صاحبها ، من الآراء ما يمكننا ان نسلكه في عقد التربية الحديثة . وإذا كان لنا ان نعجب بها ، فان اعجابنا سيزداد اضعافا مضاعفة ، اذا علمنا انها سبقت الآراء الحديثة بألف سنة .

ولكن الحم عليها من خلال اوضاع التربية والتعليم في العصر الذي عاش فيه صاحبها ، يمكننا من ان نكون أكثر موضوعية من جهة ، واقدر على تحليلها ومعرفة قيمتها من جهة

(٢٠) المصدر المذكور ، ص ١٣ .
(٢١) المصدر المذكور ، ص ١٤ .
(٢٢) المصدر المذكور ، ص ١٥ .

اخرى . ومن هذه الناحية ، يمكننا ان نضع نصب اعيننا نوعين من التعليم كانا يجريان في عصره ، بالنسبة الى الاطفال الذي عناهم من كلامه ، وهما : التعليم الخاص في المنازل ، والتعليم العام في الكتاتيب . والدليل على ذلك ، ان كلامه يصدق على التربية الفردية حينما تكلم على اختيار ظئر الوليد قبل ولادته، ويصدق على التعليم الجمعي، حينما تكلم على مراوحة المؤدب بين الصبي والصبي . ولكن لنتجاوز هذا الآن ، الى تسجيل ما لابن سينا وما عليه بالنسبة الى هذه الآراء التي اتانا بها .

اولا ــ يمكننا ان نعد من الآراء التي سبق فيها التربية الحديثة ، كل رأي من الآراء التالية:

١ ــ لقد فهم ابن سينا التربية على انها تربية كاملة ، تتناول جوانب شخصية الطفل كلها ، فتصقلها عقليا واخلاقيا وبدنيا واجتماعيا . وهذا ما تنادي به أكثر نظريات التربية الحديثة .

٢ ــ لقد جعل التربية من اجل الحياة ، فالح على التربية الاجتماعية وعلى التوجيه المهني ؛ وهما أمران أصبحنا نلح عليهما في أيامنا هذه كل الالحاح .

٣ ــ لقد سبق علماء النفس التربوي ، حينما أشار الى قيمة الانطباع الاول في شخصية الطفل وتوجيهه نحو الخير او الشر على مدى حياته .

٤ ــ لقد أقام التعليم على أساس من علم النفس حينما طلب من المربي ، أن يعرف صبيه، ويختبر ذكاءه ويسبر قريحته ، ليعلم مدى قدرته على تعلم علم او اتقان صناعة .

٥ ــ انه يذكرنا بروسو ، حينما جعل عمل المؤدب وقائيا ، يجب ان يبدأ قبل ان تهجم على الطفل الاخلاق اللئيمة ، وتفاجئه الشيم الذميمة . ولكنه كان أكثر اعتدالا وواقعية منه ؛ لانه لم يطلب عزل الطفل عن المجتمع ، كما فعل روسو باميل ، بحجة ان الطفل يولد خيرا ، وان المجتمع هو الذي يفسده .

٦ ــ لقد عرف قاعدة الانتقال من السهل الى الصعب في التعليم ، حينما تكلم على البدء بالرجز ثم الانتقال الى القصيدة ، في تعليم الشعر ؛ معللا ذلك بسهولة الرجز وامكان حفظه ، بقصر ابياته ، وخفة وزنه .

ثانيا ــ ولكن الآراء التي أتى بها ابن سينا ما لايزال موضع نقاش واختلاف . ومن ذلك :

١ ــ مسالة العقاب البدني ؛ وقد رأينا ان ابن سينا يبيح اللجوء اليه ، حينما تعيا حيل

المؤدب مع الطفل . لا شك ان التربية الحديثة تستهجن هذا الراي ، وقد أحلت محله اساليب اخرى ، كالمعالجة النفسية ، وتغيير بيئة الطفل الخ ... ولكننا اذا تاملنا الطريقة التي يبيح فيها ابن سينا العقاب البدني ، وجدناها معقولة مقبولة ، ولاسيما اذا ادخلنا في اعتبارنا العصر الذي عاش فيه ، والذي لم تكن طرائق المعالجة النفسية بمعناها الحديث معروفة فيه . يكفيه فخرا انه أعطى العقاب وظيفته التربوية ، ولم يتصوره ثورة تعصف بنفس المؤدب ، وتجعله يفقد اتزانه ، وينهال بالعصا ضربا على الطفل ، بل تصوره امرا وليد التروي والحكمة ، يجري بحسب خطة مرسومة ، بعد اعداد الشفعاء ، لمنع حدوث العقاب الحقيقي .

٢ ـ مسالة المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة ، وقد راينا ان ابن سينا يبيح اللجوء اليها في معرض التربية الاجتماعية . اما علماء النفس والمربون والمحدثون فقد راوا أن هذه الصفات مدعاة للتنافس ، والتنافس لا يستقيم مع التربية الاخلاقية المثلى ، لما ينتهي اليه من احقاد وضغائن : وهذا صحيح على وجه الاجمال . ولكننا اذا تبينا ان ابن سينا تحدث عن ذلك في معرض الترافق وتمارض الزيارة والتكارم وتعارض الحقوق ، ادركنا انه يعني التربية الاجتماعية . وفي هذه الحال ، يصبح رايه مقبولا بمجمله ، لان التنافس هنا تنافس في مكارم الاخلاق .

وهكذا نلاحظ ان آراء ابن سينا في التربية منها ما يدخل في اطار التربية الحديثة ، ومنها ما يدخل في اطار التربية التقليدية ، واذا شئنا الانصاف ، كان لا بد لنا ان نقول : ان آراء ابن سينا التقليدية لم يكن بالامكان القول بغيرها في عصره ، ولا سيما اننا ما زلنا نجدها قائمة في مدارسنا في هذه الايام ، واننا لم نتمكن بعد من الاستغناء عنها من الناحية العملية .

الطفولة في تراثنا العربي

محمود فاخوري

الطفل ، والطفولة ، والاطفال : كلمات استفاضت في هذا العصر ، تعبيرا عن رياحين القلوب ، وقرة العيون ، وزينة الحياة الدنيا . لكننا اذا رجعنا البصر الى تراثنا العربي القديم وقفنا على عدة الفاظ تتردد على الالسنة والاقلام ، مثل : (الصبي ، والغلام ، والولد ، والوليد والصغير ، والابن ، والطفل ، والمولود ، واليتيم ...) ومؤنثها : (الصبية ، والغلامة ، والبنت ...) وجمعها : (الصبيان ، الصبايا ، الغلمان ، الاولاد ، البنات ... الخ) .

وهذه الالفاظ متفاوتة الذيوع والاستعمال ، وبعضها واضح المدلول كاليتيم والمولود ، والابن .. وبعضها الاخر يحتاج الى تحديد وتعريف . ويهمنا من ذلك ثلاثة الفاظ : (الطفل ، والصبي ، والغلام) وعمدتنا في هذا التحديد لسان العرب لابن منظور :

١ ـ الطفل ، والطفلة : الصغيران . والطفل : المولود ، والصغير من أولاد الناس والدواب . والجمع اطفال ، لا يكسر على غير ذلك .

وقال أبو الهيثم : الصبي يدعى طفلا حين يسقط من بطن امه الى ان يحتلم .

ويكون الطفل واحدا وجمعا . وفي التنزيل : « ثم نخرجكم طفلا » .

٢ ـ الصبي : من لدن يولد الى أن يفطم . والجمع : أصبية ، وصبية ، وصبيان ، وصبوة (بكسر الصاد) وصبوان (الصاد وضمها) .

والصبية : الجارية ، والجمع صبايا . ويقال لها ايضا : صبي' .

٣ ــ الغلام : الذي طرّ شاربه . وقيل : هو من حين يولد الى ان يشيب . والجمع اغلمة ، وغِلمة ، وغِلمان . والانثى غلامة . والعرب يقولون للكهل : غلام نجيب ، وهو فاش في كلامهم . وغلام الشيء : صاحبه .

هذه النقول اللغوية تفيد أن كلمتي (الطفل) و (الصبي) تطلقان على الصغير فحسب ، قبل أن يصل الى البلوغ ، بخلاف (الغلام) الذي يقال للكهل أيضا . اما الالفاظ الاخرى فبعضها يطلق على الصغير الذي لم يبلغ سن الرشد : كالوليد ، والمولود ، واليتيم ... وبعضها الآخر يشترك فيه الصغار والكبار : كالولد ، والابن ، والبنت ... ولعل لفظة (الطفل) اقلها شيوعا في أدبنا القـديم ، ولا سيما الشعر . ومن ورودها فيـه قول حسان بن ثابت :

إذن والله نرميهـم بحـربٍ ... تشيب الطفل من قبـل المشيب

ونطاق هذا البحث لا يتعدى في المعالجة مرحلة الطفولة منذ الولادة حتى البلوغ ، مهما اختلفت التسمية عند القدماء معتمدين في هذا التحديد على قرائن كافية ، من سياق ، وخبر ، ومناسبة . وسوف نسير سيرا تاريخيا ، ما امكننا ذلك ، بادئين بالعصر الجاهلي الذي يمتد ــ كما ذكر الجاحظ ــ قرنين على الاكثر قبل الاسلام .

في هذا العصر لم يكن الطفل ــ لدى عدد من القبائل ــ مخلوقا له مكانة اجتماعية أو حقوق مقررة . وهو امر مألوف في المجتمعات البدائية التي ينشغل فيها الآباء عن صغارهم ، وربما عدّوا اظهار الحب لهم منافيا للرجولة . نعرف ذلك من بعض الاخبار والنصوص التي ورث اصحابها شيئا من عادات الجاهلية وانماط سلوكها ، من ذلك قصيدة الحطيئة التي تتحدث عن كرم أعرابي وفد عليه ضيف يحتاج الى القِرى ، فلم يجد خيرا من ابنه يذبحه ويقدم لحمه طعاما لضيفه :

فروّى قليلا ، ثم أحجم برهة ... وان هو لم يذبح فتاه فقد همّا

هذا الاعرابي الجافي الطبع ينقلب الى انسان رقيق العاطفة ، نبيل المشاعر حين تعنّ له الحمر الوحشية ، فيتركها تشرب وترتوي قبل أن يرسل فيها سهمه :

فامهلهـا حتى تروّت عطـاشها ... فارسل فيهـا من كنانته سهما

ومن ذلك ايضا ان الاقرع بن حابس ــ احد سادات بني تميم في الجاهلية ، ومن المؤلفة قلوبهم في الاسلام ــ أبصر الرسول (ص) يقبل احد حفيديه الحسن أو الحسين ، فقال :

ان لي من الولد عشرة ما قبلت واحدا منهم . فقال له الرسول : من لا يَرحم لا يُرحم . وشاهد ثالث على ما ذهبنا اليه ، وهو شيوع ظاهرة الوأد في الجاهلية وكره الاناث خاصة، حتى قيل في امثالهم : « دفن البنات من المكرمات » وقالوا ايضا : « نعم الختن القبر » . (والختن ، بفتحتين : الصهر) .

ولكن هذا الوأد ـ على كل حال ـ لم يكن عاما في قبائل العرب قاطبة ، بل شاع في قبائل قليلة معروفة ، ولولا ذلك لاصبح عدد النساء قليلا من جهة ، ولكان الوأد فضيلة يزهو بها الشعراء من جهة اخرى .

على ان بعض سادات العرب دفعتهم المروءة الى ان ينقذوا من جحيم الوأد بنات كثيرات ، واشتهر منهم (صعصعة بن ناجية) جدّ الفرزدق ، الذي كان يفتدي الموءودات من بني تميم ، حتى سمي مُحيي الموءودات . وقد افتخر الفرزدق بجدّه هذا فقال :

وجدّي الذي منع الوائدات ... وأحيا الوئيد فلم يُوأدِ

وللطفولة في العصر الجاهلي وجه مشرق آخر يغطي سواد الوجه السابق ، ويشير الى عناية بالطفل ورعاية له . فهذا (عمرو بن شاس) تؤذي زوجته ابنا له من أمة سوداء ، يقال له (عرار) ولم يكن بينهما ملاءمة ، فينكر عمرو اذاها ، ويقول أبياتا يقف فيها موقفا مخالفا لكثير من « الرجال » ، ويهدد زوجه بالفراق اذا أساءت صحبة ابنه (عرار) ، فالشاعر يحبه على سواده ودمامته ، وان لم يكن وضيء الوجه ممسوحا بالجمال :

ارادت عرارا بالهوان ، ومن يُرد ... عرارا ، لعمري ، بالهوان فقد ظلم

فان كنت مني ، او تريدين صحبتي ... فكوني لـه كالسمن ربت لـه الادم

وان كنت تهوين الفراق ، ظعينتي ، ... فكوني له كالذئب ضاعت لـه الغنم

فان عرارا ان يكـن غـير واضح ... فاني احب الجون ذا المنكب العمم

ومثل ذلك كثير مبثوث في اشعار العرب واخبارهم التي تكشف عن حب للطفل واهتمام به وتامل في احواله . ولهم في ذلك عادات وتقاليد ونظرات يتوارثونها توارثا لا يخلو احيانا من اوهام وترهات :

فهم يعتقدون ان انجب الاولاد من حملت به امه وهي كارهة لزوجها ، او خائفة مذعورة . يقول الاصمعي : « ان المرأة اذا حملت وهي مذعورة فاذكرت جاءت به لا يطاق » . ويضربون

مثلا ام تابط شرا ، التي حملت به والخوف من غزو الاعداء يحف بها . والى ذلك اشار زوجها ابو كبير الهذلي ، متحدثا عن ابنها تابط شرا ، وهو من زوجها الاول :

حملت بـه في ليلـة مزءودة ... كرهـا وعقـد نطاقهـا لـم يحلل
فاتت بـه حـوش الفـؤاد مبطنـا ... سهدا اذا ما نـام ليـل الهوجـل
واذا رميت بـه الفجـاج رايتـه ... ينفـو مخارمهـا هـوي الاجـدل

وكانوا يعتقدون ان الولد يرث من ابيه وامه واقربائه الادنين بعض الطباع والملامح في الجسم والخلق ، كحاتم الطائي الذي ورث الجود عن امه ، وابي رمادة الشاعر الذي طلق امرأته حين وجدها لشفاء ، خشية ان تجيئه بغلام الثغ .

وكان للبنت ايضا مكانتها ورعايتها ، عند الذين جانبوا الواد ، فقـد عرفت التقدير و « التدليل » واللعب بالعرائس والدمى والبنات (وهي التماثيل الصغار) كما كان كثير من الآباء يكنون باسماء بناتهم : كابي ليلى (النابغة الجعدي) ، وابي سلمى (والد زهير) وابي سفانة (حاتم الطائي) ...

وللاطفال ايضا العابهم المسلية يقطعون بها اوقاتهم ، ويمارسون « هواياتهم » المفضلة ، التي توسع مداركهم ، وتنمي اخيلتهم ، حتى سرى ذلك من الجاهلية الى الاسلام . ومن هذه الالعاب :

١ ـ الفيال : يجمعون ترابا او رملا ، ويخبئون فيه شيئا ، ثم يشق المفايل ذلك التراب نصفين ، ويقول لصاحبه : في اي الجانبين هو ؟ فان اصاب ظفر ، وان اخطا خسر وقيل له : فال رايك ، اي اخطا . قال طرفة يصف السفينة :

يشق حباب الماء حزومهـا بهـا ... كما قسم الترب المفايل باليـد

٢ ـ القلة : ان يؤخذ عودان : صغير وكبير ، يوضع الصغير على الارض ويضرب بالكبير .

٣ ـ الحاجورة : ان يخط الاطفال خطا مستديرا ، ويقف فيه احدهم ، ويحيطون هم به ليأخـذوه .

٤ ـ المزام : يغطي راس احدهم ، ثم يلطم او يضرب على قفاه ، ويقال له : من لطمك ؟ وتسمى هذه اللعبة ايضا (الغميضاء) .

والى هذه الالعاب وغيرها ، كان الاطفال يمارسون ألوانا من الرياضة اليومية ، يجمعون فيها بين المتعة والفائدة : كالسباق على الخيل ، وعلى الاقدام ، والمصارعة ، ورفع الاثقال امتحانا للقوة ... بل ان الطفل الوليد نفسه لم يحرم من بعض اشكال الرياضة التي تتخذ ـ على يد الآباء والامهات ـ شكل المداعبة والملاطفة .. وهذا ما دعا الى شيوع فن شعري خاص عرف باسم (أغاني ترقيص الاطفال) وهي أراجيز شعرية قصيرة تغنى للاطفال الصغار ، ويرقصون عليها ، وتدور موضوعاتها حول اغراض كثيرة : كالفراسة والتنبؤ بمواهب الطفل ، والدعاء له ، والشكوى والمناجاة ، والتعريض ... الخ حتى ان هذه الاراجيز الغنائية اتسعت لكل غرض من اغراض الحياة عند العرب ، واتسمت بالبساطة والصدق ، وقرب المعنى ، وحسن الاداء ، والنغم المرقص ، مع فصاحة ونقاء في اللغة ... وعلماء النفس والتربية يشيدون بترقيص الطفل والغناء له ، لان ذلك من اقدم الوسائل في تربيته وتهذيب نفسه وسجاياه .

ثم ان هذه الاغاني الترقيصية جزء من الرسالة الاجتماعية للشعر ، وهي ـ كما يقول خلدون الشمعة ـ مصدر هام من المصادر المعرفية والابداعية المحتملة لادب الاطفال ، لم نعره التفاتا في النصوص العربية المعاصرة حتى الآن ، « هذه المصادر المعرفية المضمونية والايقاعية لادب الاطفال تبرز اليوم كمادة اولية لا تقدر بثمن لجميع المحاولات الخاصة بادب الاطفال ... » .

وقد كثرت هذه المرقصات في العصر الجاهلي ، وتتابعت فيما تلاه من عصور ، ولا سيما عند الاعراب ، ومن امثلتها ان اعرابيا يدعى ابا حمزة الضبي ، تزوج جارية من قومه ، وطمع ان تلد له غلاما ، ولكنها ولدت بنتا فهجرها ، وصار يأوي الى غير بيتها . فمر يوما بخبائها فسمعها تقول وهي ترقص بنتها :

ما لابي حمزة لا ياتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا
تالله ما ذلك في ايدينا
وانما ناخذ ما اعطينا

فرق لها ، وما لبث ان ولج البيت فقبّل راس امرأته وابنتها ، وصالحها ..
ومن قول هند بنت عتبة ، وهي ترقص ابنها معاوية بن ابي سفيان :

ان بنـي مصـرق كريـم محبب في اهلـه حليـم
ليس بفحـاش ولا لئيـم ولا بطخـرور ولا سئيـم
صخـر بني فهـر به زعيـم لا يخلف الظـن ولا يخيـم

(الطخرور : الرجل اذا لم يكن جلدا ـ يخيم : يجبن) .

وكانت ام الفرزدق ترقصه وتتغنى بقولها :

قصصت رؤياي على ذاك الرجل فقال لي قولا ، وليت لـم يقـل :
لتلـدن عضلـة مـن العضـل ذا منطق جـزل ، اذا قـال فصل
مثل الحسام العضب ، ما مس فصل يعـدل ذا الميـل ولمـا يعتـدل

(العضلة : الداهية ـ فصل : قطع) .

فاذا ما ترعرع هؤلاء الاطفال ، انطلقوا الى الكتاتيب وأماكن التعليم الخاصة ، يتلقون فيها مبادىء القراءة والكتابة ، ويتلقفون بعض المعارف البسيطة المتنوعة ، التي تؤهلهم لان يتلاءموا وتلك الحياة القاسية : كالطب الذي لا يخلو من شعوذة ، والنجوم ، واخبـار الماضين ، وأيام العرب وأنسابهم ، ومياه الجزيرة ومواطن الكلا ... لأن حياتهم القائمة على الرحلة والانتقال والتجارة واتخاذ الاسواق الموسمية هي في أمس الحاجة الى اتقان تلك المعارف .

ومن أصحاب الكتاتيب عندهم : يوسف الثقفي في الطائف ، واخذ عنه ابنه الحجاج هذه الحرفة من بعده . ومنهم أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وأبو سفيان بن أمية بن عبد شمس ، تعلماً في كتاب بشر بن عبد الملك العبادي ، وكانا من بعد يعلمان أطفال مكة .

فالقوم كانت لهم حضارة وآداب ، و « أنظمة » تربوية ، مع تفوق لغوي ورقي في المستوى الفكري ، ولكن هذا كله لا يجعل من العلمية التربوية شيئا مقصودا ومدروسا ، بحكم طبيعة الحياة البدائية النسبة التي كان العرب عليها عصر ئذ ، ومن ثم لم يؤت ثماره ناضجة في النشىء الجاهلي .

ولم يقتصر توجيه هذا النشء على الكتاتيب والمعلمين ، بل كان الآباء والامهات ـ ولا سيما الحكماء والمعمرون منهم ـ يسوقون الى ابنائهم وبناتهم بعض الوصايا والحكم والمواعظ ، شعرا ونثرا ، ويوجهونهم في مدرسة البيت ويتعهدونهم بالنصح والارشاد والتوجيـه

القويم ، كبارا وصغارا . ومن أصحاب هذه الوصايا : ذو الاصبع العدواني (بفتح العين) ، واكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة ، وأمامة بنت الحارث ، والحارث بن كعب الذي يقول من وصية لبنيه :

« يا بني ... كونوا جميعا ولا تتفرقوا فتكونوا شيعا .. آفة العدو اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة يقي السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخول فيها ، وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث الهم ، وعقوق الوالدين يعقب النكد ، ويخرب البلد ، ويمحق العدد ... » .

وفي هذه الوصايا تتجلى الحنكة والتجربة والغيرة على مصلحة الابناء وهي تدور على انماط من السلوك الفردي والجماعي ، التي ينبغي ان يأخذ الطفل بها نفسه في حياته .

ثم ان في نصوص التراث العربي القديم طائفة من أمثال العرب التي ذهب الاطفال بنصيب منها ، وهذه الامثال أوردها الميداني وغيره ، حتى قارب مجموعها عنده خمسين مثلا ، اختلط جاهليها باسلاميها . والذي يمعن النظر في هذه الامثال يلحظ أن لفظ (الصبي) وما يتفرع منه قد استأثر بمعظمها ، وفي سائرها تتردد ألفاظ : (الاولاد ، الغلام ، اليتيم ، الولد) وربما لم يصرح في المثل بلفظ من هذه الالفاظ جميعا ، بل يفهم ذلك بطريق الاشارة او الكناية . ويكثر فيها استعمال اسم التفضيل متبوعا بالمفضل عليه وهو لفظ (الصبي) مجرورا بمن : (ابخل من صبي ، أظلم من صبي ، اضبط من صبي ، أكذب .. ، ألأم ..) ، وكلها صفات سوء ، وقلّ أن ترى مثل قولهم : (احلى من الولد) ، وبعض هذه الامثال اسلامي العصر كقولهم : (الولد سرّ ابيه) وقول الامام علي : (رأي الشيخ خير من مشهد الغلام) .

✶ ✶ ✶

وجاء الاسلام ، فاهتم اهتماما كبيرا بالطفولة ، لانها البذرة الاولى لشباب المستقبل ورجال الوطن والامة ، ورسم طرائق رعايتها ، وبين القواعد الكفيلة بصلاحها ونموها نموا طيبا ، ولا سيما في قضايا النفقة ، والرضاعة ، والحضانة ، والارث ، واللقطاء ، وحفظ

حقوق الايتام ، الى جانب قضايا التربية والتعليم . وفي محكم التنزيل والسنة النبوية ـ وهما المصدران الأوّلان والرئيسان ـ من الاحكام الخاصةبتربية الطفل ورعايته منذ المراحل المبكرة ما يحوز التقدير والاعجاب .

فمن الامثلة القرآنية ما ذكر على لسان لقمان في وصاياه لابنه ، تلك الوصايا التي تعد نموذجـا حيـا لعطف الأب وحرصه على تربية ابنه واصلاح حالـه وتقويم سلوكه : « ... ولا تصعّر خدك للناس ، ولا تمش في الارض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الاصوات لصوت الحمير » .

وهناك الكثير من الاشارات والتوجيهات القرآنية في مجال تربية الاطفال تتناول القدوة في التربية ، وتهتم بمرحلة النضج ، وبالصحة الجسمية وأثرها في تحصيل العلم ، ... كما يعرض علينا القرآن ـ في اخباره وقصصه ـ امثلة حية من طفولة بعض الانبياء والمرسلين والصفوة المختارة ، وينهى عن واد البنات وقتل الاولاد نهيا شديدا ، « ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق » ، ولم يغفل امر اليتيم والعطف عليه ، وتحذير من ياكل امواله من الاوصياء وغيرهم : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ اشده » ...

اما السنة النبوية فهي زاخرة بموضوع الطفولة والاطفال ، ومواقف النبي (ص) في ذلك تنطق بالدروس البليغة والاسوة الحسنة للمربين وعلماء النفس ، في منطق سليم ، واسلوب حي . ولا عجب ، فهو الذي عرف اليتم صغيرا ، وحرم عطف الابوين ، وقاسى الفقر وشظف العيش منذ نعومة اظفاره ، فكان ذلك خير مدرسة له ، ومنطلقا عرف منه كيف يرعى الطفولة ، ويحث على حب الاطفال واحترامهم وتقدير مواهبهم :

١ ـ فقد بدأ بالامر منذ جذوره الاولى ، وجاءت أقواله مشيرة الى أثر الوراثة والنسب في طباع الطفل وميوله ، منذ ان يكون نطفة ، وقد اثبت الطب الحديث ان للبويضة تأثيرا كبيرا في تكوين الجنين ، وأن بويضة المرأة الفاسدة او الشريرة تنتج نسلا فاسدا او شريرا . ولذا حث الرسول الكريم على اختيار الزوجة ذات الاصالة في المعدن ، والنبالة في العرق ، فقال : « تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الاكفاء » لان « العرق دساس » ، وجرت بعض اقواله في ذلك مجرى الحكم والامثال كقوله « اغتربوا لا تُضووا »

اي تزوجوا في الاباعد والغرباء حتى لا تاتوا باولاد ضاوين ، ضعفاء ، ونهى عن إرضاع الحمقاء والسيئة الخلق ، لان اللبن يفسد .

٢ ـ واوصى بالعدل بين الابناء ، ونهى عن تفضيل بعضهم على بعض في المعاملة : « اتقوا الله واعدلوا بين اولادكم » ، وهذا لون من التربية الرفيعة ، لان التمييز بين الاخوة يؤدي الى اشعال نار الحقد والبغضاء في حين ان العدل بينهم يتيح لهم نموا نفسيا نقيا ، ويحقق للمجتمع السلامة والصحة .

٣ ـ وكان الرسول يؤانس الاطفال ، ويسلم عليهم كما يسلم على الكبار ، ويظهر لهم الحب والتقدير ، وهذا منه ادراك لما يحتاجه الطفل في نمو شخصيته ، ومبدأ وثيق من مبادىء التربية الحديثة التي تنادي بالنزول الى مستوى الطفل ومؤانسته ، وتقدير طاقته الفكرية والشعورية ، وهو القائل : « من كان له صبي فليتصاب له » أي ليظهر له لطفا ولينا في القول والفعل ويفرحه ليسره .

وله مع حفيديه الحسن والحسين مواقف مأثورة . يقول المقاد : « أرأيت الى الحسن ابن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد في صلاته ؟ ان النبي في مقامه الأسنى ليشفق ان يشغل الصبي من لعبه ، فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي عن ظهره غير معجل ، ويسأله بعض الصحابة : لقد أطلت سجودك ؟ فيقول : ان ابني ارتحلني فكرهت ان أعجله » .

٤ ـ وحبه للطفولة ، لا يحول دون اصلاح الطفل وتقويم اعوجاجه بحزم اذا انحرف ، والانسان لا يصلح بالرفق وحده ، واللين قد يكون ضعفا اذا وضع في غير موضعه . ولذا اقرت التربية الاسلامية ـ على لسان رسولها ـ مبدأ العقوبة الزاجرة للاطفال ، على ان تكون خفيفة هينة متدرجة من العقوبات المعنوية الى العقوبة الجسدية ، وغايتها الاصلاح لا الانتقام ، والعظة لا الاهانة ، ومما قاله : « لان يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » والمقصود ان يكون التاديب عندما يبلغ الطفل من السن والعقل مبلغا يحتمل ذلك ، كما قال المناوي في فيض القدير .

ولم يكن الصحابة اقل اهتماما بالطفولة ورعاية للاطفال ، وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب الذي كان أمة وحده في اصالة تفكيره وتعدد جوانبه وحسن درايته . فقد ابطل ولاية

والي حين علم أنه لا يحنو على صغاره بل يقتخر ، لأنهم يتدرون الزوايا والمخابىء هلعا منه ، فيقول له عمر : « فانت والله بالناس أقل رحمة . لا تعمل لي عملا » .

والفاروق هذا كان أول من فرض للفطيم عطاء من بيت المال ، فلما نمي اليه أن بعض الامهات يعجلن بفطام أولادهن قال : « لا تعجلوا صبيانكم عن الفطـام ، فاننا نفرض لكل مولود » .

وقد استمر الاطفال في العصر الاسلامي يتابعون التعلم في الكتاتيب وبعض الاماكن العامة والخاصة . وكان هذا التعليم يجري في ميدانين :

ـ أولهما : الكتاتيب ، وأصحابها هم (المعلمون) الذين يعلمون الاطفال القراءة والكتابة والسير والمواعظ ... كالحجاج في الطائف ، والكميت بن زيد في الكوفة ، وعبد الحميد الكاتب في الرقة .

ـ وثانيهما : القصور وبيوت الاعيان . ويطلق على الذين اتخذوا التعليم هنا اسم (المؤدبين) وهم الذين اختصوا بتأديب أولاد الخلفاء والامراء ، وتعليمهم ، وترويتهم الشعر ، ومنهم الجعد ابن درهم ، مؤدب مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الامويين .

وهذا كله يدل على رقي المستوى العلمي والادبي في ذلك العصر ، ولا سيما في حواضر الشام والعراق والحجاز : كالطائف ، ومكة ، والمدينة ، والكوفة ، والبصرة ، والاسواق الادبية : كالمربد ، والكناسة .

وهذه التربية ـ في وجوهها جميعا ـ قد أظهرت المواهب الكامنة في نفوس الاطفال ، حتى صنعت الاعاجيب . يذكر الحصري في زهر الآداب أن عمر بن عبد العزيز قدم عليه وفد أهل الحجاز ، فاشرأب منهم غلام للكلام ، وسنه لا تتجاوز العاشرة . فقال عمر : « يا غلام ، ليتكلم من هو أسن منك » . فقال الغلام : « يا أمير المؤمنين ، انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فاذا منح الله عبده لسانا لافظا ، وقلبا حافظا ، فقد أجاد له الاختيار ، ولو أن الامور بالسن لكان هنا من هو احق بمجلسك منك » . فقال عمر : « صدقت ، تكلم ، فهذا السحر الحلال » .

بقي علينا ـ ونحن نتحدث عن الطفولة في العصر الاسلامي ـ أن نعرج على التراث الشعري، فشعر هذا العصر يسود فيه حنو" الآباء والامهات على اطفالهم ، والتمسك بالحياة من اجلهم . ومن القريب ان نجد ذلك حتى عند الجفاة من الاعراب كالحطيئة الذي كان فظا غليظ القلب ، ولكن لما حبسه عمر لهجائه الزبرقان بدا من وراء تلك الفلظة حنان ابوي غريب ، في أبيات أرسلها الى الفاروق ، وكانت سببا في احراز عفوه :

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ زغب الحواصل ، لا ما" ولا شجر
القيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر ، عليك سلام الله يا عمر
فامنن" على صبية بالرمل مسكنهم بين الاباطح تغشاهم بهـا القرر

بل ان هذا الحب قد يتغلب على قوة العقيدة فيصرعها ، وهذا ما يتجلى عند بعض شعراء الخوارج كابي خالد القناني ، الذي كان كلما اراد الخروج والقتال تعلق به بناته فيقيم ، خوفا عليهن من الفقر والذلة والضياع .. وفي ذلك يقول :

لقد زاد الحياة إلي" حبا بناتي ، إنهن" من الضعاف
احاذر ان يرين الفقر بعدي وان يشربن رنقا بعد صاف
وان يعرين إن كسي الجواري فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سومت مهري وفي الرحمن للضعفاء كاف

وهناك شعراء آخرون ، من غير الخوارج ، اظهروا تعلقا باولادهم ، وتمسكا بالحياة من اجلهم ، وفضلوا ملازمتهم والاقامة بينهم على السعي في مناكب الارض ، وفي مقدمتهم حطان بن المعلى ، صاحب الابيات المشهورة التي يظهر فيها تعلقه ببناته بعد أن نال الدهر منه ولولا هؤلاء البنيات اللواتي تتعابعن في مدة يسيرة لكان له مجال واسع في الارض :

لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

فليس عجيبا ان يكون لكل الاولاد شديدا ، لان الوالدين أشد مايكونان ولوعا بطفلهما وهو صغير ، لكثرة ملازمتها له ـ ولاسيما امه ـ والاشراف على تربيته يوما يوما ، بل ساعة ساعة ، فاذا فقد كانت الطامة الكبرى .

وقد عرف أدبنا العربي مراثي عديدة للاطفال انطلقت بها السنة الشعراء والشاعرات ، تقطر رقة وحسرة ، وهي مفعمة بالحزن والاسى ، وتعظيم المصيبة ، والرضا بالقضاء ، والاشادة بمآثر الوليد ، ومحاولة التصبر والتعزي . وكان للاعرابيات نصيب وافر في هذا الرثاء ، تقول احداهن ترثي طفلا لها :

يافرحة القلب والاحشاء والكبد ... ياليت امك لم تحبل ولم تلد !
لما رأيتك قد أدرجت في كفن ... مطيبا للمنايا آخر الابد
أيقنت بعدك أنني غير باقية ... وكيف يبقى ذراع زال عن عضد ؟

وقد يشتد الحزن بالمرأة الثكلى ويؤدي بها الى الجنون وفقدان العقل ، وهذا ماجرى لجويرية بنت قارظ الكنانية ، زوجة عبيد الله بن العباس ، حين قتل بسر بن ارطاة ولديها قثم وعبد الرحمن،وكان معاوية بن أبي سفيان ــ عقب خلافه مع علي ــ قد ارسل بسرا هذا في جيش ، وأمره بأن يوقع بكل من يراه من أصحاب علي .وقد أصاب الام وله" على طفليها البريئين ، وهامت على وجهها ، وراحت تقف للناس ، وتطوف في المواسم تسأل عن ابنيها ، بلا وعي ، وتقول في حرقة وتصوير مؤلم لجريمة بسر :

يامن أحس بابني اللذين هما ... سمعي وقلبي ، فقلبي اليوم مختطف
أنحى على ودجي طفلي مرهفة ... مشحوذة ، وكذاك الاثم يقترف
فالآن ألعن بسرا حق لعنته ... هذا لعمر أبي بشر هو السرف
من ذل والهة حسرى مولهة ... على حبيبين قد أرداهما التلف ؟

* * *

تلك هي دراستنا للطفولة والاطفال في تراثنا القديم ، بين الجاهلية والاسلام ، وقد حاولنا أن تكون شاملة لمختلف جوانب هذا التراث ، في تلك الحقبة ، وكان في النية أن نمد حبل البحث الى مابعد ذلك من عصور ، ولكن غنى المادة جعلنا نكتفي بالعصرين :الجاهلي والاسلامي ، آملين أن نتبع هذه الدراسة بقرينة لها ، لتتكامل من بعد صورة الطفولة في التراث العربي القديم .

وقد لاحظنا أن الطفل العربي بدأ يحتل بالتدريج مكانة سامية في المجتمع ، ولكن هذه المكانة بقيت ثانوية اذا قيست الى ماينبغي أن تكون عليه ، ولم يحظ هذا الطفل باهتمام اكبر ،

وعلى نطاق أوسع ، فيما تناوله الادباء من شئونه ، وما عالجه المفكرون والعلماء من حاجاته واحواله ، فبقي محروما مما يكتب له وحده ، مفتقرا الى ثقافة خاصة تقدم له وتساير نموه ، وتوسع آفاقه ، بل كانت تلك الثقافة توضع بين أيدي الناضجين ، كما تؤلف الكتب وتنظم الاشعار لهم أيضا ، فلم يكن هناك مايسمى بأدب الاطفال ، بل كان التوجه نحو الاطفال ـ في الاعم الاغلب ـ على حد تعبير جلال فاروق الشريف : عملا عفويا يأتي على هامش العمل الابداعي الذي يمارسه الاديب ، لا عملا مدروسا يصدر عن معرفة علمية متخصصة « وان ثقافة الطفل ـ لكي تكون كذلك حقا » يجب أن تقوم على معرفة علمية بالطفولة ، بجميع مقوماتها العقلية والسيكولوجية والفيزيولوجية ، بل وبشروطها الاجتماعية أيضا » ، وهذا مانهض بعبئه العصر الحديث .

المصادر والمراجـع

آ ـ الكتب :

١ ـ الاغاني : أبو الفرج الاصفهاني
٢ ـ الامالـي : أبو علي القالي
٣ ـ التربية والتعليم في الاسلام : د. محمد أسعد طلس
٤ ـ التوجيهات التربوية في حديث الرسول : منذ شعار
٥ ـ جمهرة خطباء العرب : احمد زكي صفوة
٦ ـ شاعرات العرب : بشير يموت
٧ ـ شرح ديوان الحماسة : المرزوقي
٨ ـ لسان العرب : ابن منظور
٩ ـ مجمع الامثال : الميداني
١٠ ـ مراثي شواعر العرب : لويس شيخو
١١ ـ المرأة في الشعر الجاهلي : د. احمد محمد الحوفي
١٢ ـ المفصل في تاريخ العرب : د. جواد علي

ب ـ المجـلات :

١ ـ الثقافة : سبتمبر ١٩٧٤
٢ ـ صوت المعلمين : نيسان ١٩٧٩
٣ ـ الفيصل : العددان (٢٤ ، ٢٥) ١٣٩٩ هـ
٤ ـ منار الاسلام : العددان (٥ ، ٦) : ١٣٩٩ هـ
٥ ـ الموقف الادبي : آذار ١٩٧٩
٦ ـ الهلال : يونيه ١٩٧٥

نصوص عربية قديمة في أدب الأطفال

مقدمة مختصرة عن الامثال

خير الدين شمسي باشا

الامثال افكار اختلجت في الخاطر ثم أكدتها التجربة فجرت على ألسنة البلغاء والفصحاء وسارت مع الزمان حكما وعبرا بليغة مقتضبة خالية من التعقيد باشارة تغني بالتلميح عن التصريح وبصورة ترمز الى المعنى اللطيف فيؤخذ السامع بطلاوة العبارة ويسرح خاطره في نزهة الفكاهة ويعمل عقله في فهم الحكمة وتتعظ نفسه بالمثل والعبرة

وكانت الامثال اسبق من الشعر وأسير على السنة الخاصة والعامة لسهولة تركيبها واختصار جملها وخلوها من قيود الشعر وأوزانه . فرواية الشعر تحتاج الى طبع سليم لا يعدو صاحبه صحة اللفظ ولا يخطىء في الوزن . ولم يجر من الشعر مجرى المثل الا ماكان يتضمن حكمة او يعبر عن تجربة . ولئن كان الشعر ديوان العرب حفظوا به أنسابهم وافتخروا فيه بمآثرهم واختزنوا بابياته مايدل على حياتهم العقلية ، فان الامثال كان لها اثر بارز في حياتهم . فهي الى كونها خلاصة افكارهم ونتاج تجاربهم سجل حافل بعاداتهم وطبائعهم ومرآة لحياتهم وصورة صادقة للبيئة العربية وماحوته من معالم البداوة والحضر.

ففي امثال البداوة تتمثل بيئة الصحراء وحضارتها ، فهي تتحدث عن الجبل والسهل والروض والنهر كما تتحدث عن عوالم هذه الصحراء ما استوحش منها كالضب والذئب والسبع والحية ، وما استانس منها من شاة امثال بعير وكلب وفرس . فالاعراب تعايشوا مع هذه العوالم حتى كادوا ان يعدوها من افراد القبيلة فهم يتغذون بلحومها ويشربون حليبها ويكتسون باوبارها وجلودها ويرتحلون على ظهورها . وقد وجدوا ان الله سبحانه أودع

فيها من الفطنة المعرفة ووهب لها من الغرائز والعواطف ما يشبه غرائز الانسان وعواطفه ، فضربوا الامثال على السنتها وهم يريدون ارشاد الانسان .

اما في امثال الحضَر فالانسان ذاته يتجلى في ميوله واهوائه واخلاقه وطبائعه ، فهي تتحدث عن مشاعره واحاسيسه طفلا وشابا وشيخا ابنا واخا اما وابا صديقا وعدوا جارا وزميلا قريبا وبعيدا مقيما ومسافرا عالما وجاهلا ، وهي تبحث في عسره ويسره وشدته ورخائه وحربه وسلمه مع الآخرين .

لذلك نجدها تجمع الى سلاسة العبارة يسر الفهم والى عمق التجربة نفاذ الفكر والى عظة العبرة سداد الرأي والى صواب الحكمة فلسفة الحياة . فهي اغنى من امثال البداوة واشمل .

وقد عني العرب بالامثال فحفظوها بالصدور ووعوها بالقلوب ، وضمنوها شعرهم ونثرهم واستشهدوا بها في اقاصيصهم واحاديثهم . وكان لها حفاظ ورواة كما كان للشعر ، فهي عنوان فصاحتهم وبلاغتهم ودليل قوة حسهم وبراعتهم في اقتضاب جملهم واختصار كلامهم .

ولما انتشر الاسلام خارج بلاد العرب واختلط بهم الاعاجم واتسعت الحضارة الاسلامية واشتملت على مختلف أنواع الثقافة والعلوم ، ظهرت الامثال المولدة فكانت أغنى بتجربتها لكنها ادنى بفصاحتها ، فعكف الغيورون على اللغة على تدوين الامثال فيما الفوا من معجمات اللغة صونا لها وحفظا لنصوصها ، ثم افردوها في مجموعات خاصة بها . ولعل عبيد بن شرية صاحب معاوية بن ابي سفيان أول من صنف في الامثال نحو خمسين ورقة ، ثم اعقبه الشرقي بن القطامي وأبو عمرو بن العلاء والضبي وأبو عبيدة والاصمعي والانصاري وابن سلام والجاحظ والزمخشري والاصفهاني وغيرهم ، الى ان جاء الميداني فصنف اوسع كتاب في الامثال ، واضاف اليها امثال المولدين ، لكنه لم يشرحها بل تركها غامضة يستغلق فهم بعضها . ورتب الامثال العربية حسب الحرف الاول للمثل وهذا ما يجعل الرجوع الى مثل ما في منتهى الصعوبة ، فاذا أردت ان تراجع مثلا اوله فاء وثانيه الف فعليك مراجعة باب الفاء كله لعلك تجده فيه وربما تجده في باب الواو أيضا لان بعض الروايات زادت في أوله واوا . وقد يتكرر المثل عنده عدة مرات لاختلاف الروايات في لفظه . ولو

انه رتب الامثال حسب الهجاء لاحرف الكلمة الاولى من المثل لكانت المراجعة أسهل كما فعل الزمخشري في المستقصى او لو رتبها حسب المواضيع كما فعل القاسم بن سلام ، ولكن شروح هذين الاخيرين غير كافية وتبويب ابن سلام في أضيق نطاق ، وعدد امثالها أقل بكثير من أمثال الميداني .

وقد توقف التاليف في الامثال فترة طويلة سوان جاء من نظمها شعراً حتى فطن المستشرقون في القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن ـ وان ظهر منهم من سبق منذ القرن العاشر ـ الى ما في امثالنا العربية من ثروة أدبية وفنية تمثل حياة العرب العقلية والاجتماعية وما بلغوه من حضارة ، فاعجبوا بها وعجبوا من بقائها حية لم تبل جدتها الايام فاكبوا على دراستها وترجموها الى لغاتهم المختلفة واقتبسوا منهـا ، ولعل كتاب الامثال العربية القديمـة للمستشرق (زولهايم) أوسع ما كتبوا من دراسات حولها .

ومن المؤسف والمؤلم ان احدا من العرب لم يلتفت الى هذا الكنز الثمين من تراثنا ليجلو عنه غبار الماضي ويوليه الاهتمام الكافي من الدراسة والشرح والتصنيف والتبويب والتنسيق بحسب المواضيع التي تتحدث عنها الامثال ، وذلك ان ما هو منشور في معجمات اللغة وفي كتب الادب اكثر مما هو في المجموعات

وقد عكفت منذ أكثر من سنة على جمعها وشرحها والاستشهاد بما يناسب معناها من الشعر الجاهلي والاسلامي وصدر العصر العباسي وحين يتكامل جمعها في موسوعة تضم ما قال العرب والمولدون من أمثال ساجتهد في تبويبها تبويبا موضوعيا هجائيا مفهرسا .

وقد جمعت من أدب الطفل ما يزيد على ثلاثمائة مثل اخترت منها هذه الطاقة العطرة بشرح مختصر للغاية ، أقدمها لطفلنا العربي بمناسبة العام الدولي للطفل العربي

★ ★ ★

١ ـ أَبَرُّ مِنَ الذئبِ بولَدِهِ . ذلك ان الذئبة تضع ولدها وتحتضنه حتى يكبر ، واذا ذهبت للطعام لا تبعد عنه مقداراً يغيب فيه عن عينها .

٢ ـ **آبَرّ مِن الفَلَمّس** . كان باراً بأمه يحملها على كتفه

وقيل : (أبَرّ من العَمَلّس) وقد بلغ من بره بأمه ان حمل اليها مساءً وعاءً مــن لبن فوجدها نائمة فكره ايقاظها فمكث يتوقــع انتباهها واللبن على يده حتى الصباح .

٣ ـ **آبَرّ مِن فَلَحّس** . هو مــن بني شيبان حمل ابــاه على عاتقه وحج به .

٤ ـ **أبَرّ مِن هِرّةٍ** . زعمو انها من برها بأولادها وشدة حبها لهــم تأكلهم اشفاقا عليهم . وقالوا : (كبرةٍ تأكل اولادها) .

٥/٦ـ **ابنكِ ابنُ بُوحِكِ** . البُوحُ جمع باحة .

واصله ان كبشة بنت عروة بنت عقيل بن طفيل ، فزارته امــه وضربته على فعلة ارتكبها . فصاحت بها كبشة : ابني ابني ، فقالت له امه : (**ابنكِ مَن دَمّى عَقِبَيكِ**) . اي : ابنك مَن وَلَدتِهِ فأدمَى عقبيكِ النفاسُ لا من تبنيتِهِ فأجابتها كبشة : (ابنكِ ابنُ بُوحِكِ) اي من نشأ عندكِ لا عند غيركِ .

٧ ـ **أحلى مِن الوَلَدِ** . ذلك انه لا شيء أحلى من الولد على ابويه . وتقول العامة : (**ما أحلى من الولد إلا ولد الولد**)

٨ ـ **أحنى مِنَ الوالدة** . من الحُنُوّ وهو العطف . ذلك ان ليس من يحنو على المولود كأمه

والعامة تقول : (**اللي عند أمّه لا تِحْمِلْ همّه**) لانه عند اراف الناس به .

٩ ـ **أخذَهُ أخذَ الضَّبّ وَلَدَهُ** . وذلك أن الضب يأخذ ولده إخذة شديدة يهلكه بها . يضرب في الحث على التأديب .

١٠ـ **ارغوا لها حوارَها تقِرْ** . الرغاء : صوت الإبل . اي احملوا ولد الناقة على الرغاء فاذا سمعت صوته هدَأت .

١١ـ **اشجَعُ مِن صَبِيٍّ** . وذلك انه لغرارته يقدم بلا تهيب ويتَهوّر .

١٢ـ **اشفِقْ على ولدِكَ مِن إشفاقِكَ عليْهِ** . ذلك ان كثرة الشفقة والتدليل تفسد تربيته وتبطره . ويروى عن افلاطون ما معناه : (يجب ان نشفق على أولادنا من إشفاقنا عليهم) .

١٣ـ **أضبَطُ مِنْ صَبِيٍّ** . ضبط الشيء إذا لزمه لزوما شديدا واخذه فتأبطه . وليس كالصبي من يحرص على اشيائه .

١٤ـ **اغتربوا لا تَضْوُوا** . أي تزوجوا في بعاد الانساب لا في الاقارب لئلا يهزل اولادكم . قال الشاعر :

فتىً لم تلده بنتُ عم قريبةٌ
فيضوى وقد يَضْوى رَديدُ الاقاربِ

وقال رجل لولده : (والله لقد كفيتك الضؤولة واخترت لك الخؤولة) وتقول العامة : (المرَة الغريبة نجيبة)

١٥ـ **إلى أمّهِ يَلْهَفُ اللّهفانُ** . ويروى (إلى امه يلهف مَن لُهِفَ) ، وكذلك (بأمه يستغيث اللهف) اي انه يبث حزنه إلى أقرب الناس إليه ويستغيث به . وليس أقربُ إليه مِن أمّه

١٦ـ **امْرٌ مُبكياتِكَ لا امْرُ مُضحِكاتِكَ** . اي أطعْ امْرَ مَن ابكاكَ فإنه انتصَحَ لكَ ولا تسمع لمن اضحكك .

اصله ان غلاما قال لأبيه : (اتيت خالاتي فافرحنني واضحكنني واتيت عماتي فأحزنني وابكينني) فقال له ابوه المثل .

وقيل : هذا انصح مثل قالته العرب في تربية الطفل .

ويقولون : (العَمّةُ خير للولد من الخالة) .

وتقول العامة : (البنت لعمتها والولد لخاله)

وتقول : (يا بخت مَن بكاني ويا ويل مَن اضحكني) .

١٧ـ **إنما القرْمُ من الأفيْل** . القرم من الإبل هو الفحل القوي والأفيْلُ : هو الجمَلُ الصغير . يضرب لمن برع فيما برع فيه ابوه وتقول العامة : (فرخ البط عوّامٌ) .

ومن ظريف ما يروى عن احد مؤدبي أولاد الحكام : ان زائرا كان في بيت الحاكم ورأى ابنه يقرأ على مؤدبه قراءة حسنة ، فقال الضيف للحاكم يجامله : (ابن الوز عوّام) فقال المؤدب متباهيا : (نعم ، وجرو الكلب نابح) ، فخجل الحاكم من سماجة المؤدب وسوء تشبيهه .

١٨ـ **إنما نعطي الذي أعطينا** . اصله أن زوجة رجل مِئْناث (وهو الذي لا يلد له إلا الإناث) ولدت له ثلاث بنات فهجرها وتحوّلَ إلى بيت قريب منها فقالت :

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا وهو في البيت الذي يلينا
يغضب إن لم نلد البنينا وإنما نعطي الذي أعطينا

١٩ ـ **بعلّة الداية يقتلُ الصبيّ** : الداية هي القابلة المولدة اي بسوء معرفتها وبجهلها يموت المولود .

يضرب في اللجوء الى ذوي الخبرة المختصين

٢٠ ـ **بلغ الغلامُ الحنثَ** : الحنث : الاثم اي ان الغلام بلغ مبلغ الرجال فلو حلف كاذبا لأثم .

والمراد : عامله معاملة الرجال .

وتقول العامة : (ان كبر ابنك خاويه) اي آخيه وعامله معاملة القرين .

٢١ ـ **تأبى له ذلك بنات البيبي** : بنات البب : عروق في القلب تكون منها الرقة والرحمة . قال الكميت :

اليكم ذوي آل النبي تطلعت نوازع من قلبي طمـاء والبب

اصله انرجلا تزوج وكان له ام عجوز . فقالت له الزوجة : لا انا ولا انت حتى تبعد هذه العجوز عنا . فلما قدم الليل حمل امه وذهب بها الى واد كثير السباع ورماها فيه . وبعد قليل عاد متنكرا فوجدها تبكي فقال مايبكيك ايتها العجوز ؟

قالت : تركني ابني ههنا وذهب وانا اخاف عليه ان يفترسه الاسد ، فقال لها : تبكين له وقد رماك ؟ هلا دعوت عليه ؟ فقالت : (تأبى له ذلك بنات البيبي) بالله لقلوب الامهات والعامة تقول : (قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي على حجر) .

٢٢ ـ **تباعدت العمة عن الخالة** : (مر في المثل رقم ١٦) .

٢٣ ـ **تقيّل اباه** : اي اشبهه . تقيل وتقيض : نزع اليه في الشبه . وتقول العامة (طب القدرة على تمها بتطلع البنت لامها) .

٢٤ ـ **حرّك لها حوارها تحن** : الحوار : ولد الناقة . من عادة الاعراب عند حلب الناقة ان يقربوا ولدها منها لتحن عليه فيدر حليبها . والفلاحون عند حلب البقرة يرضعون العجل ثدي امه قليلا حتى يدر الحليب ثم يبعدونه ويحلبون .

استشهد بالمثل داهية الساسة عمرو بن العاص حين اراد معاوية أن يستنصر اهل الشام على جند علي . فقال عمرو : (حرك لها حوارها تحن) يريد : ذكرهم بأشجانهم يهيجوا .

٢٥ ـ **حفظ الصبي كوحي في حجر** : الوحي هنا بمعنى الكتابة . اي ان الحفظ في الصغر لاينسى .

وتقول العامة : (الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر) .

٣٦ ـ **خشيةٌ خير من واد حبّاً** : اي ان خشية الولد من المؤدب تجعله حذرا من التقصير على حين يطمعه الحب بالتساهل والكسل

٢٧ ـ **الدهرُ افصحُ المؤدبين** : معناه ظاهر . وقال الشاعر :

مـن لـم يؤدبـه والـداه ‏ ‏ ‏ ادبـه الليـل والنهـار

وتقول العامة : (اللي مابتربيه الاهالي بتربيه الايام والليالي) .

٢٨ ـ **راي الشيخ خير من مشهد الغلام** : من حكم الامام علي كرم الله وجهه . اي ان يعينك المسن برايه وهو غائب خير من ان يعينك الغلام بنفسه وهو حاضر .

وفي المثل : (زاحم بعود او دع) العود : الكبير المسن . اي استعن بمن حنكته الايام .

ويروى : (راي الشيخ خير من جَلَد الغلام) اي ان تجربة المسن وخبرته خير من عزم الفتى .

وتقول العامة (اكبر منك بيوم اعرف منك بسنة) . وتقول ايضا بضد المعنى : (غلام عاقل خير من شيخ جاهل) .

٢٩ ـ **ربَّ شائنه احفى من ام** : الشائنة : المبغضة . واحفى : من الحفاوة وهي المبالغة في الاكرام والعناية . قال تعالى : (ان شانئك هو الابتر) وقال : (انه كان بي حفيا) اي ان من تشنؤك وتتقصى عيوبك وتعيرك بها اشد عناية بك من امك التي تستتر على عيوبك فتبقى عليها وتصبح لك عادة . قال عمر بن عبد العزيز : (رحم الله امرءا اهدى الي عيوبي) اي نبهني اليها لاتجنبها .

٣٠ ـ **رهباك خيرٌ من رحماك او رهبوت خير من رحموت او رهبى خير من رحمى** : الرهبة والرهب والرهبا والرهبوت بمعنى الخوف مع الانزعاج ، ورجل رهبوت اي مرهوب ، اي ان من يرهبك خير ممن يرحمك . يضرب في الاخذ بالشدة في التاديب .

٣١ ــ **زين في عين والد ولده** : اي ان الولد في عين ابويه حسن لاعيب فيه . قال الشاعر :

زينه الله في الفـؤاد كمـا زين في عـين والـد ولـد

قيل لعمر بن عبد العزيز : لو بايعت لابنك عبد الملك مع فضلـه وشأنه وورعه ؟ فقال : (لولا اني اخشى ان يكـون في عيني منـه مايزين للوالد من ولده لفعلت) رحمك الله ياعمر .

وتقول العامة : (القرد بعين امه غزال) و (الخنفسة عند أمهـا) عروسة) وفي مثل قديم : (القرنبى في عين أمها حسنة) وهـي دويبة كالخنفساء .

٣٢ ــ **شنشنة اعرفها من اخزم** : الشنشنة : الخلق والطبع والطريقة . تقول : فيه من أبيه شناشن .

واصله ان ابا اخزم الطائي (وهو جد ابي حاتم الطائي) كان ولده اخزم عاقا له فمات وترك بنين فوثبوا يوما على جدهم أبي أخزم فقـال :

ان بني ضرجوني بالـدم شنشنة اعرفها من اخزم

يضرب في تشابه الطباع بين الولد والاهل .

وتقول العامة : (الطينة من الطينة والكحلة من العجينة) الكحلة هي الملاط بين الحجرين . والعجينة هي الطينة المعجونة للبناء .

٣٣ ــ **صديق الوالد عم الولد** : وذلك ان الصديق اخ فقد قيل (صديقك من آخاك) واخو الاب هو العم

٣٤ ــ **ظئر رءوم خير من ام سؤوم** : الظئر هي المرضع ولـد غيرهـا . والرءوم هي الحانية . والسؤوم هي الملول ، اي حاضنة عطوف خير للولد من امه اذا سئمت من تربيته وحضانته ، يضرب في حنان المرضع وتنشئتها ابن غيرها .

٣٥ ـ **عم العاجز خرجه** : اصله ان غلاما صحب عمه في سفر ولم يتزود اتكالا على زاد عمه . فلما جاع في الطريق قال لعمه : ياعم اطعمني، فقال له : (عمك خرجك) اي ينبغي ان لاتعتمد على عمك بل على زادك الذي تتزود به لنفسك

٣٦ ـ **فرقا انفع من حب** : الفرق : الخوف . اي لان يفرق منك فرقا خير من ان تحب . اول من قاله الحجاج للغضبان الشيباني . (وهو مثل قولهم : خشية خير من واد حبا ٢٦) .

٣٧ ـ **فلما اشتد ساعده رماني** : كان مالك بن فهم الدوسي الازدي تنحى في قومه بعين هجر وتحالفوا مع قبائل من العرب ونزلوا الحيرة فوثب ابنه سلمة عليه فقتله وتفرق بنو مالك ولحقوا بعمان وكانوا عشرة ومنهم الملك جذيمة الابرش الذي ملك مائة وعشرين سنة ، وقبيل موته قال مالك :

فيا عجبا لمن ربيت طفلا ... القمه باطراف البنان
اعلمه الفتوة كل وقت ... فلما طر شاربه جفاني
وكم قد علمته نظم القوافي ... فلما قال قافية هجاني
اعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

اي لطالما احسنت اليه صغيرا فلما كبر رد لي الاحسان اساءة

٣٨ ـ **كانه وقع في بطن امه** : يضرب لمن اصاب نعمة وامنا .

وتقول العامة : (وقع بحضن امه وابوه) اي كانه في حضانة ابويه ورعايتهما

٣٩ ـ **كالعاطف على العاض** : هي الام ترضع وليدها فيعض ثديها فتعطف عليه رغم تألمها .

٤٠ ـ **كبر عمرو عن الطوق** : وفي رواية (شب عمرو عن الطوق) قاله جذيمة بن الابرش ملك الحيرة في ابن اخته عمرو بن عدي وقد

ألبسته أمه طوقا يتحلى به الصغار ، فرآه جذيمة فقال المثل أي انه بلغ مبلغ الرجال .

٤١ ـ **كل امرىء في بيته صبي** : اي انه يطرح الحشمة ويداعب اهله ويلاعب اولاده كأنه صبي مثلهم . يضرب في معاشرة الاهل والاولاد.

٤٢ ـ **كل شيء يحب ولده حتى الحبارى** : وذلك ان طائر الحبارى معروف بحمقه فهو يترك بيضه ويحضن بيض غيره حتى اذا فقس البيض احب ماانتج من فراخ .

٤٣ ـ **كل فتاة بأبيها معجبة** : قالته العجفاء بنت علقمة السعدي وكانت خرجت مع رفيقاتها في نزهة فذكرت كل واحدة اباها وافتخرت به. فقالت العجفاء المثل ثم ذكرت اباها بخير وكان جبانا بخيلا . وفي الاغلب يكون الصبي الصق بأمه والبنت الصق بأبيها . يضرب في اعجاب الولد بأهله وتعصبه لهم وان كانوا غير اهل لذلك

٤٤ـ **كيف يعق والدا من قد ولد ؟** اي كيف يعق اباه من صار ابا فعرف ما يجب على الولد من البر والطاعة لابيه ، يضرب في بر الوالدين .

٤٥ ـ **لا ترِ الصبي بياض سنك** : اي لا تضحك في وجهه لئلا يطمع فيك فيأتي بما يسوؤك . وهذا من المبالغة في قسوة التأديب .

٤٦ـ **لا تعدم ادماء من امها حنة** : الادماء : الناقة البيضاء والحنة هنا بمعنى الشبه . اي انها تشبه امها في لون جلدها

٤٧ـ **لا تقتن من كلب سوء جروا** : اي لا ترج من ابن الوضيع خيرا فهو ينشأ على خصال ابيه . والعامة تقول : (ابن الديب ما بيتربى) . اي لا يقتنى . ربت اعرابية جرو ذئب على حليب شاتها فلما كبر افترس شاتها فقالت :

بقرت شويهتي وفجعت قلبي وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا فمن انباك أن اباك ذيب
اذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

٤٨ـ **لا يضر الحوار ما وطئته امه** : وذلك ان الشفقة وعاطفة الام تخفف وطأتها . اي مهما قست الام على ابنها فهي أرحم به من سواها . وتقول العامة : (ادعي على ولدي وأكره من يقول آمين) فدعاؤها عليه باللسان دون القلب .

٤٩ـ **لا يعدم الحوار من أمه حنة** : اي لا يعدم الرحمة والحيطة من امه . والعامة تقول : (قلب الام يحن) .

٥٠ـ **لا ينبت البقلة الا الحقلة** : اي ان البيئة الصالحة ينمى فيها الصالح . يضرب في كرم الاصل . وفي مثل مصري (البطيخة ما تكبرش الا في غيطها) اي في حقلها

٥١ ـ **لتحمل عضة جناها** : العضة واحدة العضاة وهي الشجر الشائك كالسلم والطلح . أي أن لكل جناه وثمره وأن الاهل يزرون وزر أولادهم فهم المسؤلون عن سلوكهم.

٥٢ـ **ليت حفصة من رجال ام عاصم** : اصله ان عمر بن الخطاب مر بسوق الليل في المدينة فراى امراة تبيع الحليب ومعها ابنتها فهمت العجوز ان تغش اللبن بالماء فقالت لها ابنتها :

(يا امه لا تمذقيه ولا تغشيه) فوقف عليها عمر وقال : من هذه منك ؟ فقالت : هي ابنتي .

فأمر عاصما فتزوجها فولدت له ام عاصم وحفصة . فتزوج عبد العزيز بن مروان أم عاصم وكانت لينة الجانب حسنة العشرة محبوبة عند أحمائها فولدت له عمر بن عبد العزيز . فلما ماتت خلف على اختها حفصة وكانت سيئة الخلق تؤذي أحماءها . سئل

أحد موالي مروان عن الاثنتين فقال : ليت حفصة من رجال أم عاصم . اي ليت طباع حفصة من طباع أم عاصم فهي ليست من طبقتها في الخلق . يضرب عند اختلاف طباع الاشقاء .

٥٣ـ **ليس اضوى من القرائب ولا انجب من الغرائب** : (وهو مثل قولهم: اغتربوا لا تضووا رقم ١٤) قال الاسدي :

ولست بضاوي تموج عظامه ولادته في خالد بعد خالد
تردد حتى عمه خال امه الى نسب ادنى من السر واحد

وقال آخر :

تجاوزت بنت العم وهي عزيزة مخافة ان يضوي علي سليلي

٥٤ ـ **ليس ابن امك كابن علة** : بنو العلات اولاد الرجل من نسوة شتى ، فالزوجة الاولى ناهل والثانية علة . ومعناه : ليس الشقيق كالاخ للاب . يضرب في نزوع العرق للخال .

٥٥ـ **ليس بطيء من بني ام الفرس** : بنو ام الفرس طائفة من الخيل ينسبون الى ام الفرس ، وكانت جوادا سبوقا لا تلد الا الجواد السريع ، اي ليس من هذه الفصيلة بطيء . يضرب في ان كريم النسب لا يكون لئيما .

٥٦ـ **ما اسكت الصبي اهون مما ابكاه** : اي ان الصبي يطلب مالا يستطاع فيبكي اذا لم ينله فيلهونه بشيء يسير فيرضى ويسكت

٥٧ـ **من احب ولده رحم الايتام** : وذلك ان من يحب ولده يحس بالعطف والحنان فهو يرحم من افتقدهما .

يضرب في بر الايتام . وتقول العامة : (سلم ابنك للي الو ولاد) لانه يعرف شفقة الآباء على أبنائهم .

٥٨ـ **من ادب اولاده ارغم حساده** : اي من نشأ اولاده تنشئة صالحة

شب أولاده على الخلق القويم فلا يجد حاسدوه ما يعيبون فيهم فيخساون ويذلون

٥٩ــ **من أشبه اباه فما ظلم** : اي من شابه اباه ما تعدى ان وضع الشبه في موضعه فليس اجدر من ابيه ان يتشبه به .

٦٠ــ **المناكح الكريمة مدارج الشرف** : قالـه اكثم بن صيفي . اي ان الكريمة الاصل تكسب اولادها الرفعة والشرف . وقد حرص العرب على شدة ربط الشرف بالمراة فكانوا اذا اراد معرفة رجل ما قالوا : (من امه ؟) وقال احدهم يخاطب ابناءه :

واول أفضـالي عليكم تخيري ___ لطاهرة الاعراق بـاد عفافهـا

٦١ــ **من جهل اباه فقد جهل** : اي من رمى اباه بالسفه كان سفيها . وتقول العامة : (النذل اللي يسب أهله لا خير فيه ولا في اهله) .

٦٢ــ **من قل ذل ومن امر فل** : امر القوم كثروا فصـاروا ذوي امر يطاعون . اي ان من قل اولاده كان ذليلا ضعيفا ومن كثر اولاده نصروه فهزم أعداءه . يضرب في الاعتزاز بكثـرة الاولاد . (قالوا لعنتر : كيف بتغلب الف قال لهم ورايا الف)

٦٣ــ **منك ربضك وان كان سمارا** : الربض ما يتغذى به الانسان من اللبن . والسمار : اللبن المذوق وهو الممزوج بالماء . والربض هنا معناه أهلك وذووك . اي ان اهلك وذويك هم نسبك فهم منك وأنت منهم وان كانت اخلاقهم مشوبة بما تكره فلا انفكاك لك منهم كالسمار لا يفترق ماؤه عن لبنه .

٦٤ــ **منك عيصك وان كان اشبا** : العيص : شجر السدر ، والاشب الملتف الكثير الشوك : اي وان كان ذا شوك مشتبك غير سهل . يضرب في احتمال القريب وان كان سيئا .

ومنه قول العامة : (شعيرنا ولا قمح غيرنا) وقولهم (زيوان بلدك ولا قمح الغريب) الزيوان حب أسود يكون بين القمح يرخصه ويفسده وقولهم : (نار القريب ولا جنة الغريب) .

٦٥ــ **من لا ذكَرٌ له فلا ذِكْرٌ له :** اي من لم ينجب ولدا يحمل اسمه نسيه الناس . فالرجل يتصل نسبه بالذكور من ابنائه ، اما بناته فأولادهن ينتسبون لازواجهن . يضرب في تفضيل الذكور من الاولاد لحفظ النسب .

٦٦ــ **من يكن ذا وفر من الصبيان فانه من كماة شبعان :** اي من كثر اولاده انتشروا فجمعوا له من الكماة ما اشبعه . يضرب في ان كثرة الاولاد تجلب بعملها الغنى للاهل .

٦٧ــ **مودة الآباء قرابة في الابناء :** اي اذا كان الآباء أصدقاء تقارب ابناؤهم بالتزاوج . ومن كلام البلغاء : (المودة لا تحتاج الى قرابة ، والقرابة تحتاج الى مودة) .

٦٨ــ **النزائع لا القرائب :** اي تزوجوا الغرائب فهن انجب من القرائب (اغتربوا لا تضووا (١٤)) .

٦٩ــ **هذا جناي وخياره فيه :** خرج عمرو بن عدي (وهو الذي قيل فيه المثل (كبر عمرو عن الطوق)) مع أولاد خاله جذيمة بن الابرش يجتنون الكماة فكان كل منهم يأكل ما يجني ، وكان عمرو يخبأ ما جناه وينشد :

هــذا جنــاي وخياره فيــه   اذ كــل جانٍ يده الى فيــه

فسمعه خالد فسر بقوله وفعله وضمه اليه والتزمه وأمر ان يصاغ له طوق من ذهب وكان اول صبي طوق
يضرب لمن يدخر الشيء لحينه

٧٠ـ **هذه الطاقة من هذه الباقة** : يضرب في شبه الاولاد بأهلهم في الخَلْق والخُلق .

٧١ـ **هل لك في أمك مهزولة ؟ قال ان معها إحلابة** : الاحلابة : ما يرسله الراعي من الحليب الى اهله من المرعى . يقول له : ان امك افتقرت وليس فيها مطمع . فأجابه : انها مع فقرها غنية بحنانها وعطفها . يضرب في بر الام .

٧٢ـ **هم في أمر لا ينادى وليده** : اي إنهم في امر عظيم يذهل الام ان تدعو وليدها .

ويفسر بأنهم في خير عميم فلا ينهى الاولاد عما يبددون .

قال الشاعر :

لقد شرعت كفا يزيد بن مزيد ... شرائع جود لا ينادى وليدها

وقيل : ان الاولاد اذا رأوا عجبا تحشدوا له فلا ينادون بل يتركون ليتفرجوا ويفرحوا .

٧٣ـ **هنيئا لك النافجة** : دعاء لمن تلد له بنت

والنافجة هي من تزيد في مال ابيها حين يزوجها فيأخذ مهرها . انشد الجاحظ :

وليس تلادي من وراثة والدي ... ولا شان مالي مستفاد النوافج

٧٤ـ **هو أبوه على ظهر الاناء** : اي انه يشبه اباه والشبه ظاهر كما يظهر ما على الاناء .

٧٥ـ **أهون من دحندح** : من الهون اي الخفة والسهولة ، وهي لعبة يجتمع لها الصبيان ويرددونها فمن اخطأها حجل على احدى رجليه سبع مرات .

٧٦ـ **ورثته عن عمة رقوب** : الرقوب هي التي لا يعيش لها ولد فهي

ترقبه وتكون رؤوفة بابن اخيها . يضرب في حب العمات اولاد اخيهن .

٧٧- **الولد سر ابيه** : اي يشابهه في الطباع .

وتقول العامة : (عيب الولد من اهله) اي ان بيئته التي ينشأ فيها بين اهله تؤثر في اخلاقه وسلوكه .

٧٨- **ومن عضة ما ينبتن شكيرها** : العضة : الشجرة الشائكة والشكير: الورق . يضرب في مشابهة الولد اباه .

٧٩- **يا بعضي دع بعضا** : اصله ان سويد بن ربيعة قتل اخا لعمرو بن هند وهرب . فأراد عمر قتل بنيه فتعلقوا بجدهم زرارة بن عدس. وكان عدس قد ظأر عمرا (اي وضع معه) فخاطب زرارة عمرا بذلك وقال : انك بمنزلة البعض مني لما بيننا من قرابة الرضاع . وهؤلاء بعضي لانهم ابناء بنتي فارحمهم لانهم يمتون اليك بالقرابة . يضرب في التعاطف بين الاقارب .

٨٠- **يعود لما ابني فيهدمه حِسْل** : قاله اب في ابنه . اي ان الولد اذا كبر اغتر بنفسه فلا يعجبه فعل والده .

حول دراسة الانفعالات الجمالية الشديدة(١)

اتيين سوريو
ترجمة عصام صبري

الصعوبة القصوى التي تعترض في الدراسة التجريبية للاحساس الجمالي هي اجراء التجارب على هذا الاحساس في صعيد الواقع .

لقد وضع الجنرال دراغوميروف Dragomirov ، وهو كاتب عسكري روسي اشتهر في زمنه ، مبدأ له مغزى كبير (وذلك في موضوع التأهب العسكري) وهو اننا لا نتدرب الا على ماتزاوله مزاولة عملية . « فاذا قمنا بمناورات عسكرية تدربنا على هذه المناورات العسكرية فقط ولم نتدرب على خوض الحرب » وعلى هذا النحو يجب ألا يغيب عن بالنا في موضوع البحوث التجريبية المبدأ التالي الذي لا يقل أهمية عن الاول « لا تجربة الا على ما يحدث في مضمار الواقع » .

ثمة تجارب متعددة اجريت على الاحساس الفني لدى الطفل شفت عن أن هذا الاحساس ضئيل التأثر بالمنبه الذي استعمله المجرب . وجد الباحثون منذ عهد بعيد أنهم اذا عرضوا على أطفال في السابعة الى التاسعة من أعمارهم صورا باللون الاسود لبعض اللوحات المشهورة في المتاحف الكبيرة وطلبوا اليهم تصنيفها في مراتب التفضيل عندهم انتهوا الى نتائج لا طائل فيها خولت اولئك الباحثين (قبل ثلاثين سنة تقريبا) أن يذهبوا الى الجزم بضآلة الاحساس الجمالي العفوي لدى الاطفال والى أن هذا الاحساس انما هو من ثمرات التربية .

(1) Sur L' étude des émotions esthétiques intenses. Etienne Souriau.

في هذه النتائج مغالاة كبيرة ، وكل ما في الامر ان المنبه الذي اختاروه (صور اللوحات) لم يحفز على اي احساس جمالي . وبعبارة اخرى لم يعثر اولئك الباحثون على الاحساس الجمالي عند الطفل بتلك الوسيلة التي استعملوها . تلك الخلاصة مفيدة في جانبها السلبي بيد انها لا تنفي وجود الاحساس الجمالي عند اولئك الاطفال انفسهم الى درجة كبيرة احيانا تلقاء شجرة عيد الميلاد باضوائها المتلالئة او تلقاء كرات جميلة من العقيق او دمية مزخرفة الملابس او زهرة بديعة في الحديقة او قطرة ندى تتالق في شمس الصباح او (من يدري ؟) تلقاء بطاقة تبارك بالعيد ازهارها بارزة على الورق وصفائح فضية صغيرة تنتثر عليها بسخاء .

وهذا يثير عددا من المسائل . لنورد بسرعة بعضها .

هنالك أول الامر مسالة تتعلق بامكان اجراء التجربة . من اليسير مثلا إعداد مجموعة من المنبهات يسهل تنسيقها واستعمالها كتلك الصور التي اعتمدها اولئك الباحثون الانفون في الاختبار الذي اشرنا اليه قبل قليل ، ولكن قطرة الندى والحديقة في الصباح المشرق ليستا جاهزتين للاستعمال دائما في ظروف التجربة العادية . وهكذا قد يلزم الاكتفاء بالوثائق المصورة . أفمعنى ذلك ان نتخلى عن ان نستشف بوسائل اخرى استيقاظ الحس الفني لدى الطفل وان نتعرف المناسبات التي تعطي هذا الحس شكله واتجاهه ؟ افنرتمي في احضان المحاولة المتداولة والضعيفة فحسب ؟ ان المسالة على جانب كبير من الخطورة لان ما نعرفه في تراجم الفنانين والادباء يوضح ان بعض ما يمرون به من ظروف ومناسبات جمالية أولى في طفولتهم يوجه ارادتهم الفنية في سياق حياتهم الناضجة نحو نوع من التعبير الفني توجيهـا حاسما في الشعر او في التصوير . على انه يجوز ان نستطرد هنا بعض الاستطراد فنورد في مجال آخر أن علم النفس الحيواني تقدم في السنين الاخيرة تقدما واسعا حين لم يقتصر على التجارب المفيدة التي يمكن اجراؤها في المخبر بل تجاوزها الى رصد الحيوان في حياته الطبيعية سائما طليقا حيث ينزع حسب هواه وغرائزه فتبدو عندئذ خصائصه وصفاته على نحو أجدى من ظروف المختبر الاصطناعية . وربما كان الامر قريب الشبه في دراسة الاحساس الفني لدى الطفل . فمما لا ريب فيه ان لاحساس الطفل متعلقات وملابسات ليست لاحساس البالغ فقد يهزه ما لا يهزه الكبار ويقع من قلبه ما لا يقع في قلوبهم .

وهنالك مشكلة اخرى وهي قضية نظرية هذه المرة . ربما شكك البعض أن نحمل محملا جماليا اعجاب الطفل بشجرة الميلاد او بالدمية أو بالبطاقة البريدية التي لا تكون ذات صفة فنية

(بل قد تكون ذات ذوق فاسد) ويقولون : أليس من البداهة ان الاحساس الفني ينبغي له أن يقدر الاشياء الجميلة حقا فيعجب بها ويلفظ ما عداها من مسف وتافه ؟ ويضيفون أن من الخطر حقا ان ندخل امورا معيارية جديدة طارئة في دراسة نريدها أن تكون وصفية ايجابية . بيد أن علم النفس التجريبي يستطيع ان يتلافى هذه الصعوبات ذلك أن الرائز الجيد في هـذا العلم يستطيع أن يثبت وفـق بعض القواعـد المضبوطـة صلاح معياره الخاص . ومن جهة اخرى يمكن أن نحترز فنختار الحافز المنبه اثرا من الآثار الفنيـة التي حصل الاجماع على قيمتها مثل الآثار المعروضة في المتاحف المشهورة . وهـذا نهج مضمون ولكي نحصل على منبهات اقل قيمـة لنتخذها مجموعة رديئة تتميز عن الجيدة يمكن أن نجري على تلك الآثار الرفيعة بعض التغيرات وبعض الحذف أو الزيادات التي تفسدها فنؤلف بذلك مجموعة من المنبهات المتدرجة في القيمة دون ادخال معيار آخر يفسح في المجال للجدال . فاذا ميز الطفل المنبه الاصلي من المنبه المشوه تاكد عندنا سداد احساسه ودقته .

ـ وهذا صحيح اذ ان دراسات ممتازة أجريت على هذا الاساس لا سيما تلك التي قام بها نرمان ميير Norman Meier او بحاثون كان هذا العالم يوجههم . وان المجموعة(الالبوم) القيمة التي تستعمل في رائز ميير والتي طبعتها جامعة أيوا Iowa منذ عام ١٩٤٠ تكشف تماما مقدرة الطفل على اعطاء تقديرات وصيبة للآثار الفنية

ومع ذلك لا تزول الصعاب . أولها امتداد لمشكلة مرت آنفا وهي ضآلة العوالج النفسية التي تثيرها تلك المنبهات . لان الاحكام هنا لها صفة عقلية غالبة . بل لو تدخلت حالات عاطفية واضحة من الرضى والاستحسان أو من الضيق والنفور لبقي الامر بعيدا من الانبهار والوجد والغبطة العميقة في مواطن الاحساس الفني والشعور الحي النابض . فاذا كان موضوع التجربة طفلا فقد يشعر الطفل بمثل تلك العواطف والمشاعر القوية ابان نزهة له . نذكر مثلا طفلا في الثالثة خالجه انفعال جمالي عنيف امام نافورة ماء يلون شعاع الشمس قطراتها بالوان قوس قزح فتبدو هذه القوس قريبة منه كانها في متناول يده . وقد روى الشاعر ك. سبيتلر K. Spitteler ذكرى جمالية ابكر من ذلك في طفولته . اما اذا كان موضوع التجربة انسانا كبيرا فان تفضيله الصورة الحقيقية لحفر ياباني على الصورة المشوهة ـ كما في رائز ميير رقم ٢٠ ـ انما هو بعيد كل البعد عن انفعاله الشديد حين يرى آثار ميكيل انج في مواطنها لاول مرة أو حين يطل على منظـر طبيعي رائـع .

الفرق بين الموقفين كالفرق في الظواهر الكهربية بين عصا من الصمغ احتكت بجلد قطة تجذب اليها كرات البيلسان او الفلين ومركز ضخم لتوليد الكهرباء . وليس معنى هذا اننا نخرج الظواهر الجمالية البسيطة من بحثنا بل‌معناه ابراز مدى التفاوت بين المستويين.

ولكن كيف ندرس الاحساس الفني الرفيع الحاد ؟ .

نجد انفسنا مرة جديدة امام الصعوبة العملية اذ ما هي المنبهات التي نعمد اليها في التجربة لاثارة ذلك الاحساس الجمالي العميق ؟

ان الدراسة التجريبية لهذه الظواهر ممتنعة في الوقت الحاضر . واذا كنا ازاء دراستها لدى الاطفال خاصة (وهذا اسهل تطبيقا على الصغار منه على الكبار لان الاحساس الجمالي في احسن احواله وفي نموه الطبيعي لدى الطفل يعطي ردودا حية يسيرة تسهل ملاحظة اعراضها) فاننا نجد انفسنا ملزمين بتخيل مشاهد تشبه ما اورده جان جاك روسو في كتاب (اميل) : كان نرافق الطفل على رابية لدى شروق الشمس او نرسله ليشتري من بائع التبغ بطاقات مصورة بعد ان نتفق مع البائع على ما يعرضه له منها ليختار احداها وامثال ذلك ولكني اسرع فاقول ان كل هذا من قبيل الخيال .

على انه لا مجال لليأس في الدراسة حين نعثر على منهج جيد وهو استطلاع تلك الظواهر في ذاكرة المرء . يبدو هذا الحل عمليا حقا ولكنه قد يثير عندئذ مسالة هامة وهي الى اي مدى تكون الذاكرة مرآة امينة ؟ وما علاقاتها بالاحساس الفني ؟ وهنا تبرز المسالة التي ينبغي ان ندرسها . يستبين مما سلف مدى اهمية البحث عن نوع المنبه الملائم حين ندرس الاحساس الفني لدى الفرد او الاحساس الفني لفئة اعمار معينة (في الطفولة او عند البالغين) او الاحساس الفني لطبقة اجتماعية من الناس . فاذا تم لنا العثور عليه امكن ان ننشىء ما ندعوه باللامح الجمالية « Profil esthétique »

وهذا يفضي بنا الى ان نعرّف الاحساس الفني بالاستجابات التي تنجم عن المنبه لا بالمنبه ذاته ثم نستطيع بعدئذ ان نبحث انواع المنبهات التي ترتبط بتلك الاستجابات .

والامر هنا يسير ، ولا حاجة لطرح السؤال النظري العام وهو هل يجب تعريف رد الفعل بالاستجابات الناجمة عنه او بالمنبهات المعتادة او الاصلية التي تبتعثه ؟ فالجواب واضح وذلك اننا لا نفكر قط في تعريف شهوة الطعام مثلا بمنبهاتها ما دامت تتفاوت هذه المنبهات

حسب الاعمار او الاحوال الفيزيولوجية التي يلزم الانتباه لها وانما نعرفها بالاستجابات او الاعراض الناجمة عنها كالافراز اللعابي والمعدي والحركات المتصلة بها وغيرها . ثم بعدئذ نبحث الاشياء التي تستدعي تلك الظواهر حتى اذا تم بالاحاطة معرفة المنبهات الغالبة في هذه الظواهر حسب فئات الاعمار والاحوال الفيزيولوجية امكن عندئذ الحكم على المنبه هل هو طبيعي سليم او شاذ او رديء فاسد .

والامر على هذا النحو تماما في دراسة الاحساس الجمالي . نحن لانعتمد فقط سبر الاحساس الجمالي بعرض صور للوحات الفنية المشهورة على الافراد اطفالا كانوا او كبارا مثقفين او اميين وانما نذهب الى أن المهم تجربة اصناف أخرى من المنبهات وتبين ايها اشد اثارة للعواطف . وهذا يفترض اننا بصرف النظر عن طبيعة المنبه وصفته يمكن ان ندرك ظواهر الاحساس الفني المثار وليس في هذا عقبات . ذكرنا قبلا احوال الانبهار والوجد والغبطة العميقة وماشابهها تلك كلمات تدل دلالة واضحة على أمور نفسية جلية مدروسة دراسة وافية . (انظر بحوث موريس برادين Maurice Pradine في وصف حالة الوجد Ravissement في مطول علم النفس Traité de Psychologie générale انها ذات ملامح بارزة بعضها ذاتي يمس شعور المرء مسا جليا وبعضها موضوعي كتغير سيماء الوجه وتبدل ايقاع التنفس والاستغراق في التأمل وغياب نوازع التهجم والعدوان وقد يقع التصفيق عند الاثارة الحركية او الهتاف لدى الكبار او القفز والرقص الحماسي لدى الاطفال واحيانا تواكب كل ذلك الفاظ تفيد البهجة والاعجاب .

وقد تقع احوال اشد عمقا تدل على حدة الانفعال ليست خاصة بالوجد كالارتعاش (مثلما يحدث في حالات الروعة) وتداوة الاجفان بالدمع في التهيج الموسيقي ، (وقد عرف عن ستندال Stendhal ذلك ، ومن الناس من يتحامى الذهاب الى الحفلات الموسيقية اذا توقعوا أن تعزف فيها بعض الالحان اذ كانوا لايملكون أنفسهم من اسبال مدامعهم حين سماعها) .

اما الالفاظ المهتوفة فهي تستحق اشارة خاصة مع انها من صفات الوجد تحتاج الى تفسير تفسيرا واعيا . ان استعمالها الرصين في الحكم على أثر فني او منظر طبيعي يتامله الانسان تاملا فنيا بهدوء راجع الى مرتبة الظواهر الفنية من ذوات الانفعال الفسيل وعلى العكس من ذلك تنطلق تلك الالفاظ انطلاقا اسرع في احوال الانفعال الشديد وتكون ذات

صفة اقل دقة في التعبير مثل جميل ، لطيف ، انيق ، رائع ، ماساوي الخ .. وثمة الفاظ اشد ابهاما ومع ذلك فهي أكثر استعمالا ما اعجب هذا !لله دره ! يالروعة ! واها ! وفي غالب الاحيان لاتكون التعابير العفوية ذات دلالة دقيقة على نوع الانفعال . وقد يحدث ان المرء الواحد يعمد الى تعبيرات غريبة بسبب مفاجاتها (ما سمعنا بذلك) (ماشهدنا مثل ذلك (ما للفظاعة) وهلم جرا . تلك عبارات تنم على عمق الانفعال الفني وان كانت غير فنية . ذكر عن اديب مشهور قوله امام منظر بديع « ليتنا نراه كل مرة كما رأيناه أول مرة » فهذا القول يدل على انفعاله وشعوره الخفي الحزين لان تكرار الرؤية قد تقلل من جمال المفاجاة وان ظروف تلك المفاجاة لن تعود . ومن الملاحظ ان الادباء والفنانين والنقاد يتجنبون اجمالا مجموعة هذه الاصطلاحات الشائعة العادية مثل (حسن ، جميل ، متناسب) وهي مفردات تناقض على نحو ما صفة صدق الانفعال وامانته مع انها دليل على شدته وصفته المفردة ومن هنا جرى استعمال الفاظ غير فنية وأخرى ابتعدت من معناها الشائع. فقد يصف الفنانون ادخال بدعة جديدة في أساليب التصوير أو غيره بقولهم طريفة او مسلية مع أنه قد يكون الهدف المقصود زيادة الايحاء بالماساة ولاشك ان هذه الالفاظ ليس المراد منها ذما أو ما تشير اليـه في اللغـة .

كل هذا يؤكد اثباتنا للفرق الشاسع بين الحالات الشديدة في الاحساس الجمالي والحالات الضعيفة . هذا الفرق موجود في التعبير عنها كما هو موجود في مجاليها الاخرى وهذا مايجب ان ناخذه بعين الاعتبار بعد قليل عندما نعالج الاستعمال التجريبي لهذه الاوصاف . ولنكتف الآن بعد ملاحظاتنا السابقة بتقرير انه لاتوجد صعوبة في اعتبار الاحساس الجمالي امرا يمكن تعريفه والكشف عنه بصورة مستقلة عن طبائع منبهاته .

وهكذا من حيث المبدأ لاتعترض عقبة ما في سبيلنا هنا وهو انشاء رسم بياني يصور شدة الاحساس الجمالي لفرد او لفئة من الافراد نريد دراستهم ازاء أصناف متنوعة من المنبهات . وسنسوغ بعد حين اهمية مثل هذه الدراسات ولكن يجب أول الامر زيادة ايضاحها .

مفتاح هذه الدراسة هو الوصول الى حالات انفعالية حادة في احساس المرء قادرة على ان تسم هذه الحياة بسمات جدية .

ماهي اذن المنبهات التي يلزم اعتبارها ؟

لقد نشرنا سابقا جدولا مفيدا جدا في هذا السبيل (اذا اجريت عليه تعديلات مناسبة افادتنا اياها التجربة) .

(cf. E. Souriau, « A general Methodogy for the Scientific study of Aesthetic Appreciation » Journal of Aesthetics and Art Criticism september 1955)

وهذه خلاصة الجدول المذكور :

١ ـ مناظر : مشاهد طبيعية واسعة : بحار ، جبال ، بحيرات ، انهار ، شلالات ، غابات الخ ...

٢ ـ تأثيرات النور ، اختلاف الالوان ، ظواهر جوية تقع في اليوم او في الفصول اوعارضة كشروق الشمس وغروبها واشعتها وانعكاس هذه الاشعة ، اثار العواصف الى ماهنالك، وبالجملة كل ما يمس ظواهر الاشياء المتغيرة والطاولة لابنائها الدائم .

٣ ـ النباتات : يؤخذ كل نبات بمفرده بل حتى باجزائه مثلا شجرة صنوبر او شجرة زان لا غابة منها . زهرة توليب لا طاقة منها ولا روض .

لاحظ اذا كانت هذه الازهار ذات شهرة جمالية شائعة (بالنسبة لكثير من الناس تكون الشهرة الجمالية للازهار المزروعة فقط وعلى هذا تقدير زهرة برية دليل مهم) .

٤ ـ حيوانات صغيرة او كبيرة ، تحديد نوعها وملاحظة ما لاحظناه في النباتات من كون هذه الحيوانات تذكر غالبا لجمالها (كالفراش او الطيور ذات الريش البديع كالطاووس) او هي حيوانات ليست موضع اعجاب عادة .

٥ ـ طرائف طبيعية صغيرة : حصى ملونة ، أصداف ، قطع من الخشب ذات أشكال غريبة وهلم جرا ...

٦ ـ الناس على اختلافهم (العمر ، الجنس) الوجه ، الهيئة ، الملابس (البزة العسكرية مثلا أو ثوب وزينة فاخرة) يضاف الى ذلك جرس الصوت طريقة الكلام ، وكل وقائع لغة الحديث لا اللغة الادبية (براعة الحديث التكلف في اللغة ، التلويح والتلميح الخ ...).

٧ ـ أمور تتعلق بالمدن : الشوارع الكبيرة ، المشاهد ، مجموعة الابنية والقصور ، الحدائق والرياض الصنعية (روضة ، بركة ماء في حديقة على الطريقة الفرنسية . الى ماهنالك).

٨ ـ آلات ، أدوات ، سيارات ، طائرات ، سلع صناعية مفيدة وكذلك المنشآت (كالسدود والمعامل والمحولات الكهربائية الخ) التي ليس للهندسة فيها غاية فنية والتي ينظر اليها وحدها دون موقعها وبيئتها .

٩ ـ أشياء صنعية (أو غيرتها يد الانسان تغييرا كبيرا) ولكنها غير ذات نفع ، (أو دون ان ينظر اليها من وجهة نفعها) ، ودون ان تؤلف آثارا فنية ، مصنفة تصنيفا واضحا مثل الاحجار الكريمة المصقولة ، الاواني الزجاجية ، الاشياء المرتبة في مجموعات ، الطوابع ، الاسلحة القلايين الخ ..

١٠ ـ مؤلفات فنية صغرى أو تزيينية (وهذه تختلف عن الصنف السابق يكون الهدف الفني فيها هو الاصل كالحلي وامثالها) .

١١ ـ اعمال فنية ويدخل فيها الفنون الادبية على الا تشتمل من هندسة البناء الا على الاثار الفنية التي يبرز فيها الهدف الفني ولو كان الاصل منها مقصدا دينيا .

١٢ ـ مصنوعات أيا كان نوعها ولو دخلت في بعض الاصناف السابقة على أن يكون صانعها هو الذي تجري الدراسات عليه .

هذا الجدول قمين بجملة ملاحظات خلاصتها مايلي :

١ ـ لاشيء فيه سابق للتجربة فلا يوجد في ثناياه الا اشياء ثبت انها تنبه لدى بعض الناس احساسهم الفني تنبيها شديدا وتبعث في نفوسهم خوالج حادة . فالفقرة الخامسة تثير احوال الدهشة عند الاطفال وكذلك الامر في الفقرة التاسعة بالنسبة للهواة ومحبي المجموعات النادرة . وفي هذه الحالة الاخيرة كثيرا مايكون للاحساس الفني ملابسات طريفة وان كانت لا تحدث الا نادرا ولكنها مع ذلك تجلب لصاحبها انفعالات عميقة (٢) .

---

(٢) ربما يقول قائل هذا الاحساس لدى هاوي الجمع ليس بالاحساس الفني . انه مظهر فقط او هو انحراف عنه . ولعله انحراف حقا ولكنه احساس فني على كل حال منحرفا كان أو لم يكن . ذلك الشخص الذي لايكلف الا بالمفاتيح قد تأخذه نشوة عارمة اذا عثر على نموذج نادر منها كمفتاح من البرونز غالي روماني . ان مظاهر هذا الاعجاب متميزة وطيها بدعوى انها ليست فنية صرفا يوردنا مزالق الزلل الذي المعنا اليه آنفا في مثال الباحث الفيزيولوجي الذي يعرف الشهية بمنبهاتها (مشاهدة قطعة من اللحم مع البطاطا) فاذا ظهرت اعراض الشهية بمنبه آخر (كزجاجة اللبن لدى الرضيع أو الحلوى للذواقة نهم) رفضها وادّعى انها مفسدة للشهية .

ملاحظة المترجمة : نؤكد كلام المؤلف بأن الكلف بالمفاتيح ليس بالامر المستغرب ذلك ان المفتاح ذو دلالات متعددة فهو يصل ويفصل ، يغلق ويفتح ، يربط ويقطع ولهذا كان له اهمية في الرمز عند الامم وفي بعض الديانات والنحل .

٢ ـ ترتيب الجدول هذا أملته علينا التجربة فقد جمعنا جهد المستطاع في حقل واحد اصنافا تتقارب اصول الاعجاب بها وعندئذ تبدو بواعث التنبه في ملامحها نموذجية بسيطة.

٣ ـ قد يعسر تصنيف بعض المنبهات المشتبكة . فاذا انفعل احد الناس انفعالا جماليا قويا « بمشهد وردة مساء في حديقة جميلة .. نتردد في تصنيف هذا المنبه ضمن احدى الفقرات الثانية والثالثة والرابعة ولكننا نختار منطقيا الصفة البارزة الغالبة والاصح ادراجها في ايها كانت .

٤ ـ من الطريف بهذه المناسبة ملاحظة الشخص المدروس هل له راي في تصنيف المنبهات أيصنف المنبه حسب آثاره ام يجعله في عداد الاعمال الفنية فهذا كله ينم على درجة ثقافته ذلك ان كثيرا من المثقفين مثلا ثقافة عالية في شتى الميادين الا في صناعة الكتاب لايولون انتباههم زينات الطبع في مستهلات الفصول وفي خواتيمها ولايكادون يميزون بين الرسم الفني والرسم الايضاحي . فان نوه احدهم مثلا بجمال كتاب ما لم يكن غرضه الاشارة الى شكله المعروض .

وتبرز مكانة هذه المعلومات المستحصلة بهذا النهج في دلالتها بالنسبة للافراد على نظام احساسهم الفني الذي يميز مزاج كل منهم وحالته الفكرية ازاء البيئة المحيطة به طبيعية كانت او نفسية او اجتماعية .

وكذلك الامر بالنسبة للجماعات فهي تتبدل بتبدل الاعمار اذ يختلف الموقف الفني لطفل بين الخامسة والعاشرة عن موقف اليافع او الكهل .

ولاريب ان ملامح الاحساس الفني تتعلق بالبيئة الاجتماعية ونؤكد هنا أهمية ملاحظاتنا ان للفقرة الثامنة (السلع الصناعية المفيدة) مكانة بالغة في الحكم الفني لدى بعض الاوساط العمالية . على حين ان فئات اخرى من العمال ولاسيما في شمالي فرنسة اشد استجابة فنية للفقرة الحادية عشرة .

لقد نوقشت بنجاح اطروحة لنيل الدكتوراه في جامعة باريز عام ١٩٦١ موضوعها : « الملامح الفنية خلال الحياة اليومية في كندا الفرنسية » تأليف الآنسة سيسيل كلوتيه

Cecile Cloutier وكان من الثمرات الاصلة في هذا المؤلف القيم تتبع نمو الاحساس الفني نموا ملحوظا لدى هذه الجماعات العرقية المحددة مع بيان أنها اقل اهتماما بالاعمال الفنية المشهورة منها بمشاهد الطبيعة أولا ثم بالتعبير الجميل وصفاء القول وسلامة اللغة ثانيا وبنظام تزيين الحياة اليومية اخيرا (الفقرة ١ و ٦ و ٩ من الجدول الانف) .

لقد أبدى بعض اعضاء اللجنة الفاحصة اسفهم ان قسما كبيرا من الملاحظات الواردة في الكتاب ترجع الى فكر المؤلفة الادبي وانها بجملتها ليست شديدة التقيد بالفكر العلمي ، ودافعت المؤلفة عن طريقتها دفاعا جيدا بانها رائدة في طريق جديد غير معبد على ان تلك النتائج الواردة ربما كانت طليعة لبحوث تجريبية تجري على النسق الذي أسلفناه فتفتح افاقا شائقه في البحوث الجمالية .

لابد لنا الآن من بعض الايضاح من وجهة النظر التطبيقية .
بعض المعلومات التي يراد تجميعها سهلة المنال بالملاحظة المباشرة . فمن اليسير اعداد جملة من المنبهات لدراسة الاحساس الجمالي عند الاطفال كما ورد في الفقرة الخامسة من طرائف طبيعية صغيرة كالحصى وغيرها كما انه من اليسير استعمالها وليس الامر كذلك بالنسبة للظواهر الضوئية والجوية (الفقرة ٢) وبالنسبة للوجوه الانسانية (الفقرة ٦)وبالنسبة لمنشآت المدن المعمارية (الفقرة ٧) . ذلك ان الامر يختلف عند استعمال صور فوتوغرافية أو فنية للموضوعات عنه حين تأمل تلك الموضوعات أنفسها فالفرق كبير في الاثارة بين الشيء وصورته فنية او فوتوغرافية . فعرض صورة شمسية لمنظر طبيعي او لحيوان معناه اجراء التجربة على صورة المشهد او الحيوان لا على الحيوان نفسه او المشهد ذاته . وكذلك يمكن ملاحظة الكائنات الانسانية في سياق حياتها الطبيعية وجمع معلومات مفيدة على صعيد الواقع الحي لكن الحالات الانفعالية العنيفة التي أشرنا اليها آنفا نادرة لا تلفى الا استثناء ومصادفة .

اما اذا أريد الحصول على وثائق متجانسة لزم اللجوء الى مسالة الذاكرة وحدها . وتعمج تلك المساءلة بطريقتين :

أولهما : أن نخاطب ذاكرة المرء مباشرة باسئلة من هذا القبيل : هل اختلج في نفسك شعور اعجاب عميق في الشهور الثلاثة الاخيرة (أو السنة الفائتة) ؟ وباي شيء كان ذلك الإعجاب؟

هل ساورك شعور بالروعة وفي أي مناسبة ؟ هل هزتك العواطف (حتى اغرورقت عيناك) لدى سماعك الموسيقى او تاملك مشهدا طبيعيا او قراءتك لقصيدة او ماشابه ذلك ؟

ثاني الطريقين هو سؤال الذاكرة بصورة غير مباشرة وذلك بطلب امثلة على استعمال المصطلحات المتعارفة من جميل ومليح ورشيق ورائع ومتناسب وامثالها ويجوز أن يورد المرء امثلة ليست شائعة تشف عن تجربته الشخصية .

ان حركة الفكر التي تجري من الصفة الى الموصوف تختلف عن حركته المقابلة التي تجري على العكس من المنبه المعروض الى صفته . وفي هذا الاتجاه نعالج الحكم الفني الحي (مع استثناء العواطف العنيفة) . وفي الاتجاه الاخر الذاهب من الصفة الى الموصوف نقتضي المرء ان يحصر ذاكرته بقدر مايحصر ذكاءه وخياله حتى نحصل على بقايا انفعاله الاصلي وهي البقايا التي توحي اليه بالمثل الذي يورده .

في هذه الشروط يسهل تحويل النتائج الى أرقام . يلزم الباحث اذ ذاك أن يطلب الى ذلك المرء بعد أن تذكر تجاربه وأعطى امثلة عليها ان يصنف (من الصفر الى العشرة مثلا) شدة الاحساس الذي خالجه أولا والقيمة التي يقوم بها كلا من الامثلة التي أوردها في مواضعها ثانيا . ولا ينظر الى تلك الارقام على انها قياسات بل على انها تعابير مناسبة تنطق عن أحكامه ، الغاية من دلالتها تيسير المقارنة . وهذه التعابير هي التي يستفاد منها . شكل الاستفادة يكون بان توزع الامثلة التي يعطيها ذلك المرء على الاصناف الاثني عشر الآنفة ثم تجمع الارقام (أو الدرجات) لكل صنف من تلك الاصناف وهذا يجعل هذه الطريقة تحصي كل عنصر مفيد من عناصر الملاحظة وتلخص ذلك بتعبير عددي ناجع ممكن ترجمته الى خط بياني ذي دلالة . ومتى تم ذلك من أجل كل فرد من الافراد المدروسين أمكن الاستفادة من النتائج وتيسر اجراء الحكم على الجماعة التي ينتسب اليها اولئك الافراد . ونحن في غنية عن شرح تلك القواعد المتعارفة والمبسوطة في مراجعها .

نورد هنا خطين بيانيين واضحي الدلالة اخترناهما لوضوح دلالتهما الحاصل عن اختلاف أشكالهما بالاضافة الى تكوينهما العددي . انهما يترجمان احساسات شخصين ترين (بعمر

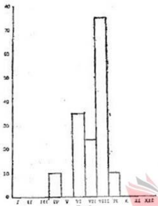


Fig. I

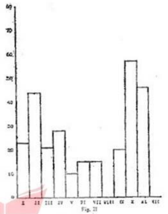


Fig. II

واحد) ومن وسط واحد (٢) .

وربما يكون للخطوط البيانية المتعلقة بمختلف الجماعات العرقية دلالات ناطقة مثل ذلك.

بيد ان هدفنا هنا ان ندرك الاحوال البارزة للانفعال الفني ولاسيما تلك التي تتصل بمشاعر عارمة . والقضية التي بقيت محتاجة الى الايضاح هي هل تستطيع تلك الامثلة التي تاتي من الذاكرة خاصة ان تشف حقيقة عن عواطف حادة او مهمة .

---

(٢) الشخص الاول (أ) يافع تلميذ في قسم الرياضيات من البكالوريا و (ب) فتاة في صف الفلسفة كلاهما في سن السابعة عشرة . أسرة (ب) تكاد تتميز بقليل عن أسرة (أ) ثقافيا . لم يختر (أ) امثلته الجمالية من الفن ولا من الطبيعة وانما اخذها من الصناعة وخاصة من عالم الرياضة (مع أنه ليس في الواقع رياضيا) . والفترة الرابعة في خطه البياني المتعلقة بالحيوانات هي وحدها مزودة باشياء مقتبسة من عالم الطبيعة لانه اذا أراد ان يضرب مثلا على الروعة ذكر « طيران النورس حول مركب يمخر والريح عاصفة » . ومما يؤكد أن هذا شعور شخصي خالجه انه ذكره مرة ثانية بعد ذلك حين سئل بعد ستة اسابيع عن اعجاب عارم خالجه . فقد جرى مسح لكلا الصفين بعد ستة أسابيع بنفس الطريقة اي (بطلب امثلة على أوصاف متعارفة ثم جرى مسح على الذكريات وكان آخر المسوح الثلاثة . والخطان البيانيان هما حصيلة أوراق الاستبانات الثلاثة) .

يمكن السؤال هل تلك الامثلة تترجم احوالا انفعالية كانت الذاكرة قد حفظتها بدقة او هي شعور راهن ولدته ذكريات أثارتها الاسئلة المطروحة دون أن يبقى من تلك الذكريات الا شعور هادىء (مثلا الذي ينفعل حقا عند الاجابة عن سؤالات مطروحة في الاستبانة ؟ أو ان الذاكرة لا تتدخل الا قليلا في هذه الظروف وانما للخيال نصيب كبير في هذا الشان .

وليس الامر هنا الخيار بين طرق متعددة ولا بين فروض مختلفة وانما الفرض الوصول إلى حقائق ايجابية . ماذا يجري في فكر من نطرح عليه طائفة معينة من السؤالات وحين نسأله على هذا الشكل الى اي مدى ننجح في ادراج حالات الانفعال الفني العميق داخل التجربة التي نجريها ؟ هذا هو السؤال وانه لسؤال واقعي .

والحق يقال ان الوقائع الثلاث التي ذكرنا (١ ـ التذكر الدقيق لانفعالات حادة سالفة .
٢ ـ التقويم الراهن الهادىء لاحداث بقيت في الذاكرة فقدت مذاقها العاطفي الاصلي .
٣ ـ نشاط الصق بالخيال منه بالذاكرة) هذه الانواع الثلاثة تتدخل في فكر الشخص عندما تطرح عليه السؤالات او حين يطرحها هو على نفسه باحثا عن امثلة وذكريات جمالية ولا أستثني من ذلك فكر الباحث الذي يسأل نفسه بطريقة التامل الباطني (الاستبطان) لان المسالة هذه تتجاوز الآن حدود التجربة وحدها مع انها هي الاساس في بحثنا . واحب أن أبين ان هنالك تطابقا بين هذه الانواع الثلاثة من الوقائع اذا هي فسرت كما يجب .

نتكلم أول الامر على تدخل الخيال . فمن الواضح ان الخيال يتدخل على نحو مؤد ان اجاب الشخص عن خبث نية وليس نادرا وقوع ذلك في الاستبانات . فقد وجدنا مثلا مضحكا بعض الشيء . طالب في رياضيات البكالوريا اراد أن يشهر بالسائل فاورد امثلة سمجة وكان ايراده لها يشهد على بصيرة جمالية جيدة تخفي شيئا من الصدق تحت ظاهرالتهكم كانه اراد ان يندد بشكل من اشكال التذوق الفني مضى عهده ولكن بوجه عام بدا صدق الاشخاص جليا في تلك الدراسة الجمالية التي شاقهم فيها إعتمادها على التامل الباطني الذي اقتضته الاسئلة .

ندع هذا جانبا . الواقع ان بعض الامثلة كانت خيالية او وهمية صرفا ، منها ورقة تذكر مثالا على الدهشة : ((تاج محل في ليلة قمراء جميلة)) مع أن صاحبها لم يسافر قط الى الهند ولا رآى ـ كما ذكر الفاحص ـ صورة ما ولا نقشا يمثل تاج محل انما اوحت اليه بتلك الصورة كتابة أدبية . وورقة اخرى تورد مثل ((قبرة تدندن فوق زهرة أكبر منها))

وربما اخذت هذه الصورة من كتابات ميشليه Michelet او من شعر Louis Bouilhet وردت في المختارات .

هل من حاجة الى القول : ١ ـ ان كلا من هذه الشهادات على خيال الشخص تتعلق مباشرة باحساسه الفني فتعطي عنه تعبيرا راهنا مفيدا .

٢ ـ انه في الحالتين الاثنتين تدخل ذكرى عاطفية جمالية اعتلجت حقا لدى قراءة نص ادبي واثارت نشاط الخيال ؟. فنحن نحصل على معلومات تتعلق بحياة الشخص الداخلية وتصوراته النفسية وبواعث احلامه وهذا لا يتيسر الا بتحليل نفساني طويل وناجع . فالوثيقة اذن قيّمة رغم الالتباس بين الذاكرة والخيال .

وقد نعثر بين الجوابات على ما هو خيالي خالص بل على احلام . روى شخص انه شعر بانفعال جمالي عميق في حلم (رآه قبل عدة شهور كما قال) كان يطير فيه فوق غدير نبتت فيه ازهار السوسن الغزيرة وكانت تضيئه الشمس الغاربة وتبدو بين الازهار فجوات مائية سوداء ومن هنا كان شعوره مزيجا من الانبهار والخوف (٤) .

علاوة على ما قد يقوله محلل نفساني لاول وهلة من هذا الحلم يصح ان نتبين فيه ذكرى قصيدة لمالارميـــه Mallamé (la Prose pour Esseintes)
اوذكرى لوحة لفان غوغ Van Gogh اسمها السوسن (les Iris) وغالبا ما يهمل معبرو الاحلام وشارحو الرسوم الينابيع الشكلية للصور او انهم لايتوصلون الى تحقيق اصولها وهو ليس بالامر اليسير دائما .

واخيرا يجدر التنبيه على ان الذاكرة هي التي تعرض المثل على الرغم من صفته الخيالية .

---

(٤) هذا المثل وامثلة اخرى جعلتنا نفكر ان نضع فقرة جديدة تضم الاحلام والخيال اذ ندخل وجهتي نظر متفاوتتين جدا . اولاهما الشيء المادي والثانية طريقة الحضور النفسي غالبا ما تكون الاحلام والخيالات ذات طابع جمالي ووجدنا بعد لأي اننا بهذه الاضافة لهذا الشيء (من ادراك او صورة نفسية او ذكرى طارئة او غير ذلك) زد على ذلك انه ربما لاتتوافر معلومات جلية عن طريق الحضور النفسي هذه . اننا هنا امام نسق آخر من الوقائع يشتمل على بعد ثالث في جميع المعلومات . وبالنسبة للحلم الذي ذكرنا يمكن تصنيفه في زمرة الازهار او المناظر .

ان ذكرى الحلم هي ذكرى ايضا ودوامها يشهد على انطباعها العاطفي الشديد الذي لايمكن الشك في قيمته الجمالية .

انتقل الآن على دراسة الذكرى العاطفية الصرف أي التي يعاود الانفعال الاصلي فيها ظهوره بالذات.

هذا النوع من الذكريات مهم جدا من الناحية الفنية اذ كان متعارفا في الابداع الشعري. ان الذكرى العاطفية الخالصة تماما حادثة نادرة . فلابساتها التي تكاد تكون أسطورية الا في بعض الخواطر الشعرية والموسيقية هي أن الصفات الانفعالية تنبعث تماما بملامحها الاصلية حية نابضة حتى لتعرف اماكن حدوثها . فيقول قائل : (لقد شعرت بهذا تماما منذ امد بعيد وانا يافع) مثلا او (منذ أيام قليلة) وذلك بدون ان تتوارد صور دقيقة للظروف العيانية وللاشياء وللناس من أجل أن تكمل عرفان تلك الحالة الانفعالية . بيد ان ثمة في الواقع ذكرى عاطفية (وان كانت غير خالصة) اذ كانت الظروف العيانية المادية تاتي بالمرحلة الثانية وكان الحدث العاطفي هو المركز النشيط لجملة الخوالج النفسية المترابطة كلها حين تنبجس في الخاطر .

من الخطا اعتبار امثال تلك الذكريات ذكريات مبهمة لانها قد تكون بل هي في الغالب على غاية من الدقة في صبغتها العاطفية المميزة . بل هذه الدقة هي مفتاح الذكرى العاطفية(٥) هذه الدقة ايضا تجعل الالفاظ الشائعة في الوصف قليلة الجدوى بالنسبة للسمات الفنية ولهذا كان من العبث اجراء هذه الاختبارات او المسوح في هذا الشان باعتماد الفاظ الصفات الشائعة وكان في مقابل ذلك من المفيد سؤال الاشخاص عن مدى قوة ذاكرتهم الانفعاليـــة .

---

(٥) من الزلل الشائع حتى عند فريق من الناس اولي تفكير ايجابي توهم أن الامورالفنية مبهمة مهلهلة مع أنها على العكس ذات دقة كبيرة بالقياس الى أكثر الامور التي تدخل في الاحساس الانساني . ان الاذن الموسيقي تدرك بالتحليل اهتزازات صوتية شديدة الاشتباك لا يستطيع العالم الفيزيائي الا بالجهد الطويل ان يبلغها بوسائله العلمية . يستطيع مثلا رئيس الجوقةالموسيقية منخلال اصواتها المتزاحمة -حتى لو بلغعدد افرادالجوقة نحوالمئة- أن يدرك ان نغم الـ سي بيمول في المزمار الثاني منخفضة قليلا . وكذلك تقويم الاشكال في المكان بالنسبة للرسام او المصور أو ملامح الخاطرة العاطفية عند الشاعر او المؤلفالمسرحي.

ويمكن الحصول على هذا النوع من الانفعالات حين نسال الافراد هل يتذكرون أنهم ساورتهم انفعالات غريبة الملامح يصعب الاعراب عنها ولاسيما انفعالات فنية مازال مجرد ذكرها يثير الخاطر ويهزه . في هذه الحال يطمئن الباحث الى انه ازاء تلك الانفعالات انفسها اذ يتطابق الحاضر والماضي في الملامح العاطفية التي تحفز على جودة التذكر .

نلفى سجلا حافلا لهذا النوع من المشاعر المتلجة لدى ستندال في غضون آثاره الادبية تشف عن الذاكرة العاطفية لاسيما في كتابه Vie de Henpi, Brûlard . تامل ما ذكره عن اقامته مع قريبة له في مدينة ايشيل Echelles أيام طفولته (٦) « كانهـا كانـت سكنى في السماء . بدا لي كل شيء مشوقا وغدا عندي خرير النهر الذي يمر على بعـد مئتي خطوة من امام نافذتي صوتا مقدسا سرعان ما يحملني الى السماء » . نطالع ايضا الذكرى التي رواها عن انفعاله حين تامل بحيرة ليمان والالب من أعالي جبال الجوراونتحقق طبيعتها الفنية بالاوصاف التي يستعملهـا منظر جليل ، شائـق ، رائـع ثم يضيف : « ماذا اقول في مثل تلك اللحظة دون ان اكذب ودون ان اختلق قصة . ان قلبي ليخفق اليوم وانا اكتب عنها بعد ستة وثلاثين عاما . ادع اوراقي واهيم في الغرفة ثم اعود الى الكتابة ، لاوثر أن أهمل بعض السمات الحقيقيـة من ان اقـع في العيب المقيت عيب البلاغة اللفظية » .

ولكن الغلو في الانفعال الراهن قد ينزع الدقة عن الذكرى العاطفية وعن الوصف الادبي لتلك الذكرى . اذ تتسرب عناصر الحنين ومقابلة الحاضر بالماضي كما تتدخل مقاصد الشكل الادبي بمعاييره وهذا يفضي بنا الى مرحلة اخيرة نتاملها وهي احتمال التبدل العاطفي للذكرى واحتمال مباينة حالتها الحاضرة للانفعال الجمالي الاصلي وهي ما بقي أن نتقرّبه.

كل ذكرى تتغير في جرسها العاطفي كما تتغير في مضمون عناصرها . اليست الذكرى تجمل مع مرور الزمن ؟ اليس الحنين وهو شعور فني يضفي محاسن وهمية غالبا على الفراديس المفقودة ؟ وتاتي الذاكرة فوق ذلك لتصفي وتزخرف . تزين المأساة بالاسى بل بالعذوبة وتشـــوب بالمـرارة ما كـان مألوفا بـل ما كان بهيجـا . أكثرنا قرأ كـلام دانتـي

(٦) منطقة في السافوا مشهورة بمناظرها الرائعة . وربما كان اللفظ آتيا من اللغة التركية كما تقول المعجمات الفرنسية (اسكلة) . المترجمة

وقرا تنديد (موسيه) له حول هذا الموضوع . Nessun maggior dolore(٧) هذه الذاكرة التي وجدناها امينة من الناحية الجمالية حين تحفز الخيال وتدعمه او حين تبعث الذكرى العاطفية هل تصبح اذن مغالطة اذا تجاوزت هذه الميادين ؟ هيهات ! ان اتهامها بالمغالطة خطل . ذلك ان الحنين لا يبدع شيئا وانما يكشف عن وجود ذلك الشيء واذا لاح ان الحنين يختار الملامح الفنية في امر من الامور مشتبك متصل بشتى المنافع العملية فيفضل تلك الملامح ويدعمها فانما هو في ذلك يروز قوة الاثر الذي تركه في النفس انفعالها الاول .

فاذا تصور المرء وهو في المنفى او الاسر الشجرة التي خلف داره في ابهى حلة ، او الافق الذي يلوح وراء المرج ويحتضنه فذلك لانه يكشف وهو في تباريح الالم الطاقة الرمزية لهذه الاشياء من خلال كل سعادة متصلة الجذور بما كانت النفس قد ألفته . ولانه يكشف عن قيمة جمالية لم يرفع النقاب عنها من قبل لان ذلك الاتصال ببنية النفس لم يكن واضحا حين كانت تنشأ وتنمو تلك الالفة وبعبارة اخرى يتضمن الحنين وهما من الناحية الجمالية لكن بسبب هذا الوهم امر ايجابي بحيث انه شهادة شكلها فني على حقيقة علاقة تكونت في النفس كتلك العلاقة في نفس ستندال وهو فتى بين خرير النهر وسعادته في ايشيل. والدليل على هذا انه قد يطرأ تغيرات شتى على الذكرى فتفقد قيمتها الانفعالية الاصلية او تخبو بل تتوارى ومع ذلك يظل انبجاس هذه الذكرى شهادة .

ويستميح كاتب هذه السطور القارىء ان ينوه هنا بذكرى شخصية له فهو يستطيع ان يذكر تماما في اي وقت من طفولته اطلع على جمال المناظر الطبيعية (والاطفال الصغار لايولون انتباههم المشاهد البعيدة) فقد كان في الثامنة من عمره حين ايقظه أهلوه عند انبلاج الصباح ليتامل من خلال نافذة النزل السويسري في الجورا شروق الشمس على جبال الالب (ومن غريب الاتفاق ان ذلك المكان كان قريبا من الموضع الذي شاهد فيه ستندال بحيرة ليمان لاول مرة كما اسلفنا انفا) .

هو اذن يتذكر ذلك تماما بيد انه لايتذكر بالضبط مشاعره اذ ذاك من الناحية الانفعالية وكل مايستطيع ان يكتبه الان عنها اشبه ببنيان خيالي جديد منه بالذكرى

---

(٧) بيت من الشعر لدانتي في الكوميديا الالهية ذكر المؤلف اوله ومعنى البيت كاملا انه ليس من الم اكبر من تذكر زمن السعادة في غمرة الباس .

المترجمة

ومانعرضه عليه ذاكرته من تعرج الثلج المتورد البعيد متجليا على جانب من السماء ازرق بنفسجي مع بقايا نجوم منثورة تهفو في نفورها وتحت ذلك قاع من الضباب الذي ما زال معتما . هذه الاشكال ليست دقيقة وفيها اختلاط كبير . وقس على ذلك بقية الذكريات التي حفظها عن مشاهد الجورا السويسرية في شهري العطلة هذين اللذين قضاهما في طفولته من اودية ضيقة عميقة وجداول متحدرة وقمم جبلية شاهقة ومراع تحفل بأزهار القرنفل فلقد اتيح له ان يتحقق ذلك منذ زمن قريب فوجد تباينا واختلافا والصحيح ان هذه الحفنة من الذكريات ولاسيما اولاها وهي مشهد جبال الالب في السحر تبرز قوية في ذاكرته لدى كل تداع للذكريات الجمالية وهي اقرب ابتدارا من تذكر مناظر أخرى تماثلها او تفوقها في الجمال شهدها بعدئذ . ماخلاصة ذلك ؟ خلاصة أن ذينك الشهرين في طفولته بعد ذلك الكشف المفاجيء لجمال الطبيعة تركا اثرا عميقا في فكره . وان جزءا من احساسه الجمالي اتخذ في ذلك الوقت وهو طفل شكلا نهائيا . لقد اختلجت في نفسه اذ ذاك مشاعر لاتستطيع ذاكرته ان تستعيدها لم يبق منها الا شكلها المرئي الذي لم يكن صادقا تماما ولكنها اودعت في نفسه آثارا راسخة .

ليس كالذاكرة اذن ملكة تكشف عن تجارب الاحساس الفني العميق والبواعث التي تهز اعماقه والمشاعر القوية التي تستحثها والمصادفات التي تبلور اشكالها حتى حين تمسي الذكرى وقد فقدت محتواها الانفعالي مجرد دليل او شاهد على تلك الامور

فالذاكرة بهذا الاعتبار في جوهرها ملكة جمالية كما الح غويو J. M. Guyau من قبل والاحساس الفني يضرب بجذوره في اعماق الذاكرة .

على انه ان كانت الذاكرة مرآة غير امينة للانفعال الجمالي فهي مع ذلك تبقى انجع السبل التي نستطيع ان نسلكها لدراسة الانفعالات القوية وتبين المجالي البارزة في الاحساس الفني .

ان مانأمل تحصيله من هذه الصفحات ـ ان كانت اهلا لتحصيل شيء هو توكيد الاهمية على دراسة الاحساس الفني في اعماقه .

لقد حملت الينا بحوث جيدة معلومات ثمينة عن الظواهر التي تؤكد ذلك الاحساس حين يهتز اهتزازا رفيقا وسطحيا يكاد بعض الناس لايعرفون سواه . وهو بهذا الاعتبار وبهذا

المقدار يدخل في الاحكام الذوقية التي لا اعتراض على سدادها ولاشك في لطافتها ، ولكن يجب الا ننسى ان الاحساس الفني عند جميع الفنانين اولا وعند كثيرين سواهم الة حياتهم العاصفة الجامحة الحافلة بالتجارب النابضة الحية العميقة وهي في مدى اتساعها تتعلق بقيم ذات نظام رفيع .

وسواء اعتلج هذا الاحساس ازاء روعة الجمالي الطبيعية أم تلقاء الاعمال الفنية العليا التي ابدعتها العبقرية الانسانية فهو يقتضي مدى واسعا في الحياة الانفعالية يحيط الى حد ما وسائلنا المستعملة في الدراسة ومع ذلك فان قياس هذا المدى الواسع ليس محاولة يائسة .

دور الأسرة
في التطور النفسي عند الطفل

د . اسعد الأسطواني

قررت الجمعية العامة للامم المتحدة ان يكون عام ١٩٧٩ عاما دوليا للطفل . ويصادف هذا التاريخ مرور ٢٠ عاما على « اعلان حقوق الطفل » الذي تبنته هذه الجمعية في عام ١٩٥٩ . وتتضمن المبادىء العشرة لهذا الاعلان حقوقا اساسية اهمها حق الرعاية والشعور بالامان وتهيئة شروط التفتح والحنان والتفهم وتوفير وسائل التربية الجيدة ، واخيرا تأمين شروط التسامح والاخاء في التعامل مع الاطفال . ومع ذلك فان الواقع الذي تعيشه غالبية هؤلاء الاطفال ما زال بعيدا جدا عن هذه المبادىء : فخلال ثلاثين ثانية يولد مائة طفل في الدول النامية يموت عشرون منهم قبل نهاية السنة الاولى من العمر ، بينما لا تتوفر لستين آخرين الرعاية الطبية والتغذية الملائمة علما بأن اكثر الذين تكتب لهم الحياة ويبلغون سن التعليم لا تتاح لهم فرصة الانتساب الى المدرسة .

وغني عن البيان بأن الوسط الاجتماعي في مجتمعنا الراهن هو الذي يحدد منذ الولادة الفروق امام الحياة اليومية والمستقبلية . وهكذا يتناول الاخفاق الدراسي اطفال العمال بشكل عام،والقليلون هم الذين يستطيعون الخلاص من هـذا التباين امام الثقافة . وينتمي الاطفال البائسون ، المعذبون منهم والجانحون ، في اكثريتهم الى الاوساط الفقيرة . وعلى

الرغم من الحظوة التي تتمتع بها اقلية من الاطفال السعداء ، فمن الملاحظ بأن جميع هؤلاء الاطفال ، على اختلاف انتمائهم الطبقي ، يواجهون بشكل او بآخر ، شروطا حياتية ضاغطة فرضتها عليهم الظروف المحيطة بسبب ضيق المساحات في المدن وفي البيوت وفي المدارس ، او بسبب انشغال الآباء عن الاهتمام باولادهم ، واخيرا بسبب وجود اسس تربوية وتعليمية مغلقة على وقائع الحياة .

ولقد اصبح من الثابت اليوم بأن تأثير الاسرة في نمو الطفل وتطوره الجسماني والنفسي ، أمر ذو اهمية بالغة . فلقد اشارت الدراسات التي اجريت على الاطفال الذين عاشوا محرومين من رعاية الابوين الى النتائج الوخيمة الناجمة عن هذا الحرمان . ولكن التعميم في هذه القضايا يبدو خطيرا، وكثيرا ما تكون الابحاث شائكة في امور تخضع الى التبدل والتغيير، ولا يمكن ضبطها بشكل دقيق . ومع ذلك لنحاول ان نستخلص بعض النقاط والملاحظات من خلال حياة الطفل في الاسرة .

١ ــ **الظواهر العامة في تركيب الاسرة** : لقد اظهرت الدراسات المختلفة وجود صلة واضحة بين ازدياد عدد الاطفال الجانحين **والشروط الحياتية في الاسرة** ، ونقصد بذلك ، وعلى سبيل المثال ، الاكتظاظ داخل هذه الاسرة ــ سوء الشروط الصحية في البيت ــ غياب او فقدان احد الابوين ــ العلاقات السيئة بين الزوجين ــ واخيرا شدة الفقر . وتزداد نسبة الاخفاق المدرسي عادة عند اطفال هذه الاسر .

ويدخل **عامل الطلاق** ليؤثر الى حد كبير في احداث الخلل ضمن الاسرة الواحدة ، على الرغم من تباين الانعكاسات في كثير من الاحيان . ويعود ذلك الى مواقف الآباء تجاه الاطفال بصرف النظر عن مشكلة الطلاق ذاتها . فالاطفال الذين يستغلهم احد الطرفين « كقميص عثمان » اذا جاز هذا التعبير ، يتأثرون اكثر بما لا يقاس من اولئك الذين كانوا بعيدين عن التأثر بالمشكلات الزوجية . وتكون لشخصية الابوين اهمية خاصة في الموضوع .

وقد يكون **للاسلوب التربوي او للعادات** التي مارسها الاهل حينما كانوا اطفالا ، اثر كبير في حدوث التفكك في الاسرة سواء انتهى ذلك بالطلاق او بقي جمرا تحت الرماد ، اذ تدل الاحصاءات ان ٢٠٪ من هذه الاسر تقع ضمن هذه الحالة الاخيرة . ولقد اشارت بعض الابحاث الى ان الشخص الذي ترعرع في اجواء مماثلة مؤهل عند الزواج لتهيئة الاجواء المؤهبة للاخفاق الزوجي ، بينما تكون نسبة النجاح في الزواج مرتفعة اذا كان الابوان قد عاشا في اسر كانت الروابط العاطفية متماسكة فيها بالاصل .

٢ ـ **عمل الام الوظيفي :** اجريت دراسات واسعة حول الموضوع وكثيرا ما اتت النتائج متضاربة . ويظل الانطباع الاقوى بأن الاعمال الوظيفية ونتائجها تتحكم فيها عدة امور لها علاقة بسن الطفل ونوع النشاط المهني والتفاهم بين الزوجين والمسافة التي تفصل البيت عن المنطقة التي تعمل بها الام .

ويبدو من تحليل البيانات والدراسات الواسعة بأن القيمة والتقدير اللذين تبديهما الام لعملها هما اهم بكثير من العمل نفسه . فاذا كانت الام سعيدة بأن تعمل (او لا تعمل) خارج البيت ، فان ذلك سوف ينعكس ايجابيا على الطفل بالذات . وبالعكس ، اذا كانت الام لا تستسيغ الاعمال المنزلية ، وبعبارة اخرى ان لم تكن مسرورة من نظام عملها اليومي فلسوف ينعكس ذلك سلبيا على شخصية الطفل .

٣ ـ **السنوات الاولى من العمر :** وتدل معطيات التحليل النفسي بأن صور واحساسات الاشهر الاولى من الحياة تنطبع في الجهاز العصبي ولكنها تتعرض للزوال اذا لم تتجدد المنبهات المشابهة بعد ذلك . ولسوف يلاحظ طبيب الاطفال تخلفا حركيا بسبب فقدان التنبيه او الاثارة ، وصعوبات سلوكية الصلات المسيئة المبكرة . وقد تحدث اضطرابات في النمو بسبب الحرمان العاطفي ، ولربما تفاقم الامر لنشاهد تأخرا عقليا معوقا بسبب عدم وجود صلات طبيعية عاطفية مبكرة .

وحينما يتقدم الطفل الرضيع في العمر ، يجنح عدد من المربين الى اعتبار

اختبارات الذكاء معيارا اساسيا لتقدير النمو العقلي عند الطفل . ومن الواضح بأن الذكاء هذا المفهوم الذي لم نستطع تحديده وتعريفه بدقة حتى الآن ، يخضع الى عدد من القدرات منها التقدير الجيد للامور ، والاحساسات المختلفة اضافة الى التفتح العقلي . ولذلك لا يمكننا قياس هذه القدرات بمعايير قديمة لهذه الاختبارات التي لا تشكل بحد ذاتها بيانات مستقرة ثابتة . وكثيرا ما نشاهد اطفالا اهملوا بين ايدي المربيات او اودعوا في دور الحضانة لمدة عامين او اكثر ، فلم تتطور او تتفتح كفاءاتهم العقلية بسبب عدم توفر مرتكز عاطفي ثابت . وان من يتابع اطفالا طبيعيين او يعانون الصعوبات ، يلاحظ بأن النمو العقلي والنمو العاطفي امران مرتبطان بشكل غير قابل للانفصام .

٤ ـ اهمية التخاطب : ويبدو ان احد اهم العناصر التي تؤثر في بناء الملكات العقلية عند الطفل هو حضور الام وصوتها الحنون بكل ما يحويه من حب وتفهم والبعد من التصرفات العدوانية . وتخلق الرضاعة من ثدي الام والتغذية بحليبها صلات عضوية وعاطفية صميمية بين الام والطفل. وعلى الرغم من انتشار التغذية الاصطناعية بحليب البقر ، فان هنالك شرطا اساسيا لبقاء هذه الصلات ، هو ان تغذي الام طفلها بنفسها عند اضطرارها الى الاستعانة بحليب البقر .

ومن هنا تأتي اهمية التخاطب كعامل ينقل المعلومات الى الطفل اذ نلاحظ البون الشاسع بين الطبقات الاجتماعية الميسورة والمثقفة القادرة على بذل اغنى المعلومات الى اطفالها ، وبين تلك الطبقات الفقيرة التي لاتستطيع ان تنقل المعلومات الى اطفالها بسبب الحرمان والانشغال . مما يشير الى مسؤولية المجتمع تجاه هؤلاء الاطفال ، اذ يمكن لذكائهم ان يتطور وينمو اذا ما توفرت لهم المساعدات النفسية والاجتماعية والتربوية الباكرة .

٥ ـ مشاكل التكيف في المدرسة : ويرتبط النجاح المدرسي للطفل كما هو معلوم ، بالقدرات العقلية التي تتأثر بدورها بالمستوى الاجتماعي للاسرة . ويكون لعدد الاطفال فيها اثر واضح ، اذ يكون التطور العقلي

للطفل الوحيد اسرع من الطفل الذي يعيش بين عدد كبير من الاخوة والاخوات .

ومن جهة اخرى ، فان اضطرابات التكيف المدرسي الناجمة عن الظواهر العاطفية تبدو بشكل واضح عند الاطفال الذين تتعرض اسرهم لمشكلات داخلية . ولقد اشارت عدة ابحاث في المانيا بـان التربية اللازمة لكي يكتسب الاطفال شخصية ذاتية مستقلة ترتبط اساسا بالتلاؤم الجيد مع النشاط المدرسي ، ولكي يستطيع الطفل القيام بوظائفه المدرسية ، يجب ان يتأمن له اطار هادىء ورصين في كنف والديه .

٦ ــ **التصرفات الشرسة او العدوانية** : ويبدو ان اسباب هذه التصرفات عديدة ومختلفة ويقوم الوسط العائلي بدور هام في ظهورها . وقد دلت الابحاث بأن الاطفال الشرسين يشاهدون عادة في اسرة تتصف الام فيها بالسمات التالية : مستوى مرتفع من القلق ــ عدم تقدير الذات ــ عدم الرضا من نمط الحياة الذي تحيا فيه ــ احتقار الزوج ــ وجود اختلاف بين الابوين ــ اسلوب تربية الاولاد ــ واخيرا عدم المبالاة عند الام .

ولقد حلل آخرون تأثير تصرفات الاب في الطفل ، والاثار الناجمة عـن التحريض الخفي للميول العدوانية التي تقويها روابط التبعية بين الابناء والاباء . ويبدو بأن التصرف الشرس للاب يشكل مثالا يحتذيه الابن بكل بساطة . وتتصف الميول العدوانية باستقرارها على مدى الايام ، اذ كثيرا ما يحافظ الاطفال الذين تظهر شراستهم في الثالثة او الرابعة من العمر ، على هذه العلة في احقاب العمر التالية .

٧ ــ **الميول النفسانية المرضية** : ولابد لنا في هذا المجال من تعداد بعض هذه الميول :

أ ــ **سلس البول الليلي** : تدل الابحاث العديدة في هذا الحقل على تأثير بعض مواقف الام المتناقضة ، كعدم الاكتراث او القلق البالغ والهواجس التي لا مبرر لها على استمرار سلس البول الليلي عند الاطفال . ولقد

اشارت الدراسات المختلفة بأن احسن وسيلة لتجنب الصعوبات ، هي ترك الطفل ليجتاز هذه المرحلة الغريزية على طريقته الخاصة وعدم اللجوء الى الوسائل القسرية في مرحلة سوف تنتهي وتزول وحدها في الوقت المناسب .

ب ــ **عقدة اوديب** : قد يواجه الطفل هذه العقدة التي هي التعلق الزائد بأحد الابوين ، في السنة الثالثة من عمره . فمن المشاهد كثيرا تعلق الابن عاطفيا بوالدته او البنت بوالدها . وغالبا مايحدث ذلك بسبب فقدان المثيل له او لها من الجنس نفسه والذي يطمح احدهما عادة الى التشبه به والسير على غراره . وتأتي الصعوبات في حل عقدة اوديب هذه حينما يكون الوالدان او احدهما مصابا بالاضطرابات النفسية . وغالبا ما تجد المشكلة حلا سريعا لها حينما يكتشف الطفل الجهة المماثلة له في الجنس والتشبه بها .

ج ــ **الشعور بالخوف من المدرسة** : كثيرا ما نلاحظ او نسمع عن الشعور بالخوف في الايام الاولى من الانتماء الى المدرسة ، فهذا الشعور الباكر والموقت ذو دلالة حسنة وسريع الزوال .

وبالعكس ، فان الخوف من المدرسة والهروب منها اللذين يحصلان بشكل متأخر ويظهران في سن البلوغ ، هما ذات دلالة سيئة ويتطلبان فحصا نفسانيا دقيقا . ولقد دلت الابحاث بأن لمحيط الاسرة الذي يعيش فيه الطفل اثر كبير في نشوء هذه الظاهرة ، وانه من النادر بروز اعراض نفسانية مرضية واضحة عند الاطفال الذين ينتسبون الى اسر خالية من الامراض النفسية او من المشاكل الزوجية .

٨ ــ **العوامل الاخرى** : ولا يقتصر التأثير على الام او الاب فحسب ، اذ كثيرا ما تتبدل الصورة بتدخل عناصر اخرى كالاخوة والاخوات والمربيات . وقد يكون للوسط الخارجي كالمدرسة او رفاق اللعب او بعض التأثيرات الدينية الخارجية التي يتعرض لها الاطفال ، انعكاسا مغايرا لمواقف الوالدين .

ولاشك أيضا بأن للوسائل السمعية البصرية في عصرنا الحاضر اثرا حاسما في الصغار . فكثيرا ما ينشد الاهل والآباء الراحة ويرغبون في التخلص من ازعاجات اولادهم ، بابقائهم فترات طويلة امام التلفزيون . ومن هنا تبرز الاهمية المتصاعدة لزيادة الحصص المخصصة لنشر البرامج والمعلومات الموجهة الى الاطفال والمراهقين في المجالات الاجتماعية والثقافية والفنية... ولكن استخدام وسائل النشر كاداة تثقيفية ، في فروع الصحة والتغذية والتعليم ، او كوسيلة للتسلية فقط ، سوف يطرح مشكلات عديدة كثيرا ما تتباين فيها وجهات النظر . ولكي نكتفي بذكر بعض منها ، فمن المفيد التنويه بالاثر السيء الذي تتركه بعض افلام العنف في نفسية الطفل ونتائجها على سلوكه وتطوره المقبلين .

٩ ــ **اولويات حماية الطفولة في عالم الغد** : واخيرا . فلقد اصبح لزاما على الآباء والمربين والباحثين الاجتماعيين ان يتفهموا بعمق المشكلات التي يتعرض لها الاطفال وان يساعدوهم في ايجاد الحلول المناسبة لها ، بما يهيء المجال امام الجيل الجديد لنمو نفسي سليم . ولن يكون هذا الامر ممكنا الا اذا نظرنا للطفل نظرة شاملة ضمن التغييرات الجديدة الطارئة على الانظمة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية في عالم الغد .

ومن هنا يحق لنا ان نتساءل ، ونحن في نهاية عام ١٩٧٩ ، ماهي في الثمانينات من هذا القرن الخطوط العريضة للسياسة التي يجب السير بها لخير الطفولة من الناحيتين الجسدية والنفسانية ؟ فمما لاشك فيه بأن سرعة التطور في العالم التي سوف تكون سمة الاعوام المقبلة تفرض علينا استباق التصور لنشاطنا التثقيفي الذي يتضمن العمل للغد بآفاق المستقبل لا بعقلية الماضي . فمن الطبيعي اذن ان نتهيأ منذ الآن لمواجهة المشكلات الجديدة التي يجب ان نتوقف عندها وتتلخص بما يلي :

١ ــ سوف تتميز هذه الفترة **بالنمو السكاني وصعود الاجيال الشابة** مع كل متطلباتها على اصعدة الغذاء والصحة والتربية والتأهيل المهني والنشاط الاجتماعي . وبحسب احصاءات وتوقعات هيئة الامم المتحدة سوف يرتفع عدد الاطفال دون الخامسة عشر من العمر من مليار ومائتي مليون في عام ١٩٧٠ الى مليار وخمسمائة مليون في عام ١٩٨٠ سوف يمثلون ٤٥٪ من عدد السكان الاجمالي في العالم .

وان اية سياسة لتحديد الولادات سوف لن تكون فعالة وذات جدوى اذا لم تترافق بتطوير اساسي للسكان من النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية . وتقول احدى وثائق الامم المتحدة : « لقد افادت تجارب البلاد المتطورة بأن نظرة السكان بالنسبة لحجم الاسرة سوف لن تتبدل الا حينما تتحسن جميع الشروط الاقتصادية والاجتماعية ، بل حينما يقتنع السكان انفسهم بأن الزيادة الكبيرة في عدد الاطفال هي عامل مضر برفاه الاسرة » .

٢ ـ ان تسارع **النجاحات العلمية والتقنية** في مجال العلوم البيولوجية والنفسية والتربوية والاجتماعية ، سوف تضطرنا الى اعادة النظر في مفاهيمنا السابقة وفي طرق تناولنا للمشكلات .

٣ ـ ولسوف يؤدي **تحطيم البنيات التقليدية في الاسرة** شيئا فشيئا الى التأثير على تطور المراهقين ونموهم الجسدي والعقلي ، خاصة وانه لا تتوفر في سورية وفي البلدان النامية بشكل عام اية مراكز لاستقبال هؤلاء المراهقين حتى الآن ، كي تسعى الى ايجاد الحلول لمشاكلهم على المستويات المهنية والثقافية والاجتماعية

٤ ـ ومما لاشك فيه ايضا بأن الهجرات السكانية من الريف الى المدن وعملية التكيف والتأقلم فيهما ، وقضايا التصنيع وبروز المجتمع الاستهلاكي هي من العوامل التيسوف تؤدي الى نشوء عدم تلاؤم اجتماعي يصيب الاجيال الجديدة بشكل خاص .

ان الخطط الموضوعية حتى الآن تستهدف المظاهر اكثر مما تطمح الى معالجة قضايا الانسان . واذا كان بناء المشافي والمصانع والطرق والمرافىء هي امور اساسية للتطوير الاقتصادي والاجتماعي ، فان بناء الانسان وتطوير قدراته وتوفير الحرية اللازمة ليشارك بجد وثقة في التنمية هو امر ذو اهمية كبرى . ويستدعي ذلك بالضرورة اغناء مواهب الطفل بتأمين افضل الوسائل له للنمو المتوازن والمنسجم كي يستفيد لاقصى الحدود من امكانياته الجسدية والعقلية .

فهل نحن في سبيلنا الى وضع الاسس اللازمة لمواجهة جميع الاحتمالات والاخطار التي سوف تتعرض لها اجيالنا الصاعدة في المستقبل القريب ؟

١١ / ١١ / ١٩٧٩

الطفل بين الالفاظ والمعاني

مريم فرنسيس

يفاجئك طفلك احيانا ، في قراءته ، بتطورات لا تتوقعها . فبعد ان تكون قد تاكدت كل التاكيد انه اصبح بارعا في القراءة ، وانه يجيد تمييز الاحرف بعضها عن بعض ، وتفكيكها ، وقراءتها منفردة ، ومركبة في شتى المقاطع الصوتية ، وفي الفاظ متنوعة ومتعددة ، تفاجا به ، وهو في سنته الدراسية الثانية ، وحتى الثالثة ، يقع في اخطاء كان من المفروض ان يتخطاها . فتراه ، مثلا ، يقرا « العين » « فاء » في هذه اللفظة ، و « الضاد » « دالا » في تلك . فاذا بكلمة « عهد » تصبح « فهدا » و « فرض » تصبح « فردا » . وتحتار بامرك ولاسيما عندما يصر القارىء الصغير على « الفهد » و « الفرد » ، مع انه يعلم تمام العلم ان هذا الحرف هو « العين » ، وذاك هو « الضاد » .

وتتساءل : ما سبب هذا التشويش في القراءة ؟ اهو عدم الانتباه ؟ ارهاق يحول دون التركيز ؟ اضطراب في النطق ، ام مجرد تفنن من قبل القارىء ؟

اذا تاملنا هذه الظاهرة ، مع الاخذ بعين الاعتبار الظروف التي ترافقها ، نلاحظ ان هناك عملية فكرية يخضع لها القارىء الصغير عندما يستبدل ، دون قصد منه ، حرفا بآخر .

وقارئنا هذا قارىء سوي . نطقه سليم ، كما ان نموه العقلي نمو طبيعي . ان تستبعد منذ البدء الحالات الشاذة ، كما تستبعد كل الحالات الطارئة وغير العادية التي تحول دون التركيز الذهني .

يبقى الانتباه . هل الطفل يكون منتبها عندما يقع في مثل هذه الاخطاء ، ام لا يكون منتبها ؟ أمر يصعب البت فيه ، لانه ماذا يطلب من هذا القارىء وهو يقرا ؟ هل يطلب منه فقط

أن يفكك تلك الرموز التي تسمى أحرفا ، ويحولها بشكل آلي الى أصوات ، دون ان يشغل رأسه بأي تصور أو تفكير ؟ هل يمكننا ان نطلب ذلك ، ونتجاهل ما يدور في ذهنه عندما يقرأ هذه الكلمة أو الاخرى ؟

كل ما نفعله هو أننا نقول : « انه لا ينتبه » . نستنتج ذلك استنتاجا ، ولا نسلم به . و « لا ينتبه » لا يعني « لا يفكر » . بل ربما يكون هذا الذي نسميه « عدم الانتباه » نتيجة زيادة في التفكير ، وبالفعل ذاته ، زيادة في الانتباه والتركيز .

فكيف يؤدي الانتباه الى عدم الانتباه ؟ وعلى أي شيء يركز القارىء تفكيره عندما يقع في عدم الانتباه ؟

هـذا ما سنحاول معرفته بالذات .

سمر طفلة في السابعة من عمرها . تحمل في حقيبتها ، خلافا للسنة الماضية ، أكثر مـن كتاب . هناك كتاب القراءة ، كتاب الحساب ، كتاب دروس الاشياء وكتاب الديانة . عليها هذا المساء أن تحضر ، علاوة على درس القراءة ، درسا في الديانة . هناك ثلاثة أسطر ، وفي الوقت ذاته ثلاث جمل صغيرة ، يجب أن تحفظ غيبا . ولكن على سمر ، قبل ان تحفظ الاسطر غيبا ، أن تتقنها قراءة . أجلستها امها بجانبها ، فتحت الكتاب في الصفحة المحددة وراحت تقرأ :

« وصلب على عهد بلاطس البنطي » .

ورددت سمر :

« وصلب على فهد بلاطس البنطي » .

صححت الام : « على عهد بلاطس البنطي » أولا ، وثانيا ، وثالثا ، وعاشرا . ولكن سمر أصرت على « فهد » . فكانت تعيد بكل بساطة : « وصلب على فهد بلاطس البنطي » ، كانها تسمع من أمها « فهدا » لا « عهدا » .

استعملت الام شتى الطرق لكي تظهر لابنتها ان الحرف الاول في « عهد » هو ، كالحرف الاول في « على » ، العين وليس الفاء . فكانت سمر توافق امها على ذلك ، وتقرأ العين ، كما يجب ، منفردة ، كما تقرأها في « لعب ، لعبة ، علبة ، عامر ، مع ، عاد » ولكنها تعود الى « الفهد » كل مرة تعود أمها الى « العهد » .

احتارت الام بابنتها . فمن أين أتت بهذا « الفهد » ؟ لذا قررت أن تعطيها وقتا مـن

الراحة ، تقضيه باللعب واللهو ، لعلها تتوصل معها الى القضاء على هذا « الفهد » وعندما رات ان طفلتها اخذت قسطا وافيا من الراحة ، استدعتها للمذاكرة من جديد ، وسألتها محققة :

ـ ومتى صلب المسيح ؟

أجابت سمر :

« صلب على وحش بلاطس البنطي » .

التحوير الذي طرأ على لفظة « عهد » تم على مرحلتين :

في المرحلة الاولى أصبحت اللفظة « فهدا » .

وفي المرحلة الثانية أصبحت « وحشا » .

و « فهد » قريبة لفظا من « عهد » . فهما على وزن واحد : « فعل » ، ويشتركان بثلثي الحروف : الثاني والثالث .

لذا فالانزلاق اللفظي شديد وسهل من « عهد » الى « فهد » . ولكن الفارق المعنوي كبير جدا . فبينما تدل « عهد » على مدة زمنية ، تعني « فهد » حيوانا من الحيوانات المفترسة .

أما لفظة « وحش » فهي بعيدة لفظا ومعنى عن « عهد » ، اذ لا تشترك اللفظتان بأي حرف ، وان كانتا على وزن واحد ، كما انها بعيدة لفظا عن « فهد » ولكنها قريبة منها معنى ، اذ انها تعميم أو خطوة في التجريد لـ « فهد » .

والآن كيف تم الانتقال من « عهد » الى « فهد » ، الى « وحش » ؟

« عهد » لفظة تدل على مرحلة زمنية ، فهي مجردة بالنسبة لادراك سمر ، وليس لمفهوم هذه الكلمة أي حضور في ذهن القارئة الصغيرة .

بينما « فهد » لفظة محسوسة ، تدل اما على حيوان من الحيوانات المفترسة ، اما على انسان يحمل هذا الاسم . وهي في الحالتين لفظة أليفة بالنسبة الى سمر . فان كانت تدل على الحيوان المفترس ، فان سمر تستحضر للحال في ذهنها شكل ذلك الحيوان كما تعرفت اليه من خلال الصورة ، أو من خلال الشاشة ، أو من خلال الوصف . وان كانت اللفظة تدل على انسان يحمل اسم « فهد » ، فانها تستحضر ايضا في ذهنها ذلك الانسان الذي تعرفه .

وفي الحالتين فان لمفهوم « فهد » حضورا مجسدا وقويا في ذهن سمر .

وبما أن مفهوم اللفظة الاولى « عهد » منعدم ، بينما مفهوم الثانية « فهد » طاغ . فان سمر استبدلت الاولى بالثانية كأنهما لفظتان متشابهتان لفظا ومعنى . لقد ملأت فراغ مفهوم « عهد » بمفهوم لفظة شبيهة : « فهد » . فطالما كانت أمها تردد : « عهد » ، كانت تجيب بشبيهتها لفظا : « فهد » .

وهكذا تكون قد وفقت بين أمرين : حافظت ، بأقل قدر من التحوير ، على اللفظة الاولى ؛ وبالوقت ذاته أعطتها مفهوما قريبا من ادراكها .

أما في المرحلة الثانية ، عندما لم تنطق الام بلفظة « عهد » ، فان سمر نسيت شبيهتها لفظا « فهد » ، أو انها لم تجد نفسها مرغمة على ذكرها طالما أن النموذج اللفظي « عهد » اختفى ، فأتت بلفظة « وحش » التي تحمل معنى « فهد » .

ربما هناك صلة ثانية عززت ذلك التحوير المعنوي اولا ، ثم اللفظي ثانيا . هذه الصلة قائمة في « صلب » . الا يحتمل أن تكون سمر قد أدركت العمل الوحشي في لفظة « صلب »، مما فرض عليها استعمال لفظة « وحش » بدلا من « فهد » ؟

ولفظة « وحش » تؤكد لنا أن سمر تدرك ما تعني « فهد » . ولو كانت « فهد » كـ « عهد » لا تعني لها شيئا ، أو أن مفهومها غامض كـ « عهد » لما كانت قد استبدلت هذه الاخيرة بـ « فهد » .

وان كان الامر كذلك ، فلماذا لم يسبق لسمر أن وقعت بمثل هذه الاخطاء ؟ لماذا كانت قراءتها في السنة السابقة أكثر سلامة مما هي عليه في هذه السنة ؟ ولماذا لم تكن لتتشبث بعناد بالخطأ كما تفعل الآن ؟ الجواب هو أن احتكاكها باللغة لم يتعد نطاق الكلمات المحسوسة ، فانت لا تقرأ سوى جمل أو أسماء كـ :

« سار طاووس جاري ـ درج داري ـ ساح رازي ـ دار خروف سمير ـ باب ناجي جديد ـ وقف ناظر المدرسة في الملعب .. » .

وكانت الصورة ترافق الكلمة في أكثر الاحيان وتدل على مفهومها .

اما الآن فان سمر وجدت نفسها أمام كلمات مجردة لم تتمثل معناها . وبما أن لكل كلمة مدلولا خاصا بها ، فانها عوضت عن ذلك النقص في مدلول الكلمات المجردة باعطائها مدلول كلمات محسوسة قريبة منها لفظا ، فتحول ، بالفعل ذاته ، لفظ الكلمة المجردة الى لفظ الكلمة المحسوسة .

لذا غالبا ما ترافق هذه الظاهرة بدء احتكاك الطفل بعالم الكلمات المجردة ، والتي تتخطى ادراكه اذ ان التحوير يطرأ في أكثر الاحيان على كلمات مجردة ، فتصبح باستبدال حرف، او اكثر ، بآخر كلمات محسوسة .

واذا ما تم التحوير على أكثر من مرحلة ، فانه من الممكن أيضا أن نقع على خط عكسي ، فتتحول الكلمة المحسوسة الى أخرى أكثر تعميما ، كما تحولت « فهد » الى « وحش » . ولكن هذا التعميم ، وهو خطوة في التجريد ، لا يتم الا ضمن ادراك الطفل . فلو أن سمر لا تدرك معنى « وحش » لما كانت اتت بهذه اللفظة في المرحلة الثانية ، ولكانت قد احتفظت ب « فهد » .

وظاهرة رد العام الى الخاص ، المجرد الى المحسوس ، خاصة بالطفل . لانه يقرب بهذه العملية الاشياء الى ادراكه .

فاذا صادف ونطقت امام طفل ما بكلمة « فرض » ، فانه يقول لك : « الشرطي يحمـل الفـرد » .

وعندما تسأل طفل الثلاث سنوات ما عساه أن يصبح في المستقبل فانه لا يجيب : سأصبح معلما او جنديا او نجارا بل يقول « سأصبح سميرا أو زيادا أو خالدا » .

وقد تعجب من ذكاء طفل لا يزال في حضانة الاطفال ، فتقول له باطراء : « أنت ذكي ! » ولكنه يجيبك على الفور معترضا : « أنا لست ذكيا . أنا عماد . أبي هو ذكي » .

و « ذكي » هو بالواقع اسم أبيه .

ـ وقد تصرخ بطفل : « اهدأ يا ولد » .

فيجيبك بغضب : « أنا لست ولدا . أنا سامر » .

العملية ذاتها تتم عندما يستبدل القارىء الصغير حرفا بآخر في الفاظ معينة ، كأنه يمزج بين الحرفين ، أو لا يفرق بينهما . ولكنه بالواقع ليس أسير الجهل أو عدم الانتباه ، بقدر ما هو أسير معادلات ذهنية للالفاظ والمعاني .

القيم السائدة في أدب الاطفال في سورية

عزيز نصار

بدأ أدب الاطفال في قطرنا بالظهور في المدارس بغية بذر القيم الاخلاقية والتربوية والتعليمية ونذكر انه صدر كتاب الاستظهار المصور عام ١٩٢٢ لجميل وانور سلطان وعبد الرحمن السفرجلاني وقد غلب على الكتاب بقسميه الوعظ والارشاد بشكل قصائد منها أغنية الصغير التي تحض على الجد والقومية وتعطي الصور الحقة الباردة عن هذا الادبالتعليمي.

أنا في سن الصغر لست أعرف الضجر
همتي فوق البشر واجتهادي لا يلين
أنا في سن الصبا بت اهوى الادبا
وأحب العربا خير قوم اكرمين

هكذا بدأ أدب الاطفال تعليميا يفتقر الى الصورة الجميلة ، والخيال الوثاب ويمكن أن نعد مسرحية الفصل الجميل للاستاذ عادل أبو شنب عام ١٩٦٠. أول عمل أدبي للاطفال ليست غايته تعليمية ، وقد كانت تلك المسرحية اللبنة الاولى في الكتابة للاطفال وظل القاص وفيا لهذا اللون من الادب ، ورفض أن يكون مطية للتربية بشكلها المباشر ثم أخذت الكتابة للصغار تزداد تفتحا بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ ، وكثيرة هي النماذج التي تتسم بالخطابية والوعظ ، وقد استطاع كاتب متمكن من صنعته مثل زكريا تامر ان يوازن بين العمق وبين الايحاء بالصورة البسيطة والاسلوب الشعري المكثف ، واستطاع ان يعطي

للاطفال فيما تربوية ومع هذا ابتعد عن الخطابية لتخرج القصة من بين يديه فنا جميلا محببا للاطفال ، ففي قصة الكسلى من مجموعة (قالت الوردة للسنونو) أخطات العصافير بانهامها (مهـا) بانها كسلى ثم تعرف ان البنت في عطلة مدرسية فخجلت العصافير وبادرت الى التكفير عن خطاها فغنت لها أجمل ما تحفظ من اغنيات ، صحيح ان القصة تدعو الى ترك الكسل والاعتذار عن الخطا ، ولكن الكاتب لا يقع في شرك المباشرة ، وساعده هذا على تحقيق تطور كبير في أدب الاطفال العربي .

وفي قصة النجوم لعبد الله عبد من مجموعة (العصفور المسافر) يفاجئنا تعداد حسابي بسخاء للقيم (وعندما أحصى نجومه وجدها اثنتي عشرة نجمة لكل من طاعة الوالدين والحب والشجاعة والعطف على الحيوان والصدق والنظافة والحساب والقراءة والتربية ـ والتاريخ وحفظ الاناشيد) .

حتى يكون الادب عملا ابداعيا ينبغي أن ينأى عن النزعة التربوية بشكلها الفج فكاتب الاطفال ليس معلما في مدرسة بل هو فنان مبدع يدخل الى أعماق الاشياء ، ويعبر عنها بروح شفافة ، والقصة الطفولية عندنا بميلها الى التلقين ، والنصائح والتوجيهات تقدم ادبا جافا لا يتمتع بالنداوة ولاينفذ الى نفسية الطفل .

ففي مجموعة (سلام في مدينة الاحلام لايوب منصور) تنتهي قصة الاوفياء كما يلي :

(وانكم أيها الاحبة ترثون الآن تلك الراية المقدسة فلتحافظوا عليها وتمجدوا ذكرى الشهداء الابرار الى الابد) طبعا نحن لسنا في مجال القاء درس تربوي او خطاب قومي وفي قصة الطائر الغريب من المجموعة نفسها وهي قصة جميلة اسلوبها شاعري وصورها ساحرة ولكن نقرأ النهاية الوعظية (الشر غير قادر على احراز الانتصار النهائي مهما ساءت الظروف) وثمة موضوع له صلة بالنزعة التعليمية وهو أن قصص الاطفال في غالبيتها تعوم على السطح وتفتقد العمق . اننا لا نشجع التعقيد ولكن نطلب حث عقل الطفل على الحركة وتفجير امكانياته وتفتيح مداركه على واقعنا وقضايانا ، وان النزعة التعليمية تفقد القصة المحاكمة والتحريض على التفتيش عن الحقيقة .

والوضوح في قصة الاطفال الذين تقل أعمارهم عن اثنتي عشرة سنة هو ضروري ، فالغموض واستخدام الرموز الصعبة يجعل الاثر الادبي لا يؤدي الغرض منه لفقدان عملية التوصيل

للطفل . وتثار أسئلة عديدة حول ما نريد غرسه من قيم ، ففي أي مرحلة يمكن أن نعلم الطفل شيئا عن افكار الصراع الطبقي . مثلا ثمة قصة لقاص للاطفال تحكي عن امكانية قيام السلام في الغابة بين حيواناتها الوديعة والشرسة خوفا من الليل فتقول الغابة لهم : (تعالوا يا أبنائي وضمتهم الى صدرها) ـ قصة الغابة لعبد الله عبد صفحة ٨٤ . من مجموعة العصفور المسافر .

فهل نملأ رؤوس أطفالنا بأن اللقاء بين الذئب والخروف ممكن ؟ أم هل من المستحب ان يدخل الطفل في تعقيدات فكرية هو في غنى عنها ؟ خاصة ان الطفل في مراحله الاولى وطوال دراسته الابتدائية لا يبالي بالفوارق الاجتماعية المادية بين فئات المجتمع ومن جهة أخرى هل من المنطقي ان لا يعرف الطفل في مجتمع الاستغلال شيئا عن أبجدية الصراع في العالم ؟ ثم هل نفسر للطفل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بشكلها المسافر دون لف أو دوران ؟ ان قصص الاطفال بحاجة الى أن تكون مرآن لحياتنا وينبغي أن نحسن مخاطبة الاطفال من خلال المنظور الفني المتطور المستوحى من البيئة المعاشة ، ونعمق ادراكهم بالواقع ، ونقدم لهم فهما جديدا للظواهر ، ويبقى كاتب الاطفال متفائلا بعالم يسود العدل والخير فيه على الشر والظلم ، وحبذا لو كان هناك مجال لاحداث مجلات مختصة للاطفال في مراحل مختلفة من العمر . ومما لا شك فيه بان وجود المجلات تشكل حافزا على تطوير هذا النمط من الادب الصعب . ان الكتابة للطفل تخدم العملية التربوية للجيل الصاعد وبناء الثقافة القومية الاشتراكية ، والعمل الابداعي يهذب الانسان جماليا ، والتربية تهدف أيضا الى نزع القبح والشر وزرع الخير والجمال ، والنزعة التربوية ينبغي لها ان تتمشى مع القواعد الفنية في توافق وايقاع والا سار الطفل على أرض جرداء .

ان التوجه للطفل هو موهبة وهو ايضا حصيلة دراسات تربوية ونفسية فلا فائدة من ادب الطفل اذا لم تتم عملية التوصيل بشكل جيد . ويحدد الاستاذ عادل ابو شنب هذه العملية بانها تتضمن أولا اللغة وثانيا عملية البناء الفني وثالثا الادوات التي يستخدمها الكاتب في ايصال أفكاره .

وان تكوين المواقف والقيم بحيث نخلق استعدادات عقلية انفعالية حول الاستجابة لما نريد لن يتم بادب جاف بل عن طريق أدب حي نابض وهذا ما سماه سليمان العيسى (المعادلة الفنية الصعبة بان نقول شدنا بكلمة مجنحة للطفل هذه معادلة صعبة لان فيها سر أدب الاطفال كله) .

وهكذا فان أدب الاطفال اذا تخلى عن كونه ابداعا تنتفي عنه صفته الادبية ويصبح درسا تربويا تنقصه الميزة الابداعية التي هي وسيلة توصيل العنصر التربوي . وقليلون هم الذين تمكنوا من تقديم أدب للاطفال يفيض بالقيم لكنه ينأى عن التعليم والخطابية والوعظ الذي يشوش البناء الفني .

وبعد أن تحدثنا عن النزعة التعليمية في أدب الطفولة في القطر العربي السوري ننتقل لمعالجة القيم التي دعا اليها ادب الاطفال في القطر .

فادب الاطفال يهدف فيما يهدف اليه ، الى غرس الاتجاهات والقيم اللائمة في نفسية الطفل ، فان العمل الابداعي اذا تخلى عن الوعي والتوجيه فانه يفقد رسالته التربوية أو يحولها الى قضية ثانوية .

وان اعطاء المعلومات في أدب الاطفال انما المقصود منه بناء الموقف ، وتعديل السلوك في الاتجاه المرغوب ، والايمان بالافكار وزرع التحمس للاهداف النبيلة وتركز التربية في قطرنا العربي السوري باهدافها العامة (على اعداد المواطن ذي التفكير الموضوعي والنظرة العلمية الواضحة ، الذي يؤمن بالعلم ويحتكم اليه ليتمكن من معالجة المشكلات الفردية والاجتماعية باسلوب علمي بعيد عن الاحكام المسبقة والتفكير الخرافي والغيبي) فهل يلتزم ادب الاطفال بالاهداف التربوية نفسها ؟ ومن المسلم به ان كاتب الاطفال يحتاج الى الدراسة العميقة في علم نفس الاطفال ومراحل تكوين الطفولة ، ليساهم في أدبه ببناء الشخصية السوية عند الاطفال وتكوين القدرات النفسية والعقلية ، وكاتب الاطفال يدعو الى التمسك بالقيم السامية والمثل العليا كالايمان بالحرية والعدالة واحترام العمل وتقدير جهود الكادحين والمنتجين وربط قيمة الانسان بمقدار عمله ونفعه لشعبه وتنمية الايمان بالعمل الجماعي ، وتقدير قيمة الزمن في عصر كل يوم يمضي فيه هو عامل تقدم أو تخلف عند الشعوب ، وتنمية الاحساس بالوشائج القومية وضرورة قيام الوحدة العربية ، والتضحية في سبيل الوطن والسعي لتحرير اجزائه المحتلة .

ترى اين يقف أدب الاطفال في قطرنا السوري من هذه القيم النبيلة ؟ وكيف يعبر الكاتب عن ايقاع حياتنا بصدق وحرارة ودهشة ؟

اغلبية قصص الاطفال المتوفرة في الاسواق ، الوافدة الينا لا تعالج اهتماماتنا السياسية والاجتماعية والقومية، ولا تعرف الطفل على وطننا العربي وقضاياه ولا تشحنه بقيم انسانية متطورة ، ومهما يكن من أمر فان الاساس التربوي هو في صميم ادب الاطفال ، فكاتب الاطفال صاحب رسالة تربوية بالاضافة لكونه اديبا ، وهذا لا يعني بالطبع التخلي عن العناصر الفنية والابداعية . يقول أحد رواد أدب الاطفال لدينا عادل أبو شنب في ندوة عن ادب الاطفال : ـ جريدة الثورة بتاريخ ١٩٧٩/٩/١٦ ـ (أنا لست مع فكرة تطبيع أدبالاطفال في المقياس التربوي ، هناك قيم جمالية وأخرى ابداعية في أدب الاطفال يجب ان لا نغفلها على الاخلاق ، واذا جعلنا ادب الاطفال مطية للتربية نكون قد حطمنا جماليات الإبداع الادبي) ، وهكذا يدعو الكاتب الى اخضاع ادب الاطفال الى المقاييس الجمالية التي يجب ان تتوفر للفن .

واذا بحثنا عن القيم التي يحملها أدب الاطفال الفيناها تتجمع في القيمة الفكرية وتوسيع معارف الطفل ، وفي توفير المتعة الخيالية ، وفي اثارة الانفعال العاطفي ، وفي تنمية السلوك الاجتماعي والاخلاقي ، ثم تاتي القيمة اللغوية ، فمن خلال الادب يتعلم الطفل اللغة .

وثمة مرحلة المراهقة التي لم يولها كتابنا الاهتمام الكافي . يقول الكاتب الالماني الديمقراطي (فردريك كوكيه) في محاضرة له حول هذا الموضوع : (ان سن المراهقة تدفع الفتيان الى الظهور بمظهر المحاربين الاشداء والرجال البالغين الذين يدخنون ولا يخشون شيئا ويستعملون كلمات نابية ويريدون القيام بمغامرات خطيرة وهنا يكمن الخطر في أن يقوموا بحماقات بدافع من رغبة في المغامرات خاطئة ، ان الادب الرخيص لا يوجه خيال الاطفال في اتجاه خاطىء فحسب وانما يدلهم بشكل علمي على السرقات ، واشعال النار في البيوت وعلى القتل المتقن من غير شرح ، ولدينا مغامرات تحسب حسابا لرغبة الاطفال في هذه السن ، وابطال كتب المغامرات يناضلون في سبيل المجتمع لا ضده) ، وهكذا فان الابطال في كتب الطفولة الملتزمة يطرحون دائما السؤال التالي على أنفسهم : من أجل أي شيء نناضل ؟

ثم ان على تربيتنا أن تكون سمحة متفهمة لتكوين الطفل فكثيرة هي القصص التي تصور الطفل كرجل مقعد أو تطلب منه ان يكون عصفورا منتوف الريش ، ونادرة هي القصص التي يندفع فيها الطفل الى المواقف التي تقف ضد النظرية المتخلفة والتي يعد تجاوزها في شريعة الكبار ذنبا .

وبهذا نخلص الى القول ان ادب الطفولة متصل بالعملية التربوية لكن هذا الادب يحتاج الى امكانيات ادبية مبدعة واحاطة بدنيا الطفولة وتوافق بين التربية الانفعالية والعقلية والعلمية .

وقد لمع من كتابنا في أدب الطفولة عادل ابوشنب وزكريا تامر وعبد الله عبد وسليمان العيسى ودلال حاتم لانهم جهدوا في تحقيق تلك المعادلة الفنية الصعبة في أدب الاطفال ، ولان كتابة بعضهم للصغار هي جزء من تجربتهم الفنية المتطورة ، وقد برزت اسماء أخرى مثل ليلى صايا سالم ووليد معماري وخيري عبد ربه ووديع اسمندر .

ونستعرض الآن اهم القيم التي عالجها ادب الطفولة عندنا من خلال بعض من أعطوا في هذا المجال . يرى الاستاذ عادل أبو شنب أن الجهات التربوية والثقافية المسؤولة تنظر الى القيم التي يجب ايصالها الى الاطفال نظرة تقليدية متزمتة ، ويرى أن علينا أن نعلم الطفل الشجاعة واذا التزم الكاتب بالاصول الفنية ، وابتعد عن المباشرة الصريحة فان المربين يعدون عمله ابتعادا عن القيم التربوية .

وقصص مسرحيات الكاتب تحض على التعاون ، وتقاوم الروح الاتكالية ، وتحارب البطولة الفردية وتدعو الى الالتزام بالروح الجماعية ، وتهاجم العادات التقليدية والامجاد الزائفة ، فقصة انت مكاني من (مجموعة السيف الخشبي) مفادها أن طفلا في الثانية عشرة يتمتع برجولة مبكرة ، فقد اعتقل ابوه لمقاومة الاحتلال ثم اعتقل الطفل للسبب نفسه ، وقصة السيف الخشبي تعبر عن أن السلاح وحده ليس هاما بل الهام أن تكون قادرين على الانتصار حتى باقل الاسلحة شانا وقد خلق الكاتب في مجموعة (أصدقاء النهر) . دار المسيرة بيروت ١٩٧٩ ، وهي آخر مجموعة موجهة للاطفال . في قصة « الوطن » يركز الكاتب على التشبث بالوطن وعدم مغادرته ، فالعصفور الذي نشرت شجرته (موطنه)يقطع غصنا صغيرا مورقا منها ويغرسه في مكان الشجرة نفسها ويتعهده بالعناية فتنمو الشجرة من جديد . وقد اولى الكاتب اهتماما بارزا في المجموعة الاخيرة للقضية الفلسطينية وقدمها بشكل فني جميل للاطفال فهناك اربع قصص تتحدث عن فلسطين وهي : الحلم — البرتقال — فلسطين — الاب والابن معا ، اضافة لعدد من القصص يؤكد على التمسك بالوطن ، ففي قصة « نصيحة حمار » تنتهي القصة بالعبارات التالية (عد الى عشك الذي ولدت فيه ، حصنه جيدا ، وروض نفسك على أن تحيا فيه ، قاوم الاعداء على قدر ما تستطيع واذا اغتالوك فحسبك فخارا انك مت في عشك) .

وتتناول قصص زكريا تامر مجموعة من القيم منها ، تحديد من هو العدو ومن هو الصديق ومجابهة العدو الشرس ، والوعي وارادة التحدي ، والرغبة العميقة في التغيير ويتوجه بقيمه الى الاطفال من أجل جيل عربي قادر على التضحية في سبيل الحرية والعدالة والفرح ، وعبرت قصصه عن القضايا القومية والانسانية في اسلوب جميل سهل يتكيء على الصورة الشعرية ويمزج بين الشعر والدراما ، قصة (البيت) تتحدث عن تشـريد الفلسطينيين وعن حقهم في وطنهم (يستعيد الفلسطيني بيته بالسلاح وحده . سيعود الفلسطني الى بيته . بيت الفلسطيني للفلسطيني) .

في قصة « لماذا سكت النهر » يأتي رجل يحمل سيفا ليغتصب مياه النهر ويمنع الجميع عن الاستفادة منه دون ضريبة فيحزن النهر ويسكت عن الكلام وبعد أن طرد المعتدي ظل النهر ساكتا لانه يخشى عودته ، وتصور قصة (القنفذ) ضرورة التضامن ونبذ الانانية فقد اصبح القنفذ بشعا عندما ترك اصدقاءه يغرقون ، في قصة (أقوى رجل) يعبر زكريا عن ان الاتحاد هو طريق الخلاص من العدو القوي ، وقصة (الحمار والقط) تدعو لمحاربة النفاق والكذب اذ لم يصدق الحمار كلام القط بان صوته جميل ، فقال الحمار انا أكره الكاذبين المتملقين ، واذا كان معظم الموضوعات يصلح لقصص الاطفال فان زكريا يعالج افكارا كفكرة (القمع) في اكثر من قصة للاطفال وهي فكرة أكد عليها في قصصه للكبار ولكن زكريا يبقى قاصا متميزا في تعامله مع الصغار والكبار ويمكن ان نعد قصص (قالت الوردة للسنونو) وهي المجموعة القصصية الصادرة عام ١٩٧٧ عن اتحاد الكتاب العرب من أجمل القصص العربية لما تعطيه من قيم سامية في لبوس فني جميل .

واما السدة دلال حاتم فيمكن القول ان قصصها لا تتجه الى سن معينة او مرحلة محددة ، وهذه ميزة تزيد من حجم قارئي قصصها التي يتداولها الاطفال في مراحل مختلفة وذلك لسلاستها واسلوبها البسيط السهل الواضح الذي يستخدم الكلام المأنوس المفهوم ، وبساطة الاسلوب هي سمة في كتابة دلال للكبار والصغار فهذا هو اسلوبها في حقيقة الامر.

وتدعو دلال حاتم الى الشجاعة والنشاط والتجربة في قصة (فرخ اليمامة يغادر عشه) وتدعو الى حب الطبيعة للاطفال في قصة (الجدول الصغير) . وتبين فائدة الاشياء وعدم الاستهانة بها في (قصة الديك والساعة)وتظهر العاقبة السيئة لتقليد الكبار في قصة (شجرة الخوخ وشجرة التفاح) وتؤكد على عدم الغرور والتعاون في قصة (الديك المغرور والدجاجة الحمقاء) وتحمل قصتا (حبة القمح البخيلة والشمعة وعود الثقاب) دعوة الى

التضحية والعطاء ويميل بعض القصص الى الخيال السخي كما في قصة (السماء تمطر خرافا) وهي قصة تسمو بخيال الطفل وتشجع على تنمية الخيال المبدع لدى الصغار كما تتماوج قصص دلال حاتم بالحس الانساني ولاتفتعل الاحداث ولاتقحم قصصها اقحاما في الخوض بافكار لاتناسب الاطفال او تكون صعبة التناول بل تنساب قصصها بعفوية ووضوح وشفافية وعذوبة .

وأما سليمان العيسى فيتحدث عن كتابته للاطفال بان نتاجه شعري لتمسكه بالموسيقى وهو يريد أن يغني الصغار بالحفظ والغناء قبل الفهم والتفكير ، اما الهدف الاسمى فهو نقل تجربة الشاعر القومية الى الصغار وزرع انتمائهم الى أمتهم العربية وايمانهم بالوطن العربي الاشتراكي الواحد ، وفي ديوان الاطفال تغني العصافير صباحا كل يوم لمول الفلاح وساعده ويحس الطفل الفلسطيني بماساته فيقول الويل لمن سرقوا داري إلنار تتاوم بالنار والشاعر داعية للقضية فوطنه وطن الامجاد يتسلح بالعلم ولا يركع للظلم ومسرحية (قطرة المطر) تهدف لبناء السدود ومسرحية (قنبلة وجسد) تحكي قصة الفدائي وفي (مسرحية المستقبل) يزرع فكرة الايمان بالمستقبل وتقدير العمل والعمال والشاعر في مسرحية (الشجرة ، والقطار الابيض) يدعو الى الوحدة العربية .

وقد حدد عبد الله عبد القيم التي يعبر عنها في قصصه بالكلمات التالية :

الارادة ـ الحق ـ الجمال ـ الخير ـ الشجاعة ـ العدالة ـ الحرية ـ الحب ـ المغامرة ـ التضحية ـ حب المعرفة ـ البطولة ـ الاستكشاف والقوة .

قصة (البطه الثقيلة) تحكي عن عاقبة الراحة والكسل ، فالبطة لا تستطيع الطيران لقلة استعمالها لجناحيها الكبيرين . وقصة (السنونو) تتحدث عن تعاون طيور السنونو على تقاسم العمل لبناء اعشاشها . وفكرة التعاون هذه يتناولها الكاتب في أكثر من قصة ، ففي قصة الشتاء يتعاون الثلج والمطر والريح وينشد الجميع اغاني الحب والتعاون والوئام . وأما ليلى صايا سالم فتبتعد عن اهداف التربوية مباشرة وتصور قيما مطلقة (الحق والخير والجمال والمحبة والتسامح) دون أن تقصد مرامي معينة على الاغلب . نرى في قصة (البلاد الجميلة) تمازج الالوان لتصنع وطنا جميلا . وفي قصة (هند تنتظر امها) يقول القمر ، أنا امك ويقول نجم لامع : انا امك ، فابتسمت هند لان لها ثلاث أمهات ، في (قصة الارض) دعوة لحب الارض ومنحها الجهد لتعمر بالخيرات .

وساشير الى قصتين من القصص الفائزة في مسابقة طلائع البعث في العام الماضي كنموذج عنها القصة الاولى تتوجه في رأي للاطفال في آخر مرحلة من التعليم الابتدائي او بداية التعليم الاعدادي وهي (الفراشة لا تحب نبات اللبلاب) للقاص زكريا شريقي والقصة تقع في ٣٩ / صفحة وفيها طرح لقضية النضال باسلوب حار وتلخص بان الطفل بشارا يتذكر اياما قاسى من ويلاتها شعبنا ويلخص القاص فلسفته بان الحياة حب وعطاء وتضحية ولذلك فان الفراشة لاتحب نبات اللبلاب لانه طفيلي متسلق يعيش على اغتصاب غذاء الاخرينلذلك ايضا تقول شجرة الصنوبر التي تلتصق بجذعها نبتة اللبلاب أيتها الطفيلية الخبيثة ارحلي عن الغابة ، ان القاص يركز على القيم الثورية التي يتميز بها أدبه للكبار وهو يقدم في قصته للصغار أفكارا عميقة تغني عقل الطفل وتفتح مداركة .

اما القصة الثانية فهي (طريق الى الارض الحرة) لمحسن يوسف وفيها تأكيد على القيم القومية في أثناء حرب تشرين التحريرية وتدعو الى التمسك بالشجاعة والدفاع عن الوطن والايمان بالحرية وتهدف القصة بشكل أساسي الى تنمية الاحساس القومي والايمان بالوحدة العربية والسعي لتحرير الاجزاء المحتلة .

ويمكن القول بشكل عام ان كتاب الاطفال لدينا رغم حداثة التجربة قد سلكوا نهجا قويما اتسم به ادبهم من التزام بالقيم الايجابية واما القيم الابداعية فهناك تفاوت بين كاتب واخر ولا مجال لبحثه الآن .

آراء حول نشاط اللعب في مرحلة ما قبل المدرسة

وداد يازجي

ان بناء مجتمع جديد يعني في نهاية الامر اقامة علاقات جديدة بين الافراد الذين يعيشون بين ظهرانية . وحينما نتحدث عن « علاقات جديدة » انما نقصد بناء الاجيال الصاعدة اي تربيتها على اسس معينة ، وباشكال ومضامين حديثة ، ووفق مناهج وطرائق واساليب تعكس تلك الاسس وتنسجم مع هذه الاشكال والمضامين ، وهذا مايستدعي ، ولاشك ، وجود « مناخات » ملائمة وظروف مناسبة يتمكن المربون من خلالها من ممارسة نشاطهم الذي يهدف الى التأثير في الدارسين وتنظيم حياتهم ، وبالتالي ، تكوين الصفات والخصائص الجسمية والنفسية والجمالية والاخلاقية والاجتماعية لديهم .

لقد بات أمرا معروفا بالنسبة لعلماء النفس والمربين في العقود الاخيرة ان من الصعب التقليل من اهمية التربية في مرحلة ما من مراحل نمو الانسان او في سن معينة من سني طفولته او مراهقته او شبابه . فحياة الانسان ، او لنقل مراحل نموه ، ماهي الا سلسلة تتداخل حلقاتها بعضها ببعض ، ولايمكن الاستغناء عن اية حلقة منها او المبالغة بشأنها او اغفال دورها واهميتها في هذا البناء الكلي الشامل . ولعل ذلك لم يكن لولا الدراسات والبحوث التي وضعها العاملون في هذا الحقل والمهتمون ببناء شخصية الانسان بناء متكاملا وسليما . وقد جاءت نتائج هذه الدراسات وتلك البحوث لتتجاوز النظرة الضيقة والمواقف الخاطئة التي عرف بها بعض الباحثين وعلماء النفس في هذا المكان او ذاك ، وفي هذه الفترة الزمنية او تلك من تاريخ علم النفس ، وبكلمات اخرى فان خلاصة مايراه علماء النفس

اليوم هو ان نمو الانسان النفسي يبدأ من الايام الاولى لولادته ويستمر حتى وفاتـه ، ويختلف هذا النمو في مراحل حياته المتعددة ، فهو سريع في العقدين الاولين ثم يأخـذ بالابطاء بعد ان تتوضح معالم الشخصية وتتجدد صفاتها وخصائصها . ومهما يكن من امر فان النتيجة التي تقوم على هذا الاساس ترمي الى البدء بممارسة العملية التربوية منذ اللحظات الاولى لولادة الطفل .

وبديهي ان المعطيات التي يصعب الاحاطة بها او حتى تعدادها والتي المحنا اليهـا سابقا لم يقصد من ورائها اظهار انتقال النفس الانسانية ابان نموها من مرحلة الى اخرى او التدليل على اهمية توجيه هذه العملية وحسب ، بل وانما ـ وهذا جوهر القضية ـ الى الوقوف على شكل ومضمون هذا الانتقال وخصائصه وسمات كل مرحلة وصفاتها ومعرفـة الطرائق العملية والاساليب المجدية التي توجه عملية الانتقال هذه على نحو افضل وبصورة أحسن من منظور الزمان والجهد .

ان لكل مرحلة من مراحل النمو سماتها الخاصة وخصائصها المميزة ، كما انها تحدد شكلا ومضمونا من خلال مايمارسه الانسان من نشاط وما يقوم به من عمل ، وهذا يعني ان النمو النفسي عند الانسان لاينفصل مطلقا عن نشاطه وعمله ، اذ ان خصائص الشخصية كافة وصفاتها ودوافعها وميولها تتجسد فيما تقوم به من أفعال ، بل وتتكون من خلالها ،وتؤلف أفعال الانسان مع المواد وأدوات العمل والاشياء الجانب الخارجي لهذا النشاط ، بينمـا يتطلب الجانب الداخلي قدرة كبيرة وامكانية ضخمة في قمع سلوك الانسان وخبرة طويلة في مجال البحث عن الدوافع التي تكمن خلف هذا او ذاك ، ولنقل بشكل عام ، النشاط بكل مايحمله هذا المفهوم من معنى .

ويتفق علماء النفس تقريبا بأن كل مرحلة من مراحل النمو النفسي لـدى الانسان تتميـز بنشاط معين يكون شرطا لعملية النمو . فاللعب الذي يمارسه اطفال مرحلة ماقبل المدرسة هو النشاط الذي يقف وراء نموهم ، كما هو الامر بالنسبة للدور الذي يلعبه نشاط التعليم في نمو تلاميذ المدرسة ، وقل الشيء ذاته عن دور العمل المنتج في حياة الانسان بعد مرحلة الشباب .

وعلى الرغم من ان علماء النفس يجمعون على اعتبار اللعب هو النشاط الرائد في مرحلـة ماقبل المدرسية . فانهم يختلفون في تفسير طبيعته واصله . فها هو (ك. غروس) يرى أن

من شان هذا النشاط الذي يقوم به الطفل اعداد عضويته الفتية للحياة . فالطفلةالصغيرة حينما تاخذ دميتها بين ذراعيها وتهدهدها لكي تنام ، انما تعد نفسها بشكل لاشعوري لتكون اما حقيقية في المستقبل . بينما يعتبر (غ . سينسر) و (ك. شيلر) ان اللعب ماهو الا الانفاق الحقيقي للطاقة التي يختزنها الطفل لانه لايستطيع بعد تصريفها في اوجه العمل المنتج والمفيد . ويؤكد (ك. بيولر) على أن مايفسر هذا النشاط هو تلك الفرحة وذاك السرور اللذان يرافقانه . ويعتبر (س . فرويد) أن الشعور بالنقص الذي يكابده الطفل هو الذي يدفعه الى اللعب ، فلما كان هذا الطفل عاجزا لايستطيع ان يكون طبيبا او بائعا او معلما بصورة فعلية يندفع للقيام بهذه الادوار في لعبه .

غير ان الدراسات المكثفة والبحوث المستفيضة خلال عشرات السنين غيرت النظرة الىطبيعة اللعب ودوافعه وأهدافه واعطت صورة جديدة اكثر عمقا ووضوحا عن حياة الطفل في تلك المرحلة التي يلعب فيها اللعب دورا حاسما في نمو العمليات والحالات النفسية عند الطفل .

لقد رات تلك الدراسات وتلك البحوث أن هذه التفسيرات السابقة على الرغم من انها تبدو كأنها متباينة الا أنها تلتقي في نقطة جوهرية وهي أن اللعب يقوم على الحاجاتالفريزية والبيولوجية التي تنضج مع نمو الطفل وتتجسد في العابه دون مراعاة المكان الذي يعيش فيه . ولعل هذه الملاحظة تفرض موقعا عن العلاقة بين المجتمع وابنائه ، وخاصة الصغار منهم ، أي بين التربية وتطور اللعب بين المجتمع ، وهذا مايجعل نظرة علماء النفس في الوقت الراهن تتميز بصورة جوهرية عن نظرة اسلافهم للدور الايجابي الذي تلعبه التربية في هذا المجال .

ان المجتمع يطبع العاب الاطفال بطابعه الخاص ، وهذا يعني ان موضوع اللعب الابداعي الذي يختاره الاطفال يتغير وفقا للظروف والاحوال التاريخية والاجتماعية لحياة الناس الذين يؤلفون المجتمع . فلعبة « الحرب » واحدة من الالعاب التي يمارسها الاطفال في جميع انحاء العالم ، ولكن مايميز هذه اللعبة من مجتمع الى اخر هو موضوعها . ان الحرب بالنسبة لاطفال العربتنشب بين فريقين : مجموعة منالاطفال تمثل المقاتلين العرب ومجموعة اخرى تمثل الجنود الاسرائليين . وهي بالنسبة للاطفال الاميركيين تحتدم بين مجموعة من الاميركيين البيض ومجموعة ثانية من الملونين او الفيتناميين من جانب اخر ، وعند اطفال الاتحاد السوفيتي تقوم الحرب بين السوفييت من جهة والنازيين من جهة ثانية .. وهكذا..

وتجدر الاشارة الى ان اللعب هو شكل من أشكال النشاط المبدع الذي يمارسه الطفل ، فلايحسبن احد ان الاطفال يقومون من خلال العابهم بتصوير الواقع الخارجي تصويرا فوتوغرافيا أو انهم يقلدون تقليدا اعمى ، فكثيرا مايدخلون الى العابهم امورا هي من نسج خيالهم وصنع تصوراتهم ، وفي هذا الاختلاق والتاليف والرغبة في ذلك يكمن مصدر سعادة الطفل وفرحته التي ترافق لعبه على الدوام .

ان منجزات العلم والتقنية كثيرة جدا ولاحد لها بالنسبة لخيال الطفل على الاقل ، فهناك التلفاز والمذياع والسينما والادوات الكهربائية المنزلية ، والقطار ، والطائرة ، والاجهزة الدقيقة والادوات المدهشة ، وغير ذلك مما يسخره الانسان وخاصة في المجتمعاتالمتطورة من اجل سعادته ورفاهيته ، ولا ريب ان لدى الطفل القدرة على الوصول الى كل ذلك عن طريق اللعب . ولعلنا لانجد اية صعوبة في ان نجد ذلك متجسدا في لعبة « الباص » أو « المخزن » ، او « القطار » .. الخ . ويمكن ان نضيف اليها العابا اخرى يمارسها الاطفال في المجتمعات المتقدمة بسبب مستوى التطور الذي وصلت اليه كلعبة « العصا » ، و « المترو » .. وغير ذلك .

مما سبق نرى ان اللعب عند الاطفال هو انعكاس لحياة الكبار ، وهذا يقودنا الى الدور الذي يلعبه الكبار (الام ، الاب ، المربي ..) في توجيه نشاط اللعب عند اطفال مرحلة ماقبل المدرسية والاشراف عليه وتقويمه لكي يكون مصدر سعادة هؤلاء الاطفال وشرطا أساسيا لنموهم العقلي والاجتماعي والاخلاقي والجمالي .

ان توجيه انتباه اللاعبين نحو ألوان أدوات اللعب واشكالها وحجومها يساعد على نمو الاحساس والادراك بصورة واضحة ، كما ان تنظيم الالعاب وتوزيع الادوار على الاطفال، ومتابعة تنفيذ كل منهم لدوره وتقويم النتائج على نحو موضوعي يزيد من فعاليات الطفل ، وينمي لديه القدرة على التذكر والمحاكمة . فعندما يقوم « المربي » أو « المربية » بمشاركة الاطفال في اختيار « لعبة المخزن » مثلا ، ويوزع الادوار على كل منهم بين باعة ومشترين ، ويكلف كلا من المشترين بشراء كميات محددة من مواد معينة (كيلو غرام من الرز ، نصف كيلو غرام من السكر ، كيلو غرام من البرتقال ، ثلاثة اقلام ... الخ) ، مراعيا بذلك حجم المفردات اللغوية ، آخذا بالاعتبار ضرورة تكثيف وتقصير شروط المسألة المطروحة امامهم من حين الى آخر على نحو تدريجي ، انما يعمل على تربية وتنمية

التذكر الارادي لدى الاطفال وتكوين المفاهيم الرياضية الاولية والعلاقات المنطقية القائمة بينها ، وزيادة حجم قاموسهم اللغوي . كما ان توجيه انتباه المشترين والبائعين الصغار على ضرورة التصرف بكياسه ولباقة ، وتعويدهم الاسلوب الصحيح في المخاطبة في اثناء السؤال والاجابة يزرع في نفوسهم محبة الاخرين واحترامهم ومراعاة مشاعرهم ، أي ان ينمي لديهم الحس الاجتماعي السليم ، وقل الشيء ذاته عن الالعاب كافة . فالمربي الناجح هو الذي يتمتع بالقدرة على استغلال اية لعبة في مختلف الشروط والظروف لتكون اداة ناجحة للوصول الى الاهداف التي يسعى اليها .

وبالاضافة الى ماذكر يمكن القول ان لعب الاطفال هو عملية استخدام للمعارف المكتسبة ووسيلة ناجحة لتدقيقها وانمائها . ويعني ذلك ان البدء باللعبة يستدعي من جانب الاطفال قدرا معينا من المعارف والمعلومات المتعلقة بهذه اللعبة . ان لعبة « المخزن » أو « المكتبة » أو « الطبيب والمريض » ... الخ ، تتطلب من الطفل ان يعرف شيئا ما عن عمل البائعين والمشترين ، ونشاط العاملين في المكتبة وروادها القراء ، واعمال الطبيب والادوات التي يستخدمها .

ولذا فان اصطحاب المربي الاطفال الى المكتبة والمستشفى والمطار والمخازن التجارية والمعامل امر ضروري جدا ، فهو يقدم لهم في اثناء ذلك القدرة على تكوين التصورات والانطباعات عن هذه المؤسسات وبالتالي عن الحياة العملية للناس . بيد ان ذلك ما هو الا الخطوة الاولى في طريق تربيتهم ، فهذه التصورات التي يكونها الاطفال غالبا ماينقصها الوضوح والدقة . ولعل الوصول الى هذه الغاية تتمثل في اللعب ، اذ يمكن اعتباره وسيلة لتحليل وتركيب جميع ما تكون من تصورات وانطباعات . انها الاداة التي تتم بوساطتها الانطباعات الاولية وتصفيتها والتخلص من الشوائب التي امتزجت فيها ، وهنا يكمن دور المربي ومهارته وبراعته .

ولقد المحنا الى ان الاطفال لايتمكنون من ادراك الظواهر الاجتماعية ادراكا صحيحا ، ولا يستطيعون الوقوف على بعض العلاقات القائمة بين عناصر هذه الظواهر او تلك ، فلا غرابة أن لاتجد لديهم القدرة على استعادة هذه الظواهر بشكل واقعي في العابهم . لذا يتوجب على المربي الاخذ بيدهم ومساعدتهم على تحليل الانطباعات المعقدة واعادة تركيبها عن طريق طرح الاسئلة وابداء الملاحظات ، والكشف عما يروه في الحادثة ، أو عن الذي لم يدركوه

بصورة صحيحة في الظاهرة أثناء اللعب : « أين يمكن وضع قيمة المشتريات ؟ (١ كغ من الرز و ٢ كغ من السكر ... ؟) » ، « وأين غرفة الطبيب المناوب ؟ ، أو اين العيادة السنية ؟ » ، « من أين يمكن الحصول على بطاقة اشتراك في المكتبة ؟ » . ويتمكن الاطفال من ادخال هذه التعديلات من خلال مناقشتهم وتدقيقهم في اشكال وكلمات الشخصيات التي يمثلونها ، مثلا : « هل ستذهب الى قيم المكتبة مباشرة ؟ » ، « اذن يجب ان تحصل على بطاقة من الشباك قبل الحصول على الكتاب » . وتكتمل العملية حين يتلقى الطفل اجابات واضحة ومفصلة على كل مايطرحه من أسئلة .

على أن الاطفال لايقومون باعادة اللعبة بحذافيرها كل مرة ، انهم يعيدون اللعبة ذاتها كما لو انهم يلعبونها من جديد وبشكل آخر ، فقد يضيفون جملة ما ويسقطون مشهدا معينا ويختصرون في أحد الامكنة ويفصلون مكانا اخر . فاللعبة تغتني بخيالهم وابتكارهم ،وتعيش ما داموا قادرين على مثل هذا العطاء ، وهي تتوقف ويتوقف معها اللعب حينما لا يتمكن المثلون لها من ادخال أي جديد من افعال وعلاقات وقيم وعادات ليتمكنوا من تضمينه في لعبتهم ، ولكي تكسب اللعبة صفة الترغيب والتشويق والامتاع .

وهكذا فان اللعب يعتبر كاول شكل من أشكال النشاط الانساني ، ويهدف الى معرفة العالم الخارجي عن طريق مايقوم به الاطفال من اسهام فعلي في حياة الناس وعملهم . وهذا لم يكن نتيجة لتصميم مسبق من قبل أي من الطفل أو المربي . وتجدر الاشارة هنا الى ان هدف اللعب يختلط مع الدوافع اليه ، اذ ان هذا الاخير يكمن في نزعة الطفل الى المعرفة والاسهام الجدي في حياة الراشدين ونشاطهم .

ان وسائل اللعب الطفلي تتجسد في :

١ ـ المعارف التي تتعلق بالناس وعلاقاتهم ومواقفهم واحاسيسهم وافعالهم وغير ذلك مما يتجسد في تصورات الطفل وكلامه ومشاعره وافعاله .

٢ ـ أدوات الفعل (سطل ، سماعة ، ميزان حرارة ، ميزان عادي .... الخ) .

٣ ـ القيم الاخلاقية والمعايير الجمالية التي تظهر في آراء الناس واحكامهم على ماتصدر عنهم من تصرفات ومايبدر منهم من مواقف . وان نتيجة اللعب تتمثل في كل مايحمله الاطفال من تصورات عن الظواهر الطبيعية والحوادث الاجتماعية من مشاعر صداقية ومواقف انسانية واهتمامات معرفية وقدرات عقلية وحالات انفعالية . وباختصار يتوجه لعب

الاطفال نحو الاحاطة بكل ما يدركون ومعرفة ما يحيط بهم ، وهو اذا كان منظما وموجهاً يسهم في بناء شخصية متكاملة عقلا وانفعالات وسلوكا .

وبعد فاننا لا نقدم أي جديد حين نؤكد على أهمية هذا الموضوع من موضوعات علم النفس سيما على نفس الطفل ، مما يحمله من اهمية على الصعيدين : النظري والعملي . وعلى الرغم من ان العقود الاخيرة شهدت نشاطا كبيرا ومكثفا ضمن حدود العالم المتقدم ، فان الجهود لاتزال تبذل بغية معرفة أعمق بهذا النشاط العجيب المدهش ، وادراك كل مايتعلق فيه : طبيعته ، دوافعه ، أهدافه ، ليصار الى وضع اكثر الصيغ والاسس وتحديد انجع الطرائق والاساليب في توجيهه وتنظيمه .

واخيرا اذا كان هذا وغيره من الكثير الكثير مما يلقاه اطفال البلدان المتقدمة من عناية ورعاية ، فما عسانا ان نقول عما يقدمه العالم اجمع الى اطفال البلدان الاخرى ، المتخلفة والنامية في هذا المجال . ان الحديث في هذه المسألة بما تتضمنه من جوانب انسانية واجتماعية وتربوية وثقافية ذو شجون . ولاشك في ان نقل الخبرات والتجارب المتراكمة لدى الشعوب كافة ، وخاصة المتقدمة بما يتعلق بتربية الطفل وبخاصة في المرحلة التي كنا بصدد الحديث عنها بشكل لبنة لابد منها في بناء العالم المتقدم ، ويعتبر مؤشرا بشكل ما ، على اتخاذ موقف ايجابي من اطفال العالم المتخلف والنامي ، وتعبر عن نظرة لليوم والغد .

نحو مفهوم جديد للمدرسة
اسلوبا ومضمونا

مازن النقيب

منذ صغره وهو مولع بالحركة ، يحب البحث والتحليل العلمي . كان يألف فك اجزاء الالعاب الصغيرة ، ويحاول اعادتها الى حالتها الطبيعية .

كنت الاحظ حركته ، اتابعها بنوع من التخصيص والملاحظة ، اريد أن أعرف لماذا هذا التناقض العجيب بين حركته وحيويته وذكائه في البيت ، أو مع اولاد الحارة ، وبين خموله وذبوله ويأسه في المدرسة . ان الملاحظات المكتوبة في سجل علاماته تشير الى ان هذا الطفل يكره المدرسة ، ويميل الى الخمول والشرود وقلة الذكاء ، اما سجل ملاحظاتي عليه فيختلف كليا ، انني الاحظه شديد التركيز والاهتمام على الاشسياء التي يحبها ، وكثير الحركة ، ومحب للبحث العلمي .

اذكر ملاحظة عليه وهو يفك « الترانزيستور » وكيف قاطعته وسالته عما يفعل فاجاب وفي عينيه الرعب والخوف الحـذر : اني اريـد تصليح « الترانستور » ان صـوتـه لا يعجبني .

اذكر كيف أخذ يسالني من أين يخرج الصوت ، ولماذا يسكت اذا سحبنا البطاريات ولماذا اذا ادرنا مفتاح الابرة تتغير الاصوات . وأهم شيء اذكر عجزي ومحاولة هروبي من أسئلته الملحة التي لا اعرف انا بالضبط كيف يتم ذلك بشكل علمي واضح وان كنت اعرف الخطوط الاولى لذلك .

أمه كانت تضربه وتطارده كثيرا لان اغلب ادوات المطبخ الصغيرة قد تحولت الى ادوات عمل لديه . مثلا اخذ السكين ليصبح كالمنشار ، واخذ يد الهاون لكي تصبح كالازميل ، واخذ سيخ اللحم لكي يصبح مثقابا يستعمله في عمله ، حديقة البيت تحولت الى شبه متحف صغير ، حيث هنا وهناك وفي كل ركن منها اشاهد عدة العاب صغيرة مفككة ، او متداخله بعضها مع بعض بالاضافة الى مشاهدتي بناء صغيرا من الطين ، كانه معماري ماهر . اسئلة كثيرة وكلها تدل على ذكاء حركي ، ذكاء عملي .

انه يميل الى توظيف يديه في أي عمل ، انه يوظف مخه في تحريك يديه ، لكن لو حاولت مقارنة ملاحظاتي البيتية عليه مع ملاحظات المدرسة ، لذهلت ، ولوجدت التناقض الواضح . ترى لماذا ياخذ صفرا في الحساب وصفرا في القراءة والاملاء ؟ ولماذا لايتحمل مخه الصغير استيعاب قطعة موسيقية شعرية ؟ هل يصيبه الذهول والذبول في المدرسة لانه يكره المعلم أو يخاف منه لجوره وظلمه ؟ ربما كان ذلك ، لكن عندما قابلت المعلم وجدته العكس تماما ، وجدت فيه الانسان الواعي والقادر على فهم مهنته تمام الفهم ، ولديه القدرة على استيعاب جميع الاطفال بكل صدر رحب وبكل أعصاب هادئة ، اذكر في مقابلتي له انه كان يتذمر من كثرة عدد التلاميذ في الصف ، وان هذا العدد يخنقه ويجعله لا يستطيع ان يعرف ماذا يحدث في الصف مهما حاول التركيز .

أذكر كيف ركز هذا المعلم على آلامه ، وكيف انه لا يستطيع ان يتحمل هذه الحياة على هذه الوتيرة اذ في المدرسة اطفال شياطين ، وفي كثافة كبيرة لا يمكن ضبطهم وربطهم في عجلة الدرس وكيف ان الدرس لا يمكن ان يشدهم لعدم وجود ما يثير اهتمامهم بـه ، وكيف ان الدروس هي مملة وعلى وتيرة واحدة ، وكأنها دروس في الخيال وليس في الواقع ، وكأنها تعطى على اساس التحليق في الفضاء وليس على اساس الربط بالواقع .

أيضا أخذ هذا المعلم يشكو من تنوع المواد المملة والتي لا تفيد شيئا ، واخذ يشرح لي ويقول انظر بالله عليك هل هذا الدرس على مستوى هذا العقل الصغير ؟ هل الطفل يرتبط بكذا وكذا هل يفهم كذا وكذا ؟ حتى يفك قيود المسالة الحسابية ؟ وهل ؟ وهل ...

ثم انتقل المعلم الى الصورة الثانية ، وقال انه غير سعيد في حياته ، فله زوجة واولاد

وهو لا يستطيع تأمين ما يحتاجون من طعام وثياب ان معاشـه ينفق كلـه في اسـبوع او اكثر بقليـل ، ولكنـه ابدا لن يكفـي حتى آخـر الشـهر بكـل الاحـوال والديـن من فوقـه ومن تحته ، والمعاناة تذبحـه مـن الوريـد للوريـد ، تـرى كيف سـيحضر الدروس لاطفاله في المدرسة ؟ كيف سيحل مشاكلهم ومشكلته الاساسية لا يعرف كيف يحلها ؟ وكيف يصفو ذهنه وتراكم الهموم تجعل منه مجرد رقم يتحرك ، اذكر جيدا كيف استقبلني مدير المدرسة وكيف كان عاتبا على الاهل . انهم يتركون أطفالهم لديه ولا يحركون ساكنا ، كان أطفالهم ليسوا لهم ، وقد استغرب كثيرا من هذا الاسلوب ، كيف ينسون اطفالهم في المدارس ولا احد يسأل عن ابنه ماذا حدث له وماذا تريد منه المدرسة، كان المدرسة وحدها هي المسؤولة عن كل شيء .

ان هذا الانفصال التام بين المدرسة والبيت سبب أساسي في تهديم التعليم وفي تهديم الطفل بحد ذاته ، هذه هي المشـكلة الصغيرة ، ولكنها الكبيرة في المدى والاثـر . يتضح مما ذكره ان النظـام التربوي هو المدان وليس المعلم ، وليس البيت ، وليس الطفل .

انه الكتاب بحد ذاته مدان ، انه النظام التربوي في اسلوبه وفي فحواه وفي اهدافه مدان ، ترى لو حاولنـا ان نجـد الصعوبات التي يواجهها الجيل الصغير ترى ماذا نجد ؟

ان اول شيء نجده هو العزلة التامة بيننا وبين اطفالنا سواء في مفاهيمنا او في سلوكياتنا الاجتماعية أو في انجازاتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية .

الطفل عليه ان يفك خيوط السحر عن التعابير التي يتلقاها في حياتنا العادية ، مثل القيم والمثل والعادات والتقاليد . ان المدرسة عاجزة عن نقل مثل هذه الامور وعن تدريسها وتبسيطها لهذا الطفل وان حجة المدرسة هو ان النظام التربوي لا يسمح للمعلم ان يبتعد عن الكتاب المخصص للطفل في مرحلة التعليم الالزامي . والطفل يحاول ان يفك الطلسم العجيب من العلاقات الاجتماعية ، ولكنه ابدا يقع اسير الجهل ، ويحاول ان يسأل فيخاف لان هذا السؤال اكبر من حجم تفكيره ، ولان المعلم لايسمح له الا بالاسئلة المتعلقة بالدروس ولان البيت لا يسمح له ايضا ان يسأل مثل هذه اسـئلة بحجة انه مازال صغيرا ، وهذه الامور سـيفهمها حين يكبر وما عليه الآن سوى الاهتمام بدروسـه وهذا هو المطلوب منه فقط .

لذا فان أسئلة كثيرة تدور حول العادات والتقاليد والاخلاق والمثل والقيم تبقى دون اجوبة ، وتؤدي الى تشويشه .

انه يشاهد يوميا عدة مسائل اجتماعية ، أو ربما يعاني هو منها بحكم وجوده فيها ،

ولكنه لا يستطيع الاجابة عنها ، هناك مسالة الزواج والطلاق والمرأة والرجل والعلاقات بينهما ، هناك مسالة الجنس والحب والصداقة ، وهناك مسالة العلاقات بين الرجل والمرأة ، والتي يشاهدها في السينما أو يسمعها من المذياع ولكنه يجهل فهمها ، رغم ارغامنا له رؤيتها بطريقة القسر التلقائي ، حيث لا يمكن ان نكون لنا حياة خاصة بدونه فلا بد بحكم وجوده في الاسرة ان يشاهد ولو بطريق المصادفة قبله بين زوج وزوجة أو يشاهد فيلما في التلفزيون تتخلله مشاهد الحب والاثارة والجنس وهنا المصيبة الكبرى . انه يشاهد مالا يعنيه بشكله الاساسي او الكامل . انه يرى الصورة دون العمق ، والشكل دون المضمون ، انه يرى عدة حركات ليس لها المعنى المقصود لذا فانه ياخذ فكرة على ان علاقة الرجل بالمرأة هي العناق ، هي القبل ، هي ان يتحد الجسدان ، وهكذا لانه لم يشاهد غير ذلك ، ولم يشاهد اعمق من ذلك ، انه بحاجة الى مضمون هذه العلاقة الى اساسياتها الى المثل التي ترتكز عليها ، الى القيم الاجتماعية التي تقرها وتضع حدودها .

ان البيت والمدرسة والمجتمع ، انهم جميعا يتهربون من السؤال الطبيعي الكبير الذي يسأله الطفل .

انه يحمل السؤال ويحار فيه ، يحاول ان يقتنص الجواب ولكن لا جواب ، تبقى انطباعاته هي الدليل ، تبقى مفاهيمه البسيطة هي الدليل ، تبقى تجربته الفطرية البدائية هي الدليل .

وهكذا يمر في تجربة من أصعب التجارب في حياته على الاطلاق ، ترى هل الحب محرم ؟ هل هو جريمة ؟ هل هو عمل مناف للحشمة والاخلاق ؟ اذا كان كذلك فلماذا نفعله ؟ واذا كان عكس ذلك فلماذا لا نجعله من الامور البسيطة المفهومة لدى الاطفال ، ان الحب عالم كبير ، وعلم وتجربة وممارسة وله عدة وجوه وعدة درجات ، وليس المطلوب منا ان نعطي الطفل اعلى درجاته أو اعقد صورة . بل المطلوب منا هو تبسيط هذا الامر ، وليكن حب الام وحب الاب ، وحب الاخوة والاصدقاء هو البدء ، وليكن حب الارض والوطن والعمل والى آخره من المفاهيم والاهداف هو البدء ايضا . ثم ندخل في بداية الحب بين الرجل والمرأة من جانب العمق وليس من جانب الشكل .

ان الطفل مهما حاولنا ابعاده عن هذه المشكلة فلن ننجح لانها موجودة في واقعنا ، ومتاح له ملاحظتها بصورة عفوية .

الذ طالما أن الصورة والحركة هي في متناول يديه او في حواسه ، فلماذا اذن نخفي عليه الاهم والمنقذ ، والقصد المضمون ، مضمون الحب ، روحيته ، شفافيته ، اخلاقياته : انسانياته ، الجانب المضيء منه ، الجانب الذي يفرح ضميرنا ويقره عقلنا .

المطلوب هو اعطاء العمق للصورة التي يشاهدها عن علاقة الرجل بالمرأة حتى لا يهبط في درك الشكل وفي حيوانية اللقاء ، وتصبح لديه القناعة أن علاقة الرجل بالمرأة هي الجنس ، هي القبلات والعناق ، وان السرير هو المهم في هذه العلاقة .

ليكن الحب علم ومدينة اخلاق ومثل عليا وعلى اساس مبسط ويعتمد القدرة الذهنية للطفل ، ومدى درجات مداركه والتقاطه لهذه الامور . ومن الخطأ أن نريه القشرة فقط ثم نريد محاسبته سواء على مستوى البيت أو المدرسة أو المجتمع . أن أغلب الانحرافات التي يقوم بها الطفل هي نابعة من الجهل بعمق الاشياء أو الحركات أو التصرفات لانه يشاهد منا ذلك التصرف أو يشاهد الحركة أو المشهد ولكنه ابدا لم يلتقط الجوهر أو الخلفية لذلك .

وهنا يحاول الطفل ان يصبح كبيرا ، ولذلك يتخذ طريق التقليد ، ليقع في فخ الجهل الذي نصب له نتيجة خوفنا الجاهل .

أيضا مسالة المال . انه يشاهد المال هو محور تفكيرنا ، محور حياتنا ، ولكنه ابدا لم يعرف كيف يكون بالنسبة للانسان : هل هو وسيلة ام غاية ام ماذا ؟

انه لا يعرف لماذا نتجه نحو المال ، انه لا يعرف علاقتنا بهذا المال ومفهومنا له ، انه يعرف تماما أننا نتجه اليه ، وبه نحقق ما نصبو اليه من مأكل ومشرب وملبس وأدوات ووسائل للراحة والرفاهية .

لذا فان النتيجة الطبيعية أن يصبح جل هم الطفل الحصول على المال وليس أكثر ، انه يتجه نحو حب الحصول على المال دون أن يعرف كيف يأتي ومن هو المال وما علاقتنا به ، وحين يكبر هذا الطفل فانه سرعان ما تكبر معه روح التملك للمال وباي شكل . حتى

لو حصل عليه بالعمل الشريف ، فانه لا يعرف كيف يتصرف به ، وحتى حين يصبح رجلا نراه أسير المال وليس المال هو الاسير، وهكذا يغدو كل ما هو انساني خاضعا لسيطرة المال، وبالتالي يصبح هذا الرجل عديم الفائدة انسانيا بل ويقف في وجه الانسانية طالما المال هو الذي يسيره وهو الذي يحدد له سلوكه في الحياة . والامثلة كثيرة على ذلك الامر ، ان أغلب الاطفال لايعرفون عمق المفهوم للمال وعمق علاقتنا به،ان اكبر مصيبة تصيب أخلاقنا وتفسد حياتنا الاجتماعية هي مصيبة حب المال وكأنه هو الغاية والهدف ، وهنا تتساقط كل القيم والمثل الانسانية في سبيل الحصول على المال ، وبالتالي يقع المجتمع في قاع الانحطاط .

لماذا لا يكون الطفل على معرفة تامة في هذا الامر وفي مرحلة التعليم الالزامي ؟ لماذا لا نفهمه هذه الامور ؟ ايضا هناك عدة مفاهيم وعدة علاقات اجتماعية ، يسمعها الطفل او يشاهد تحولها الى عمل ولكنه لا يعرف مضمونها ولا قيمتها ، ومتى كبر هذا الطفل فانه يقع في الموقف الخاطىء منها لانه ليس من المفروض ان الزمن او العمر او التجربة تعطي المعرفة او الخبرة، بل يمكن أن ينمو الطفل ويصبح رجلا دون أن يطور مفهومه البسيط تجاه قيمة من هذه القيم والامثلة كثيرة على ذلك الامر .

ان التضامن او التكامل او التكافل او الجمعيات التعاونية او الخيرية او اي مؤسسات من هذا القبيل هي من الامور التي يجهل الطفل معرفتها بشكلها الصحيح ، وهو يقر بها أو يعترف بها بحكم تواجدها ضمن دائرة حواسه وعقله الصغير . ان مرحلة التعليم الالزامي من اخطر مراحل العمر على الاطلاق ، وهذه هي المرحلة الوحيدة التي يجب ان تزود الطفل بالمعلومات الاساسية عن مجتمعه وعلاقاته وقيمه ، اذن لماذا لا نضع بين يديه في هذه المرحلة هذه القيم وهذه المؤسسات الاجتماعية ؟ هل يقرأ الطفل في طريق مدرسته اسم جمعية تعاونية ولا يعرف جوهرها، هل يقرأ في كتابه كلمة التعاون أو التضامن أو التكافل الاجتماعي ولا يجد الاجابة عليها الا اذ كان حسن الحظ وشرحت له .

ان امام الطفل حياة واسعة لا يعرف كنهها او مداها ، ورغم كل ذلك فان السؤال يتجمد على شفتيه ولا يجد القدرة على السؤال ، وان جهلنا المطبق يزيد في تجميد هذا السؤال ويحوله مع الزمن الى جدار او قضبان سجن او الى خيوط جهل ، هناك عدة مفاهيم في عالم الاقتصاد وفي عالم الاجتماع وفي عالم الثقافة وفي عالم التكنولوجيا ، ورغم كل ذلك فان مرحلة التعليم الالزامي غائبة عن ذلك أو انها تعرضها سريعا سطحيا .

هناك عدة مفاهيم اجتماعية اساسية يجب ان يفهمها الطفل في مراحل تعليمه الالزامي ، لانه سوف يمارسها بشكل طبيعي تلقائي بحكم وجوده في هذا المجتمع .

ان مسالة الحرية هي من الامور الهامة مثل الماء والهواء للانسان ولكن كيف يمارس الانسان حريته ؟ كيف يحصل على حريته ؟ كيف يمارس الآخرون حرياتهم ؟ وما هي علاقتهم به من خلال الحرية ؟ هذه هي اسئلة عملية تواجه الطفل بعد مرحلة التعليم الالزامي بشكل مباشرة اذ انه ملزم على القيام بشيء او الامتناع عن شيء ، ومجبر أن يفعل كذا أو ان يمتنع عن كذا .

اذن مفهوم الحرية ، ومفهوم الديمقراطية ، ومفهوم الدولة ومؤسساتها ، ومفهوم العلوم الانسانية بشكل عام يجب ان يكون المحور في مرحلة التعليم الالزامي خاصة وان تلك المفاهيم ستحاسب الطفل على أساس انه عالم بها أو المفروض أن يكون كذلك .

ان القانون على سبيل المثال لا يرحم الجاهل ، ولا جهالة في القانون ، ولكن ما هو ذنب الذي انهى مرحلة التعليم الالزامي كلها او تركها ثم دخل معترك الحياة وجابه الحياة واقدم على فعل غير مسموح ؟ او امتنع عن فعل يجب القيام به ، وعلما بانه يجهل هذا وذاك .. ولكن القانون يتناوله ويعاقبه . هناك أيضا عدة مفاهيم في السياسة واقصد بها المفاهيم الثابتة والاستراتيجية ، والتي تصلح لان تكون قواعد اساسية ، لا بد من فهمها جيدا ، مثل ان يعرف الطفل ما هو الوطن وما هي القومية العربية ، وما هي الاهداف التي نسعى اليها ، وما هي الاساليب الواجبة للوصول اليها .

كما يجب معرفة من هو الصديق ومن هو العدو ، ومن هو الحاكم ومن هو الشعب ، وما هي العلاقة بينهما وما هي علاقاتنا بالعالم ، وكل ذلك ضمن اسلوب مبسط موجز يتلاءم مع مدارك الاطفال .

هناك أيضا أدوات الانتاج ، ووسائل الانتاج ، ومضامين الانتاج ، ولكـن الطفل يجهلها رغم وجود معظمها بين دائرة تواجده ، ولا يعرف عنها أي شيء الا ما كان يرتبط بعمـل أحد أفراد أسرته وتعلمه منه مباشرة .

هناك عدة وسائل حضارية موجودة في هذه الدنيا ولا يعرف عنها أي شيء على الاطلاق ،

انه يشاهد السيارة ولكنه لا يعرف كيف تسير السيارة وعلى اي مبدأ ، وانه يعرف الطائرة ولكنه لا يعرف عنها شيئا ، وانه يعرف الآلة التي تحيك الثياب او التي تصنع له الادوات ولكنه لا يعرف عنها أي شيء .

انا لا اقصد بالمعرفة هو الغوص شاقوليا وافقيا ، بل اقصد الاحاطة المبدئية للمرتكزات او للسمات الاساسية المكونة لذلك الشيء ، حتى لا تبقى هذه الامور متواجدة في محيط حياته وربما استعملها ولكن لا يعرف عنها ، بل تبقى في حكم المجهول .

كلنا يستعمل الكهرباء والملحقات بها مثل الادوات الكهربائية ولكن نجهل بعض الاساسيات عنها . هكذا يمكن ان نقول ان المرحلة الالزامية في التعليم هي مرحلة خطرة وهامة في حياة الشعوب وبقدر ما نفهم الحياة مستقبلا ، بقدر ما نتحكم فيهـا او تتحكم فينا .

لذا فانني هنا سوف انتقل الى تخصيص الحديث عن هذه المرحلة وعن الضروريات التي يجب ان تكون فيها اذا اردنا الغد المشرق المليء بالآمال . اول الامر هو المعلم ، وبدون المعلم لا يتحقق أي شيء في مجال التعليم ، وهو أساس في محور خططنا التربوية على الاطلاق .

لماذا نتوجه اليه بالمطاليب فقط ولا نتيح له فرصة الحصول على ما يريده من بديهيات الامور ، كيف نريد منه التفرغ التام للتعليم والتربية وذهنه شارد وجسمه منهك منحط ، وعلاقاته الاسرية سيئة نتيجة تراكم الهموم والاعباء والمسؤليات ؟

اولا : ان عمله يتصف بالخصوصية ويتطلب الذهن الصافي والقدرة على الضبط والربط من أجل هدف التربية والتعليم ، ولكن المعلم الغارق في الياس نتيجـة سوء الحـال والمعاش ، يصبح هو بحاجة الى من يرشده وينقذه ويخفف عنه الهموم .

لذا تراه اما يستسلم للامر الواقع وتصبح التربية لديه عبارة عن تبديد وقت لا أكثر ، واما أن يترك المهنة بحثا عن عمل آخر ، أو ربما جمع بين التعليم وتربية الدجاج أو بيع الخضار أو الى ما هنالك من أمور . أيضـا نجد في المدرسـة الواحدة الكثافة الكبيرة وبالتالي لا يستطيع المعلم القيام بعمله التربوي ، ومع ذلك نريد منه علما وتربية ،

أيضا أدوات التعليم أو التربية هي من الامور النسبيـة لا تلعب دورا في وجودها بـل الامكانية هي التي تلعب الدور ، واذا تركنا دور المعلم ونظرنا الى مجمل التنظير لدور التربية والتعليم في مرحلة التعليم الالزامي فماذا نجد ؟ اول ما نجد هو غياب التنظير التعليمي والتربوي السليم القادر على فهم حركة الواقع المعاصر بكل ما لديه من مؤسسات وقيم ومعارف ، وبكل ما لديه من حركة اقتصادية او سياسية أو اجتماعية أو فكرية .

وبصورة أوضح ، ان التنظير المعاق في مجال التعليم الالزامي يصلح لزمن مضى وانقضى وهو زمن السيف والترس والعربة التي يقودها حصان ، وزمن المواصلات البدائية سواء مواصلات الكلمة أو الصورة أو السلعة أو المعرفة ، اما اليوم فالامر يختلف كثيرا ، نحن في زمن فيه كل المعارف وكل القيم والمفاهيم والعلوم وفيه كل المؤسسات والعلاقات وكل الانشطة الانسانية .

نحن بحاجة الى ربط التنظير التربوي التعليمي في المرحلة الالزامية بالتنظير العام للامة ، حتى يتم ربط هذا التنظير الفرع بالتنظير الاصل ، وبالتالي يمكن لنا أن نضع حدا للضياع والتشتت فلا تكون الخطة العامة في جهة والتنفيذ في جهة .

ولكي اوضح اكثر ، المطلوب تحضير أسلوب ومضمون التنظير التربوي التعليمي للمرحلة الالزامية بحيث يستوعب مفهوم هذا العصر ، مفهوم التنظير الام لوطننا ولثورته ونضاله هذا الشيء يتطلب ان تتحول المدرسة الى مجتمع صغير ، وأن يتحول الصف الى أشرعة مفتوحة وان يصبح المقعد للراحة القصيرة وليس للجلوس الطويل . أي أن يصبح التطبيق العملي هو الاسلوب المفضل والاسلم حيث يمكن أن يكتب الاطفال درس الانشاء على الطبيعة ، واقصد بالطبيعة طبيعة الموضوع .

وعلى سبيل المثال ، اذا كان موضوع الانشاء حول وصف الريف يمكن أخذهم الى أقرب ريف مجاور فيكون الوصف معتمدا على مشاهدة الواقع،ومن الممكن أن يكون موضوع الانشاء عن العمل في مصنع وبذلك ينتقل التلاميذ الى المعمل وهكذا يمكن أن نحول العلوم النظرية الى ممارسة تطبيقية ، وبهذا الاسلوب ننقذ العلوم النظرية من فقدان نصفها أو من فقدان حركتها .

فاذ كان درس الجغرافيا عن السهل والجبل او النهر فلماذا لا يشاهد الطفل عمليا موضوع الدرس ؟ واذا كان الدرس هو الحساب فلماذا لا تجرى عملية تمثيل حقيقية في المدرسة نفسها بين التلاميذ ؟

فلان يشتري من فلان كذا وكذا .. وكان معه كذا .. فكم بقي معه ؟

هنا يقوم الاطفال عمليا بذلك وهنا نحول هذا المفهوم الحسابي المجرد الى تجسيد عملي يمكن للطفل فهمه او ادراكه . لماذا لا يكون الصف مفتوحا متنقلا بين حديقة المدرسة وبين القاعات العملية حيث تجرى هناك عدة تجارب في العلوم التطبيقية والمهنية ؟

ان معظم الاطفال سوف يتجهون نحو المهن بعد المرحلة الالزامية فلماذا لا يدخل في المنهاج التعليم والعلوم المهنية بشكل مبسط وعملي ؟

ان الاحصاء يدل على ان الجيل تقريبا بكامله يتواجد في المدارس الابتدائية وان هذا الجيل معظمه يتابع التعليم الالزامي وينهي مرحلته ، وان معظم هذا الجيل الذي انهى هذه المرحلة يتجه نحو المهن او التجارة او الصناعة ، وان القليل هو الذي يتابع التعليم في المراحل المتوسطة او الثانوية او الجامعية .

اذن لماذا نطبق على معظم الجيل ما يصلح لان نطبقه على القليل ، اي لماذا لا نخضع مضمون المنهاج او الحرف او الصناعة لمتطلبات معظم الجيل ، وندرسهم المهن او الحرف او الصناعة بشكل مبسط بجانب العلوم النظرية الاخرى ، وبجانب القاسم الاساسي وهو التربية بمفهومها الحديث الجامع لمفاهيم العصر ولماذا لا تتحول مدارس اطفالنا الى مجتمعات صغيرة فيها كل ما في حياتنا من الوان الانشطة العلمية والثقافية والاقتصادية طالما ان معظم الجيل يترك المرحلة الالزامية ليتجه نحو الانتاج . اذن لماذا لا يكون علم الانتاج هو من العلوم المقررة في المرحلة الالزامية .

لماذا لا نعطيه المبادىء الاولية عن كل مهنة وعن كل حرفة ونعطيه المعرفة عن التكنولوجيا بمفهومها المبسط ؟ ان الخطة العامة في وطننا تتجه نحو خلق جيـل واع في فكـره وفي عمله وانتاجـه .

اذن لماذا لا نربط هذه الخطة بخطة التعليم والتربية ؟ لماذا لا نبسط للطفل هذه المفاهيم

حتى يخرج من المرحلة الالزامية ولديه المعرفة أو الخبرة البدئية في اخلاقنا وفي أفكارنا وفي انتاجنا .

لماذا لا نوظف التربويين والمختصين بعلم النفس والاجتماع في مجال المرحلة الالزامية لكي يصفوا الطريق السليم لكل طفل حسب ميوله واندفاعه نحو الحياة .

نريد أن يتحرر الصف من مقاعده المكرسحة ومن نظامه الجامد ومن مضامينه الاثرية ، نريد للصف أن يتحد مع الحياة وأن يرتبط بالخط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي .

ان مرحلة التربية والتعليم الالزامي هي أغنى مرحلة وهي المرحلة الوحيدة التي يكرسها معظم الجيل الصاعد للتربية والتعليم ، وبعدها ينفرط هذا التجمع ويتبعثر في مساحات الحياة الشاسعة . اذن لماذا لا نعطيه من كل المعارف والعلوم والتطبيقات والمفاهيم ما يمكن لادراكه ان يستوعبه ؟ المهم أن يخرج الطفل من سجن الصف واصفاد المقعد وان تحرك ذهنه وحواسه وأعضاء جسمه ، ان نحركه نحو الحياة ، أن نجعل من المدرسة شيئاً محبباً لديه ، فيها المتعة والالفة وفيها الثقافة ومبادىء العلوم والمفاهيم الاجتماعية وفيها المبادىء الاولية لما سوف يتجه اليه مع الانتاج .

اننا نكتب المجلدات الكثيرة حول زاوية من زوايا حياتنا السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، اننا نضيع الوقت الطويل والتفكير المتواصل من أجل تطوير زاوية ما من زوايا حياتنا .

فكيف لا نعطي كل الاهمية وكل الوقت وكل التفكير لبواكير شبابنا لهؤلاء الاطفال الذين هم غداً سيصنعون المستقبل ؟ انهم سيصنعون ما عجزنا عن صنعه الآن . اذا أردنا أن ننظر استراتيجيا على المدى البعيد واذا أردنا أن نضع الاساس المتين لصرح هذه الامة العربية فعلينا ان نتجه نحو هؤلاء الاطفال ، أن نصنع لهم خميرة الغد .

هذا الطموح هو الذي دفع ثورتنا ، ثورة حزب البعث العربي الاشتراكي نحو انتهاج سياسة التعليم والتربية الجديد ، وهذا الطموح هو الذي دفع القائد المناضل حافظ الاسد نحو بناء مستقبل الاطفال من خلال المؤسسات المتخصصة بهم مثل منظمة طلائع البعث وحدائق الاطفال وملاعب الاطفال ومستشفيات الاطفال .

وبقي أن نتابع المسيرة نحو تغيير مفهوم المدرسة من جذوره حتى يتواكب مع هذا العصر الذي نعيشه وحتى ترتبط المدرسة بالحياة ، ونعيش ثورتنا وأهدافنا ونضالنا .

فلسفة التربية
للشعب العربي الفلسطيني

مشروع أعده مركز التخطيط الفلسطيني

تنبثق فلسفة التربية والتعليم للشعب العربي الفلسطيني من المنطلقات التالية :

اولا : ان العالم واقع موضوعي يجب أن يدرس موضوعيا وأن لا يحكم عليه ذاتيا ، وان هذا العالم في حالة حركة مستمرة ولا يمكن أن يدوم واقع ما الى الابد ، وأن بامكان الانسان معرفة العالم وتغييره . وبناء على هذه النظرة ، فان فلسفة التربية والتعليم تتجه الى رفض كل المفاهيم التي تشكك بقدرة الانسان والجماهير على معرفة العالم وتغييره وترفض مواقف الخضوع للامر الواقع والاستسلام له

ثانيا : ان التاريخ ليس تراكما عبثيا للاحداث أو دورة تعيد نفسها بلا انقطاع ، بل هو تطور من الادنى الى الارقى وتلعب الثورات دورا أساسيا في هذا التطور

ثالثا : ان الانسان جزء من الشعب الذي يعيش معه ، وان مصلحته تكمن في تحقيق مصلحة هذا الشعب وان قيمته تحدد بما يقوم به في سبيل انتصار القضايا العادلة لشعبه وبلاده والانسانية .

رابعا : ان معيار الخير والشر والصحيح والخطا لا يقوم على أساس الحكم الذاتي وانما هو معيار موضوعي ، فالذي يقرر عدالة قضية أو عدم عدالتها ، وعدالة موقف أو عدم عدالته هو الدور الذي تلعبه تلك القضية وذلك الموقف من تطوير المجتمع ومدى مطابقتها أو مطابقته لمصلحة الجماهير العريضة وخلق المجتمع الانساني الذي ينفي فيه الاستغلال والظلم والفقر .

وترتبط فلسفة التربية والتعليم للشعب العربي الفلسطيني بشخصية هذا الشعب ومقوماته باعتباره جزءا من الامة العربية ، وبمبادىء الثورة الفلسطينية التي تجسد آماله وتصميمه على التحرير والتقدم ، وبحاجاته القائمة والمنتظرة في ظل الاوضاع التي يعيشها والصعوبات التي يواجهها والنضال الذي يخوضه ضد الصهيونية والامبريالية .

وتواجه فلسفة التربية والتعليم للشعب العربي الفلسطيني واقع هذا الشعب ووجوده مشتتا في مجتمعات وبلدان متعددة مما يستلزم أن يتم التعليم في ظروف فريدة واستثنائية حيث لا توجد الاسس المادية لذلك وحيث هناك ضرورة لمعايشة ثقافات سائدة تمتلك الاسبقية والخبرة والسيادة .

وتهدف فلسفة التربية والتعليم من خلال تحقيق الاسس التي تقوم عليها الى خلق الانسان الثوري قوميا واجتماعيا الذي سيكون أساس حرب الشعب الطويلة التي يخوضها الشعب الفلسطيني وضمان استمرارها وأداة نجاحها والذي سيكون أيضا مواطنا في فلسطين الجديدة الحرة .

وتتمثل هذه الفلسفة في الاسس التالية :

اولا : الايمان بالاهداف والمبادىء التالية والعمل على تعزيزها وتجسيدها سلوكا وعملا :

أ ــ الثورة الفلسطينية المسلحة هي الطريق الوحيد لتحرير الارض والانسان مما يحتم العمل على تلبية حاجاتها وضمان ثباتها ونموها ونجاحها .

ب ــ الشعب العربي الفلسطيني صاحب الحق في تقرير مصيره وصنع مستقبله ومستقبل وطنه .

ج ــ فلسطين ، بعد التحرير الكامل ، دولة عربية ديمقراطية يتساوى فيها جميع المواطنين في الفرص والحقوق والواجبات دون تمييز على أساس الجنس أو اللون او الدين .

د ــ الايمان بوحدة الامة العربية وحريتها وشخصيتها في الوطن العربي الموحد المتكامل.

هـ ــ التساند والتجاوب مع حركات التحرر الوطني في العالم ودعم نضالها في سبيل الحرية وحق تقرير المصير وتحقيق العمل والمساواة .

ثانيا : غرس وتنمية القيم التالية في نفوس النشء

أ ـ حب واحترام الوالدين والزملاء والمسنين .

ب ـ حب الشعب والثقة به .

ج ـ حب الوطن والثورة والثقة بالنصر .

د ـ حب الروح الجماعية وتعميقها والاعتماد عليها والكفاح من اجلها .

هـ ـ حب العمل والانتاج لخدمة الثورة والشعب .

و ـ المبادىء والقيم الوطنية والثورية والتحرر من العصبية ومن القيم الفردية والقيم التقليدية السلبية .

ز ـ الاحساس بالمسؤولية والانضباط وتقوية الصلابة والمناعة في الخلق ضد الازمات والقوى المضادة للثورة والتهيئة للمشاركة الفعلية في قضايا المجتمع .

ح ـ الثقة في مواجهة المستقبل والاعتماد على النفس لدى الافراد والجماعات وتنمية القدرة على مجابهة التحدي بمختلف أشكاله ومستوياته .

ط ـ روح التفاؤل الثوري وروح حب المستقبل في النفوس .

ي ـ الجراة وروح التحدي والمخاطرة المسؤولة في اطار العمل الجماعي

ثالثا : تنمية الروح النضالية لدى الشعب العربي الفلسطيني وذلك عن طريق ما يلي :

أ ـ وضوح الغاية والالتزام بها وتربية الارادة اللازمة لتحقيقها والاستعداد للبذل والتضحية في سبيل ذلك .

ب ـ ضرورة التحلي بالصفات الثورية مثل الصدق والاخلاص والمواظبة والشجاعة والحزم والتواضع والكتمان ومقاومة الانتهازية والوصولية والاغتياب والدس والنفاق والكذب .

ج ـ تعزيز الارتباط العضوي بالارض والوطن في النشء الذي لم يعمل في فلسطين ولم يرها والهاب الخيال في تصورها وحبها والحنين اليها .

د ـ ابراز صورة الهوية النضالية للثورة الفلسطينية كجزء من الثورة العربية وارتباط الشعب الفلسطيني بالمجتمع العربي وبالنضال العربي تاريخا وحاضرا ومستقبلا

هـ ـ ابراز الدور البطولي للشهداء ومدى التضحية التي قدموها وتعزيز روح الامانة لهم والاستعداد لمواصلة الطريق الذي سقطوا عليه .

و ـ تنمية القدرات والاتجاهات والمهارات اللازمة لتحقيق التعبئة الشعبية والمشاركة فيها على أساس التخطيط وفي اطار تنظيم محدد للاهداف والادوار .

ز ـ الممارسة النضالية عن طريق تحويل هذه المبادىء الى ألوان من النشاط المنهجي والنشاط المصاحب له لتنمية قيادات مسؤولة واعية .

رابعا : النظر الى التربية على أنها بعد من أبعاد الحياة يتعدى أن يكون أعدادا لها ، ويترتب على هذه النظرة ما يلي :

أ ـ اعتبار التربيـة عمليـة ديناميـة ومتطورة ترتبط ارتباطـا وثيقا بالتطور العلمي والتكنولوجي والاجتماعي وتتطلب استمرار معاودة النظر في افكارنا وممارساتنا واعتبار المناهج وتطبيقاتها في تطور مستمر يخضع للتقويم المنتظم ، وتشجيع التجارب والابحاث التربوية من أجل العمل والتحسين على جميع المستويات واتاحة حرية التصرف في ضوء نتائج التجارب والابحاث الثورية التي تساعد في تنمية جيل الثورة .

ب ـ تكييف التربية لتتلاءم والحاجات القائمة والمنتظرة للشعب العربي الفلسطيني في ظروف التجزئة التي يعيشها والنضال الطويل الذي يخوضه وتمشيا مع هدف الثورة في التحرير الكامل .

ج ـ عدم فصل التعليم المدرسي عن التعليم البيتي والتعليم الاجتماعي ، وتهيئة الظروف والوسائل المناسبة للتعلم الذاتي وتنمية الاتجاهات والعادات الدراسية والتعليمية التي تمكن الفرد من مواصلة التعلم والتثقف بعد تخرجـه من المدرسة ، والاهتمام بتعليم الكبار وتثقيفهم .

خامسا : العناية بتفجير الطاقات العقلية لابناء الشعب العربي الفلسطيني وتنميتها الى أقصى الحدود الممكنة ، وتنمية القدرة على التعبير والتفكير المستقل والنقد والابداع .

سادسا : تنمية المسؤولية الخلقية واتباع المنهج الديمقراطي في العلاقات الانسانية على أن يتمثل كل هذا في أنماط من السلوك الفردي والجماعي وفي ممارسات عملية .

سابعا : مساعدة الفرد على النمو السوي جسميا وعقليا واجتماعيا وعاطفيا وتنمية نواحي الابداع عند الموهوبين ، واتاحة الفرص لسائر المتخلفين كي ينموا ضمن حدود امكاناتهم بحيث يستطيع كل فرد أن يساهم في النضال حسب امكانياته .

ثامنا : الاهتمام بتربية الروح الرياضية وبالتربية البدنية وتدريب الشباب خدمة لاغراض الجماعة .

تاسعا : الاهتمام بالجوانب الصحية الفردية والجماعية عن طريق نشر المعلومات الصحية وتنمية العادات الصحية سلوكا وعملا .

عاشرا : الاهتمام بالتراث الشعبي الفلسطيني والعربي وتطوير مختلف أوجهه وتنمية المواهب الفنية عند النشىء والافادة منها في التعبئة والاعلام .

توجيهات عامة

١ ــ تترجم المبادىء والاسس التي تقوم عليها فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني الى أهداف عامة يسترشد بها على جميع المستويات : المناهج المدرسية ، ومقررات المواد الدراسية والمواد التعليمية ، وطرق التعليم والتعلم ، والممارسات الاخرى ، وتدريب المعلمين قبل الخدمة وفي أثنائها .

٢ ــ توضع المناهج والمقررات الدراسية بحيث تراعى فيها القواعد الاساسية التالية :

أ ــ فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني وحاجاته القائمة والمنتظرة ، كما هي مبينة في صدر هذه الوثيقة .

ب ــ الاسس النفسية للتعلم التي تراعي مدى نضج الطفل ونموه جسديا وعقليا وعاطفيا واجتماعيا ، والمبادىء التي تقوم عليها نظريات التعلم ، مع ضرورة الارتفاع الى غاية طاقات الطلاب العقلية وقدراتهم الحركية .

ج ــ طبيعة العلوم والمبادىء التي تشكل مقررات المواد المختلفة ، وطرق البحث فيها ، وتطبيقاتها التكنولوجية والعلمية حيث يصح ذلك .

٣ ــ تراعى في وضع المناهج والمقررات الدراسية الحاجة الى تنمية المهارات الاساسية التالية عند الطلاب ، وهي :

أ ــ أن ينقلوا الافكار بسهولة عن طريق التعبير الشفوي بلغة عربية سليمة .

ب ــ أن ينقلوا الافكار بسهولة عن طريق التعبير الكتابي بلغة عربية سليمة .

ج ـ أن يستعملوا الارقام بيسر في شؤون الحياة العامة .

د ـ أن يتعودوا الاصغاء المركز لكلام المتحدثين والملاحظة الدقيقة لما يجري في البيئة للاستيعاب والتحليل والاستفادة .

هـ ـ أن تتكون فيهم عادة القراءة والمطالعة وتنمو باستمرار بقصد المتعة والاستزادة من المعرفة والتثقيف الذاتي .

و ـ أن يتبعوا الاسلوب العلمي في البحث والتفكير والاستنتاج وفي تمييز المعلومات الصحيحة من الخاطئة .

ز ـ أن يلتزموا الموضوعية في النقد بقصد التقييم والتغيير والبناء والتقدم المستمر .

٤ ـ رغبة في تنشئة جيل متكامل ، خلقا وقدرة مع محيطه ، يراعى أن تنمى في الطلاب في جميع المراحل المهارات اليدوية والتمرس بالآلات والادوات الاساسية للحرف والصناعات ، وذلك لخلق الالفة والتحكم فيها ولتنمية احترام العمل اليدوي بجميع أنواعه لخدمة متطلبات الثورة .

٥ ـ زيادة على ما سبق ذكره في الفقرات ١ ـ ٤ وتجب مراعاته في جميع المراحل تفرد المرحلة الثانوية بالتوجيهات التالية ، تحقيقا للتنويع والتشعيب فيها على نحو يلائم استعدادات الطلاب وميولهم ويفي في الوقت نفسه ، بالحاجات المتطورة للشعب العربي الفلسطيني :

يوضع برنامج مرن شامل للمرحلة الثانوية بحيث تقدم المدرسة الثانوية ، بالاضافة الى المنهج الاساسي المشترك وضمن برنامجها المرن الشامل ، مواد ونشاطات لتحقيق كل من الاغراض التالية ، وذلك حسب ما تدعو الحاجة وعلى قدر المستطاع :

ا ـ ادخال مواد اضافية أو بديلة ذات مستوى أعلى لذوي الاستعدادات الخاصة مما يوفر على الطلبة المشتركين بعض المواد الجامعية أو يؤهلهم لدخول الحياة العملية من نقطة ابتداء اعلى أو يكسبهم مهارات ذات صفة مستعجلة . ويغلب أن تكون هذه المواد لغات حديثة أو رياضيات وعلوم طبيعية .

ب ـ ادخال مواد فنية أو مهنية أو تكنولوجية ذات محتوى أكاديمي وعملي يفوق مثيلاتها في المدارس الصناعية مما ينوع مؤهلات المتخرجين ويجعلها اكثر تجاوبا مع متطلبات الحياة المعاصرة .

ج ـ نشاطات في مجال الرياضة والجمعيات مما ينمي روح التعاون ويشيع مفهوم الديمقراطية ويربي الكفاءات القيادية والادارية .

مكسيم غوركي كاتبا للاطفال

د . عبد الرزاق جعفر

« اما انا فكنت اخب في اعقابها (اي الجدة) وادب النهار بطوله متعلقا بأثوابها إن في الساحة او في الحديقة او عند الجيران حيث كانت تجلس ليفسح ساعات تحتسي الشاي وتعيد سرد ما لديها من قصص واخبار ـ وكنت ابدو وكذلك وكأنني قطعة منها . وانا لا اذكر احدا ، خلال تلك الفترة من حياتي ، اللهم الا هذه العجوز الكدود اللطيفة ...»(1)

مكسيم غوركي

يعرف المثقفون العرب غوركي كاتبا كبيرا ومناضلا عظيما الف كتب : الام : «طفولتي ، وشبابي ، وجامعاتي ، والاصدقاء الثلاثة ، وبعض القصص القصيرة والمقالات الادبية والفكرية . اما ما لا يعرفونه عن غوركي فهو انه كتب للاطفال ، وعمل على تاسيس اكبر دار للنشر في الاتحاد السوفييتي تهتم بتوزيع أدب الاطفال ، وأجرى مسابقات ادبية وشعرية للاطفال كان الفائزون فيها يكرمون في بيت الاديب الكبير الذي كان يستمع اليهم وينصحهم ويشجعهم .

(1) غوركي : « طفولتي »
ترجمة سهيل أيوب ـ منشورات الرواد ـ (١٠٥)

لقد كنا نلمس في كتب غوركي مدى حب هذا الانسان للطفل الذي يرى فيه مستقبل الانسانية وقرأنا في كتاب « طفولتي » ، بصورة خاصة ، وصفا رائعا لحياته البائسة وحياة اترابه من الصغار ، وعرفنا فيه ميله الشديد للاستماع الى القصص التي يسردها الكبار في سهراتهم ، واطلعنا على وصفه لجدته وهي تقص عليه أساطير جمعتها وحفظتها واحسنت حبكها .

نحاول ان نعطي ، في الصفحات القادمة ، لمحة عابرة عن غوركي وأدب الاطفال : رأيه في محتوى كتب أدب الاطفال ، رأيه في أدب الاطفال في الاتحاد السوفياتي ، رأيه في الحكايات القديمة ، مراسلاته مع الاطفال ، قائمة بالموضوعات التي يجب أن تتضمنها كتب الاطفال ، بالاضافة الى موضوعات أخرى عديدة .

١ ـ محتوى كتب الاعفال

يرى غوركي أن مسالة محتوى كتب الاطفال ترتبط ارتباطا وثيقا بالخط الذي يجب أن نتبعه في تربية الجيل الجديد تربية اجتماعية . والتربية الاجتماعية عنده تعني القيام بالعمل الثوري وبتحرير دماغ الطفل الحاضر من أساليب المحاكمة القديمة التي كان يلجا كان يحددها الصراع بين الطبقات . وبكلمة اخرى ان التربيـة الاجتماعية يجب أن تعمل متزلة ، طوال قرون عديدة ، يجب أن يحافظ عليها ، وانقاذه من الاعراف والتقاليد التي كان يحددها الصراع بين الطبقات . وبكلمة أخرى أن التربيـة الاجتماعية يجب أن تعمل على تحرير الطفل من النزعة الفردية ، ومن التركيز على الذات والدفاع عنها وحدهـا ، ومن توطيد الانانية والتعصب الشوفيني ، على اعتبار هذه النزعات كلها أشكالا «راسخة» في حياة المجتمع يحرم على الانسان التعرض لها .

ويلح غوركي على تنظيم تربية الاطفال تنظيما يساعد على انتزاعهم مـن التشبث الواعي ـ أو غير الواعي ـ بالماضي والتعلق بأذياله . حتى في العابهم ، يجب أن ينظروا الىالمستقبل وليس الى الماضي . الا أنه لا يحاول اقتلاعا جذريا مـن ماضي امتهم بـل نراه يؤكـد على ضرورة شرح أحداث الماضي لهم شرحا واضحا صادقا . ويبين أنه لكي يبلغ الانسان هذا الفرض لا يكفي أن يعرض عليهـم الوقائع والآراء والنظريات الغابرة عرضا جافا بـل لا بد من وصف تطور العمل وأثره في تحديد الوقائع والمفاهيم والآراء والنظريات . كما

ينبغي أن نفسر لهم ، بلغة معقولة ، ان حرية الفكر لا يمكن أن تنتعش الا على أساس الحرية التامة للعمل الانساني . هذه الحرية مستحيلة في ظروف المجتمع الراسمالي ممكنة في المجتمع الاشتراكي .

ويذكرنا غوركي أن تأثير الوقائع والعمليات الفكرية متعددة الاشكال ، ويمكن أن نرى هذا التأثير في الحياة اليومية الجارية وفي الميدان النظري . اما « الوقائع القائمة الراسخة الى الابد » فتلعب دورا محافظا وتجعل الفكر سجين « الامور البدهية » في أغلب الاحيان. لذلك فهل يمكن ان نكبح حركة عمليات المعرفة وتحد من حريتها ، وتخلق الجمود الذهني الذي لا يقوى على النقـد فيقبل بتلك الحقائق ويعتبرها قوانين راسخة ويؤمن بهـا ايمانا أعمى ...

ان ما يريده غوركي من التربية الاجتماعية شيئا غير ذلك . فماذا يريد ؟

٢ ــ ماذا يريد غوركي ؟

يرى غوركي أن أهم واجبات كتاب أدب الاطفال واكثرها جدية تنحصر في « تقديم كتب للطفل تبحث في أصل الملكية الخاصة وتوضح له كيف تصبح الملكية الخاصة عقبة رئيسية في درب التقدم الانساني » . ويرى أن الكتاب يستطيعون أن يقوموا بهذا الواجب خير قيام اذا استعانوا بسلسلة من المؤلفات التاريخية ، والرسائل السياسية النقدية الحازمة ، والكتابات الاجتماعية الهجائية الموجهة ضد رواسب الماضي ، واذا نشروها على نطاق واسع في أوساط الراشدين والاطفال .

ويعود غوركي ليذكرنا بما كان ينشر في روسيا قبل الثورة ، فيبين ان ثمة كتبا لا بأس بها كانت تطبع آنذاك الا ان معظمها كان يتطرق لوصف الغرب كما هي الحال بالنسبة لكتب (فودو فوزوفا) مثلا . لقد كانت تلك الكتب سطحية في نظر الناس جميعا لانها تصف الحياة من الخارج وتسبغ على كل شعب تتعرض له طابعا وحيدا لا يتغير . فتجعـل الفرنسيين روحانيين دائما والانكليز باردين ابدا والهولنديين عندهم الا جمال قبعاتهم . ونبحث عبثا عن اقل ظل لصراع الطبقات في تلك الكتب فلا نجد . ومع ذلك فقد كانت تثير فضول الصغار حـول أخلاق الغـرب وثقافتـه وتخلق عندهم الرغبـة في دراسـة اللغات الاجنبية .

لا يعني هذا ان اطفال الاتحاد السوفياتي ينبغي ألا يعرفوا شيئا عن العالم بل الامر على العكس تماما « ينبغي أن نحصل من افضل كتابنا ورسامينا على مؤلفات ومجموعات مصورة تبحث في امم العالم جميعا » . اما بالنسبة لشعوب الاتحاد السوفياتي فالافضل من يصفها هم علماء الاقوام والسلالات والعلماء الذين يقومون ببعثات داخلية عديدة تطوف أرجاء البلاد ، انه يدعوهم للكتابة عن عادات القوميات وتطورها ويحثهم على ترسيخ النزعة الانسانية الاممية عند صغار الاتحاد السوفياتي . وفي الوقت نفسه ينادي باختيار ممثلين عن الاقليات القومية من العلماء والطلاب والمعاهد ليسهموا في تاليف هذه الكتب الصغيرة، ويرى ان هذه الفكرة مهمة جدا .

ويحدد غوركي نقطة الانطلاق لادب الاطفال ونقطة الانطلاق هذه يعتبرها جديدة كل الجدة ، ويرى انها سوف تفتح آفاقا واسعة امام العمل في مضمار الادب ومضمار تبسيط العلم . ويعرفها على النحو التالي : « في المجتمعات الانسانية يثور نضال عنيف يزداد ضراوة يوما بعد يوم . ويهدف الى تحرير طاقات الجماهير الكادحة من ربقة الراسمالية والى تحويل القوة العضلية الى القوة العقلية الفكرية ، ويرمي الى السيطرة على قوى الطبيعة والى تحسين الصحة واطالة حياة العمال فوق سطح الارض كلها ، والعمل على توحيدهم ، على الصعيد العالمي ، في سبيل الازدهار الحر المتنوع غير المحدود لاستعدادهم ومواهبهم . هذه المبادىء هي بالضبط التي ينبغي ان تصبح قاعدة لكل الادب الطفولي ولكل كتاب موجه للطفولة بما في ذلك سن ما قبل المدرسة » .

ويذكرنا غوركي ان العلم والعمل قد تخطيا الحكايات الغريبة في كثير من الاحيان . لذا فان الحكايات « التي نقدمها للجيل الجديد ينبغي أن تعتمد على فرضيات العلم الحديثة » . فليس على الاولاد أن يتعلموا كيف يحسبون ويقيسون فقط بل عليهم أن يتعلموا كيف يحلمون وكيف يتنباون .

لا ننسى أن مخيلة الناس ، في فجر الحضارة الانسانية ، تنبأت بامكان طيران الانسان في الفضاء ، والتنفس تحت الماء ، ومضاعفة السرعة الى حدود كبيرة على سطح الارض ، وتحويل المواد ... الخ . كذلك في ايامنا هذه تستطيع النزوات الخفيفة والمخيلة أن تستند الى مقولات حقيقية يوفرها العلم نفسه وان تحاول أن تزيد من قدرة العقل الخلاقة الى درجة غير محدودة . فكم من مخترع لم يكن يعرف من (الميكانيك) الا القليل ومع ذلك استطاع أن يصمم مشروعات ماكنات واجهزة جديدة ! يكفي ان نعرف أن « مهمتنا تنحصر في وضع العلم في خدمة خيال الطفل وفي تعويد الصغار التفكير في المستقبل » لا في الماضي .

ينتقل بعد ذلك غوركي الى كتاب الاتحاد السوفياتي الذين اهتموا بادب الناشئة ، فيبين ان تجربتهم الدؤوب الناجحة في الكتابة حول آفاق البناء الجبار الموجه نحو الطفولة والشباب قد برهنت بصورة قاطعة ان « في وسعنا التحدث الى الصغار عن الامور الجدية بلغة جذابة ومقبولة وبعيدة عن الاسلوب التقريري التعليمي » ، ذلك أن الوضوح في الاسلوب لا ينجم عن فقر الصفات الادبية بل ربما كان ، على العكس من ذلك تماما ، ناجما عن قدرة رفيعة في التحكم باللغة ، المهم في الامر ان كل مؤلف يكرس نفسه للكتابة للصغار ينبغي أن ياخذ بعين الاعتبار أعمار قرائه . أما اذا لم يفعل ذلك فسوف يجازف بالسباحة في الفضاء مخلفا وراءه الصغار — وحتى الكبار — لانهم لن يكترثوا لابداعه .

يضيف غوركي الى جهود هؤلاء الكتاب المحترفين امرا في غاية الاهمية وهو ان يعرف أدب الاطفال ايضا استخدام الخبرة العملية الفنية التي اكتسبها اولئك الناس الذين يواجهون الحيـــاة فعلا في جميع الميادين . كالصيادين والبحارة والمهندسين والطيارين والفلكيين وعمال محطات الماكنات والجرارات وغيرهم ... فان الكتب التي يؤلفها ممثلو المهن المختلفة قادرة على منح الطفل فكرة واضحة عن أعمال البناء في البلاد وعن النضال في سبيل حياة افضل . كما انها قادرة على تعريف هذا الطفل بواقع بلاده .

٢ — حول الحكايات القديمة

يتحدث غوركي عن الحكايات القديمة وأثرها في مناسبات عديدة . انه مقتنع تمام الاقتنـــاع أن تلك الحكايات تحتوي على نواة تعليمية غنية بالدروس ، مشبعة بالمعنى . كما أن أهم ما فيها هو الجانب الخيالي كما يرى غوركي . يضاف الى ذلك ان تلك الحكايات ، بمـــا فيها من خيال ودروس ، قادرة على التأثير في اذهاننا اذ انها تدفعنا الى التفكير في المستقبل والى التنبؤ بما سوف يجري فيــه ، فلقد خلقت مخيلة القصصيين القدماء بساط الريح قبل أن توجد الطائرة بعصور سحيقة ، وتنبأت بمضاعفة السرعة على سطح الارض قبل ظهور القطار والمحركات الكهربائية والغازية .

ويكرر غوركي بانه مقتنع بان تذوق الانسان للنزوات الخفيفة وللخيال العلمي هو الـــذي خلق وطور عنده تلك القدرة المذهلة التي تعرف به « الحدس » أو « ما قبل العلم » والتي طالما تطوعت في مساعدة الباحث في الوقت الذي كان يقوم فيه بدراسة الطبيعة وباجراء

الحسابات والقياسات حين كان يتوقف عاجزا عن تنسيق نتائج ملاحظاته فجاة او عن استخلاص النتائج العملية التطبيقية منها . فالباحث حين يقوده حدسه يقول لنفسه في تلك اللحظة : « ماذا لو ان هذا الامر يفسر على النحو التالي ؟ » ثم يضيف الى سلسلة ملاحظاته الحلقة المحتملة التي تنقصه ويكوّن فرضية تهدف الى تاكيد الوقائع بالدراسة اللاحقة او تهدف الى الانتقال نحو خلق نظرية علمية او الى تكذيب ما توصل اليه بوساطة التجربة .

ان الميل الى النزوات الخفيفة الجديدة وروح الابداع والحدس تلعب دورا حاسما في خلق الاعمال الادبية ايضا : « اذ لا يكفي ان نلاحظ وان ندرس وان نعرف الواقع بل ينبغي علينا نحن الكتاب ايضا ان نتخيل وان نبدع » . ويلح غوركي على ان العمل الفني كل شامل عظيم يتالف من مجموعة من الامور التفصيلية لكنه يبدو كامل الشكل . وان المؤلفات الكبيرة في الآداب العالمية والنماذج الادبية العظيمة (من أمثال : روبنصن كروزو ، ودون كيشوت ، وهاملت، وويرذر ، والاخوة كارامازوف، واوبلوموف ، وبير بوزوخوف... وغيرها) ولدت كلها على هذه الشاكلة . وهي لا تزال حية بيننا على الرغم من انتمائها الى عهود ماضية .

ولا ينس غوركي « ألف ليلة وليلة » فهي عنده أعظم مؤلف للأدب الشعبي ظهر حتى الآن فحكاياتها تعبر تعبيرا شاعريا مذهلا عن تذوق الشعوب « للاحلام الساحرة العذبة » وتأثرها بالكلمة الحرة . كما ا « ألف ليلة وليلة » تترجم ، في الوقت ذاته ، مدى تذوق الشعوب الشرقية للعبارة الرفيعة الانيقة : العرب والفرس والهنود . لذا فهي « نسيج لفظي مرهف أتانا من الماضي السحيق لينشر تلك الحكايات على امتداد الكرة الارضية وكانها سجادة ذات جمال لا يصدق » .

وينتقل الى فكرة اخرى فيقول ان الناس يتعلمون معرفة الاشياء ليس برؤيتها فقط او لمسها ، بل بسماع ما يمكن عن موضوعها ايضا . لذا فهو يعتقد ان الحكايات القديمة شجعت تطور بعض المهن كصناعة الفخار ، وصهر الحديد ، والنسيج ، والاسلحة وغيرها . وليس من الصعب سرد أمثلة أخرى اذا استندنا الى الدور الثقافي الذي لعبته الاساطير القديمة « وان كان مؤرخو الحضارة والفن يندر أن يتحدثوا عن أثر هذا الدور القوي . وهم ان تحدثوا عنه ، مع ذلك ، فانهم يتحدثون بصورة غامضة ... » .

وحين يصل غوركي الى ميدان الاعمال الادبية ، بصورة خاصة ، يحس بتاثير « الفولكلور » القوي فيه . فالحكايات القديمة وموضوعاتها طوّرت ، منذ ، الازل ، واضيف اليها الكثير وحذف منها الكثير وعمل فيها الكتاب تعديلا وتنقيحا في شتى العهود وفي مختلف البلـــدان .

ان (ابوليه (١)) استقى أحداث روايته « الحمار الذهبي » من احدى الحكايات القديمة و (هيرودوت(٢)) أيضا كان ينهل من هذا النبع . وكذلك كتاب ايطاليا ابتداء من القرن الرابع عشر ، ومن بينهم ، بطبيعة الحال (بوكاسيو(٣)) في كتابه « الديكاميرون » . و « حكايات كانتربري » التي وضعها (شوسير(٤)) ، وقد استخدمت الحكايات الشعبية ايضا من قبل : غوتيه ، والسيدة جينليس ، وبلزاك ، وجورج صاند ، والفونس دوديه ، وكوبيه ، وبولاي ، وأناتول فرانس ، وكارمن سيلفا ، وآندرسن ، وتوبيليوس ، وديكنز ... وغيرهم . اما في الاتحاد السوفياتي ، فثمة سلسلة من الكتاب يحتلون المرتبة الاولى . منهم : هيمينيتسر ، جوكوفسكي ، بوشكين ، ليون تولستوي . وكلهم استوحوا من « الفولكلور » . وان الرابطة بين الادب و « الفولكلور » لا تدع مجالا للريب في أثر الحكايات الشعبية التعليمي ، سواء اذا نظرنا الى هذه الرابطة من حيث الشكل أو من حيث الموضوعات أو من حيث المحتوى التعليمي .

ويصرح غوركي هنا قائلا : « اما انا شخصيا فانني أعلن صراحة بان الحكايات القديمة ذات تاثيرا عظيما في نموي الفكري حين كانت تتاح لي الفرصة لسماعها من شفتي جدتي ومن

---

(١) آبوليه : كاتب لاتيني ولد في مادورا (مقاطعة قسطنطينية) حوالي (١٢٥ ـ ١٨٠)ب. مؤلف « الحمار الذهبي » .

(٢) هيرودوت : مؤرخ يوناني . ولد في هاليكارناس (حوالي ٤٨٤ ـ ٤٢٠ ق.م) . رحالة كبير . سرد في « حكاياته » جميع الاحداث والاساطير والخرافات التي تكشف معارضة المصريين والميديين والفرس للمدنية الاغريقية .

(٣) جيوفاني بوكاسيو : كاتب ايطالي . ولد في فلورنسا أو سيرتالدو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥). مؤلف « الديكاميرون » مجموعة قصص تصف حياة البورجوازية الفلورنسية المتعطشة للثقافة والمسرات . كان أول كاتب نثري ايطالي .

(٤) جوفري شوسير : شاعر انكليزي . ولد في لندن (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) . مؤلف « حكايات كانتربري » . ترجم « رواية الوردة » الفرنسية . قلد الشعراء الايطاليين . اسهم عمله الادبي في تدعيم القواعد واللغة الانكليزية .

قصاصينا القرويين . وقد تضاعف احترامي لهذه الحكايات الشفهية ايضا . عندمـــا عرفت ، والدهشة تسيطر علي ، انها كانت تطبع : حين بلغت سن الثانية عشرة وقعت على طبعة ريفية من (الحكايات الجديدة العربية) تعود الى القرن الثامن عشر ... وكنت أعتقد آنذاك ان كل ما كان يقال في الكتب صحيح » .

واخيرا يعلن غوركي انه قد اقتنع بان معرفة الحكايات القديمة ، تلك الكنوز التي لا تنضب من الفولكلور ، تلعب دورا كبيرا نافعا جدا بالنسبة للكتاب الناشئين المبتدئين ... « وقد لاحظ قبلي كثيرون أن معظم أدباء اليوم من الشبان حريصون على أن يكونوا اوفياء للواقع يريدون تصويره في نثرهم وفي شعرهم لكنهم لا يجدون الا كلمات باهتة باردة جافة جدا بينما يتطلب عصرنا حواس ومشاعر رفيعة في المزاج وفي السخرية . من العبث القول ان أي حكاية من الماضي لا يمكن ان تقدم لاحد الناس شيئا غريبا عنه . ومدرس الحساب لا يمكن ان يصبح الا شاعرا رديئا حسب رأيي . يمكن ان تنمي الحكايات الشعبية مخيلة هؤلاء الكتاب وأين تقودهم الى ادراك اهمية الابداع في الفن والى اغناء مفرداتهم ، بصورة خاصة ، تلك المفردات التي يحاولون ان يحسنوها تحسينا مضحكا دائما باستخدام كل نوع من انواع الالفاظ الريفية الخاصة بكل منطقة من مناطق البلاد ، وكل (الكلمات المحلية) والتعابير الميتة ـ الحية المركبة من كل القطع ... » . وقبل أن ينهي غوركي كلامه حول هذا الموضوع يتوجه « بالتحية الحارة للطبعة الاولى للترجمة المأخوذة عن النص العربي مباشرة لقصص « الف ليلة وليلة » التي اشرفت عليها الاكاديمية . فذلك عمل ثقافي قام به المترجم وهو ذو أهمية من الدرجة الاولى بالنسبة لدار النشر ومبادرة جليلة... (١) » .

٤ ـ احترام الاطفال

لم يكتف غوركي بتوجيه الكتاب الذين يكتبون للاطفال بل انه التفت الى الاطفال انفسهم يسالهم رايهم فيما يجب أن يكتب . ففي صيف عام ١٩٣٣ نشرت صحف الاتحاد السوفياتي كلها تقريبا رسالة وجهها مكسيم غوركي الى تلاميذ المدارس والرواد طلب فيها منهم أن يكتبوا اليه عما ينتظرونه من الدار الجديدة لنشر ادب الاطفال وعما يرغبون في قراءته وعن الكتب التي يفضلون الاطلاع عليها .

(١) من مقال كتبه غوركي في عام ١٩٢٩ .

فتدفقت الردود على الكاتب من مختلف اصقاع البلاد ، قاصيها ودانيها . آلاف الرسائل خربشها اطفال على أوراق انتزعوها من كراريسهم ووقعوها باسمائهم ، أو كتبوها بعناية فائقة بعد أن سودوها عدة مرات . وأرفق بعض الاطفال رسائلهم بحكايات الفوها أو أشعار نظموها او رسوم خططوها أو بصورهم الخاصة . وسجل بعضهم قائمـة بالافلام التي شاهدها . بل أن أحد الاولاد ، وعمره اثنا عشرة سنة ، ارفق برسالته مخططا لآخر اختراعاته وهو عبارة عن مولد كهربائي بسيط . وقد اهتم الكبار من الاطفال بتسجيل قوائم بالكتب التي قرؤوها وبآرائهم حولها او برغائبهم ، بكل حرية وصدق مثل :

ـ « احب الكتب التي تصف حياة الحيوان حبا جما . والفيلة تثير اهتمامي بصورة خاصة ... »

ـ « عزيزي مكسيم غوركي . احب أن اقرأ بصورة خاصة ، حكاية عن عمل صغير ، وقصة عن الحياة في المدينة ، وأشعارا عن الابطال ، وحكاية عن الذئب ... »

ان اولئك الذين يفهمون روح الطفل سوف يرون ، عند قراءة هذه الرسائل فورا ، انهـا تعكس ، الى حد غريب ، نفسية الصغار من القراء ، وسوف يجدون انه لا مكان في تلك الرسائل لظل ذلك النفاق الذي نشهده في رسائل الراشدين . بل سوف يجدون فيها صراحـة تساعدهم على حسن فهم جمهور الاطفـال القراء وأذواقهم واهتماماتهم على يجب الا تغيب عن أنظارنا .

كان متوسط أعمار الكبار من الاطفال الذين كتبوا الى غوركي خمسة عشر عاما بينما كان متوسط أعمار الصغار منهم ستة أعوام ، وكل رسالة من رسائلهم كانت تحمل شكوى من نقص الكتب ومن صعوبة الاستعارة من المكتبات بالاخص في فصل الصيـف .

وكل رسالة ايضا كانت تحمل طلبا لبعض الكتب شريطة ان تكون رخيصة الثمن لكيلايضطروا الى الابتعاد عن الكتاب ، او الى قراءة كتب الراشدين التي لا يفهمونها ، او الى القراءة الجماعية في كتاب واحد أو مجلة واحدة « اذ يقرأ واحد منا بصوت مرتفع وينصت لـه الآخرون وكانهم اخوة حقيقيون من آب واحد » .

تترجم العبارات التي استخدمها الاطفال في مكاتيبهم مـدى احترامهم وحبهم للكتـاب : « كتاب ممتاز » أو « كتاب رائع » أو « سوف نكون في غاية السعادة لو أننا حصلنا علـى

كتب صغيرة الحجم نستطيع قراءتها في يومين أو ثلاثة أيام على الاقل » أو « اننا نود ان نتلقى مجلة جميلة الشكل مصورة بالالوان » .

أما الكتب السيئة فتثير اشمئزازهم واحيانا غضبهم ، وهم لايغفرون لمؤلفيها أبدا لانهم « خدعوا الآمال التي وضعت فيهم » . لذا فان الاطفال يرون ان الكتب يجب ان تكون مسلية ومفيدة في آن واحد : « أحب الكتب جميعا باستثناء المملة منها » . والكتاب الهام فعلا يقرأ وتعاد قراءته عدة مرات من قبل القراء الصغار : « لقد قرأت هذا الكتاب بكثير من التمعن . واعدت قراءته ثانية ، ولست بنادم على ذلك » .

كذلك يتذكر الاولاد تذكرا تاما كل كتاب قرؤوه ، وهم قادرون على تلخيصه في أي وقت . ان افتتاح دار نشر للراشدين لم يثر أبدا مثل تلك الضجة التي أثارها افتتاح دار نشر للصغار ، لقد ظهرت آنذاك موجة عارمة من الاسئلة والآمال تجلت بعد رسالة غوركي ، وأعطت كتاب الاتحاد السوفياتي الحق في ان يفخروا بقرائهم الصغار .

أضف الى ذلك أن الاطفال كثيرا ما طرحوا أسئلة جدية رصينة مثل :

ـ ماهي أصل المعادن والنفط ؟ وكيف تكونت في باطن الارض ؟

ـ كيف يمكن ان يصبح الانسان كاتبا وبأي السبل ؟

ـ أنا أود قراءة كتب خاصة بالرحلات البعيدة ، وبعثات العلماء ، وكل أنواع الحيوانات في البلدان الاستوائية والبلدان الشمالية ؛ ومغامرات الصيادين في الغابات ، ونضال الاقوام البدائية في سبيل قوتها ، والنمور ، والطيور الجارحة المفعمة بالحيوية » .

ـ يهتم بعضنا بتاريخ الكواكب التي لم نتوصل الى فهم غرائبها ، وكتب الناشئين التي تبحث في هذا الموضوع نادرة الوجود ، أما آباؤنا فيتركون اسئلتنا دون أجوبة او انهم قد يكتفون ببعض العبارات المبهمة ، وكثيرون منا يهتمون بالبراكين وبالينابيع الحارة وبغيرها من الانفجارات التي تحدث في باطن الارض والتي نريد أن نرى لها تفسيرا في أدب الاطفال ، اننا نريد ان نعرف ، من جهة أخرى ، حياة أبناء العمال في البلدان الاجنبية . . .

« نعتقد أن من الواجب نشر هذه الرسائل على كل مؤلفي أدب الاطفال الذين يكتبون عن الحيوانات والبراكين والكواكب . . . مازال أطفالنا ينتظرون كتابهم . . . . كتابهم الفعلي

الموجه اليهم هم أنفسهم ، ونحن واثقون أنهم سوف يحصلون على هذا الكتاب ان عاجلا أو آجلا ... سوف يقرؤون الكتاب الذي يتحدث عن النمور كما يتصورونها لا كما نراها في بعض المجلات المصورة التي تبسط العلم ... سوف يحصلون على الكتاب الذي يفسر لهم تفسيرا معقولا ومقبولا « تاريخ الكواكب الرائع »

كذلك وجدنا ان بعض رسائل أولئك الاولاد كانت تتعرض لوقائع ترتبط بحياتهم الخاصة وتجربتهم اليومية . كما كانت تعكس ، في الوقت نفسه ، شواغلهم الرئيسية واحلامهم ومطامحهم ، فالمراهقون مثلا لم يكونوا يكتفون بالتحدث عن أنفسهم ، بل ان لهم آراءهم الخاصة حول التربية . وهم يسترجعون ذكريات طفولتهم . ويكتبون ، في بعض الاحيان، عن تجاربهم عسى أن يستفيد منها من هم أصغر سنا : « كنت أحلم بجنون في أن اصبح، ذات يوم ، من رجال البحر بيد ان أبوي كانا يريان في حلمي هذا ضربا من الحماقة . ففكرا في اعدادي لامر اخر . وبعد ان قرأت كتبكم ومقالاتكم في الصحف قررت الكتابة اليكم لانني أشعر بقدرتكم على فهمي مادمتم قد عانيتم مثلي ... » .

ليس هذا الفتى هو الوحيد الذي يتحدث عن شؤونه الخاصة بثقة وحرية في رسالة مطولة اجتزأنا منها هذا المقطع . وقد كتبت بنية في الثامنة من عمرها : « أرجو ان تتفضل وتقول لمفوض التربية اننا نحتاج الى معلمة موسيقى ، ففي المدرسة (بيانو) لكن ليس في المدرسة انسان يعلمنا » ، وكتب ثالث : « عزيزنا اليكي ماكسيموفيتش الكاتب السوفياتي وكاتب الاطفال ، انني رائد أدرس في المدرسة الثامنة والعشرين . وهذه الرسالة جواب عن رسالتك . عمري اثنتا عشرة سنة ، واحب الكتب حبا جما ، انني أعرف ماعانيت وانت صغير، اما أنا فاعيش بصورة اخرى افضل يامكسيم ماكسيموفيتش»، وطفلة صغيرة كان عمرها خمس سنوات وثلاثة أشهر كتبت بحروف كبيرة :

« عزيزي غوركي ! نحن نحبك لانك تحب الاطفال . اكتب لنا عن الغابة والحقول والمروج وحصاد الحنطة وبعض الاغنيات ايضا . انني احب غوركي لانه كان بائسا في طفولته ولانه أصبح ذكيا ... » .

٥ ــ الموضوعات التي يريدها الاطفال

ننتقل الآن الى الموضوعات التي اقترحها الاطفال على دار النشر الجديدة المختصة بادب الاطفال ، كان أهم موضوع اقترح قد حدد بكلمتين اثنتين : « كل شيء » :

« نريد قراءة كتب عن الماضي لكي نفهم الحاضر فهما أفضل ، وقراءة مؤلفات الكتاب المدرسيين التقليديين (الكلاسيكيين) ، وكتب تاريخ الحركة الثورية عندنا وفي الغرب ، وكتبا عن الحرب الاهلية ، وعن الجيش الاحمر وبناء الاشتراكية ، ومؤلفات علمية وفنية صناعية ، وكتبا عـن الرحـلات ، كما نريد مجلة مخصصـة لتنظيـم أوقات الراحـة للرواد ... » . وفي نهاية هذه الرسالة أضيفت عبارة « وكل شيء » وفي رسالة أخرى : « نتوسل اليكم ان ترسلوا الينا كتابا يحتوي المفردات والمفاهيم السياسية » . ورسالة ثالثة : « اود ان اتلقى كتابا يصف رحلات القطب الشمالي كلها » . ورسالة رابعـة : « ارغب في معرفة جغرافية العالم اجمع وكل الحيوانات وكل النباتات » . ورسالة خامسة: « احب ان اقرا كتابا يبحث في الحيوانات جميعها مع صورها » .

وهناك رسالة اشترك فيها عدد من الاولاد :

« اننا نتحرق شوقا الى معرفة كل شيء لكن المؤلفات الهامة نادرة مع الاسف الشديد ، اننا نريد ان نقرأ كتابا ضخما جدا مصورا عن حياة لينين وعمله وعن حياة قادة الجيش الاحمر وكبار رجال الثورة والمخترعين والرحالة والعلماء والكتاب (القدماء والمعاصرين) وعن الاسطول الحربي والاسطول الجوي والطبيعة وعن البلدان الاخرى . اننا الآن في مصح للمعالجة في القرم لكننا لانرى أي كتاب للاطفال في هذه المنطقة ... نريد ان نحصل على مجموعة مصورة (آلبوم) عن منجزات الاشتراكية في اتحاد الجمهوريات السوفياتيـة الاشتراكية ، يوجد عدد قليل جدا من الحكايات عن حياة الاطفال . كذلك نحن بحاجة الى دائرة معارف مبسطة تساعدنا على التعلم (التوقيع : اطفال مصح الجيش الاحمر فـي اوباتوريا) ... » .

هذهالرسالة ، مثل غيرها ، تبدأ وتنتهي بالاشارة الى رغبة موقعيها في معرفة كل شيء ، بيد أن هؤلاء الذين وقعوا هذه الرسالة الاخيرة عرفوا كيف يعبرون تعبيرا دقيقاعنمطامحهم التي لخصوها بعبارة علمية طويلة يستخدمها الراشدون هي « دائرة معارف مبسطة » ذلك أنهم لايملكون بين أيديهم معجما مبسطا شاملا على الرغم من أن هذا المعجم الضخم ، اذا كان مصورا ومفعما بالصور والخرائط ، سيكون ذا فائدة جلى للصغـار . ان مايطلبـه الصغار فعلا انما هو دائرة معارف مبسطة حقيقية قادرة على اعطائهم فكرة عامة مترابطة عن الكون .

يهتم الاطفال بالحيوانات . لذا نجدهم يبدؤون ، بصورة مبكرة ، بإقامة نوع من الارتباط بين الاسد والنمر ، وبين الفيل والبرنيق (فرس الماء) ، وبين الارنب الاهلي والارنب البري ، مستندين الى فكرة القوة عند هذه البهائم او الى دهائها او الى طريقتها في الغذاء . ثم تأتي ، بعد ذلك ، المعضلات الحقيقية : اصل المملكة الحيوانية ، وتطورها ، ومصير الحيوانات في المستقبل .

وعندما يفكر تلاميذ المدارس في الاتحاد السوفياتي ، في عهد غوركي ، بالرحلات التي جرت نحو القطب الشمالي مثلا فانهم لايكتفون بوصف بعثة وحيدة بل انهم يريدون معرفة «كل شيء » عن « كل بعثة » : كيف توقفت في الشتاء ؟ وكيف كان تجهيز البعثات في الماضي ؟ وكيف أصبح تجهيزها اليوم ؟ ولماذا فشل فلان ومات فلان ؟ واسباب كل فشل وكل نجاح في هذا الميدان ، ومختلف انواع الطرق التي اتبعها المبعوثون ووسائل النقل المستعملة . انهم يريدون أن يحسوا بانهم يشاركون في كل بعثة وفي كل غزو للقطب الشمالي لا انيكونوا مجرد مشاهدين .

اما مسالة الحركة الثورية فان التلاميذ الصغار يرغبون في معرفة « كل شيء » عنها ، وعن الثورات التي سبقتها ، وعن أسبابها الاجتماعية . انهم يريدون معرفة كل تاريخ الحزب البولشفي قبل ثورة تشرين الاول وبعدها ، وكل مؤتمراته ، وحياة لينين وعمله ، وغيره من الزعماء ، واسهام الاطفال في النضال السري في أيام القيصرية ، وفي الوقت الحاضر ، وفي الغرب أيضا .

وان اسلوب المراهقين في المحاكمة يبرز بروزا دقيقا بذلك الطابع العلمي الذي يطبع كل رسالة من رسائلهم . وهذا يتلاءم مع طابع العصر نفسه الذي نعيش فيه والذي يتصف بالبناء حيث يزداد وعي الانسان شيئا فشيئا بضرورة اعادة عمل « كل شيء » بوساطة يديه .

قد يقال لنا : ان الاطفال فضوليون جدا الى درجة الازعاج وانهم يطرحون على الراشدين آلاف الاسئلة . وهذا أمر صحيح . فقد قال أحد الشعراء الروس :

خمسة آلاف « أين ؟ »
سبعة آلاف « كيف ؟ »
مئة ألف « لماذا ؟ »

ليس فصول الاطفال جديداً . انه قديم قدم الانسانية . انهم يريدون أن يعرفوا ماذايتناول التمساح في فطوره ، ولماذا ينبت الريش على ذيل النعام ، ولماذا كان جلد الزرافة مبقعاً، لكن فضول الاطفال لايشبه فضول الفيل الصغير الذي وصفه لنا (كيبليغ) أو فضــول (ليوبوتشكا) في الحكايات الروسية التقليدية . ان اطفال اليوم لم يتنازلوا عن فضولهم ابداً . ان في عدد الاسئلة ، أو في الاسئلة غير المتوقعة منهم . لكن أسئلتهم أصبحت مختلفة ومن نوع آخر . بل ان طرح الاسئلة عندهم اصبح مغايراً :

ـ أريد أن أعرف نوع الطعم الذي يعضه كل نوع من انواع السمك وفي أي الفصول ؟ وكيف ظهرت الارض ؟ وكيف ظهر الانسان ؟ وكذلك كل شيء عن الكواكب ...

ـ أرغب في قراءة كتب عن استراليا وشعبها ، وعن جزر المحيط الاطلسي والمحيط الهادي؛ وعن الرحلات المقبلة الى القمر . وسأقرأ بمزيد من المتعة المجلات التي ستشرح كيف تصنع المحركات دون أن تكلف الانسان قرشاً واحداً ، وكيف تصنع أذرع الادوات الخاصة .

ـ انني مهتم بمسائل الطيران في المركبات الفلكية ، وتجهيزات السفن الفضائية ، والاجهزة التي سوف نحتاج اليها من أجل انجاز مثل هذه التحليقات . وأريد أن أعرف كذلك فيما اذا كان القمر مأهولاً بالسكان ، وشيئاً عن انجازات بناء الاشتراكية في بلادنا، ومن هو الذي يمكن أن يوصف بأنه عالم ؟ وكيف يؤهل الطلبون في الاتحاد السوفياتي ؟ ولماذا تدور الارض في الفضاء ؟ وماهو الكوكب وعلم الفلك بصورة عامة ؟ وكيف تطير الطائرات دون طيارين ؟ وكيف تصنع ؟ أريد أن أصل وحدي الى معرفة كل هذه الامور وفهمها . هذا هو كل شيء . انني أحييكم . هل نستطيع أن نتبادل الرسائل بعد هذا ؟ عنواني هو ...

ولكي نبين للقارىء ان الاسئلة ، التي وجهت الى غوركي والى دار النشر الجديدة لادب الاطفال ، كانت تتجاوز « مئة ألف » سنذكر سطوراً من رسالة بعث بها احد الرواد : «أريد أن أقرأ كل المجلدات التي تبحث في الكرة الارضية ، والرحلات ، والعمليـات العسكرية . وفضلاً عن ذلك فأنا أهتم بموضوعين اثنين : لقد صنعت مع صديق لي جهازاً لالتقاط المناظر . وقد صورنا بوساطته اربعة أفلام . وقد بدا لنا ذلك قليلاً . فنحـن لم نتمكن من الحصول على مؤلفات جيدة عن ثورة اكتوبر وعن البلدان الاخـرى ، أمـا الموضوع الاخر فهو : انني احلم ببناء طائرة قادرة على الانتقال في الفضاء بالاستعانـة

بمروحة . ويمكن أن تستخدم الشراع أيضا . ولقد صنعت النموذج ، من الورق المقوى ، الا انني لا اعرف كيف اعمل لادارة المروحة .... » .

وثمة كثير من الاسئلة تدور حول الكون وتختلط ، في رسائل هؤلاء الاولاد ، باسئلة اخرى فنية صناعية دقيقة وعملية مثل : أصل الارض وأساليب الصيد ، والرحلات الى القمر ، والحركات الانفجارية . ونجد فيها ، من الجهة الاولى ، رغبة في معرفة « كل » الجغرافيا ومن الجهة الثانية ، الالحاح على معرفة بناء مدرعة حربية من الورق المقوى !

هذه هي السمة البارزة عند « العلماء » الصغار الذين نراهم في معسكرات الرواد وفي المدارس . انهم يربطون اوسع المعضلات العلمية والسياسية بالمهمات اليومية العادية والتافهة . ان ملاح المستقبل ، الذي يحلم بالقيام برحلات في الفضاء ، يهوى جمع الكتيبات الصغيرة التي تبحث في صنع اللعب في البيت والتي تعالج تركيب بعض الاجهزة الكهربائية البسيطة . لكنه ، من جهة اخرى ، يتساءل عما اذا كان هناك رواد مثله في ايطاليا ، وعن « الماكنات التي هي قيد الصنع في البلاد » و « عن الوصايا التي يجب أن يخضع لها الرواد ! » .

ونلاحظ أن الرواد الصغار يهيئون انفسهم ، في السنوات الاخيرة ، لكي يصبحوا مهندسين. لذا نجدهم ينشغلون بالقضايا الفنية الصناعية ، بصورة خاصة لان رسائلهم تفيض بها حيث يتحدثون بحماسة بالغة عن المكتشفات القديمة والحديثة وعن كل أنواع الاجهزة الكهربائية والمذياع وعن النماذج التي صنعوها للمحركات والعنفات والمدرعات والسيارات. وهذا كله يساعد على التنبؤ بما سوف يصبح عليه هؤلاء الفتيان : انهم سيصبحون حتما جيولوجيين وفلكيين وعلماء حيوان وعلماء اقتصاد ومؤرخين وطيارين ومعلمين ورجال بحر ...

– انني متعطش لمعرفة الحيوان . لكنني اريد ان يوصف لي ليس من وجهة نظر الانسان أو الصياد . كيف يعيش الثعلب مثلا ؟ ولماذا كان ينبغي أن يكون ماكرا ؟

– انني احب الجيولوجيا كثيرا . وعندي مجموعة من المعادن حصلت عليها من ارخبيل (كولا) حيث استطعت ان احدد عشرين نوعا منها. انني افحص التراب الداخلي والخارجي. بعد أن قرأت (جول فيرن) تعلمت تذوق هذه الهواية .

ـ ان الحكايات القديمة والاغاني التي نتمكن من قراءتها في المكتبة العامة مختصرة جدا . حبذا لو كتبت كلها من جديد وجمعت ونشرت كاملة .

ان تنوع اهتمامات القراء الصغار لم يمنعهم من ابداء ميول واستعدادات تنبىء عن ظهور اختصاصيين مقبلين . ويأمل المسؤولون الا يصبحوا على شاكلة (باغانيل) و (بينيديكت) تحشى اذهانهم بالدراسة النظرية المحددة الفريدة من دون أن يتمكنوا من استخدام هذه الدراسة النظرية في حياتهم العملية .

٦ ـ الاولاد والرحلات

يردد الصغار كلمة « الرحلة » كثيرا في رسائلهم ويحلمون بالقيام ب « المغامرات » . فجميع الذين كتبوا الى دار النشر الجديدة ، من ابناء السادسة حتى السابعة عشرة ، يتحدثون في هذا الموضوع بنبرات متباينة جدا :

ـ اكتب لي كتابا عن الاسفار ، عن الناس في البلدان الاخرى ، عن الحيوان والطيور ...

ـ انني اقرا الصحف في كل يوم . واليكم المقالات التي تسعدني اكثر من غيرها التشيريوسكين في الطريق (١) . والكراسين في عرض المحيط (٢) ...

ـ هناك ثلاثة صبية ارسلوا لوائح بالرحالة المشهورين الذين يريدون معرفتهم : فاسكو دوغاما ، كريستوف كولومب ، ماجلان ، لابيروس ، بيهرنغ، ويجنييف، ميكوخو ـ ماكلاي بريغاليسكي ، نانسن ، سيدوف ، آرسينيف ...

وهناك من اقترح جعل ابطال القصص ، ليس من المكتشفين المتهنين ، بل من السياح أو الرواد الذين يحملون حقائبهم على ظهورهم ، ويطوفون جبال القفقاس ، او من العلماء الذين ادركهم الشتاء وحوصروا في أرض (فرانسوا جوزيف) ، أو من علماء الاقوامالذين يذهبون لدراسة مناطق نائية . بل كانت هناك رسالة تقترح نشر كتاب عن الرحالة (مكسيم غوركي) لانه قطع بلدانا شاسعة وعرف شعوبا كثيرة .

١ ـ بعثة عبور الطريق البحري في الشمال (١٩٢٣ ـ ١٩٢٤) .

٢ ـ محطمة الجليد (كراسين) التي اسهمت في انقاذ بعثة تشيريوسكين التي حاصرتها الثلوج .

يبين ذلك كله أن الاولاد لايرون ، في الحكاية التي تدور حول الرحلات ، وسيلة لتتبع المغامرات فقط ، سواء في البر او في البحر ، بل انهم يتعلمون منها الجغرافيا ، بالاضافة الى انهم يتسلون بها ، ويتوقعون المعارف والمعلومات القادرة على توسيع معارفهم التاريخية والعرقية والسياسية .

ينقسم هواة حكايات الرحلات عادة الى فئتين بارزتين : فئة تحب الطبيعة بصورة عامة : المروج ، واشجار الباميا والتوندرا والثلاجات والارصفة البحرية والبحيرات والصواعد والنوازل ، والينابيع الحارة والجرف الصخري . وفئة تهتم بمنطقة معينة فقط تقع في مكان معين ليس بالعالي او المنخفض ، من خط الشمال ، ليس على اليسار أو اليمين من درجة طول معينة ... انهم اختصاصيون نموذجيون يلحون على نشر صحف يستخدمها افراد البعثات مع خرائط يرسمها الباحثون انفسهم الذين زاروا تلك المناطق ، وهم يطالبون ، في أغلب الاحيان ، بمعلومات عن أعمال الدولة في الشرق الاقصى وعن مشروعات السنوات الخمس في القطب الشمالي .

لهذا فان المهمة الرئيسية لدار النشر لادب الاطفال تنحصر بالضبط في ارضاء رغائبهم . ولايكون ذلك الا عن طريق طبع سلسلة من الكتب الادبية والعلمية والاطالس التي تساعدهم على التعلم في أوقات الفراغ ، وربما عن طريق اخراج مجلة تعالج البعثات والرحلات بصورة خاصة .

٧ ــ بين اجهزة البث الحديثة جدا والتاريخ القديم

يشبه القراء الصغار المأخوذون بالفن الصناعي الحديث تمام الشبه اولئك الذين يحبون الجغرافيا على الاخص ، فهم مثل اولئك يعرفون كيف يلتقطون معنى أي كتاب خاص عندما يكونون بحاجة اليه وحتى معنى التعليمات المرافقة له والمتعلقة بكيفية تشغيل الاجهزة وحركتها ، ونحن حين نقرأ رسائلهم لا نتمكن ، في بعض الاحيان ، من ادراك اين تنتهي رغبتهم في تركيب منظومة من الاجراس واين يبدأ فضولهم الموجه نحو مبادىء الكهرباء :

ـ سنكون سعداء حين نتلقى كتبا تبحث في اجهزة البث الحديثة والمحركات الكهربائية ، وبصورة خاصة : الفن الكهربائي .

ـ انشروا كتابا عن اسهام الرواد الصغار في الصيد البحري وفي الملاحة النهرية والاساليب الفنية للصيد البحري .

ـ هل يوجد كتاب يبحث في المصادر الجديدة للطاقة وفي الفحم الاصفر والازرق ؟

ـ احب قراءة السيرة الذاتية للمخترعين الذين هم من اصل شعبي وللعلماء الذين درسوا تحليق الطيور .

ليس من المؤكد ان الرائد الصغير المتعطش للكهرباء سيصبح عالما في مستقبل ايامه او بحاثة او مخترعا ، لكننا مع ذلك نستطيع ان نتنبأ بان ميكانيكي المستقبل ومهندسيه يعرفون تمام المعرفة المبادىء العلمية النافعة في اسس مهنهم .

كما اننا لا نستطيع ان نتنبأ ايضا ، بصورة مسبقة ، بمهن الصبيان والبنات الذين يتحمسون اليوم ، عن طريق الكتب القديمة التي يقرؤونها أو الخرائط والمقولات التي يطلعون عليها والمتعلقة بالنبات والحيوان وعلم الاقوام والفلك ، الا اننا نستطيع ان نؤكد ، بكل ثقة ، بانهم يهتمون بهذه المواد ليس للتسلية وحدها بل لانهم يريدون أن يفهموا مصير الانسان وتطوره والقوانين التي تحرك ظواهر المملكة الحيوانية والنباتية و « الطبيعة التي يسيطر عليها الانسان » .

المهم في الامر ان هؤلاء الاطفال يبدون لنا راغبين وقادرين على البحث ودراسة الوقائع واختيارها . وفي المكتبات عدد قليل من الكتب التاريخية الموجهة للاطفال ، لكن الاولاد يتوصلون ، مع ذلك ، بحدسهم الى اكتشاف المعلومات التي يحتاجون اليها مبتدئين كما ابتدأ الانسان المغرق في القدم . انهم يطرحون أسئلة كثيرة عن الحروب القديمة وعن غزوات جنكيز خان ، والفاس المصنوعة من (السيليكس) التي كان يستخدمها الناس في العصر الحجري . ويشيرون ، في معظم الاوقات ، في رواياتهم ، الى الروايات التاريخية مبتدئين بـ (يوري ميلوسلافسكي(١)) واعمال (والترسكوت(٢)) ومنتهين باعمال (أليكسي تولستوي) و (ثريفورييف) .

---

(١) رواية تاريخية كتبها المؤلف الروسي (زاغوسكين) الذي عاش بين عام ١٧٨٩ـ١٨٥٢

(٢) كاتب ايكوسي (١٧٧١ ـ ١٨٣٢) . شاعر ـ تخصص بالرواية التاريخية .

... ان كل واحد منا يذكر صراع الميول في نفسه حين كان عمره بين الثانية عشرة والخامسة عشرة : طوابع البريد ، الاعشاب ، الفلك ، الصيد المائي ، اعمال النجارة ، تربية الحمام.... وهذا الصراع نفسه نجده في رسائل الصبية الصغار . ربما كانوا اكثر نشاطا ويقظة منا حين كنا في سنهم . انهم يندفعون ، هم ايضا ، نحو طوابع البريد ونحو الحمام ... لكن ينضاف اليوم الى كل هذه الهوايات شواغلهم وآراؤهم التي تتعدى اطار دنيا الاطفال . فالى الاطالس والنجوم والاعشاب والصيد تضاف لوائح وشعارات مثل : « مستعد للدفاع والعمل » ومثل « مكان نموذجي لتربية الارانب » او « المشتل الميتشوريني » او « الزحافة ذات الاشرعة » .

واذا كانت دار النشر لادب الطفولة في الاتحاد السوفياتي قد قررت وضع مخطط لمنشوراتها وفق الرغبات التي عبر عنها الاطفال في رسائلهم لغوركي . وهذا يعني ان هذا المخطط يجب ان يشمل ثبتا لكل مافي الكون . وهو يعني ، في واقع الامر ، ضرورة طبع مئات الالوف من الكتب كي نرد على « مئة الف لماذا ؟ »

ولحسن الحظ يمكن التغلب على هذه المعضلة العويصة والاكتفاء باشباع رغبات القراء الصغار المتعطشين للمعرفة بطريقة اخرى . ان قصة قصيرة جيدة تكتب في خمس صفحات او ست صفحات مطبوعة بصورة جيدة يمكن ان تشتمل على أوسع المفاهيم عن الانسان ، والاحداث ، والسياسة ، والفلسفة ، وحتى المسائل الفنية الصناعية . يمكن ان يتم ذلك بطريقة فنية جدا بحيث ان اي قارىء ، في الثانية عشرة من عمره ، لن يتردد أبدا آنذاك ، في نعتها بانها « رائعة » . لكن ... من اجل الوصول الى ذلك ، ينبغي على مؤلف هذه القصة القصيرة ان يضع فيها افكارا ومشاعر حية .

٨ ــ موضوعات كتب الاطفال والناشرون

وضع مكسيم غوركي قائمة طويلة تشمل الموضوعات التي يجب ان تتطرق اليها كتب الاطفال . وقد اعترف بان من الصعوبة جدا انجاز هذه الموضوعات كلها بين ليلة وضحاها ، لذا نصح بالبدء فورا بالعمل فيها . ويبدو ان كتاب ادب الاطفال في الاتحاد السوفياتي قد

ساروا على هدي غوركي فنفذوا وصيته وربما تجاوزوها ، واليكم اهم الموضوعات التي اقترحها غوركي(١) :

١ ــ **الارض** : المفاهيم الجيولوجية الكيميائية والجيولوجية الفيزيائية عن الكرة الارضة . تاريخ تكون هذه المفاهيم . المعادن . المناجم . التربية الخصبة . دور درجات الحرارة العليا التي استعان بها العلم لكي يحول اهم المعادن ، وعلى الاخص الحديد ، الى فولاذ ، ومزجها بمعادن اخرى من اجل زيادة مقاومتها . أهم النتائج العملية التطبيقية .

٢ ــ **الهواء** : كيميــاء الهواء ، اي تركيبه الكيميــائي وعلى الاخص : الاوكسيجين والهيدروجين . العمل الفيزيائي للتيارات الهوائية . تكون الحوامض والاملاح والعلويات . الاحتراق . انحلال المواد . الحركة على اعتبارهــا الشرط الجوهري للظواهر الكيميائية والفيزيائية كلهــا . محاولات الدولة في سبيل استخدام التيارات الهوائية .

٣ ــ **الماء** : آثاره الفيزيائية والكيميائية . سقوط الماء (حركته) . منبع الطاقة الكهربائية .

(ينبغي تطوير هذه الموضوعات الثلاثة لتساعد القراء الصغار على تكوين فكرة دقيقة وكافية عن العمليات المختلفة لتحول المادة وعن السيطرة المتدرجة على قوى الطبيعة العمياء بوساطة العلم) .

كذلك ينبغي علينا ان نطور الموضوعات التالية :

٤ ــ **النبات** : تاريخ تطوره واستخدامه من قبل الانسان .

٥ ــ **الحيوان** : تاريخ نمو الحياة العضوية بدءا من الخلية النباتية حتى الانسان .

٦ ــ **ظهور الناس على الارض : التفسير الميتولوجي** : نشوء الناس من الماء او من الغابات او من البهائم التي خرجت هي نفسها عن قوى الطبيعة

(١) يمكن الرجوع الى كتاب « هؤلاء الذين يكتبون للاطفال » ــ الطبعة الفرنسية ــ دار النشر في اللغات الاجنبية ــ موسكو (ص ٢٧ ــ ٤٣) .

بصورة عامة ... **التفسير الديني** : الناس خَلْقُ الله . نظرية التطور العضوي ...

٧ ــ **كيف تعلم الناس التفكير ؟**: نظرية تكون الخلية العصبية . حساسية البشرة ونمو الحواس الخمس . دور التماثل والاختلاف في ظواهر الطبيعة وتحوّل الاشياء . الاحساسات الملائمة والاحساسات المنفرة . غريزة المحافظة على الذات . تبلّد المفاهيم انطلاقا من ملاحظة ضروب التماثل والاختلاف. دور النور والظلام في البحث عن الغذاء؛ تقليد الاصوات على اعتبارها احد الحوافز المكنة للكلام . الصرير والهدير والرعد والعواء والحفيف والهمس ... الخ .

٨ ــ **كيف سيطر الناس على النار ؟** : الشرارة التي تنشأ عن طرق الحجارة بعضها ببعض ، وعند تشذيبها . اللهب الذي ينشأ من احتكاك الخشب اليابس : (عندما يفرك الخشب مدة طويلة يبدأ في التعرق ثم يشرع في اطلاق الدخان ، ثم يغضب ويشتعل . ويمكن هنا ربط الكلمات ذات الجرس الموسيقي بالحركة ...) . البرق . اسطورة بروميثيوس والنار .

٩ ــ **كيف تعلم الناس تخفيف اعباء عملهم وحياتهم ؟** : اختراع ادوات العمل البدائية واستعمالها . اعشاش العصافير يمكن ان تؤخذ على انها النماذج الاولى : ضفر الاغصان . مناقير الطيور وهي تحكم ربط اعشاشها يمكن ان توحي بفكرة المخرز والابرة . قشرة البيضة وقشرة الجوزة يمكن ان توحيا بفكرة القارب . خيوط العنكبوت يمكن ان توحي بالنسيج . وملاحظة اسلوب حياة الخلد وجرذان الحقول والعصافير لاقطة الحبوب يمكن ان توحي بفكرة استخدام الحنطة .

١٠ ــ **مدى تمثل الانسان للحديد والمعادن الاخرى** : الحلو . الحامض . المالح . فاقد الطعم . الفلوكوز . الحوامض . الموالح . القلويات . دورها في الجهاز العضوي الانساني . اهميتها في الصناعة ... الخ .

١١ ـ روائع العمل العلمي : بالاخص في ميدان الكيمياء . صنع الزجاج: المادة المعتمة تصبح شفافة كالهواء . الزجاج الملوّن والصلب ... الخ . وينبغي وصف تحوّل البطاطا الى مطاط . وسلسلة كبيرة من التحولات الاخرى القادرة ، بصورة خاصة ، على سحر المخيلة وتوسيع الفكرة .

١٢ ـ الفكر والممارسة : التحامهما. تناقضاتهما. حلّ هذه التناقضات من خلال التجربة التي تكتسب عن طريق العمل .

١٣ ـ الفن الصناعي والمستقبل : استخدام الطاقة الشمسية . الطاقة الاشعاعية . طاقة الرياح . الطاقة الناتجة عن الفروق في الحرارة ... وغير ذلك .

١٤ ـ لماذا وكيف اخترع الناس الحكايات ؟ : تنطلق كل حكاية خفيفة من الواقع عادة . والواقع يحدد الرغبة : فالبهائم اقوى من الناس فما على الناس الا ان يصبحوا اقوى من البهائم . والحيوانات المفترسة عاجزة عن التقاط العصافير الطائرة . وهذا سبب حلم الانسان بالسرعة : احذية الفراسخ السبعة والبساط الطائر ... الخ . وحكاية الانسان البدائي الخفيفة كانت تعبيراً عن مطامحه وعما يعتقده ممكناً بالنسبة اليه . الهياكل العظمية للزواحف الطائرة ، وآكلات النمل الطائرة هي النماذج الصريحة للفرضيات العلمية كلها .

١٥ ـ الدين والهدف الخلقي : كيف وجدت الديانات ؟ الآلة الاسطورية عند الكهنة القدماء كانت نسخاً لنموذج « الآلهة ـ العمال » : فولكان ، تور ، بالدير ، وينامواننر ، آبولون ، ياربلا . الملائكة والطيور . حياة القديسين المستمدة من الاساطير والخرافات الشعبية . الكهنة خالقو الآله والشعب الملحد . ادلة على النضال ضد الآلهة تعود الى ازمنة سحيقة جدا : بروميثيوس ، كاليفي بطل « كاليفي بواغ » الملحمة الاستونية ، « لوكي » عدو الآلهة وغيرهم ممن تصفهم الكنيسة بالشياطين . النزعة المادية وريبية الوثنيين . التصوف في الكنيسة المسيحية وقسوته . محاكم التفتيش والنضال المتواصل ضد الهراطقة ، وبالمقابل وجود

الخرافات ، وصورة الشيطان على ابراج « نوتردام » باريس ، ومؤخرات الناس تمثل قطارات على سطوح كاتدرائية فرينبورغ (شوارز وولد) وغيرها . اساطير وحكايات مناهضة لرجال الدين . ماذا اعطى الدين الناس اذن ؟

١٦ ـ **كيف اصبح الناس عمالقة بفضل العلم ؟** : المنظار والتلفاز قوّيا حاسة النظر بينما زاد المجهر من قوتها في الاعماق . المذياع والهاتف عزّز حاسة السمع ... وان الوسائل الحديثة للنقل في الارض والماء والفضاء هي ساقان لهذا العملاق . اما وسائل الاتصال البعيد فهي يداه الضخمتان .

١٧ ـ **تاريخ المحركات (من الماكنة البخارية حتى محرك ديزل)** : هل يمكن استخدام الفراغ ؟ اهمية الفراغ بالنسبة للفن الصناعي الحديث . الاثقال والمقاييس . اهمية القياس الدقيق للفضاء وللزمن وللاجسام . نتائج الخطا : حوادث في السكك الحديدية ، والبحث عن قطع تبديل مماثلة تماما ، تسمم اثر تناول معيار غير دقيق من العلاج ... الخ .

١٨ ـ **طبيعتان** : يقسم البحث في هذا الموضوع الى ثلاثة اقسام :

ـ القسم الاول : سيطرة الطبيعة على الانسان . اعداء الانسان : الرياح، العاصفة ، المستنقعات ، البرد ، الحرارة ، السيول الجارفة، الصحارى، الحيوانات المفترسة ، النباتات الضارة ... الخ ...

ـ القسم الثاني : صراع الانسان ضد خصومة الطبيعة القاسية في سبيل خلق طبيعة جديدة اليفة . خضوعه لقدرة رياضها ومائها وكهربائها . المستنقعات تمنح الانسان الحديث المواد الضرورية التي يستخدمها وقودا وبذورا . الحيوانات والنباتات المؤهلة لخدمة الانسان ... الخ .

ـ القسم الثالث : سيطرة الانسان على الطبيعة : العمل المنظم والمخطط في المجتمع الاشتراكي . انتصار الكائنات الحية على العناصر والامراض والموت .

الخاتمـة :

ان ادب الاطفال ، في الاتحاد السوفياتي ، مرتبط بالخط العام للتربية والادب في البلاد . وان لغوركي الفضل العظيم في توجيه كتاب الاطفال نحو الموضوعات التي يهتم بها الناشئون. وما أسعد الناشئين حين يلقون مثل هذه الرعاية !

ونحب ان نختم هذا البحث بكلمة قصيرة معبرة قالها الكاتب الكبير (رومان رولان) ، في عام ١٩٣٥ ، حين زار الاتحاد السوفياتي . ففي جلسة في بيت غوركي صرح رولان للشاعرة (بارتو) قائلا : « انها لسعادة حقيقية ان تكتبي للاطفال السوفياتيين . فانا لا اعرف اطفالا اسعد حالا منهم على وجه الارض . انهم سيكونون أسياد المستقبل الذي نكافح اليوم باسمه ...! » .

انطوان دي سانت اكزوبيري
الطيار والشاعر والصحراء

الناقد البلغاري ايفريم كارنفيلوف

ترجمة ميخائيل عيد

« أخاف اليوم مزيدات النطئة أكثر مما أخاف مزيلات الحميا »

توماس مان

كان القصص الجميلة القديمة قد فنيت منذ زمن بعيد مع أسرار النجوم ، ومع صمت الاماسي الشتائية المتجمدة ، ومع شرارات المواقد ، ومع ظلام الغابات القديمة . وكان شاشات السينما ، وصوت الكرفونات المدني ، ولمعان الشموس الكهربائية ، قد طردت منذ زمن بعيد الى أعماق الغابات الايائل ذات القرون الذهبية ، والحوريات الاثيريات والاقزام الذين يعيشون تحت أوراق الورود الموبرة ، ويتفقون باريجها . وبسط الريح لقبع وقد أكلها العت على أرض جوامع بغداد المرمرية الباردة مصغية بخوف الى زئير الطائرات النفاثة .

منذ زمن بعيد وابطال الحكايات العظماء : القط ذو الجزمة ، وفرخ البط القبيح ، والقبعة الصغيرة الحمراء ، والخياط الشجاع ، وموك الصغير والعديدون سواهم يجلسون سجناء مجموعتهم دون ان يسمحوا لاحدهم بالمغادرة حتى لو كان ملك أوسكار وايلد الصغير .

منذ زمن بعيد واعداء الحكايات المسلحون بمسدسات الكاوبوي وبرشيشاتهم الفانفسترية،

ووراء اردية التنكر المصنوعة من القطيفة ، يكمنون لابطال الحكايات وعيونهم على شعيرات التسديد .

ومنذ زمن بعيد والاذكياء الواقعيون محبو العمل ، المنصرفون الى الاعمال الجادة لا يحبون ان يتعلم اطفالهم تخيل الاقزام والعمالقة ، وان يرغموهم على الايمان بأن الحيوانات تستطيع ان تتكلم وان الازهار ترقص ، ولا يراودهم الشك في ان مثل هذه التخيلات التافهة قد عصف بها ايقاع العصر ، وان الاطفال المعاصرين منذ تعلمهم المشي يعرفون قواعد لعبة كرة القدم ولا يؤمنون بالسحرة .

ونجد علماء وادباء يؤكدون ان زمن الحكايات قد مضى الى غير رجعة وان الانسان الآلي والحاسبات الآلية قد قتلت الخيال الانساني ، وان الاحساس المعاصر لا يسمح بالتلطيفات العاطفية ، وانه في قرن الطائرات ونظرية النسبية من المضحك الكلام حول السندريلات وافراخ البط القبيحة والاميرات اللواتي يتحولن الى ضفادع .

وها هو ذا ، على غير انتظار ، يظهر عالم رياضيات وطيار وفيزيائي ، ورياضي ، مقاتل وضابط ، وهو ليس بالشاب بل هو رجل ناضج ، وفي أوج الحرب العالمية الثانية وسط دوي المدافع وهدير الدبابات يقدم عملا ابداعيا جويا ، عملا لطيفا اثيريا يريد به حماية عالم الحكايات القديم ، عالم الخيال والاحلام ، عالم المودة والانسانية .

من النادر ولادة حكاية شاعرية في وسط كهذا الوسط . ومن النادر وجود عمل ابداعي كهذا العمل المنسوج من المشاعر الدقيقة والطافح باريج الورد وببريق الامسيات، ويسبح هكذا، على غير انتظار ، عبر دخان البارود . فوراء انطلاق الطائرة ثمة مقاتل في سبيل حرية فرنسا يقدم صورة للامير الصغير . ويجب ان يحمي هذا الطفل مبشريه من الناس ذوي الاحاسيس المحصورة والخيال الميت . ان الناس الآليين اولئك الذين يريدون ان يستبدلوا طفولة الانسان بفطرية متوحشة ، وتلونات البريق القمري بافاع باردة الدماء تدب في صحارى انعدام المشاعر الانسانية ، غير مؤهلين لسماع الخرير الحي في الجدول .

وعلى الرغم من ان دفاع الطفل ذي الشعر الاشقر اشبه باشواك وردته الساذجة المتوفرة ضد الاغنام النهمة ، فان الامير قد وجد . والافعى لا تقوى على قتله . وترنو الينا وعيناه المنيرتان من كل نجمة نائية .

كتب انطوان دي سان كزوبيري في رسالته الى الجنرال « اكس » (« فيغارو ليتراتير » ٤/١٠ سنة ١٩٤٨) مـا يلي : « انا حزين من اجـل جيلي المحروم من كـل جوهر انساني نحن اكثر جفافا من الآجر . كل غنائية تبدو مضحكة والناس يرفضون ان يستيقظوا على أي حياة روحية . اكره عصري بكل قواي . يموت الانسان فيه ظما . اواه أيها الجنرال ، ثمة قضية واحدة،القضية الوحيدة في العالم،ان نعيد الى الناس القيم الروحية والقلق الروحي.فلنعمل كي يهطل عليهم ما يشابه اغنية غريغوريانية.ما عاد بالامكان العيش في البرادات وفي السياسة والحسابات والكلمات المتقاطعة..اترون..تجري الحياة دون شعر دون زهر ودون حب ... » .

في هذه الرسالة سانت اكزوبيري بكامله : ابداعه وحياته . هنا يتكشف كنز كيانه والرسالة التي يسعى لتحقيقها : « نحن اكثر جفافا من الآجر .. ما عاد بالامكان العيش في برادات ». ان قطع الثلج التي في عيون الناس والتي كتب عنها اندرسن ، ذات مرة ، بمثل ذلك الاسى قد تكاثرت وكبرت وتسللت الى القلوب . ان مناخ اوروبا الغربية واميركا يتغير تدريجيا باستمرار . وكان العالم الذي يعيش فيه الشاعر قد تحول الى براد فاخر جميل ومريح . وعلى الرغم من التجهيزات المناخية ، وعلى الرغم من محطات التدفئة والمراكز الكهربائيـة الضخمة فان جليد الشمال يجمد الارواح .

فبعد ان يترك الشاعر طفولته ويدخل عالم الكبار ، يحس بشعور من الهول . ان هؤلاء الكبار قد نسوا تماما والى الابد ، انهم كانوا في زمن ما اطفالا ولا يستطيعون التفريق بين افعى البوا التي ابتلعت فيلا وبين قبعة عادية ، ولا بين رائحة الوردة ورائحة البنزين .

ان صقيع الشمال لا ياتي مع رياح الشمال ، مع الثلوج والضباب ، مع الزحافات والايائل، كما في حكايات اندرسن ، ولا هو يسقط من السماء الرمادية على شكل زغب كما في حكايات الاخوين غريم . انه على العكس من ذلك صقيع بارد ، جاف دون رياح يجمد جوا ساكنا لا ريح فيه . يصل الكريستال الجليدي الى قلوب هؤلاء الحديثين (المودرن) المحيطين بالشاعر ، من صناعيين وتجار ورياضيين ، والذين تمتلىء عروقهم بدلا من الدم القوي المتقد بدم تحول الى ماء خامل وغير قادر على تحريك أي جناح . وعلى الرغم من تطور التقنية والعلوم الدقيقة ، وعلى الرغم من اجنحة الطائرات فان التزمت الروحي والانحطاط يستمران في النمو . ان ضيق افق غير مجنح ، ملحاح يتجذر في التقنية الحديثة ويتفتح كفطر ضخم في هذا البراد الفاخر .

ان الزمن الذي عاش فيه سان اكزوبيري هو زمن الفهاهرة (جمع فوهرر) والزعماء . لقد تدرعوا بدروع شائكة من الدوغمات واعتقدوا أنهم قد ضمنوا الخلود . أن عصبة الطاعون الرمادي تستطيع العيش في جو ضيق الافق الروحي . ومن المحارق التي حرقت فيها كتب توماس مان وستيفان زفايغ ، .من المحرقات ، حيث حرقت أجساد الالوف مـن المعادين للفاشية او من « أسماك الكراكي » الضاربة في السماء و « النمور » الشرسة على الارض كان ايضا ينتشر الصقيع الجمد .

وظهر جليد انعدام الاحساس في الادب وفي الفن . لقد اندفع النباتيون العاطفيون الى هنا وأسسوا مدارسهم التي جهدوا بوساطتها فلسفيا ليموضعوا خورهم الابداعي ، فالتلقائية الطفلية وظزاجة الاحاسيس حاولوا استبدالهما بالبدائية المتوحشة . وبالمذهب العقلي وانفصالهم عن الحياة ومسائلها ، فيالجفافهم من عامل ذاتي ! ولهذا فان « كل غنائية تبدو مضحكة » . والمشاعر والانفعالات الانسانية اظهرت كانها هرمت وصارت من حاجيات متحف زمن الرومانتيين والرمزيين . كل ما يرتبط بالعواطف يجب أن يكون موضع ريبة : اللحـن في الموسيقا والتفرد الانساني في الرسم والشخصية الانسانية في الادب . ولم يكن هذا ثباتا كلاسيكيا بل كان وهنا . ولم يكن هذا رجعية ضد التدفقات العاطفية والفيوض الرومانتية بل كان صحراء قاحلة . فمن خلال التقصيات الحديثة اللامتناهية عن الجديد يلمع خوف سافل من الحياة وعجز عن اعادة خلقها .

ان الصقيع الروحي مرتبط بالشكلانية في الفن ، وهو ضد الانسانية في الحيـاة . وليس بمقدور الدم البارد أن يلد اغنية أو مأثرة . ان النسغ الجليدية عن المدارس الشكلانية موجهة ، قبل كل شيء ، نحو جسد المشاعر الانسانية الحي النابض وغير المحمي .

في جو جليدي كهذا الجو يتحتم على عاشق الشمس الشاعر ان يعيش . وعلى الرغم من انه استطاع ان يرى ، عن قرب ، الحرب الاهلية الاسبانية فانه لم يستطع فهم الاسباب الحقيقية ، والمنشأ الاجتماعي لهذا التحول في مناخ أوروبا الروحي . ولهذا السبب يصرخ بهذه المرارة : « أكره عصري » .

لقد انخرط سان اكزوبيري في الكفاح ضد الهتلرية ، ولكنه لم يكتشف موقدها الحقيقي . لم يكتشف الشاعر في وحدات فيشان ، تحت الراية الاميركية ذات النجوم ومن ثم آخر الامر تحت قيادة الجنرال ديغول ، المنابع الحقيقيـة للبطولة الملهمة ، كما لم يستطع قبل ذلك

ان يكتشف المنابع الحقيقية للغنائية الملهمة (انظر : موت سان اكزوبيري تاليف جيل روي – ١٩٦٧/٧/١٨) .

لقد احب الشاعر الصحراء دائما . فقد استطلها منذ شبابه الباكر حين طار فوق كثبان رمال الصحراء الغربية ، اذ كان مضطرا الى أن يقضي أياما طوالا وسط الصمت الشاعري لكثبان الرمال . ولكنه كان يعرف دائما انه في مكان ما وراء الافق في زاوية مريحة ثمة جدول . وان هذا الجدول هو الاجمل . ومياهه هي الاكثر عذوبة وبرودة ، لانها تنبع من الصحراء بالذات ، ولان الايمان به يجعل الروح الانسانية تبترد وتصلب عضلاتها . وتكون الصحراء ميتة وباردة من دون هذا الجدول على الرغم من اشعة الشمس الملتهبة . وقد بحث الشاعر باستمرار عن مثل هذا الجدول خلال حياته القصيرة .

لقد اوجد بكتبه وبموته امثال هذه الجداول في صحراء روح العالم البرجوازي .. ومن بين هذه الكتب حكاية (الامير الصغير) الصغيرة التي قد تكون أكثرها رومانتية وأعذبها . ومن هنا ستتبثق جداول الشعر والبطولة والمشاعر السامية .

حين يتكلمون عن سان اكزوبيري يتوقف دارسو ابداعه مسبقا عند آرائه الفلسفية ، ويحاولون تنسيبه الى احدى المدارس . وهذا غير صحيح . اكزوبيري ليس فيلسوفا او بالاحرى ليس فيلسوفا بالمعنى الكلاسيكي للكلمة . فهو لم يكتشف أي نسق جديد ، ولم يقل شيئا جديدا في الفكر الانساني ، ولم يسع الى الانتساب الى اي نسق فلسفي او اي مدرسة ادبية . لقد تكلم حول امور قديمة معروفة منذ زمن بعيد كالواجب والبطولة والشرف والمسؤولية والصداقة والتضحية بالذات ، والحلم والمودة ، ولكنه تكلم حولها بقلبه كشاعر ، ولهذا صارت تلمع بطلاء التجديد الذهبي . وهنا يكمن سحر فنه .

قلة ضئيلة جدا هي التي قالت شيئا جديدا للانسانية في مجال الفلسفة بعد تطورها عبر آلاف السنين . ولهذا فان « التجديد » يكون ، أغلب الاحيان ، اما في التمايز أو في التكرار الوصفي والشرح الممل للحقائق القديمة . ولكن الشعراء الحقيقيين يستطيعون أن يحسوا هذه الامور القديمة بطريقة جديدة ، وان يملأوها بالمعاصرة ويجعلوا منها حقيقتهم ، وينفحوها بالقوة والجمال ، ويجعلوننا ننفعل كأننا نلتقي معها للمرة الاولى . كثيرون جدا

هم الشعراء الذين كتبوا حول الليل والقمر ، لكنهم قلة اولئك الذين ملأوا الليل ببريق قمري جديد .

وسان اكزوبيري ككبار الكتاب الفرنسيين القدامى فيلسوف من نمط آخر ، ليس بمبدع لنسق يسعى كي يسمر مسلماته حول الحقائق الحياتية في اطاره ، وعلى الرغم من كون العظام مكسرة ، فان الشاعر الحر الذي يراقب العالم باسما او متنهدا ، يلتقط الالوان المتفرقة ، وينقلها على قماشته حيث تلتمع بعلاقات جديدة ، وبالتماعات جديدة لجمال جديـد .

لا شيء جافا ، لا شيء دوغمائيا في ابداع هذا الطيار ، حيث الروح تسيل حرة ثم تعلو كطائرته دون ان تسبق العواصف . فبعد « أرض البشر » صار من العسير ان يظل ابداعه مطابقا لأطر المعرفة الادبية . « فالطيار الحربي » و « الرهينة » و « القلعة » ليست روايات وليست ابحاثا فلسفية ولا ذكريات . انها ، على وجه السرعة ، مقالات حرة ، مقاطع غنائية ، بنى فيها الشاعر اشكالا ، وانتقل من موضوع الى موضوع ، من ذكرى الى حلم ، ومن مساهمة الى مساهمة .

بعض « العلماء » الفلاسفة تغيظهم كتاباته والتناقض فيها ، كما تغيظهم جسارة الافكار ، وعدم دقة الشكلانيات ، وحرية الشخوص ، والتدفق الشعري . ولكن ، ألم تكن هكذا حال روسو ولابربوير وباسكال ومونتين ؟ فكلهم فلاسفة ولكنهم قبل كل شيء ، شعراء وحالمون . يحبون مقارنة سان اكزوبيري بباسكال . وفعلا ثمة للوهلة الاولى شيء مشترك بينهما . فالاثنان كانا من علماء الرياضيات وفيزيائيين . والاثنان احبا المحيط الجوي والكواكب ، واثار رهبتهما مدى النجوم الصامت ، والاثنان احبا التفكير ومعاناة افكارهما ولكن روح باسكال ، عالم الرياضيات ، كان اكثر انضباطا واعمق . لقد استطاع ان يطير نحو النجوم ، ولكنه استطاع ايضا ان يحوم فـوق المهاوي . اما سان اكزوبيري فهـو اكثر تناقضا ، وتتعرج طريقه احيانا نحو التصوف ، ولكنه اقرب الى اناس زمنه ، والى آلامهم وأفراحهم . لم يكن يوما ناسكا . وسوداؤه مثل سوداء مينتينوف سوداء مرحـة . لم ينس الشاعر بتاتا ان الارض للبشر . وكما لدى الشعراء الفرنسيين القدماء يتحد لديه انسان القضية بالحالم ، والجندي والتربادور ، والفيلسوف والثائر . وهـذا احد اسس اخلاقه وفلسفته في الحياة . « ماذا ساكون اذا لم اكن مشاركا في القضية العامة ؟ ولكي افهم كنه كياني فانا ملزم بالمشاركة . » .

ولقد ساهم ببهجة وتفاؤل في الكثير من الامور ذات المغزى التي حدثت حوله وفي عصره : في الحرب في اسبانيا ، وفي الطيران فوق اراض مجهولة ، فوق الصحارى وفوق الذرى الثلجية المقفرة وفي طيرانات مجازفات ليلية وفي محاولات ضرب ارقام قياسية كطيرانه من اميركا الشمالية الى ارض النار ، وفي الحرب ضد الهتلرية حتى النفس الاخير . ولقد هتف الشاعر : « في بروفانس حين تحترق الغابة ، ياخذ دلوا كل من ليس وغدا » .

ولهذا السبب تتكرر عنده عدة افكار اساسية حتى يظن ان كل كتاب جديد له يكرر الافكار الرئيسية لسابقيه ولقد عيروه بذلك . فقد قال بيير شيفريه : « كتب كتابا واحدا طوال حياته » . وعيروه بانه عالج المسائل الفلسفية التي حسمت منذ زمن بعيد (انظر « انسانية سان اكزوبيري » لاندريه ساشت) ، وانه يقف خارج التطور الراهن للفلسفة .

ان الدوافع الاساسية للبطولة والواجب تتكرر فعلا من « بريد الجنوب » و « الطيران الليلي » وحتى « الامير الصغير » و « القلعة » . ولكنها متجسدة ومتكونة بمهارة فنية وباسلوب متنوع . وهذا يشير ، من ناحية اخرى ، الى ان هذه الاعمال صارت في اعماق كيان الشاعر . وهي تتكرر في حياته . فكلما امسك القلم ظهرت له في اشكال مختلفة . وكلما امسك مقود الطائرة ظهرت له باشكال مختلفة . انه احد فرسان الواجب ، انه دون كيشوت القرن العشرين الذي هلك في سبيل مثله العليا بعد ان عاش وقاتل في سبيلها . انه حالم معاصر يمتطي طائرة بدلا من الروسينانت المخيف وينطلق كالسهم نحو النجوم .

ولهذا فان افكاره تسبح في دمه ، وتنبثق منه لامعة لمعان نجوم اكتشفت حديثا . لم يقل افكارا جديدة ، ولكنه جعل القديمة تتوهج بطريقة جديدة . وهذه هي عظمة فن الشاعر. انه يقدر طفوليا على التكلم ككبار المؤلفين في عصر الحكاية الذهبي ، ولكنه هنا ايضا يعرف، خلال الحكمة البارعة للرمز ، كيف يدرس الايقاعات الرجولية للواجب والحب والمأثرة . وفي لحظة ، حين يتوهج وحي قديم في زوبعة الرموز ، يستطيع ان يكتشف فوق النجوم الامراء ذوي الشعر الذهبي ، ويجعلهم ياتون الى صحارى التجافي الانساني ، ليبحثوا عن ينابيع الشعر .

وكما هي الحال لدى كبار الحالمين ، ينتصب ضده الجزويتيون الازليون الذين شرعوا يبحثون في ابداعه اللامع عن التناقضات والاصطناعية . ولكن توقه الشعري ، الذي تراكم

بعد تركيز طويل للطاقة ، كما يحدث لدى الشعراء الحقيقيين ، قد عصف بهم وأزاحهم عن طريقه الجوي . وحينئذ بدات مدارس الحداثة تدعيه . كل مدرسة مستعدة لتبني الشاعر الذي يستطيع الطيران . ولكنه ينظر من شاهق آفاقه الرحبة ، ومن العسير أن يؤطر تنوعات العالم والروح بأسيجة أي بمسلمات جمالية جافة وهذا الانسان الحديث ، حامل اكثر الحواس معاصرة ، لا يهجو المشاعر الانسانية بل يغني لها هذا الميكانيكي والطيار لم يصبح مستقبليا ، ولم يشرع بتقليد المحركات ولم يقحمها في نسيج ابداعه .

هذا الطيار والبطل لا يابه للمدارس الحديثة ، ويبدع بشجاعة تماما كما يوجه طيارته بشجاعة عبر الدروب المجهولة وعبر الصحارى والقمم . ابداعه الواقعي والرومانتي عميق الحداثة . انه يرى الارض والنجوم والناس من زاوية جديدة ، وبمقاييس جديدة . يكتشف معنى جديدا للحياة والموت . ولكنه لا يتنكر للحقيقة القديمة : « الجوهري يرى بالقلب وحده » . ومن القلب ، في رايه ، ياتي التعميم والقلق الكبير . من قلبه تنبع طلاوة الوصف وحلم الطيران الرومانتي وكل الشاعرية المفردة في نثره . من قلبه تنبع عظمة مآثره وتضحيته بنفسه .

من اجل المسائل في ابداع اكزوبيري العلاقة بين الطيار والشاعر ، بين رجل الفعل والمفكر ، بين الرحالة والمبـــدع .

اننا نتذكر « المتشردين العظماء » في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، نتذكر فوركي وهامسون وجاك لندن . فهؤلاء كانوا اشداء امضوا حياتهم بين الناس ، وطافوا العالم مشيا على الاقدام او على حصان او في قارب او في مقطورة شحن ، كالبحارة المشردين او العمال . ففي ابداعهم ، على الرغم من تفاوته بل وحتى تناقضه ، تتدفع الحياة بشيء رومانتي، بقوة شاعرية ما، متمايزة لدى الثلاثة، ولكنها لدى الثلاثة عفوية وطازجة.

سان اكزوبيري جاء ايضا من الحياة الى الادب . انه واحد من قلة من المتشردين الحديثين للقرن العشرين لقد جاء بطائرة صارت قدره . همنغواي سائح يهرب من تفاهة اليومي ، ويجوب العالم بطريقة غير اعتيادية ، تختلف قليلاً عما فعل مثلا توماس مان . ولكن سان اكزوبيري طيار ، وليست الطائرة بالنسبة له تسلية ، وليست مسعى ليصبح حديثا او

اداة لمشاعر جديدة ، وانما هي كينونة حياتية . طار أول مرة حين كان في العشرين من عمره في مطار أمبيريو ، وبعد ذلك على الرغم من انه غير مرارا اختصاصاته ظل محافظا على اختصاصين : الطيار والكاتب . لقد ظل سان اكزوبيري طيارا وشاعرا طوال حياته وحتى اللحظة الاخيرة منها . لم يرفض بتاتا قدره كطيار . ولهذا لم يكن طيارا وحسب بل كان واحدا من افضل طياري فرنسا في زمنه . خط حياته يقاس بخطوط الطول وخطوط العرض معا . وكان يفضل أكثر الخطوط الجوية غموضا وأشدها خطرا .

يحبون ، عادة ان يعارضوا المبدع في الانسان بالعملي ، الشاعر في الانسان بالعلوم الدقيقة . وساد الاعتقاد ان الرومانتيين هم حالمون وشعراء منفردون . وها هم أكبر الرومانتيين في أواخر القرن الماضي كانوا ثلاثة من المتشردين ، وقد يكون هؤلاء الثلاثة أقرب الناس الى الحياة والاكثر معرفة بمصائر الناس .

رومانتية المعاصرة بطولية وقوية ، تتفجر مبرقة في ابداع هذا الرحال والضابط الذي لم ينفصل بتاتا عن الناس . في بعض مقاهي باريس المعروفة ، بين دخان التبغ ومجموعات الهذارين ، تولد غالبية المدارس الشكلانية المتنوعة . هنا تظهر المستقبلية أيضا ، وهنا يدور الحديث حول الآلي أكثر من أي مكان ، وحول الاحساس المعاصر ، وحول التغير في وعي الناس ، من قبل أناس يراقبون الحياة من خلال واجهات دفيئات الروح هذه ، واجهات أحواض تربية الاسماك هذه ، حيث تقفو المياه النتنة ، التي يريدون أن يعمدوا بها ابداعات الفن الحديثة . هنا تولد نظريات معاداة الرومانتية ، معاداة الكيميا ، معاداة البطولة ومعاداة الشعر ، وغيرها . فما ان يهرم الجزء « نيو »(١) حتى يحل زمن«انتي»(٢) .

معروفة كراهية جميع المبدعين المتفردين « لفقاسات » البرجوازية للمدارس الادبية متعددة النشاط . لقد كتب عنها بكراهية وسخرية همنغواي ، الذي كان في شبابه ، قبل أن يصير كاتبا ، قد زارها . ومعروفة هي صورته الادبية للزجاجة ذات الديدان التي يلتهم بعضها بعضا . ومعروفة كراهية توماس مان وسيلينجر لهذه المراتع للعهر الروحي والانفصال عن الحياة . قد تكون هذه المقاهي قد لعبت دورها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولكن أهميتها قد جنحت للافول مع غروب المجتمع البرجوازي ، وهي اقل مجدا بكثير من

---

(١) جديد . حديث .
(٢) ضد .

غيرها من المنتديات البرجوازية . ولقد قفست نحبها كما قضته قبلها الصالونات الادبية التي كانت أكثر بريقا منها .

كل ما هو حيوي وقوي في الادب يأتي من الحياة ، يصنعه المبدعون الذين يستطيعون ان يصيروا « نساكا » خارج المآوي الادبية الوضيعة المتعاظمة .

كان ينبغي ان تتجدد الرومانتية الهرمة في قصائد سان آكزوبيري وفي نثره كما تجددت قبل ستين عاما في أدب غوركي وجاك لندن القوي . ولا يدور الحديث هنا حول الرومانتية على اعتبارها مدرسة وانما بوصفها علاقة شعرية بالنشاط ، وبوصفها تفاؤلا وايمانا بالمستقبل. ان وليد العصر المحتضر ، هذا الصوت الشعري لهذا الطيار العجيب ، يرن منفردا تماما ، بايقاعات قديمة جدا ، ومع ذلك يظل الكاتب الاكثر قراء في أوروبا الغربية لسنوات عديدة بعد موته .

الفن الذي ينبثق من جوهر الحياة ، ويكون على صلة مباشرة بهذه الحياة هو فن انساني ومتفائل . « كثيرون هم الكتاب الذين حدثونا خلال السنوات الاخيرة حول نقاط ضعف الانسان . وها هو ذا أحد الذين حدثونا حول عظمته » . هكذا أعلن اندريه موروا أحد أوائل الذين قرأوا « الامير الصغير » ابتهاجه بسان آكزوبيري .

الطيار والبطل الذي كان في كل دقيقة ، على تماس مباشر مع الموت ، سان آكزوبيري احد اشجع طياري فرنسا ، لم يستطع الا ان يحب الحياة والانسان ، لم يستطع الا يكون متفائلا ، البطولة الحيوية مرتبطة دائما بالتفاؤل والانسانية . ومن حب الحياة والناس تنبع تلقائيا وطبيعيا افكار الكاتب الفلسفية ، ولا تولد بالتامل بل من أعمق انسجةالمصير الحياتي.

وهذه الفلسفة لا نستطيع ان نتقبلها بأي حال على انها ماركسية وانما من خلال علاقات واسعة وخاصة ، من حيث انسانيتها الواسعة تكون قريبة في العديد من اهدافها من الاهداف التي يسعى اليها مجتمعنا . وليس ثمة شك في كون هذه الانسانية مجردة جدا ، ولكنها مرتبطة بالايمان بالانسان ، ببطولته ، ومترعة بالعداء للحرب وبالعداء للمشاعر الفاشية وبهذا تكون قريبة من المسائل الملموسة الراهنة . والاهم في ذلك ــ وفلسفة سان آكزوبيري قد تحولت الى أدب وصارت ابداعا ــ انها صارت حقيقة ادبية مؤثرة وفعالة بقوة ، بحيث لا نستطيع المرور بها ولا ان ندور حولها .

حين راى الشاعر الروسي الكبير الكسندر بلوك الطائرة لاول مرة شحب وارتعش وتاوه : « كيف يمكن ان تطير دون قلب ؟! » . لقد احس بقوة ماساوية احدى اهم مسائل المعاصرة الثارة : التلاقي الدرامي بين طيران الآلة والطيران الشاعري . فهل سيطفى هدير الآلة على خفقان قلب ايكار ؟

حين رات شاعرتنا الزابيتا باغريانا الطائرة اول مرة ارتعشت ابتهاجا . وبكل طبيعتها الشعورية والحيوية احست نبعا لمشاعر جديدة ، لانفعالات جديدة مفرحة . وبعد عودتها من سفرها ، كما هو معروف ، نشرت مجموعتها حول « الطائر ذو القلب الآلي » التي تعتبر بين المدائح البهيجة للطيران الجوي . فاي الشاعرين كان على صواب ؟

سان اكزوبيري الشاعر في اعماق كينونته هو الاخر قد فهم الاثنين : نحيب بلوك الماساوي وفرح باغريانا البهيج . وفي ابداع ذلك الكاتب الفرنسي نحس انه يعاني من انه صار بامكان ضيقي الافق من تولوز انيطيروا ، لا ان يسيروا فقط حول المنتديات الموسيقية ليسمعوا الموسيقا العسكرية . وصار بمقدور لعابين غوركييف ان تسخر من الصقور في اجوائها الطليقة . وراى سان اكزوبيري كيف تحولت « اسماك الكراكي » المدن والقرى الى رماد ، وكيف يرتفع الصليب المعقوف باعتزاز في سماء فرنسا الزرقاء .

ولقد احس الى جانب هذا ان الطائرة اداة جبارة للمستقبل ، وان الشاعر يستطيع ان يريش منها جناحا وان يطير اعلى فاعلى وابعد فابعد . لقد ارتبط سان اكزوبيري منذ ايام شبابه المبكر بالتقنية الحديثة ، وتغلغل الى لب تلك التغييرات التي تحملها ، اول ما تحملها ، الى مشاعر الانسان . لم يبتهج وحسب كشاعرتنا بالآماد الرحبة ، وبخط الافق المنبسط بل عانى كل تلك الامور الروحية التي يعيشها الطيار . ذلك لانه لم يكن مسافرا في طائرة بل كان طيارا مجربا . والامر مختلف حين تسافر في طائرة كبيرة مريحة مستلقيا في مقعدك وتراقب بعين اعتادت دون خوف ان تراقب الهاوية تحتك وتنتظر بملل ساعة الهبوط الى الارض ، بينمـا تحمل اليـك المضيفة الجميلة المشروبات الباردة وابتسامات المودة .

والامر مختلف حين تقود الطائرة وحيدا معلقا فوق الاجهزة على آلة لم تكتمل تقنيتها ، وحين تسافر فوق اراض مجهولة او تنطلق في طيران ليلي دون رادار وحتى دون اتصال بالارض . هنا يتحد الانسان بانتباه وشدة بالآلة التي هي دعامته الوحيدة فوق الهاوية .

انه وحيد وسط الفضاء الرحيب اللامتناهي ، محاط بالظلام ، ولا يعرف اغلب الاحيان ، اين سيحط ، او ان كان سيجد غصنا في المدى ، مثل ذلك الطائر الذي اصيب بالجنون ، والذي يفرد وحيدا في الليل الذي غنى له الشاعر اليوغسلافي تسيساريتش بغبطة .

في مثل لحظات كهذه لا تكون امام مغامرة وحسب ولا مرافقة للموت وحسب بل والتركيز والطاقة ايضا والانتباه وقبل كل شيء ارادة النصر . في ليال كهذه وفوق اراض مجهولة وبحار يراقب الطيار الشاب في وقت واحد انوار النجوم والانوار التي تأتي من الارض ساطعة من المدن الكبيرة ، منعزلة وشاحبة على ضفاف باتاغونيا المقفرة . هذه الانوار القادمة من أرض الوطن ، هي صلة وصل بالناس ، بكل اولئك الذين ينامون باطمئنان في بيوتهم، والذين ينطلق الطيار من أجلهم وحيدا في الليلة الظلماء . في لحظات كهذه يتحول زئير الآلة الى شعر ، الى أغنية للناس ولمصيرهم .

من الصعب أن نفهم كل هذا نحن الذين اعتدنا أن يؤدي السفر بالطائرة ، قبل كل شيء ، الى الوصول سريعا وبطريقة واحدة . أما بالنسبة للطيارين فان السفر بحد ذاته اكثر اهمية وامتع لانه مرتبط بالكفاح وبارادة النصر .

لقد تغلغل سان اكزوبيري عميقا في احاسيس الطيار الجديدة ، في بطولته . ففي ذلك الوقت كان كل طيران ليلي مع دليل مسافرين مجهول امر بطولي . فالطيار يحس انه ليس مسؤولا عن نفسه وحسب بل وعن الآلة وعن المهمة التي عليه أن ينفذها وعن الناس .

والانسان هو الاهم دائما بالنسبة لسان اكزوبيري . لكأنما تأتي آلاف الاضواء من قلوب الناس وتوجه طريق الآلة الوحيدة . ولهذا فهو يؤمن ، قبل كل شيء ، بالانسان . وبينما كان قدماء الحالمين والشعراء يراقبون النجوم في الليالي القمراء من نوافذهم ، فان اكزوبيري يراقب من « كبين » الطائرة انوارا من الارض ، سواء أكان ذلك في الارجنتين أو في فرنسا المستعبدة أو في أي واحة منفردة في الصحراء .

قيادة الطائرة ، واكتشاف دروب جديدة ، والطيرانات الليلية لم تكن بالنسبة له هدفا لذاتها بل كانت لخدمة الناس . ان مغامرات الطيار اليومية هي باسم الاخرين .

ولهذا فان الطيران وقيادة الطائرة والتغلب على المصاعب ، والصراع مع العواصف ومع المدى ، ليست عملا مهنيا مملا بل هي ابداع . الطيار ليس سائق سيارة يقود سيارته

بحركات معروفة متناسقة على دروب محددة ومعروفة . سان اكزوبيري مبدع في عمله كما هو مبدع في الادب . انه لايستطيع ان يتقبل كل شيء بعفوية ولا مبالاة ، ماهو دون قلب وشعر ، وما هو آلي وميت . والطائرة هي التي اتاحت له ان يتقن في عمله وان يبدع . ان النشاط ، النشاط المحدد ، شيء رفيع يظهر فيه الانسان ليس اكثر سوءا مما في الادب . يقول مؤكدا : « قبل ان تكتب يجب ان تعيش » . وغالبا مايكون الهرب من الدروب المعروفة اكثر صعوبة في ميدان الادب مما هي عليه الحال في النشاط الملموس . يقول سان اكزوبيري : « اذا كانت دروب الافكار مطروقة يبقى درب الممارسة ، فالممارسة طريقة للوصول الى الحقيقة » .

يختلف الكاتب الفرنسي في ممارسته هذه اختلافا كبيرا جدا عن الكتاب الغربيين المشهورين المعروفين من قبلنا بانهم رجال فاعلون نشطاء ، فبينما يسافر همنغواي ، ويصارع الثيران ، ويصطاد في افريقيا لينفصل اساسا عن نشاط ثقيل ، وبينما يعمل فونرليوظف طاقته الحيوية الكبيرة ، فان سان اكزوبيري يعمل ليبدع ، ليظهر كما يكتب مقالاته الملهمة . وبينما اندريه جيد ومارلو يبشران بالنشاط من اجل النشاط فان سان اكزوبيري ينشط ليكون نافعا للناس . ولهذا لانحس في نشاطه باية ارستقراطية ولا باي بطولة تظاهرية او اية جمالية قميئة مرتبطة باحتقار الناس العاديين . في « الطيار الحربي » يتحاور سان اكزوبيري مع جيد الذي يؤكد في « مفكرته الجزائرية » ان هؤلاء الذين يعانون في سبيل تامين الخبز لا يقومون على المعاناة الروحية . وسان اكزوبيري يتحدث حول اهمية الخبز ، حول البساطة ، فثمة فرح عميق في ان تتقاسم واحد الناس قطعة من الخبز . ولقدتعلمنا ان نرى في الخبز صورة لعظمة العمل .

حتى نشاط الطيار مرتبط بخبز القروي ، بعمل الشعب . ان القضايا المعاشة بعمق والمعاناة الروحية الحقة يمكن ان تولد من العلاقة بالعمل ، وبخبز الانسان العادي على اعتباره رمزا للعمل الانبل .

ولهذا السبب يجب ان يكون لكل نشاط انساني هدف : خدمة الانسان . ان من يحلم برخائه وحده وحسب ، ومن يفعل ليهرب من السكينة كلاهما غير نافع . ثمة مغزى للعمل الذي يستهدف الناس . لا الافكار وحدها بل وكل الكيان العاطفي يجب ان يكون موجها نحو الانسان .

ولهذا لم يفصل سان اكزوبيري نشاطه طيارا عن نشاطه كاتبا . وردا على سؤال الصحفي الفرنسي ايستون عما اذا كانت الكتابة بالنسبة له اهم من الطيران ، اجاب : « لا اعرف تقسيما كهذا ، فكيف تتناقض النشاطات ؟! ان اطير وان اكتب امر واحد لاينفصم .والمهم هو ان تنشط وان تسعى الى الكمال في كل شيء . الطيار والكاتب ينسكبان في وحدة : وعي الانسان ، وحياة فاعلة مبدعة » .

يقارن سان اكزوبيري في « ارض البشر » بين عمل الطيار وعمل الفلاح الذي يعتبر اقدم المهن ، « احس انني فلاح المطارات » .

فرح الابداع وانسجام الغلبة على الكون من خلال الاختصاص ينير كتب سان اكزوبيري . ومنذ اللحظات الاولى للطيران يتحول الطيار الى مبدع ومكافح ، متعارك دون انقطاع مع الموت ومع آلاف المفاجآت . وهذا يستمر حتى اللحظة التي تمس فيها عجلات الطائرةالارض مـن جديـد .

بهذه الطريقة من خلال الفهم الابداعي للنشاط ، من خلال الترحال المستمر عبر اراض مجهولة وخلال تنفيذ المهمات الجديدة يتجدد الطيار باستمرار ، وكانه يولد ويولد من جديد ، ومن جديد يكتشف العالم . اليس هذا في جوهره كما لدى الشاعر وكما لدى الطفل ؟

هذا الطيار وعن طريق تشديد ارادة هي وليدة ادراك الواجب ، ومن خلال مشاعر لاهبة وعميقة نادرة ، يريغ في وحدة الابداع جوهره باعتباره رجل قضية وباعتباره رجل فكر . وقبل اكزوبيري وبعده حاول الكثيرون من الطيارين بمساعدة الريشة تقديم لوحة عن حياة الطيار ، عن رؤيته الجديدة للحياة وللناس . هكذا فعل على سبيل المثال الطيار الاميركي كولينز في كتابه « طيار ـ مجرب » اذ سعى الى ان يلتقط تلك الافكار المتعة والمشاعر الخصوصية ، التي تقتحم وعي الطيار المجرب الذي يحاول بثمن من المغامرات الكبرى ان يختبر آلات جديدة واساليب جديدة للقيادة .

والطيار والكاتب البولوني آنوش مايستر الذي في مثل سن سان اكزوبيري تقريبا كتب هو الآخر عدة اعمال حول حياة الطيارين (ثمة قصص له ترجمت الى البلغارية) ولكن اولئك الكتاب توقفوا غالبا عند الناحية الخارجية من الطيران . وملاحظاتهم المتعة تنفع اما في

وضع خطة ممتعة ، او بمثابة تفسيرات مستفادة للحالة النفسية . التعميمات تولد فـي الاعماق . ولقد استطاع الكاتب الفرنسي الوصول الى العديد من التعميمات بفضل قدرته على التغلغل في العمليات النفسية ، وان يلتقط ادق انفعالات الانسان المحبوس في « كبين » ضيق وفي يديه مقود الطائرة وفي قلبه واجبه .

لهذا يضايق الموضوع الكاتب في اغلب الاحيان . فهو يريد ان يقدم عملية الانفعالات الروحية . انه يبحث دائما عن شكل حي وملون ينبع من فكرة العمل الابداعي ومن شعور الشاعر . ولا يضيع أبدا بريق الفكرة الاساسية بين غنى الصور . بطل سان اكزوبيري الفنائي يحب ان يحلم في السماء بالارض ، وفي الارض بالسماء . هنا تكف الطائرة عن ان تكون تقنية ، وتتحول الى آلة للعمل ، واكثر من ذلك – الى وسيلة لاداء الواجب ، والى شيء آخر – الى بساط ريح يعطي للحياة الروي ، وانفاس الاعجوبة والمغامرة والحلم الشاعري . وبهذا الشكل ينجح الشاعر في ان يجد مكانا لقلب ابكار في جسد الالة المعدني.

ويظهر مدى ضلال جميع ضيقي الافق الذين جهدوا لكي يقتنعوا بانه ما دامت لهم اجنحة من المعدن فان قلبهم زائد عن اللزوم . في « كبين » طيران سان اكزوبيري لايتارجح سعدان من الكاوتشوك كتعويذة ، بل تتارجح وردة فواحة . هنا في هذا المدى الضيق ، في الاعالي ، حلم وتلا القصائد ، تماما كما فعل فيما بعد رواد الفضاء السوفيتيون اذ تلوا وسط صمت الفضاء الخارجي العظيم اشعار بوشكين ، وبالذعر متعاظمي الادب ، كهان «الاحساس المعاصر » !

« قبل ان اصبح رائد فضاء ، وفي ليالي الشمال الطويلة ، احببت ان اقرا صفحات من سان اكزوبيري ففيها الكثير من الشعر والرومانتية والانسانية » . هذا ما اكده غاغارين في المقابلة الصحفية مع « بادري ماتش » في ١٩٦٣/٧/١٣ .

سان اكزوبيري هو رجل الواجب . وقضايا الواجب والبطولة نقاط اساسية في ابداعه . في الادب الغربي ، كما هو معروف ، سقط الواجب والبطولة بقسوة بعد الحرب العالمية الاولى وعلى الاخص بعد الحرب العالمية الثانية . واكثرية الكتاب البرجوازيين ، وفـي المقام الاول ، المشاركون في الحربين منهم ، قد سخروا من كل ماله ارتباط بالبطولة

والتضحية . لقد خيبت الحرب آمالهم وصعقتهم ، فاصبح لديهم طرازا قديما الكلام على المآثر سواء في ميدان القتال أو في الحياة السلمية .

كتب حول الحرب ريمارك وهمنغواي وايرفينغ وشو وساروبان وكثيرون سواهم . لقد اظهروا الروحية المترددة للعائدين من الجبهات وخيبتهم من البطولة .

لن نتكلم عن الكتاب من « الجيل الضائع » ولا على مختلف المدارس الشكلانية ، التي هي في جوهرها معادية للانسانية وبالتالي معادية للبطولة . ولن نتكلم على الموقف الساخر من الحياة والانسان من الجنس الذي ابداه جان كو ، حامل جائزة غنكور لعام ١٩٦١ اذ قال : « ان تكون انسانا ، ذلك يعني ان تأكل وان تعمل وان تذهب الى صيد السمك وان تستفيد من خيرات التقنية » .

ان الاسباب العميقة للعداء للبطولة قائمة دون ريب ، في تعفن التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية ذاتها ، وفي عدم الثقة بالانسان وليس في غياب المثل العليا وحدها بل وفي غياب الافكار . وهذا يؤدي الى فردية كالحة جدا ، تختلف قليلا عن ضيق الافق الاعتيادي جدا . وبرغم الاعتدة والزمر والقادة ، والجماهير في الساحات والملاعب فان الانسان البرجوازي مسجون في قفص مصالحه ، وقابع في شرنقة وسائل الراحة التقنية المعاصرة ، وهو مؤهل لنوع واحد من النضال : من اجل رفاهه الشخصي وتثبيته .

ولهذا فان المدارس الحديثة لاترفض امتداح المآثر وحسب بل وتسخر منها وتحتقرها . ولكن كبار المبدعين ، كبار الكتاب الغربيين من توماس مان حتى برتولد بريخت على الرغم من كل شيء ظلوا ظماء الى المآثر ، ولقد اصبح سان اكزوبيري شاعر المآثرة الحقيقي .

وهذا مايجب ان نتوقعه ، لان كاتبا يأتي الى الادب من الحياة الحية ، من اختصاص مرتبط بالمغامرة والتضحية بالذات ، يستطيع ان يحس بمزيد من الدقة مغزى البطولة وعظمتها بوجهها الجديد وطريقتها الجديدة في الظهور . ويجب ان نؤكد هنا على ان الاختصاص المترافق مع الخطر الدائم ، حيث الحياة خشنة يولد رفاقية حقيقية وجماعية حقيقية . الاخطار العامة ، والمصاعب العامة ، والهدف العام ، والحاجة المباشرة الى المساعدة المتبادلة ترص الناس بقوة . فهنا لايمكن ان ينجدل قفص ضيق الافق .

ويبدو ذلك واضحا في كل الكتب الصادقة التي وصفت الحياة العسكرية وحياة صيادي السمك وعمال المناجم والطيارين . ويكفي ان نتذكر « النار » لباربوس و « الفيكيشخ الاخير » ليوهان بوير و « الوردية الاولى » لكارل تشابيك ، وغيرها ، في المجتمع البرجوازي لايعرفون جماعات العمل الاجتماعي الكبيرة التي تتسبك فيها الشخصية بالعمومية ، دون ان تفقد كينونتها ، وحيث الوعي الانساني يتحد بالوعي الجماعي .

لقد ادرك الطيار سان اكزوبيري العلاقة المتبادلة بين البطولة والجماعية والرفاقية . ولهذا لم يكل من امتداحها طوال حياته . والفردية في اكثر مظاهرها فظاظة وفي « أسماها » لاتعرف شعور الواجب الحق نحو الاخرين . وقد جرى التعبير عن ذلك في الادبالسوفييتي بدقة في « قصيدة تربوية » للكاتب ا . س ماكارنكو : « بمقدار ماتكون الجماعية فسيحة للمصير الذي تحس نحوه بالمسؤولية الاخلاقية يكون ضميرك ناميا » .

ولهذا فان البطولة الحقة تختلف تماما عن الجراة التظاهرية المستهدفة لذاتها المصحوبة بالجمال الرياضي ، والتي غالبا مايمتدحها بعض كتاب الغرب بحل وحتى انهم يسمون لاظهارها في حياتهم الشخصية . وسان اكزوبيري الذي يسمى الآن بوضح ويحس فحوى ادراك البطولة يؤكد : « ليست البطولة في احتقار الموت او حب المغامرة » . ثم يقول بعد ذلك : « مصارع الثيران يوحي لي بالاسى » . همنغواي ولوركا وبيكاسو وغيرهم من المبدعين الذين ليسوا من أصل اسباني فقط ابهجهم مصارعو الثيران على مختلف انواعهم وها هي ذي نفس كبيرة تحتقر الالعاب الاسبانية . وهو يرى من غير الضروري ، ان توتر اعصابك بمشاهدة مصارعات خطرة ، ذلك لانه كان يحس المصارع ، الذي ليس لعبة ، بل هو مرتبط بمصير الناس . لم تكن الثيران الاسبانية ضرورية له ، لانه قد امسك قرني ثور الفاشية ذاته والقد طعنه .

البطولة مرتبطة حتما بالواجب . وهي ليست لعبة وليست متعة ، ولا شجاعة عادية . ليست رياضة ولاشوقا الى الصيد ولا ظاهرة مستهدفة بذاتها كما هي الحال لدى مالرو ، بل هي اسمى مظهر للشعور بالواجب نحو الاخرين . واكثر من ذلك : حب الاخرين . والحب يلهب الشعور بالواجب .

« ادركت لماذا وضع افلاطون الشجاعة في آخر الفضائل – كتب سان اكزوبيري – انها شيء مكونة من مشاعر جميلة جدا : قليل من الحدة ، قليل من الخيلاء ، كثير من الاحتمال وشعور رياضي بسيط . ولن اعجب ابدا بمن هو شجاع فقط » .

الطيار والشاعر لايحتمل تلك الشجاعة التي لايقوى عليها سوى الانسان البرجوازي ، الشجاعة المرتبطة بالشعور الرياضي وبالخيلاء، التي تسمعوراءها دائما طقطقة الالةالحاسبة التي تعد قائمة حساب للمغامرة وللفوائد التي تجنى منها .

في البطولة الحقيقية لاتتحقق المحاسبة المزدوجة . تختفي المنافع الشخصية . تبقى المهمة الكبرى التي يجب ان تنفذ وحدها في القائمة . يكتب الشاعر في احدى رسائله : « أنا جندي ولست سائحا » . وهذا ما كانت تستطيع قوله عن نفسها قلة من الكتاب البرجوازيين سان اكزوبيري جندي ، وهو حين يطير فوق الصحاري أو فوق باتاغونيا ، واذ يطير بطائرة قتالية فوق فرنسا المحتلة ، ثم يطلقون النار عليه في مناسبة اخرى ، تتحول مبادئه الى مصير شخصي . ان الفاشية بضجيجها الحقود تنقض على وطنه .

وعلى الرغم من ذلك فان كتب سان اكزوبيري الاخيرة ليست تشاؤمية . وفي ذكريات عنه نشرت في « الاكسبرس » في ١٨ تموز ١٩٦٣ اشير الى التصوف وحتى الى الانتحار . في « القلعة » تصادف صفحات حزينة . في « الامير الصغير » يهلك البطل الرائع بسكينة وصفاء . ولكن سان اكزوبيري في كامل ابداعه وفي مصيره الشخصي يظل جنديا يكتب عن نفسه باعتداد ، ويناضل بالريشة والسيف من اجل الناس ، ويهلك في موقعه ، ويكرس نفسه كلية لمهمته ، وبالتالي للحياة .

لن نذكر بالصور البطولية فيابداع الكاتب مثلغيوميه وعبارته المشهورة عنالانسان والحيوان او مثل جاك ريفير الفظ والصلب وكانما قد من صخر ولكنه على استعداد دائما للتضحية. بطولة سان اكزوبيري ، هذا الشاعر الرومانتي ، عادية تماما ، ممتزجة بمآثر الشعب ، وقبل كل شيء بعمل الشعب . والكاتب فرت الذي كرس له عملين من اعماله الابداعية قد كتب : « الاسمى بالنسبة له لايختلف عن اليومي والواقعي » . وهذا معروف عن شاعر الخبز الارضي والبستانيين والفلاحين الذي يؤكد بفرح : « الانسان حر حين يحفر الارض».

ان قضية الحرية ، هذه الحرية التي يحب الكتاب البرجوازيون كثيرا ان يكتبوا حولها ، ليست هدفا بذاتها بالنسبة له ، بل تتحد بالواجب ، بينما هي لدى سارتر مرتبطة بغياب كل واجب . ان النضال الدائم في المجتمع الطبقي بين الحرية المطلقة والمثال الانساني محسوم بالنسبة لسان اكزوبيري لصالح المثال .

كل شيء لدى الشاعر يأتي من الحب للانسان ، من الانسانية . الانسانية تملأ هواء « كيبن » طيرانه وهواء غرفة كتابته ، بينما جو أوربا مكهرب بالتوتر العالي لأكثر الحروب هولا . وهذا نشاط وانسانية ديناميكية ، يوقدهما الحب . « ان تحب لا يعني ان تتبادلا النظر بل ان تنظرا الى هدف مشترك » .

ثمة أنواع مختلفة من الحب . ونحن ، في اغلب الاحيان ، نحب انفسنا في الآخر قبل كل شيء وذكريات الايام الجميلة التي عشناها . ونحب احيانا كما يحب شيء للتسلية او كما يحب كلب صغير . واحيانا نحب للمتعة الروحية التي يمدنا بها الرفيق ، او نحب نبلا ، او غرورا ، او اشفاقا ، او تعاطفا ، بحكم العادة . وفي هذه الحالات جميعا نحب انفسنا في الجوهر . الحب الحقيقي هو وحده الحب الذي يستبعد الأنا الشخصية ، والذي يوجه نحو الاستعداد للتضحية بالذات . وهكذا احب الشاعر الفرنسي .

ثمة اناس مؤهلون لان يفتتنوا بالمآثر البطولية وحتى انهم يتعاطفون معها ، ولكنهم لا يملكون القوة ليقوموا بمأثرة . وسان اكزوبيري استطاع ان يقوم بها . ومن مآثر الشاعر تكتسب افكاره قوة وواقعية ، لكأنها تتغذى من دمه الجاهز في كل لحظة لينسكب فيها .
هو لا يكلم الناس بجفاف بل بالهام مبتهج . ولقد ترجع صوته في الصمت الروحي الخطر المخيم فوق اوروبا مرنانا قويا . لا وجود هنا للتاكيد الشديد للاوامر الصاخبة التي لا تقوم على اساس وانما هي صرخة انفعال من شاعر مشارك ، يحكي ، يقنع ، يكوّن صورا ، يكشف افكاره المكنوزة .

كتبه الاخيرة تشبه عملا ابداعيا واحدا ، مجموعــة من رسائل ما قبل الموت من صرعى الفاشية ، حيث تحس بمزيد من الحدة ، مأساوية العصر وعظمته . وكما عبر توماس مان بنجاح فان الفن المؤثر دائما هو الفن المملوء حياة . وليست باقل اثارة هي الحياة التي تتحول تلقائيا وفعليا الى فن .

كتب سان اكزوبيري الاخيرة هي أيضا اعتراف ما قبل الموت ، انها مفعمة حياة وفنا . البطل والشاعر ، والمأثرة والكلمة تندمج معا جميعا . الكلمة تضفي القوة والمغزى على النشاط ، والنشاط يضفي الاستمرار على الكلمة الشعرية .

احد اكثر أعمال سان أكزوبيري الابداعية اثارة وخصوصية واكثرها غنائية هي حكاية « الامير الصغير » . انها اغنيته التمية . لقد سمى طوال الحياة اليها . لقد حلم طوال الحياة بهذه الحكاية ، العميقة والشاعرة في وقت واحد ، الاعترافية والحكيمة ، التي كانها ابدعت مزاحا ثم تحولت الى مصير حياتي .

ظل طوال حياته يتذكر حكايات الطفولة والاقتصاد وتلك المرأة بوليا ، التي كان يحادثها فوق رشقات القذائف ، ويذكر مسقط رأسه ليون . انه « مقترب من طفولته » ، وهو ينادي الطفولة باستمرار ، وذلك الذي ضاع في ذكريات الطفولة ، كما يفعل اكثر الشعراء الحقيقيين . ونتذكر « انجل » ليرمنتوف . انه « الامير الصغير » لسان أكزوبيري . وفي الايام التي سبقت وفاته ، عاد بسوداوية حزينة الى ابعد ذكرياته ، الى الاماكن التي يكون فيها خياله دائما في بيته . ولقد كتب جورج فيليسين : « انه يعرف كيف يطيل طفولته حتى وفاتـــه » .

والشاعر ابدع صورة الفتى الصغير ذي الشعر الذهبي ، الذي يجب ان يجتمع فيه كل ما هو جميل ، ما أحرزه وما حلم باحرازه . هذا الطفل من نسج الذكريات كما هو من نسج الاحلام . وعلى الرغم من انه قد سقط من نجمة مجهولة ، ثم صعد اليها ، فهو نتاج أرضي ، مولود من أنوار أرضية ، من قلوب الطيبين والنبلاء من الناس ، الذين التقى بهم الشاعر ، من عضلات غيومية ومن عذاب ليون فيرت .

هذه الحكاية المكتوبة بسذاجة طفولية مملوءة بكل القضايا الكبرى ، التي اثارت أكزوبيري والتي صادفناها في أعماله الابداعية السابقة ، ولكن الطفل الصغير يجعل القضايا ملموسة ، يبعثها بانفاسه وبسحره الشاعري . وعلى الرغم من انها مختفية وراء الرموز ، فانهـــا لا تفتن على اعتبارها حقائق شعرية مع عدم توقع ظهورها ولا بحكمتها ، التي تطل كانهـــا مزاح من وراء نظارة ثعلب الصحراء الصافية ، او وراء البرودة الآتية من جدول منزو بين الكثبان الرملية .

وكما في حكايات التوراة القديمة ، يبدأ النشاط في الصحراء ، ولكن ، بدلا من البطريرك الاشيب او النبي الناري يظهر ، على غير انتظار ، فتى صغير ذهبي الشعر . انه لايذهب الى الناس حاملا تعاليمه بايمان جديد ، وانما يتحادث بعفوية وبساطة مع رجل منفرد .

لا وجود هنا لغابات الشمال التي نعرفها في حكايات اندرسن ، ولا الجوامع الرشيقة القباب والقصور المرمرية التي يتحرك بينها ابطال « الف ليلة وليلة » متشحين بالحرير . هذه حكاية معاصرة وحديثة . بطلاها الرئيسيان طيار سقط بطائرته في الصحراء ، وطفل سقط من الكويكب الصغير استيرويد . انهما يتحادثان . هذا الرجل المبقع بزيت الآلة والذي يحمل في يديه المفاتيح والمفكات والبراغي ، وذلك الطفل الاثيري والجميل الذي يبدو كأنه انعكاس لضوء رمال الصحراء . واضح أن هذه لوحة رمزية . هنا كل الصور والحوارات وليدة تجربة ملموسة ، وتتحول الى رموز .

لا وجود في هذه الحكاية للمواقف البراقة الموجودة في « فرخ البط القبيح » أو « هزار الامبراطور الصيني » . كل ما فيها أكثر حرية . يتمرج فيها النشاط في الصحراء وفي الكوكب البعيد منطلقا بسرعة الطائرة والصاروخ والحلم . تتدافع القضايا مع الحياة ، راعشة بالاسى أو السرور ثم تضيع من جديد ، كما يختفي الماء في الرمال .

وراء النشاط المبسط جدا يختفي الرمز المعقد ، الذي يمكن ان يولد أكثر التفسيرات تنوعا . وكما في كل حكاية جميلة حقا ، فان كل شيء هنا يلوب في جو شاعري ، في غنائية عفوية صادقة . اعمال سان اكزوبيري الابداعية السابقة هي مقدمة للحكاية . فمنذ زمن بعيد والشاعر فيه يبحث عن ذلك الشكل الذي يتيح له ان يظهر تماما لا غنى الافكار وحسب بل وغنى المشاعر والموسيقا . ونحو الحكاية يتجه شعراء النثر الحقيقيون.

لن نتفحص العمل الابداعي بالتفصيل . ولكنني اريد أن اؤكد انه ليس بالعمل الساذج . بل وعلى العكس من ذلك فان اكزوبيري يحارب به اعداءه القدامى : الدوغمائية وعالم ضيق الافق الصغير المحدود ، والعبودية للاشياء . ينبغي أن يظهر الشاعر للانسان البرجوازي المعاصر المعتد بحداثته اين يكمن العديد من القيم الاخلاقية ، ومعنى النظرة الشاعرية والنضارة الطفلية للادراك الحسي . فالبطولة الطفلية العاطفية تنبثق دون انقطاع ، وتنفحنا بانفاس الحكمة ، لكأنما هي هدير القرون الخوالي الساحر والعارف .

الامير الصغير يرى الاغنام في الصناديق لا بواسطة اشعة رونتجن بل باشعة مودته الطفلية. وهو يضع برفق الكمامة للاغنام كما لو انه يتسلى ، لانها تحب احيانا ان تتغذى بالورد اكثر ما تحب . الامير الصغير بستاني وفلاح ، ولا يشبه الامراء في الحكايات القديمة . انه يعتني بازهاره ، بكوكبه ، يكافح اشجار الحبحب التي تهدد بفلق الكويكب وتكاد تسحقه بثقلها الشاذ .

هذا الفتى الصغير يكافح . انه عامل وجندي . وها هي ذي دوافع سان اكزوبيري المحببة . ها هو ذا الدافع الى المأثرة والبطولة والحب . ولكنها هنا ملونة بسحر خاص ، لانها مرتبطة بصورة الفتى الصغير الذي يتحدث بهذا الجد مع الطيار . المقارنة بين الاثنين تظهر باستمرار ، فالاثنان اتيا من بعيد ، ولكن ، ما ابعد درب الطفل !

الكبير ساخر وغير واثق ، والطفل جدية طفلية . وبدلا من ان يقنع الكبير الطفل ، يبدا يقنعه . قليلون هم الطيارون المؤهلون لان يتحدثوا بهذا الاسلوب مع اطفال يلتقونهم مصادفة . ونصل الى احدى اجمل اللحظات في الحكاية : « لم اشا ان اعرف المزيد من المطرقة ، عن المسمار ، عن الظما والموت ، ففوق احدى النجوم ، فوق احد الكواكب، كوكبي ، الارض ، ثمة امير صغير يحتاج الى مواساة ! » هنا يحل منطق الشعور ، اقوى واكثر تلقائية من المنطق الجاف لمن يسمى الانسان الحديث . وهو يقود الطيار ليفهم الطفــل .

وكم هي اكثر جوهرية تلك الاسئلة الطفلية الملحة التي يطرحها الامير من ناضج حكمة الطيار الذي ارخى يديه امام الته المعطلة ، اذ لا نحصل من التواشج الداخلي للاسئلة والاجوبة على سخرية دقيقة بل على شعر عفوي .

سفر الامير عبر الكواكب الصغيرة هو بجوهره القسم الاقل شاعرية في الحكاية ، وهو يكشف لنا وجهة نظر سان اكزوبيري الفلسفية . انه يرسم قادته البغيضين ومعلميه الذين يبدو الكوكب صغيرا على خيلائهم وحبهم للرفعة ، ويدلنا على رجال الاعمال ــ عبيد الارقام هؤلاء ــ وجشعهم الجبان ، ولا ينسى عالم قاعة الدرس الذي هو احد ينابيع البرد الروحي . علماء منفصلون عن الحياة ، محصورون في غرف عملهم يشرحون ، دون توقف ، الحقائق التي يحملها لهم الاخرون وهم فخورون بجديتهم . وكلمة التعلم ، بالنسبة لهم ، مرادف للجفاف ، لانعدام المشاعر ، وللتفسيرية . انها سلاح في ايديهم ضد النفوس

الحية المبدعة ، نفوس الذين لا يطيقون الحرفيـة ولا يستطيعون أن يقتلـوا مشاعرهم وخيالهم ولا يرغبون في ذلك .

الانسان المنفرد الذي يشعل المصابيح ، ويعمل شيئا غير متعلق بشخصه بل الآخرين ، ينجز عملا مفيدا .

وخيالهم ولا يرغبون في ذلك .

الحافز الاساسي في هذا القسم من الحكاية مفعم بالاسى الساخر : « انا انسان جاد ، ليس لدى وقت لاحلم ! » المنطق الطفلي البسيط يروي اشياء بسيطة ، لا يقدر عليها الكبار المحاصرون بظروف لا حصر لهـا .

ولكن اكثر الصفحات شاعرية هي تلك التي يتكلم فيها على الحب ، والرفاقية ، والواجب. فلنتذكر ، على سبيل المثال ، لقاء الامير والثعلب والتدجين . لقد توصل المؤلف هنا الى اكبر اثارة داخلية : « ولكن ، اذا دجنتني فسوف تصبح حياتي كأن الشمس تخترقها . سأصير اميز وقع الخطوات عن باقي الضجيج وسيصبح هذا الواقع مختلفا عن كل شيء . سترغمني مختلف انواع الضجيج الاخرى على الاندساس تحت الارض ، وسيد عوني وقع خطواتك الى الموسيقا . ثم انظر ! هل ترى حقول القمح هناك ؟ انا لا آكـل خبزا . والقمح غير نافع لي . لا تذكرني حقول القمح بشيء . وهذا مؤسف ! لك شعر بلون الذهب . وحين تدجنني ، سيكون رائعا ! سيذكرني القمح المذهب بك . وسيكون صخب الهواء في القمح مريحا لي ... » .

اننا نرى كيف ان شعورا قويا يشكل شيء ، يملؤه بالجمال ، وخاصة اذا كان هذا الشعور هو الصداقة . « بتدجين » كهذا التدجين للناس يحلم هذا الضابط خلال ايام اخطر حرب. وهكذا ينظر شاعريا الى مسالة الابداع ، الى السعي نحو الكمال ، لوضع جزء من كيانك في كل ما تعمله . ما تضع له قلبا هو وحده ما تستطيع ان تحبه كما تحب ذاتك ، بل اكثر من ذاتك . وهذا شكل للتضحية بالذات .

وتظهر تلقائيا مسالة المثل الاعلى ، مسالة الجدول المغني في الصحراء . ونحن ندرك اهمية وجود جدول او الايمان بوجود جدول في مكان ما من صحراء النفوس الانسانية . وسان اكزوبيري يعرف بدقة وعمق الدور الملهم للمثل الاعلى ، للهدف البعيد . فهو لا ينظم

الطبع وحسب بل ويدفيء الانسان ، يدفعه ليتوقد ، ليتنظر ، ليامل ويؤمن ، الهدف المحقق لا يفرحه ، بل الاهداف الجديدة الابعد مثل « شعل » كورولينكوف التي تتلامع أمام عينيه . واذا لم يكن ثمة ما يضيء في روح الانسان ، فهناك سيكون الاسى والتجهم . « ما يثيرني كل هذه الاثارة في الامير الصغير ، هو ايمانه بزهرة ، انها صورة الوردة التي تضيء فيه مثل شعلة المصباح ، حتى وهو نائم ... » .

الوردة التي تضيء ، والجدول الذي يغني في الصحراء ، فرحة الانتظار والامل ، الهام العمل الانساني ، كل هذا يملأ بالضوء الداخلي حكاية سان اكزوبيري ، يلتمع فيها انتظار العيد الاجمل ، والصفحات الاجمل الاعذب من العيد ذاته . يغني فيها لجميع درجات التضحية والفرح الذي تحمله في ذاتها . العطاء مغبوط دائما أكثر من الاخذ ، والابداع أكثر من الاستفادة ، والتضحية في سبيل الاخرين اكثر من ان يضحوا من أجلك . انهـا حكاية في التضحية وقصيدة في البطولة .

استطاع الامير الصغير تدجين الثعلب والاعتناء بالزهر وان يكافح اشجار الحبحب ، وان ينظر الى الناس بعينين والقتين ، ولكنه يعرف الخوف من الوسطية المبتذلة ويطمح الى المأثرة . ثمة دائما في المأثرة شيء احتفالي . ونحو هذه الاحتفالية ، نحو هذا الجمال الرومانتي يتجه كل كيان الطفل ، الذي وقع وسط الصحراء ، ليبحث عن الجدول المغني وليتطلع بين ملايين النجوم ، الى موطنه الصغير .

معلوم ان الفتى ذهبي الشعر لن يكون مفهوما وعاديا بالنسبة لسكان الكواكب الصغيرة ولا بالنسبة لاولئك « الناس الجديين » الذين لا وقت لديهم للحكايات . ولئن احد « العلماء » الميتي التفكير نظره على الطفل الشمسي فانه سيغضب ، لانه لن يدخل بسهولة في مقولاته ، ومن الصعب ان يوافق علـى الدخول في دولاب صغير ذي بطاقات اتيكيت » او ان يقترح للمشرحة . وهو لن يحتمل العلمانية التي تفوح منها رائحة الادوية والدوغمائية ، حتى حين تختفي وراء المقولات الرياضية .

كان للطفل الكثير من الاعداء وسيكون له الكثير منهم . وهم سيتتبعون آثار طريق الافعى عبر الرمال نحو قدم الطفل الصغير المدللة . وسوف يفركون ايديهم مسرورين : « فليذهب الى المكان الذي جاء منـه » .

كثيرا ما يتحدث مؤلفو الروايات الخيالية وحتى رجال العلم عن وجود كائنات حية على الكواكب الاخرى . ويتجه نظر الانسان مع كل حدث جديد في ميدان السيطرة على الفضاء نحو الفضاء الخارجي . يطير الخيال الانساني المتعب نحو الاثير ، باحثا ، هناك ، عن ينابيع جديدة للالهام ، وعن نقاط استناد جديدة لطيرانات ابعد . لم تكن للخيال القديم آفاق بمثل هذه الرحابة للطيران ولا مثل هذه الدرجات المضمونة ، والمحطات بين الكوكبية ، التي يحط عليها ويستريح .

لقد كان طريق البحارة القدماء والرحالة والمستكشفين هو الاخر مطروقا ومسبوقا اليه من قبل الخيال البشري ، من قبل الحكاية قبل كل شيء ، فكم في الحكايات القديمة من رحالة على اراض مجهولة !

في عهد الطيرانات الصاروخية يصير واقعيا ان نحلم بسكان الكواكب المجهولة ، وبكائنات مجهولة لم تشاهد من قبل . ومن الطبيعي أن يجري تصور هذه الكائنات اناسا الذين يطيرون ولهم منطق رفيع ، او على شكل هولات عجيبة ، او عسكريين باردين .

ولكن الطيار الفرنسي ، وقبل كل هذه الاعوام جعل النجوم موطنا لاطفال يشبهون اطفال الارض ، وهم جميلون نضرون كجميع الاطفال الذين نحتفظ لهم باعز زاوية من قلوبنا . كم تصبح النجوم اغلى واقرب وكذلك سماوات النجوم ، حين نعلم انه هناك ، في مكان ما ، على نجمة ما ، ثمة كائنات كالامير الصغير ، نعرفهم ، وهم متلفعون باحسن الود الانساني ! كم تكون الكواكب جميلة لو انها مسكونة بمثل هؤلاء الاطفال ، لا بالعسكريين من رجال مارس أو بالناس الآليين المصنوعين من الاسلاك والارقام !

وكل كاتب يخلق كوكبه الخاص في ابداعه هذا ما أكده فرانسوا مورياك وكوكب سان أكزوبيري يبدو صغيرا ، فيه ازهار ، وفيه أشجار حبحب ، وبراكين تتطلب ان تكون يقظا قربها . والاكثر أهمية ، انه يعيش عليه طفل يستطيع أن يعمل . وكما يستطيع أن يكون بستانيا يستطيع ان يكون أيضا جنديا .

لم يسقط الامير الصغير من الكويكب على كوكبنا ، بل صعد من الارض الى النجمة ليملأ بقربها بالضوء ذاته الذي تضاء به بيوت الناس حيث يلعب الاطفال .

في « أرض البشر » قصة منقولة عن ريبورتاجات سان اكزوبيري السابقة تحدث فيها عن سفرة في مقطورة من الدرجة الثالثة ، وسط الناس الذين يملاون العربة ، يلعب فتى صغير ذهبي الشعر « يشبه الامير الصغير » قد « يصبح موزارت اذا سمحت له ظروفه » . وقد تكون هذه المقطورة من الدرجة الثالثة ، وبين الناس العاديين ، هي المكان الحقيقي لمولد « الامير الصغير » .

لقد حاول سان اكزوبيري في كل اعماله الابداعية ان يصالح عبق الحياة الجديد مع القيم الاخلاقية القديمة ، والدقة الرياضية مع الخيال ، وأنوار الارض مع أنوار النجوم . حكايته حكاية معاصرة حقا . الغروبات تستبدل بالكواكب الصغيرة ، والطيارون بعلماء الفلك . وهي محكية بحب عميق للاطفال ، وبسخرية خفيفة للكبار من هذا الحب . وبحزن عليه . انها ، دون ريب ، بوح شعري . وفنية البوح الشعري تفرض التماسك الداخلي ، والعفوية المنغمة وتلقائية المظهر . وقد حقق الشاعر كل ذلك ، لانه احس دائما التقارب بين مصير الامير ومصيره الخاص .

ونرى كيف انه على الرغم من تحريمات الاطباء والجنرالات ظل الطيار الذي صار هرما يطير فوق فرنسا المحتلة على الآلة الحربية وفي ٣١ تموز عام ١٩٤٤ اختفى في سماء البحر الابيض المتوسط ليتحول الى اجمل نجوم الادب الفرنسي المعاصر .

الموت البطولي يضفي جمالا ماساويا على تاملاته الشعرية ويحيل حكاية « الامير الصغير » الى رسالة من رسائل المعادين للفاشية المحكومين بالاعدام ، والتي هي أجمل دليل على رجولة النفس الانسانية .

جمهور يتقبل كل شيء

وسائل الاعلام والاطفال

صلاح دهني

اذكر عن سانت اكسوبيري انه كان يتساءل دوما حين ينظر الى وجه صبي صغير عما اذا لم يكن في حضرة موتزارت جديد ، ثم يستدرك : لكنه موتزارت يقوم اناس على قتله .

يشير سانت اكسوبيري بالطبع الى خطورة البيئة والتربية مع ان الكاتب الكبير عاش الجزء الاكبر من النصف الاول من القرن العشرين . فما بالك بما كانت عليه حالة الطفولة بنحو عام على مدى الدهور التي سبقت وحتى نهاية القرن الفائت ؟ فيما مضى كانت الطفولة مهملة ان لم نقل محتقرة وتقع في اسفل درجات الهموم العائلية والانسانية بنحو عام . ولعلنا اذا نبشنا الادب العربي كله وتصفحنا دواوين الشعر من امرىء القيس وزهير نزولا حتى القرن الفائت ، ما وجدنا قطعة متكاملة مخصصة للطفولة ، لا لها ولا عنها ، تلك ليست حالنا فحسب . يقال انه فيما عدا رابليه ومونتني وفينيلون لم يقارب اي كاتب فرنسي كبير موضوعات الطفولة من القرون الوسطى حتى القرن الثامن عشر ، لم هذا الغياب ؟ لان الطفل لم يكن له في تلك الازمة وجود مستقل . والادب ليس من شانه الا ان يعكس اخلاق العصر ، او ان سادته يملكون حساسية جد مرهفة تنبىء بما ستكون عليه مسالك الشعور في مقبلات الايام لذا كان من غير الممكن فصل الاعمال الادبية (والفنية كذلك) عن المجتمع الذي تزدهر فيه . ففيما مضى لم يكن احد يحسب للطفل حسابا ، بمعنى انه لم يكن يمثل شخصية يلتفت اليها الناس باهتمام : فلا يكون له وجود ولايظهر علىصفحة المجتمع الا بعد ان يصبح في سن البلوغ . وفيما قبل ذلك كان الطفل مخلوقا صغيرا تنهض العائلة بمهمة تقويمه ومعاقبته ، اذ هو مادة لا شكل لها يتوجب ، بالالزام والاجبار ،حبسها داخل قالب جد ضيق .

كان الطفل شخصا متوحشا يقع على التربية ان ترفعه من حالة التوحش تلك وان تدفعه بالجهد الدائب والقاسي الى أن تبلغ به مرتبة اعلى واسمى . فالجمال ليس في المبتدأ ، بل في آخر الشوط .

ولاتتغير هذه النظرة الى الطفل الا بعد مجيء جان جاك روسو الذي يدخل نوعا من الرومانسية في علاقة الادباء بطفولتهم بالذات ، ومن بعد بطفولة الاخرين وبالفعل ينتقل الامر من قطب الى قطب . فالطفل الذي لم يكن يمثل شيئا يضحي كل شيء ، يصبح على الموضة . وانقل هنا مقطعا احتفظت به بين أوراقي امدا طويلا لكاتب فرنسي عاش في أواخر القرن الفائت يدعى « لوغوفيه » : « في هذا القرن حيث كل شيء يتجدد ، لا اعرف تحولا اخطر أهمية من ذاك الذي يمس علاقة الاباء والابناء في المجتمع المعاصر . ان الاطفال يشغلون الآن في العائلة حيزا اكبر بكثير مما كانت عليه حالهم في السابق : فالأهل يعيشون معهم اكثر ، يعيشون من أجلهم اكثر : اما بسبب مضاعفة الحذر والحنان ، أو بسبب الضعف وتراخي السلطة ، انهم ينشغلون بشؤون صحتهم ، وتزداد رقابتهم على تربيتهم ، ويفكرون براحتهم ومسرتهم ، ويصغون اكثر فاكثر الى رأيهم . حتى لقد بات الاولاد على وجه التقريب الاشخاص الرئيسيين في البيت ، وقد وصف شخص دعوب تلك الحال بقوله : سادتي الاطفال » .

مثل هذا التحول في العلاقة مع الاطفال عم العالم المتمدين كله ، وهو في سبيله الآن فحسب لأن يعم عندنا اكثر فاكثر ويكسب قطاعات متوسعة من الناس . وآية ذلك ليس فحسب ماتشهده في صلاتنا اليومية ، بل كذلك ، الخير المتعاظم الذي تمنحه وسائل الاعلام للطفولة ، والكثرة من الكتاب الذين يخصصون انتاجهم كليا أو جزئيا لها . يسعنا ان نقول بعد هذا ان الطفولة قد ربحت الجولة .

ومن المفيد أن نعرف بان اهتمام اوربا الوليد بالطفولة في نهاية القرن الفائت قد واكب اختراع السينما في الفترة ذاتها . فكان ان عكفت السينما الاوربية منذ البدايات على مجاراة موضة العصر فاخذت بانتاج أفلام عن الطفولة . واستمر هذا الاهتمام بنحو متصاعد منذ فترة ماقبل الحرب العالمية الاولى ـ حين تم الاعتراف بالسينما كفن وكوسيلة تعبير ـ وحتى يومنا هذا .

فتنوعت الافلام ووجدت مدارس واصناف من روائية وتعليمية وتعريفية ورسوم متحركة خاصة كلها بالاطفال ، وبالتالي وجدت صالات متخصصة بعروض الاطفال ، ومن ثم برامج

محددة في التلفزيون الذي بدأ بالانتشار الواسع مع مطالع الخمسينات في الولايات المتحدة أولا ثم في أوربا ، وبلغ مناطقنا في العام الاول للستينات (وقبيل ذلك انتشر في العراق). تبعث السينما الادب اذن في استكشاف عالم الطفولة ومناطقه المختلفة بحثا عن وجوه الحساسية فيه كيما تضرب على أوتارها . وجدت من جهة في جملة ما وجدت أن لاشيء ابعث على الحنان ، ويمتلك جمالا سحريا لايعادله جمال ، مثل وجه الطفل . ووجدت السينما من جهة ثانية في الوقت ذاته ـ بما تملك من مقدرة على خلق الحيل الفنية واشاعة جو عجيب من التخييل ـ انها هي نفسها تلتقي بطبيعتها مع محركات النفس الطفولية . (تقول نشرة قديمة لاحدى اوائل شركات السينما : « ان الدراجة تقوم وحدها ، دونما قائد ، وبلا راكب ، بتمرينات لايقدر عليها سوى حصان مدرب تدريبا تاما . فتسير ، وتقفز فوق الحاجز ، وتجتاز الحفرة ، وتعود فتحيي الجمهور ») .

لهذا السبب أخذت السينما بصنع افلام لصالح الاطفال ، وجعلت تبعث تلك المناطق المستترة حيث المحال اكثر استحالة والغريب اشد غرابة . لجأت في ذلك الى افلام الرسوم المتحركة التي تزخرف صورها احلى ذكرياتنا الذهبية ، حيث الشطط يكاد يكون القاعدة وحيث الاساطير وكل مايمتع العين يعبر بالمشاهد الى عالم فانتازي خارج عالم الناس وشجونهم اليومية . ولجأت السينما الى افلام الحيوانات والمسوخ : حيوانات عاقلة وعالمة وحصيفة تعرف ما تريد وتحقق اغراضها بالحيلة الذكية ، ومسوخ تعتمر بقبعة الحمار لكن واحدها يتكشف عن استاذ متفقه وعالم متبحر وله من الفضائل بمقدار أضعاف ماللغير . تلك الحيوانات وتلك المسوخ تعمر ذاكرة الاطفال وتسكن أولى حدائق الخيال . ان الحيوانات التي تعلم الناس كيف يتصدون للمصاعب بما هي عليه من صور غريبة واشكال وبما تملك من حيلة وفطنة ، ذلك كله يشكل ما هو جديد وفريد ، شان ما الطفولة ذاتها جديدة وغريبة .

ويأتي والت ديزني فيقدم شخوصا من الاساطير والحكايات الشعبية السائرة في اوربا وامريكا وقصص الجدات للاحفاد ويمازج الاشكال الانسانية مع الاشكال الحيوانية في افلام تجوب العالم كله وتلذ لكل الناس في كل الاعمار . في تلك الافلام نرى أن الشخوص الذين يتسمون بالشاعرية المؤثرة ليسوا الشخوص الادميين فحسب ، بل كذلك حيوانات الغابة والمسوخ . حتى قيل في وقت من الاوقات ان والت ديزني لم يعد شاعرا ولم يعد اعظم من حرك الحيوانات في السينما ، بل أصبح احد المنظرين السرياليين على الشاشة .

ان في وسع المرء ان يستفيض طويلا في ذكر الاصناف والانواع الطفولية في السينما . لكننا نود من خلال هذا كله أن نخلص الى ملاحظة اساسية هي ان نجاح افلام الاطفال بهذا النحو المستمر وخصب مجالاتها سنة بعد سنة وعلى مدى طويل يدل دلالة قاطعة على ان موضوعة الطفولة ليست حدثا عارضا وليست شانا خاصا لما يمكن تسميته بصرعات الموضة . حتى لقد يبلغ الانسان من خلال إعمال النظر لان يقتنع بان لاشيء يوازي دوام الاحتفال بالطفولة في السينما سوى استمرار الاهتمام بموضوعية افلام رعاة البقر . وهذه الديمومة الاستثنائية قد تتصل بما تكشف عنه موضوعة الطفولة منقرابة ونسبمخصوصين بفن السينما .

ثمة ملاحظة اخرى اساسية : هي ان غالبية الافلام انما تحتفي بالعلاقات بين الاطفال والكبار ، بما يعني انها لا تحتفظ من الطفولة بغير مظهرها الخارجي ، الاقرب ، الاكثر آنية، الاكثر قدرة على اتاحة الفرصة لتقديم صور ومشاهد مثيرة . في حين أن الطفولة فيعالمها الداخلي ، في خرافتها الذاتية ، قلما اغرت السينمائيين ، ذاك ان مثل هذا الموضوع لايتسلسل الا كمادة للتامل وغرض للتفكر . وهذا وجه بين للضعف .

هنالك وجه آخر . فاذا كان السينمائيون قد عانوا من صعوبة اظهار الطفولة في سريتها المكنونة وفي تفتحها ، فقد واجهوا الصعوبة ذاتها في تصوير ماتخلف من آثار في الذاكرة بعد ان تكون فترة الطفولة قد مضت وانقضت . فوقفوا بنحو عام عند حد التعبير عنتوق حزين وغامض الى الماضي ، وارسال شكاة توجع غير مترابطة نجد فيها قدرا من انتشاء وقدرا من قلق . في حين ان بلوغ ماهو اساسي يتطلب عدم الاكتفاء بهذا الاحساس السهل، بل الاقتناع ــ والاقناع ــ بأن الطفولة هي موئل التحول ، وبان الهم الاساسي للفنان يجب ان يكون اعادة خلقها وتكوينها ، اذ ان الطفولة ليست سوى محبة ورقية وصحبة نقية وشاعرية للماء ، والرمل ، والجذوع ، والبساتين . ولعل قائلا يقول بحق ان السينما لم تنجح على الدوام في هذه المهمة التي كانت جديرة بالقيام بها . لكنها في اقل الاحوال منحتنا دون ريب ماكنا في مسيس الحاجة اليه ، منحتنا اصدقاء ، وشعراء ، واعماق الصفاء وسحر الاخاء ، وبقيت الطفولة رغم المتاجرين بها بالسينما ، المدنسين هيكلها وكل هيكل ، مادة طيبة واخاذة للسينما النظيفة تمنح النفس الهدوء وترتفع بها الى ذرىالنقاء والمحبة .

الطفل يواجه الفيلم :

يميل الاطفال الى السينما ويترددون عليها بانتظام ويرتاحون الى مشاهدة الفيلم حتى حين لايكون بالغ الجودة . فدار السينما تهيء لهم مهربا من كل ماتعافه نفوسهم . ففيها يجدون قاعة فسيحة ومقاعدة وثيرة ومتعة مؤكدة ، تبيؤهم للتأثر البالغ ولاهتزاز مشاعرهم بما تعرضه عليهم من قصص ومغامرات تفتقر اليها حياتهم .

وقد تضاربت الاقوال فيما ينتج عن السينما من تأثير في الاطفال ، سلبا او ايجابا . فها هو ذا ناقد فرنسي يدعى ادوار بولان يكتب عام ١٩١٨ قارعا ناقوس الخطر بكلمات مجلجلة : ان السينمائي غالبا مايتميز بسوء الخلق ، فهو يسمم افكار الصغار والكبار . ان الافلام البوليسية الاجرامية والمسيئة للاخلاق تقف جنبا الى جنب مع الاعلانات الدعائية المثيرة والرخيصة لتجعل من الناس لصوصا وقطاع طرق .

بل لقد وجد من يقول بان السينما اداة لحض الاحداث على ارتكاب الجريمة . فحكايات المجرمين ومغامراتهم (وبطولاتهم) تحبب الاطفال بهم وتدفعهم الى تقليدهم . فهل حقا تقوم السينما بهذا الدور ؟

في العديد من مراكز البحوث في العالم درست هذه الامور بشيء من الدقة . وكانت نتائج البحوث والدراسات متقاربة واحيانا متلاقية .

بدىء اول ما بدىء - كما هي العادة - بالاحصاءات . دلت الاحصاءات على ان ربع سكان كل بلد وسطيا هم من الاطفال دون سن السادسة عشرة . ودلت على ان اكثر من نصف رواد السينما بنحو عام هم ممن لم يبلغوا سن العشرين . وبهذا استقر الرأي على ان من الاهمية بمكان ان تنتقى الافلام التي تشاهدها تلك الفئات الواسعة من الاحداث بدقة وعناية فائقتين .

ولكن ابتداء من اي عمر يفهم الاطفال سير الاحداث في الفيلم السينمائي ؟ عكف علماء وباحثون نفسانيون على دراسة هذا الامر . ومن بين هؤلاء قامت الباحثة الفرنسية السيدة « زازو » ببحث تجريبي استمر فترة طويلة وشمل عدة فئات من الاطفال خرجت منه بمجموعة من النتائج حول استيعاب الاطفال للفيلم :

« في سن السادسة والسابعة يستوعب الطفل فكرة عامة عن حبكة الفيلم .

ويجب انتظار سن الحادية عشرة عند العدد الاكبر من الاطفال لفهم تسلسل الحوادث في الزمان والمكان .

وفي الثانية عشرة يحيط الطفل بتسلسل الحوادث ، ويتابع الفيلم بارتياح ويجد منه متعة ونشوة .

وابتداء من تلك السن وما بعد يبدأ بالتردد على دور السينما مرة او اكثر في الاسبوع الواحد . وهنالك من بين الاولاد من يتردد على السينما ثلاث أو حتى اربع وخمس مرات اسبوعيا رغم ما قد يعانيه اهله من مصاعب مالية .

وقد وجدت في العديد من الدول المتقدمة صالات خاصة تعرض أفلاما أنتجت خصيصا للاطفال ، وراعت ظروفهم ورغباتهم وما يستوعبونه وتضمنت في احيان نظرات تربوية مدروسة . وتشمل تلك العروض افلاما عادية وافلام رسوم متحركة . الا ان ذوي الاختصاص وجدوا انه من غير المسيء اصطحاب الاطفال احيانا لمشاهدة افلام الكبار حين يصيرون الى سن يقدرون معها على فهمها . بل لقد قال بعضهم ذلك كيما لا يبقى الصغار منعزلين عن عالم الكبار وما ينتظرهم فيه من مشكلات ومصاعب وشجون .

ومن قبيل العلم بالشيء انقل هنا ما حصل عليه « جزل Gesell » من نتائج حول رغبات الاطفال في مختلف الاعمار وما يفضلون من افلام .

في سن السادسة : يحب الطفل الافلام القصيرة . وأحب شيء اليه الاشرطة التي تسجل حياته الاولى . اما في دور السينما فيجزع لمشهد المناظر المحزنة ، وينفر من مشاهد القتال ، ويتقبل بسرور الافلام الموسيقية وافلام الحيوانات .

في سن السابعة : تبقى افلام الحيوانات والموسيقا والرقص هي المفضلة . يعاف افلام الحب . ينفعل بالفيلم وقد ينقلب ذلك الى بكاء وصراخ في السينما .

في سن الثامنة : يبدأ بالتمتع بالسينما . يحب الاشرطة الاخبارية وافلام الحيوانات ، لكنه ما ينفك يكره افلام الحب .

في سن التاسعة : يحب بعض الاطفال في هذه السن تكرار مشاهدة افلام يؤثرونها ، ويتعرفون على الممثلين .

وهذا بيان آخر صدر عن السويد حول ما يفضله الاطفال في سن تالية :

في سن الحادية عشرة : يميل الطفل بنحو خاص لافلام الحيوانات وقصص المغامرات والهنود الحمر .

في سن الثانية والثالثة عشرة : يميل لافلام الشرطة والقصص الغامضة .

في سن الرابعة عشرة : تبقى الافلام البوليسية هي المفضلة لدى الصبيان .

في سن الخامسة عشرة : يكثر تردد المراهقين على حضور الافلام الواقعية .

ان هذه النتائج التي حصل عليها العلماء من خلال بحوثهم التجريبية الفنية تدل آخر الامر على ان السينما تمارس تاثيرا اكيدا على الاطفال . فهي بما تملك من قوة الايحاء تستطيع التاثير بشدة حتى في مسلك الاطفال . وهذا سبب آخر لضرورة حسن اختيار ما يسمح للاطفال بمشاهدته وما لا يسمح . فليس من المهم فحسب بان يرضى الاهل بان الطفل يتسلى في الفيلم ، لكن من المهم ايضا توجيه تلك التسلية . وفي هذا المجال يذكر الباحث « دال » بان للسينما تاثيرا اكيدا في أعصاب الاطفال . فبعد مشاهدة فيلم ما يزداد اضطراب الاطفال اثناء النوم بمعدل ٢٦٪ لدى الذكور و ١٤٪ لدى البنات من العمر ذاته . كما ان ما يصيب الاطفال بين سن السادسة والحادية عشرة اثناء النوم من جراء فيلم محدد يعادل ثلاثة اضعاف من يفوقونهم سنا .

نخلص من هذا الى ان دور السينما كمصدر تربية ومعرفة دور مهم للغاية ، بل هو اكثر اهمية من دور الفنون الاخرى . لان الطفل ـ كما تقول دراسة سوفياتية ـ يشاهد افلاما قبل ان يتعلم القراءة ، وقبل ان يتمكن من استيعاب الرسوم او المنحوتات او حتى الموسيقا . هكذا فان صحة مواطني المستقبل النفسية ووضوح رؤيتهم ونقاء تطلعاتهم امور ترتبط بشكل اساسي بالسبل التي تقودهم الشاشة اليها . على ان هذا لا يعني ـ كما يقول الكاتب وعالم التربية ميخالكوف ـ ان تصف الافلام المستقبل للاطفال وكانه عيد مستمر او رحلة ممتعة في ابعاد لا ضباب فيها . بل يجب تحذير الطفل من مصاعب الحياة ، وتعويد قلبه الغض على شيء من الخشونة لكي يناضل ضدها . ويضيف : « في رأيي ، ان الاخلاص للحقيقة والحياة يعني تربية الاطفال بحيث يصبحون اعداء لكل ما هو سيء وضار وبال ، لكل ما يعرقل المجتمع في سيره الى الامام . وفي الوقت ذاته ، لا يجوز حشر اي شيء في الفيلم دون تمييز . يرى بعض السينمائيين الغربيين ان مشاهديهم الصغار يجب ان يعرفوا كل شيء عن كل شيء . انا أرى ان هذه لامبالاة اخلاقية من جانب

الفنان ، وليست مهارة . لقد كان لفن الاطفال ولسوف تبقى له كذلك سمات مميزة . وهذا التمييّز لا يعني تبسيط المواضيع والصراعات والطبائع . بل يكمن في وضوح الشكل ضمن البساطة التي يصعب الوصول اليها في الفن » .

ان افضل الافلام المقدمة للاطفال تلك التي تعرض الواقع المحيط بهم ، بكل غناه وبكل صعوبة التفسيرات النفسية لتصرفات الابطال . تلك التي تظهر علاقة عالم الصغار بعالم الكبار بكل تعقيداته ، وعلاقة الطفل بالحياة بكل مظاهرها . الامر الذي يساعد الطفل في الوصول الى الحقيقة ، والى ما يستحق ان يكون له مثلاً اعلى .

لذا كان على الفنان الذي يعمل في حقل سينما الاطفال ان يرى العالم بعيني طفل ، وهذا ليس بالامر السهل اطلاقا . اذ ان المتفرج الطفل يجب ان يعامل بجدية بالغة ، فهو يكره التعامل الفوقي ، ويمتنع ان يعامل كفرد غير مكتمل النضج (وهل هو بالنسبة الى سنه غير مكتمل ؟) . يقول غوركي : « يجب ان نتعامل مع الطفل بجدية ، ويجب على كتبنا الموجهة للاطفال ان تساعد الطفل على هضم كل ما انتجته الثقافة الانسانية . وفي الوقت ذاته يجب ان نتكلم مع الطفل بصيغ فنية راقية . ان طبيعة الطفل تتطلب كل ما هو غير عادي . فعلى الكاتب ان يجد هذا الشيء غير العادي في الحياة العادية » .

الطفل يواجه التلفزيون :

هنالك كلمة مفزعة لرئيس جامعة شيكاغو يقول فيها :

« ارى زمنا يأتي ، بتأثير التلفزيون ، لا يحسن فيه الشعب الامريكي قراءة ولا كتابة ، ويحيا حياة اشبه ما تكون بحياة الحيوانات » .

هذه الكلمة تحمل الكثير من التشاؤم والسوداوية من اثر التلفزيون في مشاهديه ، وتنكر على برامجه اية صفة ايجابية بناءة . غير انها تمثل كذلك قمة التخوف الذي يجيش في نفوس الصفوة المثقفة الامريكية على ابناء قومها .

ان الموقف الرشيد الذي يحسن الاخذ به هو الا نقلل من اخطار التلفزيون وبخاصة على الاجيال الطالعة ، والا نسعى الى التوكيد اعتباطيا بان التلفزيون (او السينما ، او اية وسيلة اخرى جماعية للنشر) ، ترفع آليا من المستوى الثقافي للجماهير . فالدراسات تؤكد بان الامر ليس بهذه السهولة ، وبان التلفزيون في افضل الاعتبارات لا يشكل اكثر

من حافز في جملة حوافز اخرى ، قد تدفع الانسان للتعلم واغناء الذات ، أو قد تدفعه أحيانا الى الطريق المضادة ، طريق الشر والسدور في الغي والجهالة .

ولعل من المهم ان نعرف الاثر الذهني الذي يخلفه التلفزيون في نفوس الاطفال . ومن حسن الطالع ان تكون لدينا بعض المعلومات حول هذه النقطة الاساسية ، وفرتها لنا مراجع جادة أو نظرات خاصة في حال برامجنا التلفزيونية المخصصة للاطفال وغيرها .

فاذا اخذنا بالنتائج التي توصل اليها العالم « هيملفايت » ، قلنا منذ البدء : ان التلفزيون بنحو عام ، لا يساعد اطلاقا على تحسين المستوى التعليمي للاطفال بل يؤكد هذا العالم ان الاطفال الاصغر والاقل ذكاء هم نسبيا اكثر فئات الاطفال افادة من التلفزيون . وقد يكون سبب ذلك انهم قلما يفيدون من اسباب التعلم الاخرى ، كالمدرسة او القراءة . يستند العالم في ذلك الى ان النتائج المدرسية للاطفال الذين يشاهدون التلفزيون اكثر من غيرهم ، لا تفضل نتائج رفاقهم ممن لا تملك عائلاتهم التلفزيون ، كما لا تتردى عنها .

وعلى نقيض ذلك ـ وهنا نقطة رئيسية في الموضوع ـ فان الاثر الدافع او الحافز او التربوي الذي نجده ضعيفا لدى صغار نظارة التلفزيون فيما يخص المواد الدرسية ، يعود بالمقابل ، فيضحي كبيرا فيما يخص عالم الكبار . فالشاشة الصغيرة تفسح للصبية وللبنات فرصة تعلم شؤون كثيرة ما كان ليتاح لهم تعلمها بدونها ، بل ما كان يجدر بهم تعلمها ، وبخاصة منها كل ما لا يتصل بدنيا الطفولة .

وقد بينت دراسات عديدة خصصت لكشف تأثيرات التلفزيون في الاطفال ، وأجريت في الولايات المتحدة وفي بريطانيا ، بان التلفزيون ، بسبب من وضعه الصغار على صلة بمشكلات الكبار وقيمهم ، يدفع بهم الى مزيد من القلق يستشعرونه على مستقبلهم ومستقبل أفراد عائلتهم ، وينمي فيهم نزوعا الى الاضطراب وعدم الاستقرار ، ويكشف لهم في وقت جد مبكر تعقيد الاحوال العائلية والمعاشية والاجتماعية ، وباختصار صعوبة الشرط الانساني .

والحق ، فان كل شيء يتعلق آخر الامر بمحتوى البرامج المبثوثة . والخطر كل الخطر انما يتمثل بالنسبة للصغار والكبار على حد سواء ، في تعوّد التفاهة التي تتسم بها مجمل البرامج ، والتعلق بحطام التقاليد ، والخوف من التجديد ومن الافكار الطليعية

الجريمة . وهذا ما أبرزه علماء الاجتماع الامريكيون من مثل « آدورونو » وعزوا أسبابه الى ان منتجي البرامج التلفزيونية في بلادهم ياخذون العامل التجاري ومتطلبات الرواج الاكثر من أي عامل آخر في اعتبارهم .

من هذه النقطة أريد ان انطلق الى القول ان التلفزيون الذي ولد في قطرنا من يومه الاول متحررا من القيود التجارية ، كان يمكن ، بل ويتوجب عليه ، ان يلعب دورا تحريريا ، بناء ، لاجيالنا الطالعة التي تتهيا لتحمل المسؤوليات واعباء المستقبل .

غير أن الذي جرى هو اننا اخترنا السبيل الاسهل : اعتمدنا منذ اليوم الاول نمطا معينا من المادة الفيلمية الاجنبية ، ورحنا نقدمها لاطفالنا على مر الايام والاسابيع والشهور . ولو اننا امعنا النظر قليلا في محتوى تلك المادة ، لوجدنا انها هي ذاتها التي تثير علماء الاجتماع في الغرب وقادة الفكر فيه تحسبا وخوفا على اقوامهم وعلى مستقبل الثقافات الوطنية .

واذا كنت أوثر التحدث عن برامج الاطفال فحسب ، فلكي يسعني ابراز الخطيئة الاساسية التي ارتكبت ، ولا زالت ترتكب . وما على المرء المستزيد بالتالي الا ان يعمم النتائج على القطاعات الاخرى .

فلقد اخذ التلفزيون عندنا ــ وفي معظم الاقطار العربية ، بل في ظني كلها ــ منذ يومه الاول بتقديم هذا الضرب من الرسوم المتحركة أو افلام الكرتون الامريكية ، وسماها « افلام اطفال » . فهل هذا صحيح ؟ والى اية درجة يحق تسمية هذه الافلام بافلام أطفال ؟

ان الموضوعات التي تطرقها ونوعية معالجتها تشكل في الحقيقة امتدادا طبيعيا لنشرات الـ « كوميكس » الامريكية ، هذه النشرات والمجلات التي دخلت العالم العربي في فترة ما على نطاق واسع ، بادئة في بعض دور النشر التجارية المصرية « مجلة سندباد ... » ، ثم منطلقة انطلاقا عريضا في دور النشر اللبنانية في فترة ما قبل الاحداث المؤلمة : « بساط الريح ، سوبرمان ، سمير ... » .

ما الذي تقدمه أمثال هذه المجلات لقرائها الصغار في العالم العربي ؟ تقدم نماذج لبطولات خارقة لا يعيها العقل ولا يستوعبها المنطق ، قد تكون حافزا للخيال ، لكنها ـ باستنادها الى الخارق والمحال ـ تحير الالباب الغضة وتوقع فيها الاضطراب والقلق .

وقد شاقني امدا طويلا ان اتابع افلام الاطفال تلك ، بوجود الاطفال . فما راعني الا انهم كانوا ابدا يخرجون منها بخفي حنين تربويا ، وتجول في عيونهم واذهانهم تساؤلات عديدة لا يجدون عنها اجابة ، ولا يمكن ان يجدوا .

ومع الايام تعوّد الاولاد الا يسالوا ، واكتفوا من افلام الكارتون بهذه الصدمات الضوئية والصوتية التي يتلقونها من الشاشة الصغيرة ، ومن عالمها الكثيف الرهيب . واقول « رهيب » وأنا أسال القارىء ان يجرب ما قمت بتجريبه مرات عديدة : ان يغادر غرفة التلفزيون خلال عرض فيلم كارتون امريكي ، وينتقل الى غرفة أخرى مجاورة يتابع بالسمع فقط دون الرؤية الشريط الصوتي المرافق للرسوم المتحركة . لسوف ياخذه العجب دون ريب من تمازج الاصوات البشرية المشوهة عن طبيعتها ، والضجات المفتعلة ، والمؤثرات الصوتية الغريبة المتباينة ، والتغيرات الموسيقية المفاجئة ارتفاعا وانخفاضا ، وكيف ان هذا يمتزج كله في آن واحد ضمن جو صوتي شائن ، عجيب ، ورهيب !

ان جو افلام الكارتون التي يراها اطفالنا (وقد بدات تطعّم بافلام منتقاة آتية من بعض الدول الاشتراكية) ، هو جو حمام ساخن بدرجة الغليان ، يكشط الجلد اكثر مما يجلو الاعضاء ، ويبهظ القلب ، ويرهق الاعصاب اكثر مما يريحها .

بالطبع ، ليست أفلام الكارتون كلها من هذا النوع . هنالك في العالم افلام كارتون ذات محتوى انساني ، وعلى مستوى انساني ، يتابعها الكبير والصغير ، ويخرج منها بعبرة ، بدرس ، وليست مجرد شلال من الصدمات العصبية ، ضوئية وحسية ، تمرق على الشاشة الصغيرة كحد السيف .

وهنالك للاطفال في العالم غير افلام الكارتون ، افلام أخرى عن الحيوانات ، او يقوم بتمثيلها اطفال او كبار وتقدمها تلفزيونات العالم ، من نوع سلسلة افلام « فرديناند »

التي قدمها التلفزيون عندنا قبل سنوات ، وفيها كوميديا ، وفيها عبر تربوية ، وفيها حنان انساني .

اخرج من هذا كله الى اننا يجب ان نقف بتهيب امام وسائل الاتصال بالطفل ، وان نشعر بمسؤولية مضاعفة تجاهه . وفن السينما ، كما هو فن التلفزيون ، وشان وسائل الاتصال الجماهيري الاخرى ، يجب ان تشكل كلها حوافز تربوية وثقافية وارشادية لاطفالنا .

مراجع :

- « السينما والطفولة » لبول فاندروم ـ منشورات سيرف ـ باريس .
- دراسات مختلفة حول الطفولة والسينما والتلفزيون .

قوس قزح للقراءة الملونة

عرض نقدي موجز لبعض كتب أدب الاطفال الاميركية

ستيفن كانفر

ترجمة فاروق هاشم

يقول الكاتب (جراهام جرين) : « في فترة الطفولة تكون كل الكتب كصحائف للتنبؤ بالغيب ، فهي تخبرنا عن المستقبل . ومثلما يفعل قارىء البخت ، الذي يرى طريقا طويلا تكشف عنه أوراق اللعب التي يستشيرها ، أو يبصر الموت غرقا ، فان الكتب تؤثر في المستقبل » وعلاوة على ما يعرفه الاطفال ، فان الكتب الخاصة بهم تغير المدركات المتعلقة بالعاملين الواقعي والاخلاقي ، وأكثر مما يعترف به الكبار ، فان هذه المدركات تتخطى فترة الشباب وتتعداها الى مرحلة النضج والشيخوخة . وهذا سبب كاف يدعونا الى نبذ معظم المؤلفات المعدة للفت النظر والتباهي أو الكتب الضحلة التي بدأت تزين أرفف البيع بالتجزئة . وعلى الرغم من ذلك ، فان كل عام ، يشهد صدور بعض المجلدات التي تتحدث بصيغة مستقبليـة .

يبدو كتاب (غيلان قوس قزح) The Rainbow Goblins ، من تاليف أوي دي ريكو ، منذ النظرة الاولى كتابا لطاولة شرب الكاكاو . واذا ما نظرنا اليه ثانية ، فان القياس الذي اخرج به هذا الكتاب ، ١٢٫٥ × ١٦٫٥ انشا ، له ما يبرره فرسومات دي ريكو الضخمة توحي بما انتجه ليوناردو ، وتذكرنا قصته بالاخوين (جريم) (١) . وتقوم بالادوار الرئيسية فيها مجموعة من المخلوقات الصغيرة السريعة الاهتياج والكثيرة

التلمر ، والتي ينبغي أن تظل مرتبطة بالثقوب السوداء البعيدة : فهذه المخلوقات تتناول الضوء واللون طعاما لافطارها . وأكبر فريسة لتلك الغيلان هو قوس قزح نفسه . ويظهر أن أعداءهم الازهار والحيوانات كافة على سطح الارض . ويمكن أن ينتصر نوعان فقط على هذه الغرائب : مؤلف الكتاب والقارىء .

فيما مضى ، كان كل كتاب جديد من تاليف الدكتور (سويس) يبدو موسميا ، مثل مباريات البيسبول أو فاكهة البرتقال . أما الآن ، فلم يعد الامر كالسابق . ويبلغ الكاتب (ثيودور جايسل) Theodore Geisel الآن الرابعة والسبعين ، وقد أخذ انتاجه بالتباطؤ . ومما يدعو الى الاغتباط ، فان بطله غريب الاطوار لم يفقد أيا من سرعته . ففي كتاب بعنوان « أستطيع ان اقرأ بعينين مغلقتين ! » ، يبرز من جديد موضوع « القط في القبعة » ، وهو حيوان ماكر يتحدث بلغة الطفولة العالية . ويقول (ويمسي) : « سوف تتعلمون حول جاك الثعبان وعن فو ـ فو الثلج » . وهنا ، كما في أكثر من ثلاثين كتاب سابق يتضح أن الطبيب هو اخصائي بالعين والاذن .. وتناغم قوافيه البسيطة المخادعة مصممة لكي تُسمع وتفحص بالتكرار حتى توقظ القصائد الصغيرة الاطفال وتقودهم الى متعة القافية ومتع القراءة والكتابة .

« مـن أنت ؟ »

قال صائد الفراشات :

« أنـا ؟ أنا معتوه » .

« آه ، اذن . من المحتمل انك لا تعرف الطريق الى شارع نوكتنا جل ».

ولكن صائد الفراشات يعرف ذلك ، وأخيرا يربط الباحث الى حيث يريد ، بين ذراعي كلب البودل الجميل . وهذا شيء حسن : لان البطل هنا مغرم بمرافقة الكلاب .

---

(١) The Grimm Brothers هما أخان ألمانيان عالمان في فقه اللغة والفولكلور . (جاكوب لودفيج كارل) ١٧٨٥ـ١٨٦٣، و (ويلهلم كارل) ١٧٨٦ـ١٨٥٩ من أشهر أعمالهما (قصص شعبية ألمانية وحكايات خرافية) « المترجم »

وفي كتاب بعنوان (تيفكي دوفكي) Tiffky Doofky ، يرينا وليام شتايغ كيف ان انصاره الاحداث يعادلون انصار شخصية (بيبد بيبر) ، وكيف ان أربعة عقود من عمره قضاها رساما كاريكاتوريا في صحيفة « النيو يوركر » قد علمته بالضبط كيف ومتى يحرك خطوط الدمى .

قد يكون الجو مواتيا للسفر ، والاجرة اقل كلفة ، ولكن لا يمكن لاي طائرة نفاثة ان تنافس سحر قاطرات السكة الحديدية وحافلاتها فوق الخطوط المعدنية البراقـة . واذا ما وضعنا هذه الحقيقة نصب اعيننا ، فاننا نجد ان (دونالد كروز) قد استخدم ريشة الفنان السحرية وعين المصمم لكي يربط أحداث كتابه المسمى (قطار الشحن) بالنسبة الى النص فانه يفتقد الزينة مثل سيارة تحمل فحما حجريا ، ولكن الصور تمتاز بنقاء وقوة مما يجعل (امتراك) يفعل ما بوسعه لتقليدها .

وهنا كتـاب بعنـوان (الجندب على الطريـق) Grasshopper on the Road لمؤلفه (ارنولد لوبل) ، وهو رائع لصغار السن . ويتحدث عن الجندب ، تلك الحشرة التي لا تعرف الراحة ، والتي تقابل في طريقها خنفسة تحمل يافطة كتب عليها (قبلني . انه الصباح) ، وذبابات بيتية نظيفة ، وديدانا تستحم داخل التفاح ، وبعوضا يتبع اقصى القواعد حتى عندما يكون في لحظات الحمق . وكباقي الفرديين (ومعلم الاطفال) يتجه بطل القصة الى صيف مختلف . وتصحبه رسومات (لوبل) بقوالب انيقة ، وتبدو تلك الحشرات وقد اكتست بسيقان عديدة كانها صف من أفراد الكورس ، وتقـوم بالكثير مـن الإمتاع .

وتخلط (قصة فضاء) Aspace Story بين روح الخيال العلمي الروائي والحقائق الاساسية لملاحة الفضاء . فعندما يحدق (سام) الى الميل المرصع بالنجوم ، يسال امه عن ماهية الناس الذين يمكن ان يعيشوا هناك في الاعلى ، في مجرة سحيقة البعـد ، ويحملق ولد آخر الى سماء مختلفة ، ويتساءل عن الناس الذين يمكن ان يعيشوا هناك . وفي الوقت نفسه ، تدور الكواكب بصمت وتتوهج النجوم وتضمحل . وقد قام الفنان (مارك سيمونت) بتزويد الكتاب برسومات تشبه الطباعة على الحجر (ليتوغراف)

مما يثير في النفس مناظر كالاحلام ، وتملك لغة السرد الشاعرية عند المؤلفة (كـارلا كوسكين) قوة التركيز الملحمة فضغطت حتى اصبحت بحجم الامثولة .

تبدو فترة النهضة ، الرينسانس ، بالنسبة الى الاطفال الامريكيين سحيقة البعد مثل العصر الحجري . ويقدم لنا كتاب بعنوان (ماتيو Matteo) تعليما تصحيحيا ، ويتخذ في الوقت نفسه شكل الكوميديا . والتوقيت الذي تستخدمه المؤلفة (فيونا فرينتش) ليس دقيقا مثل ذاك الذي يجري في كتاب (هني يا نغمان) ، والنكتة العملية التـي يقوم بها احد النبلاء معنحات تماثيل تبدو نوعا ما فارغة من الروح. ولكن رسوماتها الايضاحية تستخدم بصورة ذكية لوحة ألوان القرن الخامس عشر ، والوجوه الماخوذة عن القطع النقدية المعدنية القديمة . فلو قدر لدانتي أن يكتب كتابا للاطفال ، فلا يمكنه الا أن يستخدم هذه الرسومات في منتصف الرحلة لاتمام كتابه .

« يحكى انه كان في قديم الزمان قطعة خشب ». هكذا يبدا كتاب (مغامرات بينوكيوه The Adventures of pinocchio) . وقد الفه (ك . كولودي) وقام بترجمته الى الانكليزية (كارول ديلا كييزا) . ولكن كما يرينا هذا المجلد المثير للانتباه ، فان هذه القصة تنقصها النهاية الحقيقية ، فالدمية المتحركة التي يزداد طول انفها كلما صدرت عنها اية كذبة تبلغ من العمر قرنا كاملا تقريبا ، ورسومات (أتيليو موسينو) كانت قد نشرت لاول مرة عام ١٩١١ . ومع ذلك ، فان هذه النسخة ـ وقد اعيد تصميمها نوعا ما من أجل الاستهلاك الحديث ـ تتحدى الزمن تماما مثل كل الحكايات الخرافية . وتظهر الملابس المصنوعة من الورق ، والقبعة المصنوعة من الخبز ، والنجار (جيبتو) الشريف ، والقط والثعلب ، والبنية اللازوردية ، كلها على انها اختراعات صممتها العبقرية . واولئك الذين يعرفون فقط النسخة التي اخرجتها عبقرية (ديزني) يمكنهم أن يكتشفوا المواضع التي استقاها هؤلاء المقلدون ، واية نقاط فشلوا في اعطاء المفهوم الاصلـي عنهـا .

وقصيدة (روبرت فروست) التي وضعت في كتاب يحمل الاسم نفسه : (التوقف عند الغابة في مساء ثلجي) Stopping by woods on a snowy Evening تعتبر واحدة من القصائد الاخيرة التي يحفظها الامريكيون عن ظهر قلب .

« الغابات رائعة ، مظلمة ، وعميقة الاغوار ولكن لدي أسرار ينبغي الاحتفاظ بها . » .

ولهذه القصيدة رنين يتخطى الاشجار التي يغلفها الصقيع والعربة التي يجرها الحصان ، والتي تثير الحنين الى الوطن والبيت . وتقدم (سوزان جيفرز) ، عبر رسومات خفيفة الالوان وبعض الخطوط الرقيقة ، شروحاتها عن القصيدة بنوعية ملموسة الدقة : فبنطال السائق . يعطي نفس احساس دفء الملابس ، ورقائق الثلج التي تلتف كالدوامة تجلب قشعريرة برد الشتاء ، ووجه (فروست) الباش لكل صفحة في الكتاب .

لا تزال المؤلفة (بياتريكس بوتر) على قيد الحياة ! اذ أن تاثيرها عميق جدا حتى ان اشباح (بيتر رابيت) والسنجاب (ناتكين) واضحة ومحسوسة في كتاب (وليمة القنفذ) The Hedgehog Feast والفنانة (اديث هولدين) التي كتبت (المفكرة الريفية لسيدة من العصر الادواردي) ، كانت في الحقيقة معاصرة لمؤلفات الانسة بوتر ، ومع أن كتابها معد من أجل السوق الامريكية ، فان هناك انكليزية قوية ظاهرة فيه . والالوان المائية الرقيقة التي يحفل بها كتاب « وليمة القنفذ » ، والقصة الهادئة ، قد تبدو غير فاقعة في الفترة التي شهدت كتابا بعنوان (شارع سمسم) Sesame Street ، لكن تلك الرسومات تملك تاثيرا راسخا يؤدي معروفا للآباء والاطفال بعد عناء اليوم ، عندما يجتمعون للمسامرة معا في المساء .

هناك بعض النكات التي لا تفقد رونقها . فكتاب (راسل هوبان) المسمى (مطعم العشرين فيلا) The Twenty - Elephant Restaurant يحدثنا عن متعهد يمول اعلانا يبحث عن حيوانات رمادية ضخمة تساعده في تنفيذ اعماله . وعندما يستجيب عشرون فيلا لذلك الاعلان ، يقيم الرجل وزوجه مكانا خاصا لاطعامهم . لكن بعض المشاكل تنشا . فبعض الفيلة يسأل : « لماذا تتحرك الشوربة المصنوعة من الدجاج والكريمة جيئة وذهابا في الزبدية ؟ » .

ويستفسر فيل آخر : « لماذا تهتز قطعة الجيلي على هذا النحو ؟ » ... وهكذا يجمع المسؤولون متاعهم ويولون الادبار خارج البلدة ، وينهار بيتهم من بعدهم .

أما الآن ، فقد آل المكان الى شخص واحد وهو صاحب السيرك ، وأضحى أيضا مطعما للعشرين فيلا . ان المؤلف (راسل هوبان) يعرف كيف يقول الاشياء بصورة لا تجبر الآخرين على الاخذ بها على محمل الجد . والرسومات المائية التي نفذتها ريشة (إميلي ماكولي) تعيد الى الاذهان بصورة مفرحة الشخصيات الكوميدية من أمثال (بابار) و (دامبو) ومدينة حدائق الحيوان .

وهناك (جيمس ستيفنسون) ، وهو رسام كاريكاتير آخر ، الذي التفت ناحية الاطفال ، وربما كان السبب لكونه يملك تسعة منهم ! وبالجو المضحك البهيج الذي يسيطر على كتابه المسمى: (ونستون، نيوتون، إلتون، وإد) Winston, Newton, Elton, and ed نراه وقد أدخل بعض حيوانات (الفظ")[٢] التي تندمج في فرح صاخب مع أقربائها ، وكذلك طائر البطريق الذي يغطس داخل وخارج الماء الحار في جليد القطب الشمالي . وتتضمن حيوانات ستيفنسون دائما شخصيات من بني آدم تمثل أطفالا يرتدون ملابس كالفراء وتعاكس بذلك نظرية الآباء المعروفة القائلة بأن أطفالهم بالواقع ليسوا سوى حيوانات في هيئة بشر .

يمكن أن تتوفر خطط قليلة أكثر جمالا من تلك التي تظهر في كتاب (مملوء بالغيوم مع فرصة لكرات اللحم) Cloudy with a Chance of Meatballs وهناك القليل منها الذي ينشر بطبعات فاخرة مفعمة بالمرح والصخب . ففي بلدة (تشيشواند سوالو) ، يقوم الطقس بدور قائمة الطعام في مطعم . وعندما تبدأ السماء تمطر الهامبورغر عوضا عن الماء ، يكون ذلك هو صحن الطعام اليومي . وعندما تعصف سندويتشات السجق ، فان سحب الخردل لا يمكن أن تتأخر . ولسوء الحظ ، فان فصلا من عواصف الملح والبهار يسيطر

---

(٢) Walrus حيوان لدي بحري شبيه بالفقمة

« المترجم »

على الكان ، مما يجعل السكان ينطلقون بحثا عن أرض أخرى ، بعد ذلك ، لا يبدي الاطفال أو الكبار كما كانوا عليه من قبل. لكن الكلمات التي الفتها (جودي باريت) والرسومات المضحكة التي نفذتها ريشة (رون باريت) تشير الى أن الاكل والولائم تستمر حالما يتعلم سكان البلدة كيف يفصلون بين قائمة الطعام والاطفال .

ان كتاب (انني أشعر بالسام فليس لدي ما افعله) Bored - Nothing to Do ! هو اكثر من صرخة مالوفة . وهو أيضا تعريض ماكر باولئك البالغين الذين يتباهون أمام الناشئة : « عندما كنت في سنكم ... » . وتدور القصة حول أخين ، غارقين حتى أذنيهما في السام ، يُطلب منهما أن يتصرفا حسب هواهما بالوقت المتاح لهما . ان ما يقومان بفعله ليس سوى طائرة مخلعة الاوصال ، هي تعبير تام عما تريده كلمات المؤلف (بيتر سبير) ورسوماته العنكبوتية . وسوف يجد كل الاطفال ، بالاضافة الى الكبار الواعين ، الحكمة من وراء هذا العمل : فالناشئة يمكن أن يتعلموا شيئا ما أوليا بعد اقتراب الكارثة ، بينما يتباهى الوالدان بصورة فيها الكثير من الضجيج عن عبقرية وابداع أبنائهم .

في احدى المرات ، كتب (إي. ب. وايت) عن شخصية تدعى (ستيوارت الصغير) ، وهو فار يعيش في عالم البشر . أما كتاب (سباق الجرذ) The Rat Race تاليف (كولين ماك نوتون) فهو يعكس تلك الاسطورة ، فانطون ولد صغير يقضي معظم وقته مع الحيوانات القارضة . ويثبت في النهاية أن تلك الجرذان ما هي الا جوكيات (جمع جوكي) لها ذيول، وهم أكثر اهتماما بتحريك خيولهم من اهتمامهم بالقراءة . وهم مولعون أيضا بالغش في سباقات الجري على الاقدام ، ويجد الملك نفسه مضطرا الى التدخل قبل أن يفوز انطون بالجائزة الاولى ، مما يجعله يقرر العودة الى البيت الى والديه البشريين . وكم سيزداد سرور القراء عندما يرونه من جديد بينهم .

ان كتاب (نبات الفطر في المطر) Mushroom in the Rain هو نوع من الكتب ذات الطبعات العادية التي يمكن أن تؤخذ الى السرير مع البطانية . والحكاية التي تقصها علينا في هذا الكتاب المؤلفة (ميرا غنسبرغ) بسيطة مثل ثرثرة عادية ، ولكن الرسامين

(جوزيه أرويكو) و (آريان ديوي) يقدمان صورا تقدم دروسا بقدر ماتجلب التعلم والتسلية. فبالنسبة الى الاطفال الصغار ، الذين يتساءلون : ماذا يحدث للحيوانات عندما تمطر السماء ، أو ماذا يحدث لنبات القطر عندما لا تمطر ، فان هذا المجلد الرفيع يقدم لهم اجابات مقنعة .

وفي كتاب (رحلة آنو) Anno,s Journey نجد الفنان (ميتسوماسا آنو) يبتعد عن الطريق التعليمي وينتج صورا لا تحوي أي نص ، وتعبر عن رحلات عبر مناظر أرضية ريفية . لكن (آنو) في صميمه معلم مما يجعل عمله لا يقتصر على دور الشرح والرسم . ومع ان كتاب الرحلة هذا مصمم على طريقة الرسومات الشرقية الموجودة على اللفائف الورقية ، فتجد أن الارضية أوروبية ، ويمكن للقارىء المتمعن ان يجد سلسلة من الامور المفاجئة المدهشة ، فهناك تفاصيل ماخوذة من لوحات لرينوار ورميليه ، وألعاب الاطفال ؛ ولمحات من شخصيات يعرفها الاطفال من كتب سابقة ، مثل (بنوكيو) (ريد الصغير) و (شارع سمسم) .

في هذه الايام ، يحب القراء الصغار والقراء الكبار قراءة مؤلفات (أوديد) عن الحرب . ولكن (وليام بينيه دو بوا) لديه طريقة لتقديم المتفجرات التي تبدو غير مؤذية مثل مفرقعات الاحتفالات . وطبقا لكتاب بعنوان (الغابة المحرمة) The Forbidden Forest فان بطلين وبطلة استطاعوا ان ينهوا الحرب العظمى . أما عن الطريقة التي استطاعوا بها ان يفعلوا ذلك ، فهناك الكثير من المنجزات والتعقيدات التي يمكن ان تكون أرضية لرواية من تاليف تولستوي . ويكفي أن نقول إن البطلة تتضح فيما بعد أنها سيدة ليست من البشر ، وتفضل أن تكون في بيتها في أوستراليا . وأولئك الذين يخشون من ان الموضوع ميال جدا للقتال والحروب بالنسبة الى القراء الصغار ، فعليهم أن يتاكدوا من حقيقة ان هذه الحكاية التي تقفز بسرعة مهداة الى الممثلة (جين فوندا) . بالاضافة الى ذلك ، وكما قال (أوغدين ناش (٢)) في احدى المرات بحكمة :

---

(٢) Ogden Nash (١٩٠٢ -) شاعر من نيويورك يكتب أشعارا خفيفة ذات مواضيع مختلفة ، من السخرية والمزاح الطيب . وهو مؤلف اشعار غنائية ايضا .

* المترجم *

كلما أراد الشعراء ان يعطوك
فكـرة عن ان شيئًا ما
هو متواضع ومعتـدل ،
فانهم يقارنونه بالطفـل ،
وبذلك يثبتون مع ان الشعراء
في شعرهم ذائعو الصيت
انهم لا يعرفون حقائق الحيـاة .

التعبير عند الطفل

تأليف فريق من المختصين النفسيين *
ترجمة ياسر الفهد

لقد ظلت معظم الحضارات تنظر الى الطفل ، حتى وقت قريب ، على انه مخلوق بسيط عديم الاهمية لا يستحق أن يؤبه له كثيرا أو يولى اكثر مما ينبغي من الاهتمام ، فليس من الغريب والحال كذلك أن يتم اعلان حقوق الانسان قبل قرنين من اعلان حقوق الطفل ، وأن يجري تأسيس جمعيات الرفق بالحيوان قبل ظهور اية علائم او بوادر تبشر بانشاء مؤسسات رعاية الطفل . وفي العقود الثلاثة المنصرمة أجريت ابحاث مختلفة في العديد من الاقطار لسبر أغوار الطفل وأماطة اللثام عن مطاوي شخصيته ، وقد تم بفضل هذه الابحاث كشف النقاب عن معظم العوامل التي تتحكم بنمو الاطفال وديناميكية تطورهم وسير وظائفهم العقلية . ولكن المهم بشكل خاص كرامة الطفل والحقوق المؤهل لها ومسؤولية الراشدين في احترام هذه الحقوق . وبمناسبة العام الدولي للطفل أصدر المركز الدولي للاطفال ومقره في باريز ، عددا خاصا بالطفل أسهم في تحريره فريق من علماء النفس والاجتماع والانثربولوغيا والمربين واطباء الاطفال ويضم هذا العدد مقالات منوعة حول حاجات الطفل وصفاته الفيزيولوجية والنفسية وتطوره وهي مبنية على دراسات سابقة واخرى حديثة. ومن المعروف ان احدى الحاجات الهامة للطفل هي التعبير الذي سيكون محور اهتمامنا في هذا المقال . فحاجة الطفل الى التعبير عما يعتمل في نفسه ويجول في خاطره اساسية وحيوية ، ويعد ارواؤها ضروريا اذا أردنا ان يشب الطفل سويا وقادرا على الاستقلال

* — نشر هذا المقال في مجلة « تشلدرن » ، ولم يذكر اسم المؤلف بل نوه بان فريقا من المختصين قاموا بتأليفه .

الذاتي والابداع والتحليق في عالم الخيال ، والتكيف مع عالم الواقع المتغير باستمرار . ولكن ماهو التعبير ؟ لقد فسرت هذه العبارة تفسيرات شتى لذلك فان من الضروري بمكان ايجاد تعريف دقيق لها وتحديد مضامينها ومقاصدها .

والتعبير بمعناه العام هو التجسيد لشيء موجود فعلا ، ولكنه ظاهر للعيان للوهلة الاولى ، وبمعناه السيكولوجي هو ابداء هادف موجه نحو اشخاص اخرين . وهذا الابداء (أو الاظهار) لايتم ابرازه الا بوجود هؤلاء الناس الاخرين . واذا كانت معظم اعمالنا كالمشي والحركة والتحديق البصري وكشف اسارير الوجه تعبر عن بعض مظاهر شخصيتنا ، فان هذه التعبيرات لا ارادية ، وليست موجهة نحو أحد ، وبالتالي لايمكن ان ندخلها ضمن نطاق التعبير بمعناه السيكولوجي . لذلك فعندما توصلنا الملاحظة او الظروف الى اكتشاف بعض مظاهر الحياة الداخلية للطفل فانه ليس بوسعنا ان نسمي هذه المظاهر تعبيرا لان القصدية أو الغرضية معدومة هنا .

ولكن من جهة ثانية عندما يتمتم الطفل أو يثرثر مخاطبا نفسه فاننا نستطيع ان نعد ذلك تعبيرا رغم عدم وجود شخص آخر يوجه اليه الكلام . فالتعبير عند الطفل ينطوي على مفهوم يختلف عن المفهوم السيكولوجي العام .

الحاجة الى التعبير

ان التعبير حسب تعريف علماء النفس ، حاجة موجودة عند جميع الكائنات الحية ، وهو يتخذ اشكالا عديدة ويتسربل بجلابيب مختلفة . واذا نحينا جانبا التعبير اللاارادي الذي أتينا على ذكره آنفا ، فان الحاجة الى التعبير تتمثل بحاجة كل فرد الى إبراز شخصيته ، للعرض والتمثيل امام نفسه اولا ، بصرف النظر عن الطريقة المتبعة ، ثم لنقل ذلك الى الاخرين والاتصال بهم ثانيا . وبهذا المعنى فان التعبير هو طريقة للتمثيل والعرض تسهم في تطوير الشخصية ، كما انه في الوقت ذاته وسيلة لمد الجسور الى الآخرين وتحقيق الاتصال والتواصل معهم . وبالنسبة للطفل فان الحاجة الى التعبير تتخذ شكل حاجة الى الفعل . فهذه الحاجة تتبدى بالبكاء أو الصياح كما يمكن ان تتجلى في الرسم أو الغناء المرتجلين . وتتناسب قوة الفعل مع اهمية ما يرغب الطفل في التعبير عنه ، اما شكل التعبير الذي يتم اختياره فيتوقف على مرحلة تطور الطفل وشخصيته وما يتوق الى التعبير عنه . وقبل أن يعرف هذا كيف يتكلم فانه يعمد الى التلميحات والمحاكاة ، ولكنه

عندما ينمو يغدو اكثر قدرة على الوصول الى أشكال التعبير الاخرى كالرسم والعزف الموسيقي والكتابة ، ومع ذلك يظل قاصرا عن التعبير عن بعض الاحساسات والمشاعر العميقة كالحزن أو الحسد بسبب افتقاره الى المفردات الفنية وبعد ذلك يأخذ في استعمال لغة أخرى (كالرسم أو الرقص) للتعبير عما يجول في أعماقه ويعتمل في داخل نفسه ويعن له من صور . ان التربية الفردية والاستعدادات الخاصة لكل انسان هي التي تقرر وتعين اختيار اللغة التي يمكن بها التعبير عما يدور في الخلد بيسر وسهولة اكبر . وفي هذا المجال يمكن استعمال الشعر أو الرقص أو النحت كوسائل للتعبير الراقي .

التعبير والاتصال :

ان الحاجة الى التعبير مرتبطة بصورة وثيقة بالحاجة الى الاتصال مع الآخرين ، ولكن الحاجة موجودة بمعزل عن الثانية . وخلال السنة الاولى من الحياة يثرثر الطفل ويلعب وحده دون رغبة في الاتصال بالاخرين وهو لا يحاول امتلاك زمام الوسائل التي تمكنه من الاتصال الا بعد ان يشعر بلذة التبادل والتواصل .

ان التعبير جسر يصل بين عالمين الاول داخل الفرد والثاني خارجه ، وهو يتم بعملية تتسم بالضغط وبدفع اعمق ما في داخل الشخصية الى خارجها . اما الاتصال فيعني استعمال وسائل معينة (كاللغة أو الغناء) لجعل الحياة الداخلية للشخص واضحة للاخرين . وهو يعد من المستلزمات الاساسية لتوازن الشخصية . والرغبة في التعبير عن الذات ، تماثل من حيث القوة ، الرغبة في تحقيق الاتصال فنحن نشعر اولا بالحاجة الى تجسيد مشاعرنا وأفكارنا وانطباعاتنا وحتى نشبع هذه الحاجة ننقل مفاهيمنا وافكارنا الى الاخرين . فالتعبير قائم في قلب الاتصال ونحن نضع جزءا من انفسنا فيما نقول وننقل . ان احد أهداف التربية ما قبل المدرسية على نحو خاص يجب أن لا يكون تطوير وسائل التعبير عند الطفل حتى يغدو قادرا على تعلم التعبير عن نفسه وصنع التعبيرات المفهومة للاخرين ، فحسب ، وانما ايضا اكسابه القدرة على الفهم التلقائي لتعبيرات الاخرين وهذا هو الاتصال .

تطور التعبير : أشكاله المختلفة :

ان المظاهر التعبيرية عند الطفل تبقى تلقائية حتى سن السنتين والنصف . وهذه المظاهر لا شكل لها ولا يمكن السيطرة عليها أو توجيهها .

وما يكتسب أهمية خاصة لدى الطفل ، التجسيد في مواقف معينة ، فهو يقفز عندما يتملكه الفرح ، وينفجر في البكاء عندما يداهمه الخوف ، ويرتجف عندما تغلي مراجل غضبه . وبعد سن الثانية والنصف يصبح التعبير هادفا فيتوجه الطفل نحو الآخرين باحثا عن التفهم والقبول منتظرا الاستجابة ، معلقا أهمية على معنى ما يعبر عنه ، معيدا باستمرار صياغة ما ينتج عنه . وبالتدريج يتعلم كيف يعبر عن نفسه بطريقة مناسبة وفي الوقت المناسب فيتغلب على عقبة اللغة ويصبح قادرا على التكيف الاجتماعي ثم يكتسب القدرة على ما يسمى بالتعبير الملتزم . وهذا النمط من التعبير يمكن أن يبدأ قبل سن السادسة ولكنه يغدو ثابتا راسي الاساس بعد هذه السن . وهو حصيلة حاصل التربية التي تميل الى الحد من قدرة الطفل على التعبير الحر . فالتعبير الملتزم لا يشبع حاجة الطفل الى التعبير ولا يتناغم مع حاجته الى الخلق والاتصال لانه يقلص حريته . اما بالنسبة للتعبير العفوي التلقائي فهو يشبع الحاجة الى الخلق ولكنه يبعد الاتصال . ولابد من اقامة توازن بين هذين الشكلين من التعبير حتى يستطيع الطفل تطوير امكاناته الابداعية وتاكيد شخصيته وقدرته على الاتصال . وليس بالامكان قصره على شكل واحد منهما سواء اكان تلقائيا أم ملتزما دون حرمانه من بعض امكاناته . ومع اتقان الطفل لتقنيات التعبير يسير في طريق الالتزام والتقيد بقوالب جاهزة للتعبير الى حد ما وفي الوقت نفسه يثري تعبيره التلقائي وتتدعم قدرته على التعبير عن نفسه بصورة صحيحة وعلى ترجمة ملاحظاته وانطباعاته وأفكاره بدقة أكبر . وسوف نستخدم هنا مثال اللغة لتوضيح ما سبق : إنّ التعبيرات الصوتية الاولى للطفل هي في غاية الفنى ، ومن خلالها يعبر عن حقيقة انه كائن ناطق قادر على الخلق . وهذه القدرة الخلاقة تظهر في شعابها الوعرة ومسالكها الصعبة ، فيخترع الكلمات التي يفتقر اليها . وعندما يرغب في الاتصال ، يتوجب عليه أن يمتلك ناصية اللغة ويلتزم بالقواعد التي تحكمها وبالطريقة التي تستعمل فيها الكلمات في وسطه الاجتماعي .. وهنا تتراجع ابداعيته وتذبل ويحل محلها الاتصال ، وقد تختفي كلية ، كما يحدث لدى استعمال الصيغ المؤدبة كالرسائل الرسمية ، أو عند التعبير عن مناسبات معينة كتهاني العرس مثلا . وهذا الالتزام المتطرف في اللغة لا يترك مجالا لتطوير الشخصية والتعبير المخلص الصادق عن الذات والابداع لانه يجعل الطفل مقيدا بأطر من التعبير مرسومة سلفا .

شروط التعبير :

ان كل مرب يهمه التأكد من ظهور حاجة الطفل الى التعبير وترعرعها . وهذا يستلزم اكثر من مجرد تطوير وسيلة التعبير اذ لابد أيضا من ايجاد الظروف المهيئة لحدوث التعبير وكذلك لتطوير المقدرات اللازمة لاشباع الحاجة اليه . وليست هناك اي تقنية حتى لو كانت اللغة أو الرقص أو الرسم قادرة على الاسهام في اشباع الحاجة الى التعبير اذا لم يكن هناك حث أو تحريض (حفز) . وحتى يعبر المرء عن نفسه فان عليه أن يشعر بالحاجة الى فعل ذلك وبحيازة الوسيلة التي تمكنه من التنفيذ أيضا . ان الطفل الذي يعيد نسخ رسم ما انما يقوم بتمرين حركي فالانموذج الذي يتقدم لم يشكل حافزا خارجيا اي حافزا مفروضا من الخارج . والحافز الخارجي عكس الحافز الداخلي فهذا الاخير هو الذي يقود الى التعبير الصحيح . ويظهر الحفز الداخلي من خلال خبرات الطفل الذي يجمع الانطباعات والاحساسات والمشاعر ، ثم يشعر في وقت ما بحاجة ملحة الى نقلها الى الآخرين . وعندما يكون انطباع الطفل قويا جدا فانه يعبّر عنه مباشرة ويعيش الموقف ثانية بشكل صحيح ويقلد المشتركين فيه ، فيصبح أسدا او حصانا أو أمّا . وخلافا للنسخ فان التقليد يمكّن الطفل من خلق تعبيره الخاص المبني على تعبير الآخرين . وليس من الضروري ان يقع الانطباع والتعبير الناتج عنه في وقت واحد ، فقد تفصل بينهما هوة زمنية كبيرة . ويجب عدم استعجال التعبير أو فرضه فرضا ، اذ علينا ان ننتظر اللحظة المناسبة . ومن المفيد أن يكون هناك فاصل قبل نقل العواطف التي تكون من العنف بحيث لا يجوز نقلها على الفور . وينبغي أن يعيش الطفل حياة غنية في العواطف والخبرات حتى تصبح لديه أشياء يعبر عنها . ولابد من تشجيعه على ملاحظة الاشياء المحيطة به واستخدام حواسه كافة وترقب الحقائق والظواهر التي يمكن ان تقع . فاذا كان الطفل يقظا في بيئته فانه سوف يصبح مستعدا لتلقي ما تقدمه له . أما اذا كانت البيئة فقيرة ولا تحفل بالكثير من الحوادث أو تفيض بالخبرات فان من واجب المربي ان يعوض عن ذلك ، ولكن دون انتهاج نهج التطرف والسير في الطريق المعاكسة ، فكما ان شح البيئة غير مرغوب ، فان غناها المصطنع الزائد عن الحد هو أيضا ينطوي على الضرر ، فالاشياء الكثيرة التي تظهر في وقت واحد والحوادث المتعاقبة التي تقع في تتابع مستمر من شانها ان تبعثر اهتمام الطفل وتجعله اقل استعدادا للتلقي . لذلك فان الانطباعات المتلقاة تكون حينئذ من السطحية بحيث لا يمكن التعبير عنها فيما بعد . ومن الامور التي يجدر ذكرها ان المستندات من اي نوع كانت (الكتب ـ القصص ـ الصور ـ الموسيقى ـ

الانتاج الفني) تعيد تدعيم الانطباعات وتنضجها وتقود الى التعبير الفني . ولكن الحفز وامتلاك المادة التي يجب التعبير عنها لا يكفيان لحدوث التعبير الذي يستلزم جوا يرين عليه الهدوء والاسترخاء .

والشيء الوحيد المهم هنا هو حقيقة التعبير عن الذات . اما النتيجة فتاتي اهميتها في المقام الثاني . فالطفل ينبغي أن يشعر بالحرية في تجريب نفسه ، بكل ثقة ، حتى لو لم تكن النتائج باهرة ، ولموقف الراشد من الطفل سواء اتسم هذا الموقف بالتساهل والمباركة أو بالتشدد والمنع تأثير حاسم في قدرته على التعبير والتي يمكن أن تتقلص بدرجة كبيرة بسبب اضطرار الطفل الى مسايرة توقعات الراشد ومفاهيمه والالتزام بها . وكثيرا ما يكون تدخل المربين والوالدين عديم الجدوى في الاسهام في تعبير الطفل وابداعيته واستقلاله ، فبدلا من مساعدته على تجاوز الالتزام فان هذا التدخل يجعل الطفل مقيدا بضرورة ارضاء الراشد ونيل استحسانه نشدانا للطمانينة . ان ترك الطفل وشانه او توجيهه والسيطرة عليه كلاهما موقفان مثبطان لا يؤديان الى تشجيع التعبير ، فالراشد ينبغي هنا أن يتصرف كما يتصرف إزاء نشاطات الطفل الإخرى ، اي أن عليه أن يتخذ موقفا وسطا يتسم بالتدخل المعتدل والارشاد الحكيم غير المباشر ... ويثير توافر مجموعة من المواد والادوات نشاط الطفل ، فهذه تمكنه من استعمال التقنيات وتحسينها من خلال الممارسة ، وبالتالي تطوير وسائل التعبير والارتقاء بها . وكلما ازداد تعبير الطفل عن نفسه ، أصبح التعبير اكثر سهولة ويسرا واضحت النتيجة افضل .

الكتاب مسؤولون عن العالم كله

عزيز نيسين

نص الكلمة التي القاها الكاتب التركي عزيز نيسين في اللقاء الدولي الثاني للكتاب الذي انعقد في صوفيا في حزيران ١٩٧٩ .

كان امير المؤمنين ، الخليفة الاسلامي عمر بن الخطاب يطوف شوارع المدينة المنورة اثناء الليل ، ويدخل البيوت ، لمعرفة احوال الرعية .

وقصد في احدى الامسيات احد الاحياء الفقيرة في المدينة ، وسمع من احد البيوت المتداعية، اصوات اطفال يبكون ، فاهتم بالامر وطرق الباب ، وفتحته له امراة ، لم تعرفه . وشاهد عمر اطفالا خمسة يجثون متعانقين وهم يبكون ويرددون : « نحن جياع يا اماه ! » ، وكانت الام تمسك بمغرفة تحرك بها قدر الطعام الموضوع على النار وتخاطب الاطفال : « انتظروا قليلا يا اولادي حتى ينضج الطعام . لسوف اطعمكم الآن » .

يتابع الاطفال نشيجهم ، والمراة تحرك القدر ، دون أن ينضج الطعام . وسأل عمر المراة عما تطهوه ، فرفعت غطاء القدر ، وشاهد عمر داخله قليلا من الماء والحجارة ومن ثم عمدت المراة الى تحريك حجارة القدر على نارالموقد ، وقالت : « لاحطب لموقدنا ولا طعام في قدرنا ... لدينا بضعة حجارة فقط . ويظل الاطفال ينتظرون طهو الطعام وهكذا اسكتهم كل مساء ويغفون جائعين ... » .

وبعدئذ اخذت المراة التي لم تكن تعرف من يحدثها ، تلعن الخليفة عمر وتقول : « فليعاقب الله عمرا لانه اصبح خليفة ! فليصب بالعمى ... ولينفجر ... والا يبقى منه اثر ! » . ولم يستطع عمر الصبر فسال المراة : « وماذنب الخليفة عمر في ذلك ؟ » .

فاجابته : « او ليس بالخليفة وبالتالي فان سائر الذنب يقع عليه ... » .

بعد كل هذا دمعت عينا عمر فغادر المنزل البائس وهو يقول : « عمر هو المذنب لان امراة فقيرة في كوخ متهالك تحرك الماء والحجارة لاسكات اطفالها .. واذا ما مات طفل نتيجة الفاقة فالمسؤول هو عمر .. واذا لم يجد المريض العلاج فعمر هو المسؤول ... واذا ما انتحب بائس فالذنب ذنب عمر ايضا .. » .

ايها الاصدقاء الاعزاء ، لم يعد منذ امد بعيد في هذا العالم الذي نعيش فيه ، وجود لخلفاء يحملون المسؤولية ويتحملون الذنب ، ولكننا نحن معشر الكتاب من يعيش الآن . نحن الكتاب ، مسؤولون عن كل مايحدث في هذا العالم ، نحن المحامون عن المعذبين والبائسين والمظلومين والمحرومين في العالم اجمع ، ونحن حماتهم المدافعون عنهم ايضا .

اننا نقوم نحن ، معشر الكتاب بمهمات المهندسين المعماريين بناتي الراي العام العالمي . لم يكلفنا احد بهذه المهمة ، وانما اخذناها نحن على عاتقنا ، فاذا ماراح بعض الناس المجهولين قتلا في مكان مجهول ما في العالم فالمسؤولية تقع علينا ، نحن الكتاب ، واذا مات الاطفال بسبب الجوع والامراض والعوز في مكان لا نعرف حتى مجرد اسمه في هذا العالم ، فمن تظنون المسؤول ؟ انه نحن ايضا ، معشر الكتاب .

لقد بلغ قتلى الحرب العالمية الاولى مايزيد عن ثمانية ملايين شخص ، وقتل ابان الحرب العالمية الثانية ٥٠ مليونا . وبالنسبة للحرب العالمية الثالثة فانها لم تقع . نها لم تتحقق ، ولكن هلك منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن ٤٠ مليـون انسان في مختلف الحروب المحلية والموضعية ، وكان حربا عالمية جديدة قد حدثت بالفعل .

ولكن اذا كان العارفون بمسؤولية الكاتب المقبل قبل الحرب العالمية الاولى لايعدون واحدا ولا خمسة ولا مائة ، وانما جميع كتاب العالم آنذاك ورفعوا اصواتهم ضد الحرب لما هلك وقتئذ ثمانية ملايين انسان ، ولو ادرك قبل الحرب العالمية الثانية جميع كتاب عالم ذلك العصر مجددا مسؤولية الكاتب ووقفوا في وجه الحرب لما سقط ٥٠ مليونا من القتلى

« لقد ألفنا روايات ومسرحيات ! » ، ولكننا سنبقى نجيبهم : « انها كلمات جوفاء ...».
ايها الاصدقاء الاعزاء ، اننا نعرف كلنا جيدا ان هناك في عالمنا ، العابا كبيرة تجري ، ومن هذه الالعاب بلبلة الشعوب باضفاء المعاني المغايرة على المفاهيم في ادراكها ، ويتم في عصرنا اضفاء معان مختلفة على مفهوم السلم . ان السلم الذي نفهمه نحن ونريده للعالم قاطبة ، ليس بسلم عادي ، فثمة في هذا العالم حروب من اجل الشرف والواجب ، على غرار حروب الاستقلال والتحرر الوطني ، وهناك ايضا صراعات طبقية . اننا نناصر هذه المعارك لان السلم الحقيقي لن يستتب الا بنجاح هذه المعارك . نعم اننا مناضلون من اجل السلم، ولكنه السلم الذي يتم بهذا المعنى .

نحن نبذل الجهود باقلامنا في سبيل بناء عالم لاطفالنا ، يتمكن فيه اطفال المعمورة جمعاء من العيش في ظل سلام حقيقي .

فليعش اولئك الذين يناضلون من اجل السلم الحقيقي ، ليعش السلم العالمي ،وليعش الاطفال .

آراء حول أوضاع الأطفال وحقوقهم

بمناسبة العام الدولي للطفل

ترجمة خليل شطا

الشمس والسعادة للاطفال

اناتولي اليكسين

اناتولي اليكسين كاتب اطفال سوفياتي ، حصل على جائزة ا هـ. س. اندرسن الدولية ، ترجمت كتبه الى جميع اللغات في البلاد الاشتراكية ، كما ترجمت الى الفرنسية والانكليزية والاسبانية . والايطالية واليابانية والفارسية والهندية والاردية الخ .

اشتركت هذا الصيف في اجتماعات في اليونسكو لبحث موضوع العام الدولي للطفل . لقد كان من دواعي السرور أن ممثلين عن عشرات من البلاد ، وان اشخاصا من مختلف المهن يتحدثون بتأثر وانفعال عن مستقبل الاطفال ، وبالتالي عن مستقبل كرتنا الارضية فتذكرت آنذاك أقوال (لينين) الذي قال ان الاطفال السوفييت « سوف يتمتعون تماما بثمار الجهود والتضحيات التي وافق عليها الثوريون » . وقد تحقق تنبؤ هذه الاقوال « الافضل للاطفال ! » ، فاصبح هذا الشعار قانونا في بلادنا .

من الطبيعي انني ساعنى بخاصة بمشكلات الادب المخصص لتثقيف الجيل الصاعد ، وانا واثق بان لهذه المشكلات علاقة مباشرة مع عام الطفل .

منذ أن تسلم النظام السوفييتي الحكم نشرت أكثر من عشر مليارات من الكتب للاطفال ، ماعدا الكتب المدرسية . وبالطبع لم تنجح هذه الكتب كلها من الناحية الفنية . ولكنك لاتجد واحدا منها قد رسخ بين سطوره في أذهان الاحداث « افكارا » ضارة توحي بكره المجتمع وبالعجرفة العنصرية . ان كتبنا وافلامنا وعروضنا المسرحية واذاعاتنا للاطفال ، هذه كلها مستوحاة من افكار انسانية . ونحن فخورون بذلك .

اذكر اني في احدى المناقشات التي تعالج مشكلات ادب الاطفال والشباب ، سمعت رجلا يسأل :

ـ اما ترون ، أيتها الادباء السوفييت ، انكم تجعلون أبطالكم الشباب رومنسيين أكثر مما ينبغي . اما تسرفون في تجميل مصادر الحياة البشرية ؟

ـ اما كان مواطنكم فيكتور هوغو يجمل هذه المصادر بارسال (غفروش) الى المتاريس ، وباعجابه بشجاعته ؟ و (مارك توين) اما كان يجمل هذه المصادر ذاتها بسرده لنا قصة (توم سوير) و (هاكلبري فين) اللذين لاينفد نشاطهما في خدمة القضايا النبيلة والعادلة، وان بقي هذا النشاط محجوبا وراء تجعاتهما الصبيانية ؟ و (تولستوي) الخالد ، اما كان يجعل هذه الفترة الاولى للكائن البشري مثالية حينما يحدثنا بحماسة ومرارة عن النبالة وعن قلب (بيتياروستوف) النبيل ؟

لقد مرت عشرات السنين على ظهور هذه الشخصيات . ومع ذلك فاننا نهتف في بعض الاحيان اعجابا قائلين:« انظروا ، انه غفروش حقيقي! »..« انها صورة (ناتشاروستوفا) بالذات ! » . ان كبار الكتاب قدموا لجميع أجيال المستقبل اصدقاء يتميزون بجاذبية كبيرة وبحيوية فياضة ، فتشعر برغبة شديدة في تمثيل هذه الشخصيات المحببة، أمثال تيمور وبافكا كورتشاغين وغيرها من شخصيات الاديب السوفييتي المعاصر للشباب وللاطفال .

وفي احد بلاد اوروبا الغربية شاهدت اما تخفي عن ولديها التوأمين كتابا يبدو انه قد كتب من اجلهما ، وكانت قد اشترته لهما بنفسها ، وذلك لشدة خوفها بعد مطالعته : « الاحداث يميلون الى التقليد . فلو خطر ببال ولدي أن تقليد شخصيات هذه القصة..» كانت عيناها تعبران انه في مثل هذه الحالة سيحدث شيء رهيب . رأيت اما تخفي عن

اطفال ... كتابا « للاطفال » . اما عندنا فنحن نفتش عن كتب للاطفال . اننا نفتش عنها دون تعب او كلل كأنها شيء ضروري . نعم ، اننا نتخاطفها وان بلغ عدد نسخها المطبوعة رقما خياليا . ان الاباء والامهات يريدون أن يتعرف ابناؤهم الى شخصيات هذا الكتاب وان يصبحوا أصدقاء لها . وهذا لانهم يعلمون انه ليس لدينا ، وانا اكرر ذلك ، كتاب واحد يرسخ في ذهن الفتيات الصغيرات والفتيان القساوة والظلم واللامبالاة . صحيح ان جميع الادباء الذين يطمحون باخلاص الى تعليم الشاب كيف يجب ان يعمل ، لم يكونوا موهوبين وقادرين على أن يفعلوا ذلك ، ولكنهم جميعا يطمحون الى هذه الغاية . تلك هي اسمى ميزة للادب السوفييتي . اما محاولات اغواء الاحداث الذين لايزالون شديدي التأثر ، وذلك بوساطة الوسائل المدمرة الرجعية التي تلجأ اليها «الكتب الادبية» والسينما والتلفزيون ، فانها جريمة من أحقر جرائم البورجوازية ، ترتكب امام مستقبل الانسانية.

نحن لا نجمل شيئا في كتبنا ومسرحياتنا وسيناريوهاتنا ، بل نريد فقط أن يقلد اطفالنا ومراهقونا أولئك الذين ولدوا للتحليق عاليا في الاجواء الحرة لا للتدليل والاستكانة ، ولدوا للخلق والانشاء لا للهدم والتخريب ، ولدوا للانقاذ والشفاء لا للقتل واخماد النفس. تلك هي ايضا تقاليد ادبنا الخالدة .

ان مشروع دستورنا الجديد يذكر انه يتوجب على جميع المواطنين الكبار ان يجعلوا من اطفالنا جميعا مواطنين صالحين . ان الادباء السوفييت يبذلون جهدهم كي يفوا ماعليهم من هذه المهمة المقدسة . على هذا الاساس من الافكار يشاركون في عمل مربين آخرين ، اذ ان هؤلاء المربين ليسوا فقط من علماء التربية ، بل هم أناس من جميع المهن بلا استثناء . ذلك ان كل شخص كبير يرى لزاما عليه أن يعطي الاطفال دائما الافضل ، وان يعلمهم افضل مايجيد وانفع مايملك .

نحن لانحرص على أن نرسخ في اذهان اطفالنا السمات التي تميز (مانيلوف) ، ولا أن نؤكد لهم ان كرتنا الارضية مجهزة تماما لتعيش حياة مرحة مهملة . نريدهم أن يعلموا ان الشر موجود على الارض ، واننا اذا لم نعمل على مقاومته فكأننا نشجعه على التوسع والانتشار . نحن نعلمهم ان يصبحوا مناضلين ، والمناضلون يجب أن يعملوا ليس فقط من اجل اي شيء يناضلون ، بل ايضا ضد اي شيء عليهم ان يناضلوا .

نحن لا نخفي على قرائنا الصغار لا السمات المكروهة التي نلاحظها احيانا لدى أترابهم ولا

ما يقلقنا احيانا في عالم الكبار . في احدى اقاصيصي ، تحدثت عن معلم ابتدائي غدر بـه تلاميذه القدماء . وكان قد ساعدهم فيما مضى على اكتشاف مواهبهم ، بل ايضا على تحقيق هذه المواهب في الحياة ، وذلك ليتمكنوا من الاعتماد على أنفسهم . وفي أقصوصة اخرى رويت قصة معلمة ، عرفت بعد ثلاثين سنة فقط ان تقدر تلميذها القديم حق قدره ، هذا التلميذ الذي لم تكن تحبه آنذاك ، لقد أدركت ان هذا التلميذ كان صغيرا بعمره ، ولكنه كان كبيرا بصفاته السامية ، صفات الرجل الكامل . لم يسألني أي محرر فـي الصحافة : « اين وجدت أمثال هؤلاء التلاميذ ؟ اين عثرت على مثل هذه المعلمة ؟ » . وهناك بعض مؤلفاتي التي هي من هذا النوع قد نشرت باللغات الاجنبيـة لا في البـلاد الاشتراكية فقط ، ولكن ايضا ، على سبيل المثال ، في الولايات المتحدة واليابان وفرنسا. لقد بين آخر معرض دولي للكتاب إلى أي حد نحن نتطلع الى تفاهم متبادل حقيقي مع الفنانين والناشرين التقدميين .

في نظرنا ، نحن الادباء السوفييت يكمن الهم ، وكما يبدو لي ان نملا النفس البشريـة بالحب والاحترام للسلام والخير ، وفي ان نحرضها على الشر . واذا حدث شيء مخالفلذلك فنحن نعترض عليه شأن تلك الام التي أخفت على ابنائها كتاب « الاطفال » الرهيب هذا ، فنقول « لا ! » لمثل هذه الكتب التي مازالوا يحاولون دسها بين أيدينـا لترجمتهـا او لاخراجها في السينما .

اليس هذا دليلا على الاهتمام بالحرية والديمقراطية الصحيحتين وعلى العناية بسعادة الاطفال ؟ او ليس هذا تحقيقا للحقوق الانسانية المقدسة : حق الاستقامة ، حق الدفاع عن الصداقة وعن السلام بين البشر ؟! انا اكرر اننا لانخفي شيئا على قرائنا ، كبارا كانوا او صغارا ، ولكننا نطمع ونحرص على تربيتهم وفق نماذج جديرة بالاعجاب والاكبـار لا بالاحتقار والازدراء .

ان الناقد الروسي الكبير (فيساريون بيىلنسكي) أكد أن كتب الشباب تقرر مستقبـل الانسان نريد ان يكون مستقبل جميع المواطنين الشباب في كرتنا الارضيـة مستقبل أناس سعداء ، شرفاء واحرار . ان بلد ثورة اكتوبر يمنحنا هذه الامكانية الرائعة في ان نرى آمالنا واحلامنا قد تحققت .

هل يكفي أن نحب أطفالنا فقط

بورتن وايت

بورتن وايت ، عالم أميركي نفساني ، أنشأ المركز الخاص بالتعليم في مرحلة ما قبل الدراسة في جامعة (هارفارد) ولايزال يشرف على هذا المركز منذ أربعة عشر عاما . وضع العديد من المؤلفات حول الاطفال ، نذكر منها كتاب « السنوات الثلاث الاولى » اللتي ألفه من أجل الوالدين .

كان التعليم في العالم الغربي ، في أول الامر ولمدة طويلة موجها للاطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثامنة ، وكذلك كانت الجهود التربوية مركزة في معظمها على هؤلاء الاطفال ، ولكن هذه النظرة التقليدية تغيرت على مر الايام ، ولاسيما في الولايات المتحـــدة .

لقد تعلمنا في عصرنا الحاضر ان درجة النجاح لدى طفل معين في بداية دراسته اي في سن العاشرة ، هي خير مؤشر لدرجة نجاحه في المستقبل ، ذلك ان الاطفال المتطورين عقليا تطويرا كبيرا في سن السادسة هم اجمالا اقدر على القيام بدراسة جيدة من لداتهم الذين يعتبر نموهم وسطا أو هو أقل من المتوسط . وكذلك الامر فيما يتعلق بالاطفال الــذين لا يظهرون سوى كفاءات اطفال يبلغون من العمر خمس سنوات حين دخولهم في النظام التربوي فان هؤلاء الاطفال يكون نصيبهم من النجاح أقل من غيرهم .

اضف الى ذلك ان التجربة قد بينت ان هذا التاخر يزداد كلما تقدم هؤلاء الاطفال في العمر . فالاطفال الذين لم يكتمل نموهم في السادسة فانهم سيكونون في عداد المتاخرين في اثناء دراساتهم .

لقد اجروا عددا من التجارب في الولايات المتحدة على طرق تربوية مختلفة مخصصة للاطفال المتخلفين الذين تزيد أعمارهم عن ست سنوات ، وذلك خلال عشر سنوات ، غير أن نتائج هذه التجارب قد خيبت الآمال . لقد ادرك المسؤولون اجمالا انه اذا بدا أحــد الاطفال عاجزا عن التكيف مع التكوين الدراسي ، فان المربين يجدون مشقة في تحســين هذا الطفل جديا .

خلال سنوات طويلة ساد رأي يتمسك بالافكار القديمة حول الطبيعة البشرية يقول : ان الامر لا يمكن ان يكون خلاف ذلك . وبعبارة اخرى اذا لم يكن الطفل عند حسن ظن ذويه خلال سنوات الدراسة فذلك لانه لا يتمتع بالاستعدادات الضرورية التي تؤهله لنجاح متوسط أو فوق المتوسط . واذا نجح عدد من الاطفال فذلك لان ثمة عوامل وراثية كانت تؤهلهم لهذا النجاح .

لقد تعززت الابحاث حول تنمية الذهن والشخصية ابتداء من الاربعينات ، وأفضى الامر بالعديد من الباحثين الى ان يطرحوا هذه الافكار القديمة . وهناك أسباب عامة تدعونا الى التفكير بان امكانات التعليم المتيسرة خلال السنوات الست الاولى من الحياة تحدد المهارات التي اكتسبها الطفل لدى دخوله الى المدرسة واذا كان الامر كذلك ، كان في وسعنا التاكيد بان الاطفال لا يمكن ان يعتبروا غير مؤهلين للنجاح قبل دخولهم الى المدرسة .

هناك اناس كثيرون كانوا يعتقدون أنه في وسعنا أن نعد الاطفال للدراسة بشكل افضل . ان الناطقين بلسان الاوساط ذات الدخل المنخفض اصبحوا اكثر نشاطا . وقد قاموا بضغط شديد على حكومة الولايات المتحدة بغية تقديم تربية خاصة للاطفال الذين هم في فترة ما قبل الدراسة . وقد نجمت عن ذلك حملة حكومية شديدة بهذا الشأن ابتداء من عام ١٩٦٥ .

ان أول مشروع قاموا به في الولايات المتحدة كان يهدف الى مساعدة أطفال الاسر ذات الدخل المنخفض والى جعلهم قادرين على مواجهة النظام الدراسي . وهذا المشروع يتعلق بالفترة التي تتراوح بين الثالثة والخامسة . وقد بلغت ميزانية هذا المشروع ستمائة مليون دولار فقط للسنة المالية الاولى . ولم تفتر الهمة فيما بعد ، ومع ذلك فما لبثنا ن اكتشفنا ان مشكلة الاعداد للتربية المدرسية ليس من السهل حلها .

لقد ظهر أولا أن عددا كبيرا من الاطفال المتحدرين من عائلات ذوات الدخل المنخفض كان نموهم كافيا . فلا نستطيع اذا القول دون تحفظ ان جميع الاطفال الفقراء لا يبدون استعدادا كافيا للتعليم . وبالعكس فان بعضهم يظهر استعدادا عظيما للدروس .

ومع ذلك فقد تبين أن معظم هؤلاء الاطفال كان نموهم أبطأ من أطفال العائلات الميسورة .

وليس من الثابت أن البرامج الجديدة لفترة ما قبل الدراسة تؤثر تأثيرا جذريا في مستوى النمو . فبعد أن أفاد هؤلاء الاطفال من هذه البرامج خلال سنتين كاملتين لم يكونوا يتمتعون بكفاءات ظاهرة تفوق تلك التي يتمتع بها أطفال لا يختلف وضعهم العائلي عنهم ولم يتبعوا هذه البرامج الجديدة . ومع ذلك فقد سجلوا بعض نتائج ايجابية فيما يتعلق بقسم صغير من البرامج التجريبية الجديدة .

واذا ما درسنا نمو الطفل على مدى عدة سنوات لاحظنا ان تربية معينة تمنح ابتداء من سن الثالثة لا تشكل افضل طريقة لاعداد الطفل الى سن الدراسة . هناك مجموعة من الملاحظات بما فيها نتائج الروائز المطبقة على اطفال في سن الثالثة تفسح المجال للتأكيد بان المصاعب التي يواجهها الاطفال لدى دخولهم الى المدرسة غالبا ما ترتبط بعوامل تنشأ قبل الثالثة من عمرهم . ولذا توجب علينا أن ندرس عن كثب السنوات الثلاث الاولى من العمر ، مما جعل المربين يحولون اهتمامهم من جماعة الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين الثالثة والخامسة الى الاطفال الذين تقل اعمارهم عن الثالثة بما فيهم الاطفال الصغار جدا .

ومن المعلوم ان الذين يهتمون بمثل هؤلاء الاطفال الصغار هم عادة الاهل بالذات ، فتكون الوالدة في أغلب الاحيان المعلم الاول للطفل .

ان الابحاث التي أجريت منذ حوالي عشر سنوات حول الطريقة التي يكتسب بها الطفل كفاءات مختلفة تكشف لنا بعض حوادث مدهشة ، فهي توحي الينا في اول الامر بشدة بان الاطفال الصغار يكتسبون عددا معينا من الكفاءات منذ الشهر السادس او السابع من حياتهم ، وذلك بشروط تربوية مختلفة جدا . وما يجب على الطفل اكتسابه قبل كل شيء هو التأكد من ان شخصا معينا يحبه حبا عميقا ، ولكن هذا الحب وحده غير كاف ، فيجب علينا ان نعلمه ايضا أن يرى حسنا ، وأن يسمع حسنا ، كما يجب ان نعلمه الوصول الى الاشياء القريبة ولا بد له ايضا من أن يستطيع الاحتفاظ بحب اطلاعه العفوي في استكشاف العالم الخارجي . كل هذا يبدو انه ينمو دون مشقة في أغلب الحالات ، حتى لو فرضنا ان الوالدين لم يتلقوا أي ثقافة خاصة او اي عون خارجي .

ولكن بين الشهر السادس والسابع وسن الثالثة فان الامر يتغير تغييرا تاما ، ففي شروط تربوية مناسبة يكتسب الاطفال كثيرا من الكفاءات ومن التعقيد ايضا . ومع ذلك فليس من الثابت مطلقا أن الطفل يتعلم الكلام جيدا كما في وسعه أن يفعل ذلك . وليس من الثابت مطلقا ان حب اطلاعه يتعمق ويتسع في جميع الجهات ، كما في وسعه أن يفعل ذلك ايضا . وليس من الثابت أن بنيته التحتية الفكرية تشاد بصورة طبيعية ذلك أن كل هذه الامور ترتبط ارتباطا وثيقا بتصرفات الوالدين التربوية .

بعد أن يبلغ الطفل الشهر السادس يدخل في مرحلة خطرة من حياته ، وذلك حينما يبدأ الانتقال وحده .

ان الطفل الذي يحبو يتعرض لحوادث مؤلمة ، فهو يستخدم فمه لاكتشاف العالم ، ويميل الى ابتلاع أشياء قد تسبب له الضرر . ان حركاته لا تزال غير متناسقة ، ولما كان مسكنه لم يصمم من أجله ، فكثيرا ما يتعرض هذا الطفل الى رضوض وجروح . وبالتالي فان الوالدين يميلون الى تقليل نشاطات الاستكشاف لاطفالهم الصغار ، ولكنها ليست هي الطريقة المثلى والاكثر فعالية في مساعدة أطفالهم ، رجال المستقبل ، على تنمية كفاءاتهم الطبيعية على خير وجه .

من الواضح تماما أن أول معلمي الطفل ، وهم ذووه بالذات ، هم اجمالا غير معدين الاعداد الحسن للقيام بهذا الواجب الهام جدا : ألا وهو تلقينه تربية حسنة منذ البداية . ان سياساتنا ، في الولايات المتحدة ، في مجال التربية تهمل التدريب الذي يهيء الوالدين لتربية أطفالهم الصغار جدا . باسم التقاليد العريقة في القدم والتي تستند من ناحية الى حماية الحياة الخاصة . ومن المتفق عليه أن الوالدين ابتداء من اللحظة التي يحبون فيها أطفالهم فان عملهم التربوي لا تعتريه شائبة .

ومع ذلك فقد اثبتت ابحاث قريبة العهد ان الوالدين لو تلقوا التدريب والمساعدة تماما قبل ولادة الاطفال وخلال فترة ما قبل الدراسة لاستفاد الاطفال كثيرا من تجاربهم الاولى ومن أولى تدربهم على أصول التربية . أما الاهل فلن تصيبهم المفاجاة ، ولن يصيبهم قلق شديد ، وهكذا فان الاهل والاطفال جميعا يشعرون بالسعادة والطمانينة .

واجبنا نحو أطفالنا

فريدا براون

الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي يضم / ١٢٣ / منظمة تمثل حوالي مائة بلد من العالم .

وفريدا براون رئيسة الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي في اوستراليا .

يحلم الآباء جميعا بسعادة اطفالهم ولا ريب وهم يرغبون من صميم قلوبهم في ان يتمتع اطفالهم بصحة جيدة وان يكونوا كلهم فرحين سعداء ، يعيشون بعيدا عن مختلف اشكال الاستثمار والطغيان .

ومع ذلك فان احدى المشكلات الراهنة في العالم المعاصر لا تزال تكمن في ضمان شروط حياة مناسبة للاجيال الصاعدة ، امل المستقبل .

يتمتع الاطفال في العديد من البلاد ، وفي البلاد الاشتراكية بوجه خاص ، بحقوق واسعة ، فنحن نجد الناس يطبقون فيها باستمرار التدابير الرامية الى سد الحاجات المتزايدة للاسرة والاطفال . ولا نبالغ اذا قلنا ان الاطفال ، في البلاد الاشتراكية ، هم وحدهم الطبقة الوحيدة التي تتمتع بالامتيازات .

ولا اقصد هنا فقط انهم يكفلون حق التعليم لجميع الاطفال ، وان الاطفال يتمتعون بنظام تقدمي للضمان الاجتماعي ، وان البطالة منعدمة في البلاد الاشتراكية ، مما يجعل تلامذة اليوم واثقين بانهم يتلقون التدريب الضروري الذي يضمن لهم العمل في المستقبل ، هذا كله له أهمية عظيمة بالتاكيد ، ولكني اريد ان اشير الى جانب من المشكلة ، هو الجانب الاخلاقي . ففي العالم الراسمالي يتعرض الاطفال دائما لخطر وقوعهم ضحايا ادمان المخدرات السامة ، وضحايا العنف والسادية . أما في البلاد الاشتراكية فنحن نواجه ، بخلاف ذلك ، اخلاقا سليمة ، اذ انهم يعلمون الاطفال محبة جميع الناس بلا تمييز ، كما يعلمونهم الاحترام المتبادل بين افراد الشعب كافة .

أضف الى ذلك ان الاهتمام في البلاد الاشتراكية يشمل الاطفال قبل ولادتهم ، فما يكاد الطفل يولد حتى يستفيد من الضمان الاجتماعي ، وكذلك ام المستقبل توضع تحت مراقبة طبية مستمرة ومجانية ، وتتمتع باجازة أمومة ماجورة ، كما تحتفظ بحق العودة الى عملها بالذات بعد الاجازة . وفي الكثير من البلاد الاشتراكية يستفيد الاعضاء من اجازة بكامل الراتب ، وذلك للاعتناء باطفالهم حتى يبلغوا سنا معينة . طبعا هنا أيضا لم يجدوا حلا لجميع المشكلات ، ففي بعض الاحيان تنقص بعض الاماكن في دور الحضانة ورياض الاطفال ، وخصوصا في الاحياء السكنية الجديدة ، فضلا عن انه لا تتوفر دائما المدرجات والملاعب الرياضية والنوادي والمقاهي للشباب ، بالرغم من ذلك كله يحق لنا ان نؤكد بأن مبادىء اعلان حقوق الطفل في البلاد الاشتراكية قد طبقت عمليا ، هذه المبادىء التي اعتمدتها الامم المتحدة منذ عشرين عاما .

ولسوء الحظ لم تظهر جميع الحكومات والمجتمعات الاهتمام نفسه بالنسبة للطفل . وبالرغم من الجهود المتواصلة للقوى التقدمية فان حق الطفل في أن يكبر ويترعرع في شروط مناسبة ، وحقه في الصحة والتعليم ، هذه الحقوق قد اهملت على الاطلاق . فبحسب معطيات المنظمة الدولية للعمل ، ان أكثر من اربعين مليون طفل فوق كرتنا الارضية هذه تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة يشتغلون بدلا من الذهاب الى المدرسة . في البلاد الرأسمالية المتطورة التي تفخر بارتفاع مستوى المعيشة والتي تريد ان تعلم الآخرين كيف يجب ان تكون حقوق الانسان ليس من المقبول في هذه البلاد المتقدمة ان نجد الامية لا تزال تنشب اظفارها في المجتمع ، وأن نرى التمييز العنصري قائما ، والخدمات الطبية غير متوفرة عمليا لبعض الطبقات الاجتماعية من السكان . حقا ان تلامذة الامس لا يستطيعون متابعة ميولهم في هذه البلاد ، بل أصبحوا يشكلون جيلا من المتوهين في مجتمع يتخبط في الأزمات .

ان المدرسة ليست المسؤولة الوحيدة عن التربية الاجتماعية والروحية للاطفال ، فعلاقات الاسرة المتينة ، والجو الاخلاقي السليم في الاسرة ، هذا كله يلعب دورا تربويا هاما للغاية في تكوين الشخصية البشرية . وفي هذا المجال فان مئات الآلاف من أطفال العمال في البلاد الرأسمالية يجدون أنفسهم في وضع مخيف بوجه خاص . هؤلاء الاطفال هم بين الضحايا الاوائل الذين يمثلون انحلال وحدة العائلات . انهم يشعرون قبل غيرهم بفقدان جذورهم الثقافية والاجتماعية ، ويتأثرون بشدة بالتمييز والمحاباة ويتألمون لذلك كثيرا .

في المجتمع الرأسمالي يعرف الانسان التفاوت الاجتماعي منذ نعومة أظفاره ، فالاطفال يلاحظون أن نخبة من لداتهم سواء أكانوا من الذكور أو الاناث ، يعيشون في رفاهية وعاطلين عن العمل . ومن جهة ثانية يشهدون الفقر والجوع والخوف من المستقبل عند رفاقهم ووالديهم وجيرانهم الذين فقدوا عملهم ولا يستطيعون أن يقوموا باود عائلاتهم . ونحن اذا نظرنا الى هذا الوضع الاجتماعي واعتبرنا الطريقة التي يتاثر بها الشباب بواسطة التعليم المدرسي والسينما والتلفزيون وجب علينا ألا ندهش لاتساع نطاق الاجرام وادمان الكحول والمخدرات السامة بين الشباب .

لا احد يجهل الارث البغيض الذي خلفه الاستعمار والاستعمار الامبريالي الجديد للشباب، والدول المستقلة الفتية . ان المصير الذي ينتظر دائما الملايين من الاطفال في بلاد آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هو الامراض والجوع والفقر المدقع . وبحسب معطيات البنك الدولي لمعونة الاطفال (اليونيسيف) في البلاد النامية ، نجد أكثر من (٣٠٠) مليون طفل يعانون من الجوع المزمن والامراض المرتبطة بها ، وان طفلا واحدا من مجموع أربعين طفلا يستفيد من المعونة الطبية ، بينما حوالي مائة مليون طفل تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة لا يستطيعون الذهاب الى المدرسة .

والآن فان البلاد التي تحررت من نير الاستعمار ومن السيطرة الاجنبية ، والبلاد ذات الاتجاه غير الرأسمالي بخاصة ، تضع مجموعة كاملة من التدابير الرامية الى صيانة مصالح الام والطفل ، مستعينة في ذلك بخبرة الدول الاشتراكية .

ان مصير الاطفال ومستقبلهم مرتبطان بمصير السلام ومستقبله وعلى الرغم من التقدم الكبير الذي أحرزه الانفراج الدولي ، فاننا نشهد في عدد من البلاد الراسمالية تزايد النشاط لدى الدوائر العسكرية والصناعية كما نشهد تعزيز الروح المؤيدة للفاشية ، ودعم الروح الحربية . هناك نزاعات وحروب « محلية » غير عادلة تهز كيان المعمورة بصورة دورية ، كما ان انتاج المعدات الحربية قد بلغ في الآونة الاخيرة مستوى لا مثيل له من قبل . انه مستوى رهيب حقا . ذلك أن الولايات المتحدة تملك وحدها كمية من الاسلحة النووية تساوي قوتها المدمرة (٦٠٠٠٠) قنبلة ، وهذه القنابل تشبه تلك التي ألقيت على هيروشيما ، هذا وحده يكفي لإبادة سكان الارض اثنتي عشرة مرة . أليس هذا افراطا في التسلح ؟

لقد خص الله المرأة بانجاب الاطفال ، هذا قدرها ، ولذا تراها تدعم بحرارة جميع المبادرات السلمية ، ولذا نحن نعتبر ان الاحتفال بالعام الدولي للطفل يجب ان يصبح عنصرا اساسيا للنضال المشترك من أجل السلام ونزع السلاح . ان اربعة مليارات فقط من مجموع ثلاثمائة مليار دولار التي تنفق سنويا في التسلح ، تكفي لان تغذي سنويا مائتي مليون طفل يعانون سوء التغذية . ونحن بحاجة الى تسعة مليارات فقط من الدولارات لكي نُعلّم القراءة والكتابة لتسعمائة مليون من الاميين الباقين حتى اليوم في العالم . فلا غرو اذا طالبت النساء بانهاء حالة السباق للتسلح ، وبالتوصل الى ان الموارد التي تنفق من اجل انتاج المعدات الحربية لابد من أن تستخدم لمكافحة الجوع والامية والبطالة، ولحماية الامهات والاطفال .

الطفل السعيد

ايفيدا كنياريف

يعتبر موضوع الطفل من القضايا القديمة والمعاصرة في آن واحد ، ومن المسائل الشخصية والاجمالية ايضا ، لانه يهم جميع افراد الشعب على حد سواء .

ذلك ان الانسان ، مهما كان وضعه فانه يحتفظ في قرارة نفسه بالذكرى العذبة ، يوم كان يشعر وهو بين ذراعي أمه بالدفء والطمانينة، وكذلك الوالدين فانهما في جميع الظروف يحملان اسمى العواطف وانبلها تجاه طفلهما ، الذي هو رمز خلودهما وأملهما ، بل هو مستقبل العالم بأسره .

فيما كان أحد المؤرخين يعيد النظر في الاسباب التي عجلت في سقوط روما ، وجد ان احد الاسباب يعود الى أن الشعب الروماني قد فقد آنذاك الشعور بالمسؤولية نحو اطفاله .

يبدو هذا الراي للوهلة الاولى مفاجئا وغير معقول ، ولكنه في الواقع راي صحيح ، لانه ، لمعرفة التاريخ على حقيقته ، لا يكفي أن نطلع على اخبار الحرب وعلى مآثر القواد البواسل ، بل يجب الرجوع الى موقف الدولة تجاه الاطفال لان ذلك يعطينا فكرة واضحة عن وضع هذه الدولة وعن نزعاتها الانسانية ونظامها الاجتماعي .

كانت روسيا ، قبل الثورة تسمى « سجن الشعوب » وكانت غالبية السكان فيها من الاميين . فلا عجب اذا كان عدد الاطفال الذين يموتون فيها سنويا ضخما ، وذلك نتيجة الجهل والاهمال ، وهذا ما كان يحدث بالضبط أثناء الحكم القيصري الاستبدادي . ونحن حينما نتحدث عن ثورة تشرين / ١٩١٧ / كعهد جديد في تاريخ الانسانية ، يتوجب علينا أن نشير الى سياسة الدولة الاساسية الجديدة بشأن الاطفال .

في الثامن من أكتوبر عام / ١٩١٧ / ، وهو اليوم الثاني من الثورة ، ما ان تقلد (اناتولي لونا تشارسكي) منصبه كمفوض عن الشعب (أي كوزير) في وزارة التعليم في جمهورية السوفييت المؤلفة حديثا حتى قدم برنامجا ينطوي على تغيير جذري لبنية المدرسة ، فقد أصبح التعليم الابتدائي اجباريا ومجانا ، كما أصبح في الامكان للجميع الوصول الى جميع مستويات التعليم .

وفي اليوم الثالث من تسلم سلطة السوفييت تألفت لجنة من قبل الدولة لشؤون التعليم، وكذلك في اليوم الخامس منحت الدولة اجازة امومة للنساء .

لقد عرفت البلاد نقصا في اليد العاملة ومع ذلك فان الدولة السوفييتية منعت وقتها استخدام الاطفال .

كانت المجاعة والحرب الاهلية تعيث فسادا في البلاد ، ولكن السلطة الثورية أخذت على عاتقها جميع هذه المصائب ، وأنشأت ، بموجب مرسوم وقعه (لينين) ، مجلسا خاصا لحماية الاطفال ، « اذ تعتبر هذه السلطة أن من أهم واجبات الدولة تزويد الاطفال بالطعام والثياب والمحروقات ، وتامين الامكنة والمعونة الطبية لهم ، وكذلك نقلهم الى المقاطعات الغنية بالقمح . » .

سارت الامور على هذا النحو منذ أكتوبر عام ١٩١٧ ، وذلك في أوقات السلم كما في أوقات الحرب . وفي صيف عام ١٩٤١ هاجمت ألمانيا الهتلرية الاتحاد السوفييتي فبدأت الحرب ، وكانت أقسى حرب عرفتها البلاد . لقد كان للكوبيك في أثناء هذه الحرب قيمة كبيرة . ومع ذلك فقد زادت الحكومة السوفييتية المعونة المادية للامهات العازبات وللعائلات الكثيرة العدد . وحينما حاصرت الجيوش الفاشية مدينة (لينينغراد) وأخذ سكانها يموتون جوعا ، أعطت الحكومة الاطفال الباقين ضمن دائرة الحصار ، بطاقات تموينية تمنحهم الحق في الحصول على حصة مماثلة لحصة العمال الذين يصلحون عربات

وقليل الاحتمال ، وهو مدلل أكثر من اللازم » . قد يكون هذا الكلام صحيحا ، وسبب ذلك أن الكبار يسعون جهدهم كي يمنحوا أطفالهم ما قد حرّموا منه هم في نعومة أظفارهم . لاشك بان البلاد أصبحت أغنى مما كانت عليه ، ولكن الاطفال ، كما هو واجب ، هم الذين يتمتعون قبل غيرهم بالثراء وبحبوحة العيش . ونحن ، بعد أن قدمنا لهم الطعام والسكنى والمعلمين والاطباء والمدارس والمسارح والكتب والافلام ، فاننا ما زلنا نطرح على أنفسنا هذا السؤال الهام : « ترى كيف تتكون هذه الرؤوس الغضة ؟ » ، وبعبارة أخرى : من هم اطفالنا ؟ هل هناك ، فيما بينهم ، أطفال" أنانيون ولا مبالون من البورجوازيين الحسودين الجشعين ؟ ترى ، هل اطفالنا هم أفضل منا ، وهل يحبون العمل أكثر من آبائهم ، وهل هم أذكى وأغنى منهم روحيا ؟

ان تربية الاطفال هي بكل تأكيد من أهم القضايا وأدقها . ومن النادر أن تجد شخصا واحدا في الاتحاد السوفيتي لا يعتبر نفسه خبيرا في هذا الموضوع .

هناك شخص ذكي يتحدثون عنه ، وهذا الشخص فيما هو يفكر في شؤون الشباب أصدر هذا الحكم : « انهم أسوأ مما كنا عليه حينما كنا في سنهم ، فهم يميلون الى الطيش والكسل والفظاظة اكثر منا » . ترى ، من يكون هذا الشخص في رأيكم ؟ انه الفيلسوف اليوناني (سقراط) الذي عاش منذ حوالي مليوني سنة ونصف المليون . هل هذه حكاية تاريخية لا شأن لها ؟ قد يكون ذلك . ولكنها تؤكد ولا ريب تلك المشكلة الخالدة ، مشكلة « الآباء والأبناء » ، ولعلها تمثل اهتمام الوالدين الدائم باولادهم .

في الاتحاد السوفييتي لا نلاحظ تنافرا بين النشء الجديد وبين الجيل السابق ، فالأبناء يعرفون ويتفهمون آباءهم وهم بالاجمال ، يشاركونهم طريقة تفكيرهم ونمط حياتهم .
غير أن قلق الوالدين له ما يبرره ، فهو يمليه حب الوالدين ، هذا الحب القديم قدم العالم . وهذا القلق يثيره عصرنا الجديد ، المتهور ، المضطرب و « المتحضر » .
يعيش اليوم في المدن ٦٢٪ من سكان البلاد . لقد تضاعفت هذه النسبة تقريبا عما كانت عليه منذ خمس عشرة سنة . وقد أحدث هذا الاندفاع في التحضير كثيرا من المشكلات « التربوية » في المدن . واصبح تواتر الحياة فيها اكثر كثافة . كما ازداد التوتر النفسي والعصبي وكثرت تلك الاغراءات التي تعترض للمراهق . ولما كان والدا هذا الفتى يعملان في أغلب الاحيان ، فانهما لا يجدان الفرصة الكافية لمراقبته . وهناك أخيرا بعض العائلات التي تعيش في تعاسة وشقاء لانها تعاني من نقص أخلاقي . فهي تعتقد أنها قد أدت واجباتها الوالدية اذا ما قدمت لأولادها ما هو ضروري لهم ، ومن ثم فهي تلقي على عاتق المدرسة

مسؤولية كل ما سبق . ومعلوم أن الطفل لا يحتاج الى الطعام والثياب ولجهاز التلفزيون فقط ، بل هو يحتاج أيضا الى حب الام ، هذا الحب الذي لا يمكن أن يحل محله شيء .

ليست هذه المشكلات سهلة ولا ريب ، فهي تجعل في بعض الاحيان الاطفال « عسرين » .

كيف العمل اذا ؟ ان علماء التربية وعلماء النفس مقتنعون كل القناعة بأنه يجب أن نبدأ بتربية الكبار ذلك لأننا نجد أطفالا عسرين في وسط يكون فيه الكبار عسرين ولا يتحملون المسؤولية . وفي الواقع لا يكون الطفل العسر في أغلب الاحيان هو المسؤول عن وضعه الخاص ، ولكنه يصبح عسرا بسبب سوء حظه فقط . أما السبب الحقيقي لكونه طفلا عسرا فيعود الى سوء تربيتنا العامة ، والى ما نعانيه من ألم وقلق . وهذا الامر يفسر وجود ذلك العدد الكبير من الناس ومن المنظمات الذين هبّوا جميعا للدفاع عن الاطفال العسرين .

ولوضع حد للاطفال « العسرين » فقد أوضح الدستور السوفييتي الجديد واجبات كل والد ووالدة : « ان المواطنين السوفييتيين ملزمون بالسهر على تربية الاطفال » . وقد أوضح أيضا الضمانات التي تكفل ذلك : « توضع الأسرة تحت حماية الدولة ... ان الدولة تتعهد الاسرة وذلك بانشاء ونشر شبكة واسعة من المعاهد للاطفال ، وبتنظيم وتحسين الخدمات العادية والتغذية العامة ، فهي تدفع اعانات الولادة ، وتمنح الاعانات والتعويضات للعائلات الكثيرة العدد ، وهناك نماذج غيرها من الاعانات وأشكال المساعدة للأسرة » .

« ان الطفل في بلدنا لا يستطيع ولا يحق له أن يكون طفلا شقيا » . هذه كلمة قالها عالم التربية السوفييتي الكبير (أنطون ماكارينكو) .

اننا نوافق (ماكارينكو) على ما قاله ، ولكن يتوجب علينا ان نعترض على (سقراط) باحترام وبشدة قائلين : « نرجو أن يكون أطفالنا أفضل منا ، كما نرجو أن يكونوا أسعد وأبلغ منا !.. » .

« تربية الطفل »

بلال الجيوسي

بمناسبة اليوبيل الذهبي لكلية التربية في جامعة عين شمس (١٩٢٩ – ١٩٧٩ م) الذي يصادف عام الطفل العالمي ، أقامت الكلية ندوة « تربية الطفل » من الثالث حتى السابع من آذار ١٩٧٩ .

وقد تراوحت المحاضرات التي ألقيت في الندوة بين بحوث ذات طبيعة عامة ، وبحوث عن الابتكار والطفولة ، ونمو الطفل وتربيته ، والاطفال المعوقين .

وكان أول المتكلمين في أول يوم من أيام الندوة الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصي الذي بحثنا قائلا : « فلنتعلم من أطفالنا » ، ويتساءل المحاضر : « هل يفيدنا الاطفال كما نفيدهم اذا كنا حقا نفيدهم ؟ وهل يعلمنا الاطفال كما نعلمهم اذا كنا حقا نعلمهم ؟ وهل يربينا الاطفال كما نربيهم اذا كنا حقا نربيهم ؟ » . ويتناول الدكتور القوصي الموضوع من الجانب المعرفي وحسب .

والاساس الذي ينطلق منه هو أن للطفل منطقه الخاص السديد ، وقدرته على الابداع ، وحاجة طبيعية الى استكشاف العالم حوله على نحو تجريبي . الطفل اذن عالم منطق ولغة، فنان مبدع ، وعالم تجريبي . وهذه المواهب مغروسة في فطرته .

واذا كان الامر كذلك « فلنترك له حرية العمل ولنقلل من تدخلاتنا ولنتعود الاستماع للطفل فقد يكون لديه من الحكمة الفطرية ما يغيب عنا أو ما يفوق حكمتنا » .

ثم يضرب الدكتور القوصي أمثلة حية على ذلك ، يقول : « جاء صبي الى بيته ومعه كراسة اسمها كراسة المحادثة » ، وقلب الوالد كراسة ابنه فوجد فيها ما يأتي :

ما الذي تنام عليه ليلا ؟ ووجد اجابة ابنه عليه ((آنام على المخدة)) ووجد أن كلمة المخدة مشطوبة وموضوع فوقها كلمة أخرى هي ((الحشية)) فاتصل الوالد هاتفيا باحد الاساتذة المختصين المتعمقين ليسأله ان كانت ((مخدة)) صحيحة من الناحية اللغوية فاجاب هذا العالم بانها صحيحة اذ أن المخدة هي ما يوضع الخد عليه وانها وردت بالفعل في معاجم اللغة العربية وبذلك تكون اجابة الطفل صحيحة من ناحية اللغة ومن ناحية التربية . ولكن ماذا كان تعليق الطفل ؟ قال : ((لماذا يشطبه المعلم كلمة ((المخدة)) أليس صحيحا اني أنام في الليل على المخدة ؟ وما هي هذه التي يسمونها الحشية ؟ فقال الوالد : الحشية هي المرتبة . فقال الولد : اني أنام على المرتبة وعلى المخدة في وقت واحد ، وطلب من ابيه تفسيرا فلم يجد في وجه أبيه الا حيرة ... والطفل حساس لما يراه على وجه والده او والدته من مظاهر الانفعال كالحيرة والدهشة والالم وما الى ذلك)) .

ويتابع المحاضر القاء أمثلة من منطق الطفل في النحو ، ويستشهد بقول أستاذ عالم في هذا المجال هو المرحوم الاستاذ ابراهيم مصطفى : ((منطق الطفل أصوب من كل منطق)) .

والطفل فنان مبدع ، الابتكار سمة من سمات طفولته ، وقدرته الابداعية تفوق قدرة الراشدين . حدث أن ((جاء طفل الى بيته يشكو من مدرس الرسم حيث قال ما معناه ان مدرس الرسم قد هدد بأن من تتسخ كراسته أو من تسقط نقطة من الحبر على احدى صفحات كراسته فانه سيقطع الكراسة باكملها . وسأل الطفل والده ان كل هذا معقولا ، فاجاب الوالد بانه معقول بالطبع . أراد الوالد بذلك أولا أن يكون متمشيا مع سياسة المدرسة وروحها ففاجأ الولد أباه قائلا ما معناه ان هذا غير معقول ، فقال الوالد مندهشا وكيف ذلك ؟ قال الطفل لوالده : افرض أني اريد أن أحول نقطة الحبر الى طبق أسود اللون او الى وجه ولد زنجي . او الى نقطة حبر فوقها دواة حبر مقلوبة ، وهنا اعترف الوالد رغم سياسة الاتساقية مع المدرسة بمعقولية كلام ابنه)) .

والطفل ثالثا عالم تجريبي . فقد ((وجد صبي على مكتب والده منظارا مكبرا (عدسة) فاخذه الطفل وصوبه نحو يد والده ثم عبر عن دهشته تعبيرا حرا طليقا عندما رأى المسام الكبيرة ورأى الشعر الطويل وكان سروره بالغا لهذا الكشف لانه أجرى موازنة بين ما يراه في يد والده بالعين المجردة وما يراه بالعين باستخدام المنظار فاخذ المنظار واندفع به في حجرته وكان بها اناء به فول منبت فاخذ واحدة منها وشقها وصوب عليها المنظار ليرى من أين يخرج نبت الفول .

وواضح ان اقل ما تتعلمه من هذا المثال الاخير ومما قبله ما لدى الطفل من اندفاع طبيعي لدرس ما يحيط به وكشف أسراره بطريقة واقعية علمية سليمة وبحماس ومثابرة منقطعتي النظير . العالم الصغير يكتشف اسرار الكون بطريقة علمية سليمة جادة نخطئها أحياناً فنسميها لعبا » .

ولكن المشكلة هي ان الراشدين لا يعرفون فن الاصغاء لاساتذتهم الاطفال ، فنضيع منهم دروس رفيعة في النطق والفن والعلم الطبيعي وغير ذلك من ميادين المعرفة . وليت الامر يقف عند هذا الحد . ذلك ان الراشد يتجاوز هذا الى حرق اسفار الطفل التي كتبتها الفطرة والطبيعة بحجة بناء أنظمة مشوهة هشة :

« وعندما ننقل التلميذ الى المدرسة الابتدائية فان أول ما نفعله هو أن نمنعه في الفصل من التحرك ومن الكلام ، ونرغمه على الجلوس والاستماع والطاعة ، فبعد ان كان باحثا علميا ايجابيا بناء يصبح مستقبلا سلبيا ، ويكون هداما ميالا الى الانتقام بسبب ما حرم منه وبعد أن كان يقلب الامور ويناقشها يصبح مضطرا لقبول القضايا مسلما بها . الطفل في سنواته الست الاولى مزود بخامات طبيعية أودعها الله فيه وهي كفيلة ببناء انسان المستقبل بناء شامخا رصينا وكل ما نعمله نحن الكبار أننا نحد من طاقاته ونحرمه من هذه الخامات بحجة أننا نعلمه الضبط والانضباط والتهذيب » .

ينهي الدكتور القوصي محاضرته بدعوة تبدو لاول وهلة مفارقة ولكنها على ضوء ما تقدم تصبح نتيجة منطقية ومفهومة : « علينا أن ناخذ من اطفالنا وان نعطيهم وان نقف منهم في حوار متعادل متوازن وعلينا الا نخدع أنفسنا بان نقول اننا سننزل الى مستوياتهم بل علينا ان نرتفع الى مستوياتهم وأن نتعلم من أطفالنا كيف نتعامل معهم حتى نتعاون معهم في تنشئتهم وتوجيههم في مناخ يتسم بالديمقراطية والحرية وتحقيق كرامة الانسان » .

وكان اليوم الثاني للندوة موعدا مخصصا « للابتكار والطفولة » حيث قدم الدكتور « شاكر عطية قنديل » (جامعة المنصورة) « نظرة جديدة للابتكار في علاقته بالصحة النفسية » في دراسة عنوانها الرئيسي : « دراسة للاداء الابتكاري عند مجموعة من الاطفال المعوقين انفعاليا » .

تتالف هذه الورقة من تقديم نتائج تجريبية تتعارض مع اطار نظري « متفق عليه علميا » .

ويترتب على هذا ــ ومن هنا قيمة الورقة ــ اما مراجعة الاطار النظري كي يصبح في امكانه احتواء وتفسير النتائج التجريبية أو الجديدة او التشكيك في الادوات التجريبية التي استعملها الباحث لقياس الابتكار . واسمحوا لي أن استفيض قليلا في عرض هذه الورقة لما لها من قيمة سواء بالنسبة للباحثين في العلوم السلوكية أو الفنانين والمبدعين بوجه عام .

يقول الباحث :

« من المتفق عليه علميا من خلال الاطار النظري لعلم النفس أن هناك علاقة بالايجاب بين الابتكار والصحة النفسية للفرد ، ان الصورة الوصفية التي يخططها الاطار النظري عن المبتكرين توضح أن ما يتمتع به الشخص المبتكر من خصائص نفسية تكاد تتطابق وخصائص الشخصية السوية كما يرسمها علم الصحة النفسية . فالمبتكر وصف بانه شخص مستقل، أصيل ، قادر على توجيه ذاته قادر على تحمل الغموض ، ذكي ، ماهر واسع الخيال ، فعال اجتماعيا ، تسيج ذاته ، مسيطر ، منجز ، مقبل لذاته ، ومستقر انفعاليا . ان تلك الصورة تكاد تكون ملامح الشخصية السوية » .

فاذا كان هذا صحيحا فمن « المتوقع منطقيا أن يكون العكس صحيحا بمعنى أننا نتوقع أن ينتج عن التعويق الانفعالي في شخصية الفرد انخفاضا في مستوى الاداء الابتكاري » .

ولكن تطبيق الباحث لاختبارات « تورانس » للتفكير الابتكاري جاءت مخالفة لهذا التوقع ــ يقول الدكتور قنديل : « لقد حققت استجابات الاطفال المعوقين انفعاليا على اختبارات تورانس للتفكير الابتكاري ــ الاداء اللفظي صورة ب ــ درجات فاقت المعايير القومية الواردة بتعليمات الاختبار . ولقد جاء التفوق واضحا في بعدي الطلاقة والاصالة . ولما كانت درجات هؤلاء الاطفال تبرز تفوقا عاليا عن المعايير المشتقة أساسا من عينات من الاطفال الاسوياء فلقد كان ذلك مثار دهشة وتساؤل واضع الاختبار والمشرف على الدراسة » .

وأكثر من هذا ، وللتيقن من نتائج هذه الدراسة فقد قام الباحث بمقارنتها مع نتائج دراسة فرعية أخرى اجراها على طلاب عاديين من المدارس نفسها التي اختيرت منها عينة المعوقين انفعاليا ، وظهرت نتائج هذه الدراسة الفرعية متسقة مع الدراسة الاصلية . « اذ جاءت نتائج التحليل الاحصائي في نفس الاتجاه اللاحق حيث تفوق الاطفال المعوقون انفعاليا في أدائهم الابتكاري خاصة في بعدي الطلاقة والاصالة وبفروق ذات دلالة احصائية

مرتفعة . اما بالنسبة لبعد المرونة فانه على الرغم من ان الفروق في الاداء لم ترق لمستوى الدلالة الاحصائية الا انها جاءت في صالح مجموعة الاطفال الموفين أيضا » .

ويمضي الباحث في ذكر دراسات اخرى اكدت هذه النتائج ، ينتهي بعد ذلك الى التعبير عن دهشته ازاءها ، لانها تخالف « الجمهرة السائدة من الآراء » .

والمشكلة التي تواجه الباحث الآن ـ في نظري ـ هي : كيف ستتاح له فرصة تفسير هذه النتائج سايكولوجيا ، ما دام ارتباط الابتكار بالسواء النفسي « امر متفق عليه علميا » وتسانده « الجمهرة من الآراء » ؟ ان الحل المتوقع « منطقيا » هو ان يقدم الباحث تفسيرا جديدا لهذا الارتباط ، او ان يبحث عن تفسيرات نادرة واستثنائية لا توافق عليها « الجمهرة السائدة » . ولكنه لا يفعل هذا ولا ذاك وانما يلتجيء في تفسيره ـ للنتائج التي حصل عليها ـ الى واحدة من أبرز مدارس علم النفس : التحليل النفسي . فمن المعروف ان هذه المدرسة قدمت أغنى التحليلات لهذه العلاقة بين الابداع والصراع النفسي .

والباحث يسوق عددا من الشواهد من هذه المدرسة ومن كتاب آخرين مرموقين كـ « ماسلو » مثلا ، تؤكد هـذه العلاقـة .

يثير هذا الوضع عدة ملاحظات الخصها فيما يلي :

١ ـ اذا كان الباحث الدكتور فتعبل على علم بهذه الآراء ، فلماذا تجاهلها في المقدمـة ، ثم عاد واستشهد بها في التفسير ؟ هل تجاهلها في البداية لانه لا يعتبر مفاهيم التحليل النفسي « علمية » ؟ فاذا كان الامر كذلك ، فلماذا استشهد بها في تفسير نتائجه ؟ أليس هذا تفسيرا لما هو علمي بما هو لا علمي ؟

٢ ـ ان دهشة الباحث من النتائج التي توصل اليها ، هي دهشة نسبية للغاية ، واكاد اقول مصطنعة لانها تمت على خلفية منتقاة عن عمد ، ولانها تجاهلت خلفيات أخرى عن عمد أيضا . ولو ان الباحث انطلق من خلفية واسعة لاستحالت الدهشة الى رضى بالنتائج وتفهـم لهـا .

٣ ـ تثير هذه المسألة مشكلة هامة بالنسبة لعلم النفس والعلوم الانسانية أو السلوكية . ان المنهج التجريبي الذي يعتمد القياس لم يصل بعد الى الدقة واليقين اللذين يخولانه استبعاد التيارات الاخرى في علم النفس كالتيارات الاكلينكية والانسانية كتيارات لا علمية

خصوصا في موضوعات كالابتكار والابداع . قام التحليل النفسي بدراستها على نحو اكلينكي يعالج العمل الابداعي والمبدع مباشرة ، وليس عن طريق تصميم مقاييس قد تكشف عن بعض اشكال القدرات التي نسميها ابتكارية دون النفاذ الى جوهر ظاهرة الابداع .

ان هذه الملاحظات السريعة لا تقلل من أهمية بحث الدكتور قنديل ، فهذه النتائج التي توصل اليها استحدثت نشاطا جديدا في دراسة الابتكار في الولايات المتحدة ، خصوصا ان « تورانس » نفسه توصل لنفس النتائج ، كما أن باحثين آخرين فعلوا ذلك أيضا ، ولعلها نقطة يلتقي فيها المنهجان التجريبي والاكلينيكي في وحدة معقدة تساوق التعقيد الانساني ، وتسهل بالتالي دراسته وفهمه .

وكان أحد أبرز المتحدثين في ثالث أيام الندوة الاستاذ الدكتور فؤاد أبو حطب الذي طرح مشكلة هامة هي مشكلة « الثواب والعقاب وتربية الطفل » . ولا شك أن مثل هذا الموضوع يستثير اهتمام المربين وعلماء النفس لما له من علاقة وثيقة بتشكيل السلوك على نحو بعينه . يشير الدكتور أبو حطب أولا الى موقفين نظريين أساسيين في هذه المسألة وما يترتب عليهما من نتائج تربوية :

١ ــ « الموقف الذي يرى أن الطفل شرير بطبعه ، وبالتالي يجب أن يجبر على التعلم ، وأي فشل في هذا التعلم انما ينشأ في هذه الحالة من العصيان والكسل ، وكلاهما من قبيل السلوك اللا أخلاقي ، ولذلك لا بد أن يعاقب على هذا الفشل » .

٢ ــ « الموقف الذي يرى أن الطفل باحث عن اللذة ، وبالتالي يجب أن يوفر الآباء والمعلمون له خبرات ممتعة وسارة ، وأن يجنبوه في جميع الاحوال أيضا مصادر الالم . فالتعلم يجب أن يكون متحررا من القلق والتوتر والاحباط ، بل يكون سعادة مستمرة وبهجة دائمة » .

ان التطرف في أحد الاتجاهين يعود ــ في رأي صاحب الورقة ــ الى عدة تصورات أحدها « الميل والتفكير في مسالة الثواب والعقاب بلغة الاضداد والثنائيات ، لغة الابيض والاسود ، دون التنبه الى ما بينهما من درجات .. ودون التحقق من طبيعتهما كنقطتين على متصل يمتد من القطب الموجب المادي الخارجي الصريح كما يتمثل في المكافأة المالية أو المادية الى القطب السالب المادي الخارجي الصريح أيضا ، كما يتمثل في العقاب

البدني ، وبينهما درجات من التحرر من المادية ليصبح الثواب والعقاب أكثر معنوية ، والتحرر من الخارجية ليصبحا أقرب الى الداخلية والتحرر من الصراحة ليصبحا أكثر ضمنية » .

يتبنى الدكتور أبو حطب الدرجات التالية في متصل الثواب ـ العقاب : المكافأة أو المثوبة ، ازالة الاستثارة المنفرة ، التغذية الراجعة المدعمة ، التجاهل أو الاهمال ، التغذية الراجعة التصحيحية ، ازالة المكافأة المنتظمة (الانطفاء) ، التعبير الصريح عن عدم الموافقة ، التلميح بالفشل ، الفشل الفعلي ، العقوبة او الجزاء .

يشير الدكتور أبو حطب بعد ذلك الى بعض آثار الثواب « وما يولده في الطفل من حالات انفعالية سارة ، فهو عادة ما يجعل الطفل يشعر بالرضا أو اللذة أو السرور ثم انه يؤدي الى تقوية المحددات الدافعية التي تعمل على تنشيط السلوك وتوجيهه وذلك لمدى طويل » . ولكن قد يكون للثواب ـ اذا أسيء استخدامه ـ آثاره الضارة . « فالثواب الذي يتخذ صورة مكافأة يحددها الراشدون والمعلمون والآباء ترتبط صناعيا بالنشاط ، ولذلك قد تعتبر اذا بولغ فيها نوعا من الرشوة ، وقد تقود الى الانقياد والرضوخ للسلطة لا الى الابتكار أو النشاط الذاتي » . كما أن « الثواب حين يتخذ صورة مكافأة يكون تنافسيا في طابعه ، بمعنى انه في الوقت الذي نجد فيه شخصا او عدة اشخاص تشجعهم المكافأة التي يحصلون عليها فان كثيرين قد يتعرضون للاحباط . واذا كان لدينا جائزة واحدة وعدد كبير من المتسابقين فلا بد لنا من مواجهة مشكلات الذين يخسرون ، والسؤال هو : هل فوز الفائز يستحق ما يدفع فيه من ثمن على حساب ما يشعر به الخاسرون من احساس بالفشل وخيبة للامل ؟ » .

ويعرض صاحب الورقة بعد ذلك لاثر العقاب في تربية الطفل ، وللاسباب التي دعت الى التقليل في قيمة العقاب خلال العقود الخمسة الماضية ، ويلخص بعض مبادىء استخدام الثواب ـ العقاب ، والفعلية النسبية لكليهما ، ليختتم ورقته بعد ذلك قائلا : « اذا كان علينا ان نفاضل بين الثواب والعقاب في تربية الطفل ، نستطيع القول ـ في ضوء مناقشتنا السابقة ـ ان الاسلوبين لا غنى عنهما ، ولا يجب ان يلجأ المربي منذ البداية الى اتخاذ موقف متطرف ازاء اطراف هذه الثنائية ، ومع ذلك نقول إن الاسلوبين ليسا متساويين في القوة ومتضادين في الاتجاه ، فالشواهد الاكلينكية تؤكد ان من الافضل

أن يزود الوالدان الطفل بالحب والامن بدلا من العقاب أو التجاهل أو الحياد بشرط أن نستخدم صور التعزيز الموجب بالشروط الواجبة ، كما نوفر للطفل النماذج السلوكية اللائمة لمحاكاتها » .

والسؤال الذي قد يطرأ للمستمع الى ورقة الدكتور فؤاد أبو حطب أو لقارئها هو : هل تلغي فكرة المتصل في مجال الثواب والعقاب ثنائيتهما ؟ ان هذه الفكرة تلغي وجود شكل واحد من أشكال العقاب أو الثواب وتبرز أن هناك أنواعا تتدرج في شدتها وتختلف في نوعها . ولكن الثنائية - فيما أظن - باقية ، فعند نقطة معينة من المتصل تتغير طبيعة السلوك الى الثواب وبالعكس وكي يكون المتصل متصلا حقا فان أقل درجات الثواب يجب أن تكون متطابقة مع بداية درجات العقاب ولا أعتقد أن هذا حاصل في متصل الثواب - العقاب - فاذا كان الامر كذلك فان النقطة أو الفاصل الذي نضطر الى قطعه بين أدنى درجات الثواب الى بداية درجات العقاب هو الفاصل الذي يؤكد بقاء الثنائية .

وسؤال آخر : هل يقابل هذا المتصل متصل انفعالي ، يمكن لنا ان نحدد درجاته بحيث يقابل كل درجة في متصل الثواب - العقاب درجة على هذا المتصل الانفعالي السايكولوجي؟ وما هي طبيعة العلاقة بين درجاته ، وهل هناك وحدة كمية نتعامل بها مع هذه الدرجات كما نتعامل مع درجات الترمومتر ؟

لا شك ان كل هذه الاسئلة كانت واردة في ذهن الدكتور أبو حطب اذ يقول : « ونحن في حاجة الى بحوث مصرية جادة على الآثار الفارقة لكل نوع من هذه الانواع العشرة في متصل الثواب - العقاب » .

وأما الاستاذ الدكتور يحيى الرخاوي أستاذ الطب النفسي فقد قدم ورقة عن « الباحث : أداة البحث وحقله في دراسة الطفولة والجنون » . ففي هذين المجالين الطفولة والجنون يصبح الباحث ذاته أداة البحث وحقله .

وجوهر فكرة الدكتور الرخاوي هو أنه في مجال البحث السايكوباثولوجي ، وفي مجال دراسة سايكولوجية الطفولة والجنون ، فان الباحث ذاته هو حقل للبحث أو مزرعته Cultuy « فمثل هذا الباحث ، اذ هو أداة البحث الموضوعية ذاتها ، لا يقوم ببحثه من داخل ذاته ، وانما يستعمل ذاته كحقل لاستيعاب الملاحظات وزرعها ونموها وانمارها ، فلا بد له من مصدر ثري حافل بالملاحظات الضرورية ولا بد لوجوده من تنمية تسمح بتدريب قدرته على التقاط هذه الملاحظات واعادة اقرارها في نظرية ... » .

في هذين المجالين : الطفولة والجنون تشتد الحاجة الى التواصل مع المريض بلا الفاظ وعبر الالفاظ ، وتعتمد على « اثارة النشاط للبقايا الطفلية داخل الممارس والباحث ، او بتعبير اعمق للكيان الطفلي او حالة الانا الطفلية على حد تعبير اريك بيرن ، ويستتبع ذلك العودة الى المستوى الاساسي للوعي بعد استيعاب هذه الخطوة النكوصية التي اثارتها المادة المتاحة (غير اللفظية عادة) ، تلك المادة المساعدة في مجالنا هذا في المجنون او في الطفل حسب موضوع البحث او الممارسة » .

هذه القدرة على النكوص هي التي يجب تنميتها في الباحث الاكلنيكي ، لكن خطورة هذه العملية بالاضافة الى مسؤولية الباحث المعالج تفرض شروطا معينا على هذا النكوص المبني مثل :

ا ـ ان يحول دون اي نكوص عشوائي ذاتي يهدد تماسكه نفسه .

ب ـ ان يتحمل اعباء نكوصه ونكوص المريض في ان واحد .

ج ـ ان يستطيع العودة الى تنظيمه الاعلى حاملا معه بعضا مما وعاه في رحلته هـذه التي زار فيها المريض في بيته البدائي مستخدما هو ذاته اقدم الواح وجوده .

د ـ وفي الخبرة المعالجة ، تزيد خطوات هذه العملية خطوة تجميعية مباشرة لا تقتصر على احتفاظ الفاحص المعالج بمستواه التماسك طول الوقت وزيادة ثرائه من خلال هذه المرحلة الواعية ، بل انها تتعدى ذلك الى محاولة ان يصحب في عودته بعض الاجزاء الناكصة للمريض ذاته على قدر ما تحتمل قدرة المريض على الاستيعاب في مرحلة علاجية بذاتها ، وهذه الخبرة الناجحة والمعالجة فيها من البحث والخلق ما يدرجها بشكل ما تحت النشاط الفني ، في نفس الوقت الامر الذي يقترب من الدعوة الى « اننا بحاجة الى جديد من البحث يختلف بطرق كثيرة عن البحث العلمي والتقليدي لغة أقرب الى لغة الشاعر ... لان الباحث ينزع الى أن يصبح اداة البحث » .

نثير ورقة الدكتور الرخاوي اسئلة هامة تتصل بمدى امكانية وخطورة وفائدة هذا التعاطف الوجودي المنهجي الذي قد يصل في بعض الاحيان الى درجة التوحد مع خبرة المريض الطفلية ، خصوصا وان هذا النكوص يشق قاعدة اساسية في التحليل النفسي ـ على سبيل المثال ـ هي قاعدة الحياد التي تمنع المعالج من التورط في مثل هذا التعاطف .

هذه بعض لمحات مختصرة من ندوة تربية الطفل . وقد قدمت ابحاث اخرى عديدة لا تتسع طبيعة هذا التقرير الموجزة للاشارة اليها . وكان بعضها في مجال الطفولة المعوقة والتخلف العقلي ، وبعضها الآخر في مجال العلاج النفسي والتربوي والعلاج السلوكي ، وأدب الاطفال ، وقدراتهم النفسية ـ اللغوية ... الخ .

وقد طبعت اعمال الندوة في مجلدين كبيرين اضيفت اليهما التوصيات التي استمدت من المعاني التي اكدتها جملة الابحاث .

ثبت قصص الأطفال في سورية

اعداد سمر روحي الفيصل

الألف

اسمندر ، وديع : الثعلب ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٩

ابو الحسن ، سعيد : رسالة الى ولدي ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

ابو شنب ، عادل : ـ الفصل الجميل ـ دار مجلة الثقافة ـ دمشق ١٩٦٠
ـ السيف الخشبي ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٥
ـ معطف الاحلام ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٦
ـ الطفل الشجاع ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٧
ـ أصدقاء النهر ـ دار المسيرة ـ بيروت ١٩٧٩

التونجي ، د. محمد : ـ جزاء المرابي ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الرهان العجيب ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الوعاء المسحور ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الضفدعة المسحورة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ

الكسان ، جان : بيدر من النجوم ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

البـــاء

البحرة ، نصر الدين : أغنية المعول ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٨

البوشي ، محمد : ـ أحسن لمن أساء اليك ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ

ـ رقصة الاكياس ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ العصفور الامير ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ السنونو المنتصر ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ ثروة الاخوة الثلاثة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ غابة الذئاب ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الحسناء والوحش ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ كاسر طفل طائش ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الحجرة العجيبة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الفتى الشجاع ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ حلم سلوى ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الكلب الامين ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الفراء الثمين ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ عقوبة التمرد ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الطحان وابنه والحمار ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ العقل الراجح ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ جزاء الظالم ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ النافذة المكسورة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الثعلب الشرير ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الرجل التائه في الصحراء ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ تاجر القباقيب ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الديك والالوان ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الطحان المقدام ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ انتقام السماء ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الاميرة الخرساء ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ أسطورة الفئران ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ عمل الخير ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ سر الاصابع العشرة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الشرطي الصغير ـ مكتبة ربيع ـ حلب ؟ ـ

التـــاء

تامر ، زكريـا : ـ لماذا سكت النهر ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٣

ـ قالت الوردة للسنونو ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٧

ـ بلاد الارانب ـ دار الاداب ـ بيروت ١٩٧٩

ـ يوم بلا مدرسة ـ دار الاداب ـ بيروت ١٩٧٩

ـ الطفل والطير ـ دار الفتى العربي ـ بيروت ١٩٧٥

ـ البيــت ـ دار الفتى العربي ـ بيروت ١٩٧٥

ـ بيت للورقة البيضاء ـ دار الفتى العربي ـ بيروت ١٩٧٥

ـ الحمامة البيضاء ـ دار الفتى العربي ـ بيروت ١٩٧٥

ركاوي ، صبـا : حفلة شاي ـ دار الارشاد ـ حمص ١٩٧٨

الحــاء

حاتم ، دلال : السماء تمطر خرافا ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٦

حريب ، فـؤاد : ولادة نسر ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

الخـاء

خان ، سعد الله : ـ الساحر ـ دار الاجيال ـ دمشق ١٩٧٢

ـ شادي ومملكة الطيور ـ دمشق ١٩٧٤

الخباز ، محمد نبهان : الملك وغلامه فيروز ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ؟ ـ

الخشن ، أحمد راتب : العفاريت الصغار ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ

الخير ، منير : قصص قصيرة ـ وزارة التربية ـ دمشق ١٩٦٩

الدال

داود ، احمد يوسف : حكاية من دمشق (الوشاح الازرق) ـ وزارة الثقافة ـ دمشق١٩٧٥

دادا ، نينـا : ـ بوبي في السيرك ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ

ـ الحمار المسكين ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ البطوط والكتكوت ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ فلة وهارون ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ كيكي قصير الذيل ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ القطة الضائعة ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ ليلى والذئب ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ دبو وديبون ـ دار كرم ـ دمشق ـ ؟ ـ

الذال

الذهبي ، خيري : سطوح جبانا والحمائم ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

الـــراء

رفاعية ، ياسين : العصافير تبحث عن وطن ـ دار المسيرة ـ بيروت ١٩٧٨

السين

سالم ، ليلى صايا : ـ نجم لسامر ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٧
ـ أوراق من الارض المحتلة ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨
ـ البلاد السعيدة ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٨

السباعي ، مراد : هدية عيد الام ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٨

سليمة ، محمد موفق : ـ ذكريات مع حارس الحديقة ـ المؤسسة العلمية ـ دمشق ـ ؟ـ
ـ قاطع لسان أمه ـ المؤسسة العلمية ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ آخر العنقود ـ المؤسسة العلمية ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ الورقة الرابحة ـ المؤسسة العلمية ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ العلم الصغير ـ المؤسسة العلمية ـ دمشق ـ ؟ـ
ـ صندوق الدنيا ـ المؤسسة العلمية ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ البادىء أظلم ـ دار المعرفة ـ دمشق ـ ؟
ـ جدي اشترى بلبلا ـ دار المعرفة ـ دمشق ١٩٧٧
ـ لافضل الا بالتقوى ـ دار المعرفة ـ دمشق ١٩٧٧

الشين

الشريف ، احمد مختار : الصياد والارض (الوشاح الازرق) وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٥

شريقي ، زكريا : الفراشة لاتحب نبات اللبلاب ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

شعار ، منذر : ـ احسن لمن أساء اليك ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الحجرة العجيبة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الفتى الشجاع ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ عقوبة التمرد ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الرجل التائه في الصحراء ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ أسطورة الفئران ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الشرطي الصغير ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ

الشلق ، مقبولة : ـ عرس العصافير ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٩

شوحان ، احمد : ـ محمد رسول الله ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ ابوبكر الصديق ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ عمر بن الخطاب ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ عثمان بن عفان ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ علي بن أبي طالب ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ خالد بن الوليد ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ ابو ذر الغفاري ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ طليحة الاسدي ـ مكتبة التراث دير الزور ١٩٧٧
ـ ابو محجن الثقفي ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ النعمان بن مقرن ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ عبد الله بن الزبير ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ سعد الاسود ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ جليبيب غير الكاسد ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ محمد بن القاسم الثقفي ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ أبوعبيد الثقفي ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة بدر ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة أحد ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة الخندق ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة بني قريظة ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧

ـ غزوة بني المصطلق ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة خيبر ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة مؤتة ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة فتح مكة ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة حنين ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة تبوك ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧
ـ غزوة بني النضير ـ مكتبة التراث ـ دير الزور ١٩٧٧

الطاء

الطرزي ، محمد عبد الحميد : ـ برهوم في جوف الحوت ـ مكتبة الورود ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ حازم والعصفور الازرق ـ مكتبة الزهور ـ دمشق ـ ؟ ـ
ـ برهوم والجني ـ مكتبة الزهور ـ دمشق ـ ؟ ـ

العين

عبد ، عبد الله : ـ العصفور المسافر ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٥
ـ الطيران الاول ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٧

عبد ربه ، خيري : مطعم الذئب ، بالتعاون مع اتحاد الكتاب ـ دمشق ١٩٧٩

عجان ، د. عزة : حكايات جدي ، مطبعة الرشيد ـ حلب ـ ؟ ـ

عصمت ، محمد رياض : حكايات ذلك الصيف ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

عفش ، عبد السميع : ـ الاميرة والاسود الثلاثة ـ مكتبة الشهباء ـ حلب ١٩٧٠
ـ الاوزة الوحيدة ـ مكتبة الشرق ـ حلب ١٩٧٠
ـ السحر العجيب ـ مكتبة الشرق ـ حلب ١٩٧٠

عمران ، طالب : ـ كوكب الاحلام ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٨
ـ صوت من القاع ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٩

العيسى ، سليمان : وائل يبحث عن وطنه الكبير ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

الفــاء

فئة من الاساتذة * : ـ أم وهدية ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ ملك الغابة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ عقلة الافعى ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ القاضي العادل ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الابريق العجيب ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الارنب العنيد ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ القط الذكي ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الساحرة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الغراب والثعلب ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ

الفيصل ، سمر روحي : ـ الارانب الحكماء والذئب ـ دار الارشاد ـ حمص ١٩٧٦
ـ الاب الحكيم ـ دار الارشاد ـ حمص ١٩٧٦
ـ الملك الحكيم ـ دار الارشاد ـ حمص ١٩٧٧
ـ الراعي الحكيم ـ دار الارشاد ـ حمص ١٩٧٧
ـ الفلاح الحكيم ـ دار الارشاد ـ حمص ١٩٧٨

القاف

قرانيا ، محمد : ـ مازن والخاتم المسحور ـ المطبعة العربية ـ حلب ١٩٧٦
ـ وسام من الياسمين ـ بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٩

قس ، جورج : مذكرات عصفور ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٨

الكاف

كريم ، نعمة : ـ احسن لمن اساء اليك ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ السنونو المنتصر ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ
ـ الحجرة العجيبة ـ مكتبة ربيع ـ حلب ـ ؟ ـ

---

* رفضت مكتبة ربيع الافصاح من اسماء هؤلاء الاساتذة ، كما رفضت تحديد تاريخ طباعة القصص الصادرة عنها ، فلها الشكر .

- الفتى الشجاع - مكتبة ربيع - حلب - ؟
- الكلب الامين - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- عقوبة التمرد - مكتبة ربيع - حلب -
- العقل الراجح - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الرجل التائه في الصحراء - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- انتقام السماء - مكتبة ربيع - حلب - ؟
- الاميرة الخرساء - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- أسطورة الفئران - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الشرطي الصغير - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -

كيال ، خالد (ورفاقه) * : - احسن لمن اساء اليك - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- رقصة الاكباش - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- العصفور الامير - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- السنونو المنتصر - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- ثروة الاخوة الثلاثة - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- غابة الذئاب - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الحسناء والوحش - مكتبة ربيع - حلب - ؟
- كاسر طفل طائش - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الحجرة العجيبة - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الفتى الشجاع - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- حلم سلوى - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الكلب الامين - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الفراء الثمين - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- عقوبة التمرد - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الطحان وابنه والحمار - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- العقل الراجح - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- جزاء الظالم - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- النافذة المكسورة - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الثعلب الشرير - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الرجل التائه في الصحراء - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -

* ترد أسماء هؤلاء في امكنتها من الترتيب الالفبائي ، ويتكرر ذكر عنوان القصة منسوبا الى كل واحد منهم .

- تاجر القباقيب - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الديك والالوان - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الطحان المقدام - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- انتقام السماء - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الاميرة الخرساء - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- اسطورة الفئران - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الهديتان - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- عمل الخير - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- سر الاصابع العشرة - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -
- الشرطي الصغير - مكتبة ربيع - حلب - ؟ -

كيلاني ، لينا : العصافير لاتحب الزجاج - بالتعاون مع اتحاد الكتاب - دمشق ١٩٧٩

اللام

لوقا - د. اسكندر : المعجزة في قلب الصحراء - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٧

الميم

محمد ، عبده : - فارس والغول وسالة (الوشاح الازرق) وزارة الثقافة - دمشق١٩٧٥
- فارس عين جالوت - اتحاد الكتاب العرب - دمشق١٩٧٩

المصري ، ابراهيم : الوشاح الازرق - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٥

معماري ، وليد : - شجرةالسنديان تصبحجسرا - بالتعاون معاتحاد الكتاب-دمشق١٩٧٨

منصور ، ايوب : - نجمة الصبح - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٦
- سلام في مدينة الاحلام - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٧
- الجد ايوب - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٧
- الصاروخ الاخير - منظمة طلائع البعث - دمشق ١٩٧٨
- احزان الغزال الاشهب - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٩

النـون

نجار ، نزار : ـ الفارس الملثم ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ شهيد الفتح ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ الابراج المحترقة ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ بطل النقب ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ الحرب خدعة ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ الاسير ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ بكاء في الليل ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ بطل في الثمانين ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ الفريق الشهيد ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ فاتح كورنتس ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٥
ـ الحيوانات الموسيقية ـ مكتبة الغزالي ـ حماة ـ ١٩٧٦
ـ لماذا حزنت العصافير ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٨

نعمان ، جمانة : صيد الذئب حيا ـ منظمة طلائع البعث ـ دمشق ١٩٧٨

اليـاء

يوسف ، عبد الودود : الشيماء بنت بقيلة ـ المؤسسة العلمية ـ دمشق ـ ؟ .
يوسف ، محسن : طريق الى الارض الحرة ـ منظمة طلائع البعث ١٩٧٨

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

قصص بأقلام الاطفال

جمع : اسامة دعبول

■ ■ ■

بيت العنكبوت

قصص للاطفال

ترجمة : رباب هاشم

■ ■ ■

الفصول وقصائد أخرى

للاطفال

خيري عبد ربه